

نبض الكتاب

إلهي وسيدي

أنا الصَّغِيرُ الَّذِي رَبَّيْتَهُ ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ
وَأَنَا الْمُسْعِفُ الَّذِي قَوَّيْتَهُ ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ
وَأَنَا الْغَرِيبُ الَّذِي وَصَبَّيْتَهُ ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ
وَأَنَا الصُّعْلُوكُ الَّذِي مَوَلَّتَهُ ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ
وَأَنَا الْعَرَبُ الَّذِي زَوَّجْتَهُ ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ
وَأَنَا السَّاعِبُ الَّذِي أَشْبَعْتَهُ ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ
وَأَنَا الْعَارِيُ الَّذِي كَسَوْتَهُ ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ
وَأَنَا الْمُسَافِرُ الَّذِي صَبَّجْتَهُ ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ
وَأَنَا الْغَائِبُ الَّذِي رَدَّدْتَهُ ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ
وَأَنَا الرَّاجِلُ الَّذِي حَمَلْتَهُ ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ
وَأَنَا الْمَرِيضُ الَّذِي شَفَيْتَهُ ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ
وَأَنَا السَّائِلُ الَّذِي أَعْطَيْتَهُ ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ
وَأَنَا الدَّاعِيُ الَّذِي أَجْبَتَهُ ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ
فَلَكَ الْحَمْدُ رَبَّنَا حَمْدًا كَثِيرًا عَلَى حَمْدِي لَكَ

الفقير إلى الله

محمد حسين يعقوب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدَّمَةُ شَيْخِي وَأَسْتَاذِي وَحَبِيبِي فِي اللهِ

فَضِيلَةِ الشَّيْخِ / مُحَمَّدِ بْنِ أَхْمَدِ بْنِ إِسْمَاعِيلِ الْمُقَدْمَ

الحمدُ للهِ ذِي الطُّولِ وَالثُّغْمَاءِ، وَالصَّلَوةُ وَالسَّلامُ عَلَى خَاتَمِ الرُّسُلِ وَالْأَئْيَاءِ، وَعَلَى آلِهِ الْأَطْقَنَاءِ، وَأَصْحَابِهِ نُجُومُ الْاَهْتِدَاءِ، وَمَنْ تَبَعَهُمْ يَا حُسَنَى مِنَ الْأَئِمَّةِ الْعُلَمَاءِ.

أَمَا بَعْدُ :

فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَرْكِيَّةَ النُّفُوسِ، وَإِصْلَاحَ الْقُلُوبِ مِنَ الْمُهِمَّاتِ الْجَلِيلَةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا أَرْسَلَ رَسُولَهُ مُحَمَّداً ﷺ، فَقَالَ عَزْ مِنْ قَافِلٍ : «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذَا بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتَنَوَّ عَلَيْهِمْ وَيُرَكِّبُهُمْ وَيَعْلَمُهُمْ الْكِتَبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَنِي ضَلَّلُ مُبِينِ» [آل عمران: ١٦٤].

وَأَقْسَمَ عَزْ وَجْلَ أَحَدِ عَشَرِ قَسْمًا عَلَى حَقِيقَةِ وَاحِدَةٍ هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْشَّمْسِ : «فَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّنَا ③ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّنَا» [الشَّمْس: ٩-١٠]. وَبَيْنَ عَزْ وَجْلِ اللَّهِ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ زَكِيَّةٌ طَاهِرَةٌ طَيِّبَةٌ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : «وَسَبِّقَ الَّذِينَ آتَقْوَاهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمْرًا حَقِيقَةً إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ حَزَنَتْهَا سَلَمٌ عَلَيْكُمْ طَبَشَتْ فَادْخُلُوهَا حَنِيلِينَ» [الزُّمُر: ٧٣].

فَمِنْ ثُمَّ رَفَعَ الرَّبِّيُّ شَأْنَ تَزْكِيَّةَ النَّفْسِ ، فَقَالَ : « ثَلَاثٌ مِنْ فَعَلْهُنَّ فَقَدْ طَغَمَ طَغَمُ الْإِيمَانِ : مِنْ عَبْدَ اللَّهِ وَحْدَهُ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَغْطَى رَزْكَاهُ مَا لِهِ طَبِيعَةً بِهَا نَفْسَهُ ، رَافِدَةً عَلَيْهِ كُلُّ عَامٍ ، وَلَا يُغْطِي الْهَرَمَةَ ، وَلَا الدَّرِئَةَ ، وَلَا الْمَرِيضَةَ ، وَلَا الشَّرْطُ الْلَّثِيقَةَ ، وَلَكِنْ مِنْ وَسْطِ أَمْوَالِ الْكُنْ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهُ ، وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بِشَرِّهِ »^(۱) ، زَادَ الْبَيْهَقِيُّ فِي رِوَايَتِهِ : « وَرَأَكُنِّي نَفْسَهُ » ، فَقَالَ رَجُلٌ : وَمَا تَزْكِيَّةُ النَّفْسِ ؟ فَقَالَ : « أَنْ يَغْلِمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعْهُ حَيْثُ كَانَ »^(۲) .

فَعْلَمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ تَزْكِيَّةَ النَّفْسِ مِنْ أَهْمُ الْمَقَاصِدِ الْشَّرِيفَةِ الَّتِي يَتَبَغِي أَنْ يَصْرِفَ الْعَبْدَ هِمَةً إِلَيْهَا ، وَأَنْ يَبْحَثَ عَنْ كُلِّ سَبِيلٍ يُؤْصِلُ إِلَيْهَا مِنْ صُخْبَةِ الصَّالِحِينَ ، وَمُطَالَعَةِ سَيِّدِ الْأَسْلَافِ الْأَخْيَارِ ، وَحُضُورِ دُرُوسِ الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيَّينَ ، وَالدُّعَاءِ الْمُرْشِدِيَّينَ .

وَإِنَّ مِنَ الدُّعَاءِ الْمُجْتَهَدِيَّ السَّائِرِيَّ عَلَى تَهْجِيجِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ ، الْمُرْشِدِيَّ السَّبَابَ إِلَى سُلُوكِ سَبِيلِهِمْ ، وَالاِقْتِداءُ بِهِمْ ، أَخِي فِي اللَّهِ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ / أَبِي الْعَلَاءِ مُحَمَّدُ بْنِ حَسَنَ بْنِ يَعْقُوبَ - لَازَالَ سَعْيُه مَشْكُورًا ، وَعَمَلُهُ فِي الدَّارَيْنِ مَبْرُورًا - الَّذِي يَسْدُدُ بِجُهُودِهِ الْمُبَارَكَةَ ثُغَرًا طَالَمَا أَغْوَرَ النَّاسَ سَدُّهَا ، وَيُخْبِي سُنْنَتَنَا عَزَّ فِيتَا مِنْ يَخْفَلُ بِهَا ، وَيَتَصِبُّ لِإِخْيَانِهَا ، مُوَظِّفًا مُؤْهِبَتَهُ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى تَبَسيطِ الْعِبَارَاتِ ، وَإِيْضَاحِ الإِشَارَاتِ ، مِمَّا جَعَلَ لِكَلَامِهِ قُبُولاً ، وَلِوَعْظِهِ نَفَادًا إِلَى الْقُلُوبِ .

(۱) أَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي سَنَتِهِ (۷۰۶۷) ، وَصَحَّحَهُ الْأَلبَانِيُّ فِي « الصَّحِيفَةِ » بِرَقْمِ (۱۰۴۶) .

(۲) يَعْنِي : أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَمُهُ مُجِيبٌ بِكُلِّ مَكَانٍ ، وَاللَّهُ عَلَى الْعَرْشِ ، كَمَا قَسَرَ بِذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنِ يَخْيَنِ الدَّهْلِيِّ رَجْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى .

وَإِنْ هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِينَا إِنْهَامٌ طَيْبٌ فِي تَقْرِيبِ عِلْمٍ تَزَكِّيَةً
الثُّقُوفِ بِلُغَةٍ سَهْلَةٍ حَالِيَّةٍ مِنْ تَعْقِيدَاتِ الْأَضْطِلَاحَاتِ الصُّوفِيَّةِ، وَبِأَسْلُوبٍ
تَلْقائِيٍّ يَخْلُو مِنَ التَّكَلُّفِ وَالْمُصْصَعِ ، وَيَمْتَهِجُ سَلْفِيًّا نَقْيُّ يَقْنَقِي خُطْبَى أَئِمَّةٍ
هَذَا الْفَنِّ مِنْ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ .

أَسأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَتَقَبَّلَهُ أَحْسَنَ الْقَبُولِ ، وَيَنْتَفِعُ بِهِ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ ،
وَمَثُلَ بَيْنَ يَدَيهِ ، وَيَجْعَلُهُ حَجَّةً لَهُ لَا حُجَّةَ عَلَيْهِ ، وَيُشَبِّهُ جَامِعَةَ الْأَجْزَاءِ
الْجَزِيلَ ، وَالْذُّكْرَ الْجَمِيلَ ، وَيَجْعَلُهُ ذُؤْمًا مِفْتَاحَ خَيْرٍ ، مِغْلَاقَ شَرًّا ، إِنَّهُ
سَمِيعٌ مُحِبِّ ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِّي الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَكَتَبَ

مُحَمَّدُ بْنُ أَخْمَدَ إِسْمَاعِيلَ الْمُقْدَمَ

الْإِسْكَنْدَرِيَّةُ فِي الْأَزِيْعَاءِ ٥ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٢٦ هـ

الْمُوَافِقِ ٧ دِيْسِمْبِرِ ٢٠٠٥ م

yaqob.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمدُ لله رب العالمين ، والصلوة والسلام على أشرف المرسلين
سيدينا محمد وعلی آله وصحبه أجمعين .

رَبُّ يَسْرٍ وَأَعْنٍ وَتَمْمٍ بِخَيْرٍ يَا كَرِيمُ

إخوتي في الله ، والذي فلق الحبة وبرأ الشنة إني أحبكم في الله .
أخي في الله ، أين أنت من الله؟.. أين أنت في الطريق إلى الله؟

هذا السؤال وإن كان وارداً على الجميع ؛ إلا أن أكثر الناس
يجهلونه .. ببساطة : أخي ، كم سنة مرت على التزامك ؟ ، كم سنة مرت
منذ ثبت ؟ .. بعد مرور هذه السنة أو حتى الشهور أو قل الأيام كيف
سررت إلى الله ؟ .. إلى أين سرت ؟ .. أين بلغت ؟ .. متى تصل ؟

بالتأكيد كل هذه الأسئلة ليس لها عند كثير منا إجابة ؛ فإنه لم يعرف
الطريق أصلاً ، وإنما هو التزم كما التزم الناس .. وهذه عادة المسلمين
في حياتنا .. يتوضأون كما يتوضأ الناس ، ويصلون كما يصلى الناس ،
ويزكرون كما يزكي الناس ، ويحجون ويعتمرون كما يحج ويعتمر
الناس ..

إنما هي عادات تلقّوها بالوراثة ، بلا فهم لأسرارها ، ولا إدراك لمعناها ، ولا جرّض على ثمرتها ونتائجها .

هكذا أخي الحبيب - ولا تغضب من خُشونَة كلامي - التزمت بمعنى أقلعت عن بعض المعاصي أو أكثرها وخصوصا الظاهرة منها ، ودخلت المسجد وحضرت درساً أو درسين ، أو سمعت شريطاً وشريطين ، وقرأت صفحات من كتاب أو كتابين ، وتقرأ القرآن أحياناً ، وتنذِّر الله في بعض الأحيان ، إلى جوار اللِّجْنة .. ثم تظن أنك ملتزم بدين الله ، وتنظر إلى أصحاب المعاصي الظاهرة على أنهم من الفُجَار !!

بِاللَّهِ عَلَيْكَ، أَلَيْسَ هَذَا وَصْفُ حَالِكَ؟

إنني أدعوك إلى فهم الدين ومعرفة الطريق للوصول إلى رضا الله - سبحانه وتعالى .. يقول ابن القيم - عليه رحمة الله - :

الناسُ قسمان : عَلَيْهَا وَسَفَلَةٌ ؛ فَالعَلِيَّةُ مَنْ عَرَفَ الطَّرِيقَ إِلَى رَبِّهِ وَسَلَكَهَا قَاصِدًا الْوَصْوَلَ إِلَيْهِ ، وَهَذَا هُوَ الْكَرِيمُ عَلَى رَبِّهِ . وَالسَّفَلَةُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ الطَّرِيقَ إِلَى رَبِّهِ وَلَمْ يَتَعَرَّفْهَا ، فَهَذَا هُوَ الظَّالِمُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - فِيهِ : «وَمَنْ يُبَيِّنَ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكَرِّمٍ» [الحج: ١٨] ^(١) .

لذا كان هذا الكتاب - أيها الحبيب - للتعرف على معالم الطريق إلى الله - تعالى .. وهذه هي الطبعة الثانية من الكتاب .

(١) طریق الہجرتین (۱۸۱).

وأنا أستغفرُ اللَّهُ العظيمَ الْحَيِّ الْقَيُومَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ
مِنْ أَخْطَاءِ وَقَعْتُ فِي الطِّبْعَةِ الْأُولَى ، وَأَعْتَذُ لِإِخْرَانِي وَأَحْبَبْتُ فِي اللَّهِ عَنْ
سُوءِ إِخْرَاجِ هَذَا الْكِتَابِ فِي طِبْعَتِهِ الْأُولَى ، وَلَعِلَّهُمْ يَقْبَلُونَ عَذْرِي ؛ فَهَذَا
مِنْ شَيْءِ الْكَرَامِ .

وَلِلْمُصَالَحةِ .. فَإِنَّ هَذِهِ الطِّبْعَةِ غَيْرُ سَابِقَتِهَا تَمَامًا ؛ فَقَدْ أَعْيَدَ ضَبْطُهَا
كَلِمَةً كَلِمَةً ، وَتَمَّتْ زِيادَةُ نَصوصٍ وَمَوَافِقٍ وَتَنْقِيحاَتِ فِي بَعْضِ
أُصُولِهَا .. كَمَا تَمَّ تَوْثِيقُ النَّصوصِ وَعَزَّزُوهَا إِلَى مَصَادِرِهَا الْأَصْلِيَّةِ .

وَفُقِمْنَا كَذَلِكَ بِتَخْرِيجِ الْأَحَادِيثِ مِرْءَةً أُخْرَى بِهَذِهِ الصُّورَةِ .. صُورَةُ
الْأَخْتَصَارِ فِي التَّخْرِيجِ وَالْأَقْتَصَارِ فِي الْإِحْالَاتِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَهْتَمِينَ
بِعِلْمِ الْمَعَالَمَةِ مَعَ اللَّهِ - عَزُّ وَجَلُّ - وَقَرَاءُ هَذَا الْكِتَابِ الْمُجَيْبُونَ لِأَمْرِ
الْتَّزْكِيَّةِ لَا يَهْتَمُونَ كَثِيرًا بِتَطْوِيلِ التَّخْرِيجِ ؛ فَلِيُسْ يَهْمُمُهُمْ كُثْرَةُ الْإِحْالَاتِ
عَلَى الْكِتَابِ .. يَكْفِي طَمَانِيَّةُ الْقَلْبِ إِلَى صِحَّةِ الْحَدِيثِ .. فَاكْتَفِينَا لَهُمْ
بِذَكْرِ صِحَّتِهِ ، وَتَأْكِيدِهِ لِإِحْالَةِ وَاحِدَةٍ .. وَرَأَيْدُ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ .

ثُمَّ مُقْدَمَةٌ لَابْدُّ مِنْهَا ، وَهِيَ التَّمَهِيدُ الَّذِي اسْتَغْرَقَ أَكْثَرَ مِنْ سِتِّينَ
صَفْحَةً .. فَقَدْ رأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَضُلُّ أَنْ نَدْخُلَ فِي أَصْوَلِ الْوَصْولِ مُبَاشِرًا
دُونَ تَوْضِيَّعٍ لِأَهْمِ الإِشَارَاتِ وَالْتَّنْبِيَّاتِ ، وَالنَّصَايَحِ وَالتَّوْجِيهَاتِ الَّتِي
لَا بُدَّ لِلسَّائِرِينَ مِنْهَا ؛ فَقَدَّمْتُ وَمَضَّاتِ فِي طَرِيقِ السَّيِّرِ ، وَآفَاتِ عَلَى
الطَّرِيقِ ، ثُمَّ انتَهَيْتُ بِاسْتِرَاحَةِ الْمَسَافِرِ .. فَخَذَهَا عَلَى بُرْكَةِ اللَّهِ .

إخوتي في الله، إني - والله - أحبكم في الله، وأسأل الله -
جل جلاله - أن يجمعنا بهذا الحب في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله،
 وأن يجعل عملنا كله صالحًا، وأن يجعله لوجهه خالصاً، وألا يجعل فيه
لأحد غيره شيئاً، وأن ينفعنا بما علمنا، و يجعلنا أول العاملين به ..
وأستغفر الله لي ولكلم.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين

والحمد لله رب العالمين

وكتب

الفقير إلى عفو ربه

محمد بن حسين يعقوب

ليلة النصف من ذي القعدة ١٤٢٤ هجرية

yaqob.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ
أَنفُسِنَا ، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلٌّ لَّهُ ، وَمَنْ يَضْلِلُ فَلَا
هَادِي لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ
مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ
وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنْكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ بارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ
مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنْكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ .

أما بعد :

فَإِخْرَوْتِي فِي اللَّهِ ، أَوْلَأَ - وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ - : إِنِّي وَاللَّهُ أَحْبَبْكُمْ فِي اللَّهِ .
وَأَصْلَلْ هَذَا الْكَلَامَ بِسَيِطَ جَدًا ، خَطْبَةً مُختَصَّرَةً فِي مَسْجِدِ الْفَتْحِ
بِالْمَعَادِي - عَمْرَهُ اللَّهُ بِأَهْلِ الإِيمَانِ .
عَنْوَانُهَا : قَوَاعِدُ الْمُسِيرِ إِلَى اللَّهِ .

عَنَاصِرُهَا : خَمْسَةٌ .

ثُمَّ تُنْوَقْلَتِ الْعَنَاصِرُ فِي مَجَالِسٍ ؛ فَإِذَا بَهَا تَرْبُو عَلَى الْعَشَرِينِ .
سَافَرْتُ سَفْرَةً إِلَى بَلَادِ الْغَرْبِ ، وَفِي وَحْشَةِ السَّفَرِ لَأَنْسَتُ نُورًا يَهْدِي،
وَبِصَائِرَ تَدْلُّ عَلَى الْمُسِيرِ ؛ فَزَدَتْهَا فَتَجَاوَزَتِ السَّبعِينَ !

ثم في خلوة جميلة في رحاب البيت الحرام في مكة ، ومع منبع النور فيوضات وبركات ؛ فبلغت المائة .

وكانت هذه الأصول :

«أصول الوصول إلى الله تعالى»

أسألُ اللهُ أَنْ يَجْعَلَهَا مَنَارَاتٍ هُدًى ، وَمَشَاعِلَ نُورٍ تَحْدُو السَّائِرِينَ إِلَى اللَّهِ ، وَأَنْ يَجْعَلَهَا بَرَكَةً عَلَيْنَا وَعَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ .

والكتابُ الذي بين يديك هو طليعةُ الأصول ، يحمل سبعةً وعشرين أصلًا ، كُتب شرحه على عجلة ، وروجع في عجلة ؛ لندرك به المؤمنين قبل رمضان يحدوهم إلى الله ، ثُمَّ تُعَقَّبُ به رقابهم من النار .

فنسأَلُ اللَّهَ الْمَسَامِحةَ عَلَى أَخْطَاءِ أَوْ هَفْوَاتِ - إِنْ وَجَدْتَ - ، وَنَرْجُو مِنْ أَحْبَبِي فِي اللَّهِ الدُّعَاءَ ؛ لعلَّ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَنَا بِدُعَوَةِ رَجُلٍ صَالِحٍ بَظَاهِرِ الْغَيْبِ .

أسألُ اللهُ أَنْ يَرْزُقَنَا الْإِخْلَاصَ فِي القَوْلِ وَالْعَمَلِ ، فِي السِّرِّ وَالْعُلَنِ ، وَأَنْ يَتَقَبَّلَ مِنَا أَعْمَالَنَا وَيُثْقِلَ بَهَا مَوازِينَنَا يَوْمَ نَلْقَاهُ .

وكتب

الفقير إلى عفو ربه

محمد بن حسين يعقوب

تمهيد

ومضات على طريق السير إلى الله

اعلم - أخي الحبيب - أن للسير إلى الله أصولاً وضوابط .. وئمة أمرهم .. وهو أن السائرين إلى الله هم المصطفون من خلق الله ؛ قال تعالى - : «ثُمَّ أَرْزَقْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَنَا مِنْ عِبَادَنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْحَيْثَيْتِ يَأْتِيَنَّ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» [فاطر: ٣٢] .. فكُلُّهم مصطفون مختارون لسلوك هذه الطريق .. فإن سلكت فابشر؛ ولكن انضبط واشكر كي لا تُطرد .

ومن سُنة البشر في حياتهم، أن الطرق لا يمكن أن تُسلك إلا بعلامات للاهتداء، وإشارات للمسیر، توضح المراحل، وتدفع المخاطر، وتُسهل اجتياز العقبات، وتحسن قطع الفلوّات، وقد تكون هذه العلامات سمعية أو بصرية، كما أنها قد تكون للتوضيح والإرشاد، أو للتنبيه والاعتراض، وهكذا فإن المسافر في طريق الوصول إلى الله يحتاج إلى التوعية والتنبيه بمواعظ هي إشارات ساطعة في دربه الطويل، وتنبيهات تقيه شر المنعطفات^(١) .

وهذه الطريق - أيها الأخ الكريم - تحتاج إلى علم مهم جداً

(١) انظر : مسافر في قطار الدعوة ، للشوبيخ (٢١١).

وخطير . . هو علم السُّلوك . . يقول ابن القِيْم - عليه رحمة الله - في «طريق الْهَجْرَةِ» :

«السائر إلى الله - تعالى - والدار الآخرة ، بل كل سائر إلى مقصد ، لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين : قوة علمية ، وقوة عملية . وبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائراً فيها ، ويتجنب أسباب الهلاك ومواضع العَطَب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصى . ففُوْتُهُ العلمية كثُور عظيم بيده يمشي به في ليلة مظلمة شديدة الظلمة ؛ فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتألف ، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيرها ، ويبصر بذلك النور أيضاً أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضلُّ عنها ، فيكشفُ له النور عن الأمرين : أعلام الطريق ، ومعاطِبها . وبالقوة العملية يسير حقيقة ؛ بل السيرُ هو حقيقة القوة العملية ؛ فإن السير هو عمل المسافر . وكذلك السائر إلى ربِّه إذا أبصر الطريق وأعلامها وأبصر المعاشر والوهاد والطرق الناكبة عنها ؛ فقد حصل له شطرُ السعادة والفرح ، وبقيَ عليه الشطرُ الآخر وهو أن يضع عصاه على عاتقه ويُشَمَّر مسافراً في الطريق قاطعاً منازلها متزلاً بعد متزلة ، فكلما قطع مرحلة استعدَ لقطع الأخرى ، واستشعرَ الفَرَبَ من المتزل فهان عليه مشقةُ السُّفَرِ»^(١) .

نعم - أيها الحبيبُ المُحبُ - : إنَّ الطريقَ إلى الله - تعالى - تُقطع بالقلوب لا بالأقدام . . نعم : هي طريق طويلة ، ونعم : هي مأهولة ؛ فقد

(١) طريق الْهَجْرَةِ (١٨٧) .

سارها بذلك المصطفلون الآخيار من خيرة خلق الله على مدار العصور .. ولكن هذه الطريق في عصرنا صارت مجهولة لأكثر الناس ؛ وذلك لإعراض الناس عنها بل وتنكُبُها .

فلنذا أنت تحتاج إلى علم .. علم حقيقي بهذه الطريق ، وهمة عالية تقطع بها هذه الطريق .. وكما ذكر ابن القيم - عليه رحمة الله - أنك تحتاج إلى قوة علمية ؛ يعني أن تتعلم .. ولا يظنن ظان أن السائز إلى الله لا علاقة له بطلب العلم .. فما له والعقيدة أو الفقه أو المصطلح أو الأصول ؟ بل وما أشغله عن الدعوة إلا الله .

وقد هذا الظن من أحوال الصوفية ؛ فقد اعتقاد أكثر الناس أن معنى «سائز» و«الطريق» وغيرها من هذه الكلمات هي الصوفية ، وهي مرتبطة بالابداع .. وما حصل هذا الابداع إلا بسبب الجهل والانصراف عن العلم والاكتفاء بمجرد الرياضيات الروحية .

ولكن عندنا وفي منهجنا أن طلب العلم أصل الوصول وهو لا يفارق السائز أبدا .. فلا بد أولاً من منهج علمي منضبط^(١) ذي مراحل في كل فروع العلم : عقيدة وفقة وتفسير وسيرة وحديث .. العلم قبل القول والعمل وإلا ضللت ولم تصل .. لابد من قوة علمية ، ثم القوة العملية : أن تبدأ تنفيذ هذا العلم في الواقع .. أن تسير حقيقة .

وإنني أطالبك - أيها الحبيب - أن تستشعر هذا المعنى : أنك سائز ..

(١) راجع هذا المنهج مفصلاً في كتابنا «منطلقات طالب العلم» (٣٦٧ - ٣٨٥).

أنك مسافر .. أنك راحل .. «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَذَّا فَمُلْكِيَّهُ» [الانشقاق: ٦] .. «مالي وللنها إنما أنا كراحل» .. هذا شعارك في هذه الدنيا .. ولابد أن تتواءزْ وتتوازن القوتان العلم والعمل ؛ وإلا فهلاك آخر وضلال من نوع آخر ، والجنة فتون ؛ يقول ابن القييم - عليه رحمة الله - :

«ومن الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاشرها ، وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه ، ويكون ضعيفاً في القوة العملية ؛ يبصر الحقائق ولا يعمل بموجها ، ويرى المخالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقفاها ، فهو فقيه ما لم يخضُ العمل ، فإذا حضر العمل شارك الجهل في التخلف وفارقهم في العلم ، **وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشغولة بالعلم** ، المعصوم من عصمه الله ولا قوة إلا بالله .

ومن الناس من تكون له القوة العملية الإرادية وتكون أغلب القوتين عليه ، وتنقاضي هذه القوة السير والسلوك والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والجد والتشمير في العمل ، ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات في العقائد والانحرافات في الأعمال والأقوال والمقامات كما كان الأول ضعيف العقل عند ورود الشهوات ، فداء هذا من جهله ، وداء الأول من فساد إرادته وضعف عقله ، وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتضوف السالكين على غير طريق العلم ، بل على طريق الذوق والوجود والعادة ، يرى أحدهم أعمى عن مطلوبه لا يدرى من يعبد ولا بماذا

يعبده ، فتارة يعبده بذوقه ووجده ، وتارة يعبده بعاده قومه وأصحابه من لُبِسِ مُعَيْنٍ أو كشف رأس أو حَلْقٍ لِجُنَاحِهِ ونحوها ، وتارة يعبد بالأوضاع التي وضعها بعض المتخاذلين وليس له أصل في الدين ، وتارة يعبد بما تحبُّه نفسه وتهواه كائناً ما كان . وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها إلا رب العباد . فهؤلاء كُلُّهم عُمَى عن ربِّهم وعن شريعته ودينه ؛ لا يعرفون شريعته ودينه الذي بعث به رسلاً وأنزل به كتبه ولا يقبل من أحد ديننا سواه ، كما أنهم لا يعرفون صفات ربِّهم التي تعرَّف بها إلى عباده على ألسنة رسله ودعاهم إلى معرفته ومحبته من طريقها ، فلا معرفة له بالرب ولا عبادة له .

ومن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره إلى الله - تعالى - ورجيَّ له النفوذ ، وقوَّى على ردِّ القواطع والموانع بحول الله وقوته^(١) .

وهكذا - أخي الحبيب - فهمت أن بعض الناس له قوَّة علمية .. يعني تعلمَ العلم وعَرَفَ الطريق ثم لم يسلكها ، فهو منافقٌ علىٰ النفاق ؛ قال - سبحانه - : «مَنَّاَلَ الَّذِينَ حُمِّلُواَ التَّوْرِيدَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجَعَلِ يَحْمِلُ أَشْفَارًا يَتَسَّمَّلُ الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِعَيْنِتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهِدِي الْقَوْمَ أَلْفَلَّيْبِينَ» [الجمعة : ٥] .

والذي عنده قوَّة علمية بدون علم .. يعني هو نسيطٌ في العبادة جداً ، مُتَحَمِّسٌ للدين جداً ؛ فإنه بلا شك سيخطئ ويبتدع .. ولذلك فلا بد في هذا الطريق أيها - الأخ الكريم - أن تتواءز القوتان العلمية والعملية ، وأن

(١) «طريق الهجرتين» (١٨٨ - ١٨٩).

يكون لك منهج للعلم ومنهج للعبادة والعمل^(١) وي sisir المنهجان في ذات الوقت ، و تتم المتابعة عليهما ، ويكون التدرج فيماهما حتى يتم الوصول . وثمة شروط آخر .. هذه الشروط هي أولى الومضات التي تُنير لك الطريق فِي شِرْقِ بها .. فَيُسْهِلُّ الْمَسِيرَةَ إِلَى اللَّهِ .. إن شاء اللَّهُ

* الْوَمْضَةُ الْأُولَى : شُرُوطُ الطَّرِيقِ :

أولاً : الدليل .. وهو الشيخ المربي والعالم العامل والأستاذ السابق والخبير المُجَرَّب ..

إنك تحتاج في طريقك إلى شيخ ذي بصيرة نافذة .. يُدْلِلُ وينصح .. يُهَدِّبُ ويتبع .. يستشفُ ويستتّجع .. يلاحظ ويعرف .. إنه مُجَرَّب .. خَرِيت ..

إنه ليس دليلك على الطريق فقط ؛ إنما هو دليلك على نفسك ماذا تصلح وكيف تصلح .. يصحبُك في سيرك ويربيك بالمعاشة ..

أيها الإخوة ، إن الطريق هذه طريق واسعة .. وهذا شرط في صفة الصراط ؛ أن يسع جميع السائرين .. وليس كُلُّ السائرين على طبيعة واحدة ؛ فالله - عز وجل - خلق الخلق فتفاوتت هممهم وتنوعت مواهيبهم واختلفت طاقاتهم وقدراتهم .. «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلِيقَ الْأَرْضِ وَرَفِيعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَتُكُمْ لِتَبَلُّوكُمْ فِي مَا مَاءَنَّكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَورٌ رَّحِيمٌ» [الأنعام: ١٦٥].

(١) راجع أيضاً منهج العمل والعبادة بتفصيل في «منطلقات طالب العلم» (٣٤٧ - ٣٦٦).

فأين تسير؟ .. وكيف تسير؟ .. ومن أين تبدأ؟ .. وفيم تستمر؟ ..
ومتي تتوقف وإلى متى؟ .. هذا عمل الدليل ووظيفته .. ماذا تصلح
وبماذا تهتم وفيم تتخصص؟

* طبيعة الطريق :

ولكي يتضح كلامنا في حاجتك إلى هذا المربّي؛ فلابد أن تعرف
أولاً طبيعة الطريق .. فاقرأ معي ما قاله ابن القيم - عليه رحمة الله
وبركاته - ^(١) :

«الطريق إلى الله في الحقيقة واحد لا تعدد فيه ، وهو صراطه
المستقيم الذي نصبه موصلاً لمن سلكه إليه ، قال الله - تعالى - : «وَإِنَّ
هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَنْبِغِيُوا السُّبُلَ» [الأنعام: ١٥٣]؛ فوَحَدَ سبيله
لأنه في نفسه واحد لا تعدد فيه ، وجمع السُّبُل المخالفة لأنها كثيرة
متعددة ، كما ثبت أن النبي ﷺ خط خطأ ثم قال : «هذا سبيل الله». ثم
خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره ثم قال : «هذه سبل ، على كل سبيل
منها شيطان يدعو إليه» ، ثم قرأ «وَإِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا
تَنْبِغِيُوا السُّبُلَ فَنَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» ^(٢).

ومن هذه قول الله - تعالى - : «اللهُ وَلِئِنْ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ

(١) طريق الهجرتين (١٨١ - ١٨٤).

(٢) آخرجه : أحمد (١/٤٣٥ ، ٤٦٥) ، والحاكم (٢/٣٨١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . وهو حديث صحيح : صححة الحاكم ووافقه الذهبي وأحمد شاكر - رحمة الله عليهم .

الظلمات إلى النور وآذىك كثروا أولياؤهم الظالمون يخرجونهم من النور إلى الظلمات» [البقرة: ٢٥٧]، فوحّد النور الذي هو سبيله، وجمع الظلمات التي هي سُبل الشيطان، ومن فِيهِمْ هذا فَيَمْسِي السر في إفراد النور وجمع الظلمات في قوله - تعالى - : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلْمَاتِ وَالنُّورَ» [الأنعام: ١]؛ مع أن فيه سرًا أطفف من هذا يعرفه من عرف منبع النور ومن أين فاض وعمَّا حصل وأن أصله كُله واحد، وأما الظلمات فهي متعددة بتنوع الظلمات إلى النور الهادي - جَلَّ جلاله - أصلًا : لا وصفًا ولا ذاتًا ولا اسمًا ولا فعلًا؛ وإنما ترجع إلى مفعولاته - سبحانه - ، فهو جاعل الظلمات، ومفعولاتها متعددة متكررة، بخلاف النور فإنه يرجع إلى اسمه وصفته - جل جلاله - ، تعالى أن يكون كمثله شيء، وهو نور السموات والأرض. قال ابن مسعود: «ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه»، ذكره الدارمي عنه. وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذر قلت: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ قال: «نور، أني أراه!»^(١).

والمقصود أن الطريق إلى الله - تعالى - واحد، فإنه الحق المبين، والحق واحد، مرجعه إلى واحد. وأما الباطل والضلال فلا ينحصر، بل كل ما سواه باطل، وكل طريق إلى الباطل فهو باطل. فالباطل متعدد، وطرقه متعددة. وأما ما يقع في كلام بعض العلماء أن الطريق إلى الله

(١) أخرجه: مسلم (١٧٨).

متعددة متنوعة ، جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادات واحتلافيها رحمة منه وفضلاً ، فهو صحيح لا ينافي ما ذكرناه من وحدة الطريق . وكشف ذلك وإيضاحه أنَّ الطريق وهي واحدة جامعة لكل ما يرضي الله . وما يرضيه متعدد متنوع ؛ فجميع ما يرضيه طريق واحد ، ومراضيه متعددة متنوعة بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال ، وكلُّها طرق مرضاته . فهذه التي جعلها الله - سبحانه - لرحمته وحكمته كثيرة متنوعة جداً لاختلاف استعدادات العباد وقوابيلهم ، ولو جعلها نوعاً واحداً مع اختلاف الأذهان والعقول وقُوَّة الاستعدادات وضعفها لم يسلكها إلا واحد بعد واحد ؛ ولكن لما اختلفت الاستعدادات تنوَّعت الطرق ؛ ليس لك كُلُّ أمرٍ إلى ربه طرِيقاً يقتضيها استعداده وقوَّته وقبوله .

ومن هنا يعلم تنوع الشرائع واحتلافيها مع رجوعها كلُّها إلى دين واحد ؛ بل تنوع الشريعة الواحدة مع وحدة المعبدود ودينه ، ومنه الحديث المشهور «**الأنبياء أولاد علات دينهم واحد**»^(١) ؛ فأولاد العلات أن يكون الأب واحداً والأمهات متعددة ، فشبَّه دين الأنبياء بالأب الواحد ، وشرائعهم بالأمهات المتعددة ؛ فإنها وإن تعددت فمرجعها كلُّها إلى أب واحد .

١- وإذا عُلِمَ هذا ؛ فمن الناس من يكون سيدُ عملِه وطريقُه الذي يعد سلوكه إلى الله **طريق العلم والتعليم** ، قد وفر عليه زمانه مبتغيًا به وجه الله ، فلا يزال كذلك عاكفًا على طريق العلم والتعليم حتى يصل من تلك

(١) متفق عليه : البخاري (٣٤٤٢) ، ومسلم (٢٣٦٥) .

الطريق إلى الله ويفتح له فيها الفتح الخاص ، أو يموت في طريق طلبه فيرجى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته ؛ قال - تعالى - : «وَمَن يَخْرُجُ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَخْرُجُهُ عَلَى اللَّهِ» [النساء: ١٠٠].

وقد حُكِيَ عن جماعة كثيرة ممن أدركه الأجل وهو حریص طالب للقرآن أنه رُؤي بعد موته وأخبر أنه في تكميل مطلوبه وأنه يتعلم في البرزخ ، فإن العبد يموت على ما عاش عليه .

٢- ومن الناس من يكون سيد عمله **الذكر** ، قد جعله زاده لمعاده ورأس ماله لماله ، فمتى فتر عنه أو قصررأى أنه قد غَيَّرَ وخَيَّرَ .

٣- ومن الناس من يكون سيد عمله وطريقه **الصلاه** ، فمتى قصر في وزده منها أو مضى عليه وقت وهو غير مشغول بها أو مستعد ؛ لها أظلم عليه وفته وضاق صدره .

٤- ومن الناس من يكون طريقه **الإحسان والنفع المتعدي** ؛ كقضاء الحاجات وتفریج الكربات وإغاثة اللھفات وأنواع الصدقات ، قد فتح له في هذا وسلك منه طریقاً إلى ربه .

٥- ومن الناس من يكون طريقه **الصوم** ، فهو متى أنظر تغير عليه قلبه وساقت حاله .

٦- ومنهم من يكون طريقه **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** ، قد فتح الله له فيه ونفذ منه إلى ربه .

٧- ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه **الحجّ والاعتمرار** .

-٨- ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق ، وتجريد الهمة ، ودوس المراقبة ومراوغة الخواطر ، وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة .

٩- ومنهم جامِعُ المَنْفَذِ ، السالك إلى الله في كُلِّ وادٍ ، الواصلُ إليه من كل طریق ؛ فهو جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه ، ونصب عينيه يؤمها أين كانت ويسير معها حيث سارت ، قد ضرب من كُلِّ فريق بسُهُمْ ، فـأين كانت العبودية وجذبُهُ هناك ؟ إن كان علم وجذبه مع أهله ، أو جهاؤه وجذبه في صفت المجاهدين ، أو صلاة وجذبه في القانتين . أو ذكر وجذبه في الذاكرين ، أو إحسان ونفع وجذبه في زمرة المحسنين ، أو مراقبة ومحبة وإنابة إلى الله وجذبه في زمرة المحبين المنبيين ، يـدـيـنـ بـدـيـنـ العـبـوـدـيـةـ آـنـىـ استقلـتـ رـكـابـيـهاـ ، وـيـتـوـجـهـ إـلـيـهاـ حـيـثـ اـسـتـقـرـتـ مـضـارـبـيـهاـ ، لوـقـيلـ لـهـ ماـتـرـيدـ مـنـ الـأـعـمـالـ ؟ـ لـقـالـ :ـ أـرـيدـ أـنـ أـنـفـذـ أـوـامـرـ رـبـيـ حـيـثـ كـانـ وـأـينـ كـانـ ،ـ جـالـبـةـ مـاـ جـلـبـتـ مـقـتضـيـةـ مـاـ اـقـضـتـ جـمـعـتـيـ أـوـ فـرـقـتـيـ ،ـ لـيـ مـرـادـ إـلـاـ تـنـفـيـذـهـاـ وـالـقـيـامـ بـأـدـائـهـ مـرـاقـبـاـ لـهـ فـيـهـ ،ـ عـاـكـفـاـ عـلـيـهـ بـالـرـوـحـ وـالـقـلـبـ وـالـبـدـنـ وـالـسـرـ ،ـ قـدـ سـلـمـتـ إـلـيـهـ الـمـبـيـعـ مـتـنـظـرـاـ مـنـهـ تـسـلـيمـ الـثـمـنـ «إـنـ اللـهـ أـشـرـىـ مـنـ الـمـؤـمـنـينـ أـنـفـسـهـمـ وـأـمـوـالـهـمـ يـأـكـلـ لـهـمـ الـجـنـةـ»ـ [التوبـةـ:ـ ١١١ـ].ـ

فـهـذـاـ هوـ العـبـدـ السـالـكـ إـلـيـ رـبـهـ النـافـذـ إـلـيـ حـقـيقـةـ ،ـ وـمـنـ التـفـوذـ إـلـيـهـ أـنـ يـتـصـلـ بـهـ قـلـبـهـ وـيـعـلـقـ بـهـ تـعـلـقـ الـمـجـبـ بـالـتـامـ الـمـحـبـةـ بـمـحـبـوـهـ ؛ـ فـيـسـلـوـ بـهـ عـنـ جـمـيعـ الـمـطـالـبـ سـوـاـهـ ،ـ فـلـاـ يـقـنـىـ فـيـ قـلـبـهـ إـلـاـ مـحـبـةـ اللـهـ وـأـمـرـهـ وـطـلـبـ التـقـرـيبـ إـلـيـهـ .ـ

فـإـذـاـ سـلـكـ العـبـدـ عـلـىـ هـذـاـ طـرـيـقـ عـطـفـ عـلـيـهـ رـبـهـ فـقـرـبـهـ وـاصـطـفـاهـ

وأخذ بقلبه إليه ، وتوّلاه في جميع أموره في معاشه ودينه ، وتولى تربيته أحسن وأبلغ مما يُرَبِّي الوالد الشقيق ولده ؟ فإنه - سبحانه - القِيُومُ الْمُقِيمُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلوقَاتِ طَائِعَهَا وَعَاصِيهَا ، فَكِيفَ تَكُونُ قَيُومَتِهِ بِمِنْ أَحَبِّهِ وَتَوَلَّهُ وَأَثْرَهُ عَلَى مَا سَوَاهُ ، وَرَضِيَّ بِهِ مِنَ النَّاسِ حَبِيبًا وَرَبِّا وَوَكِيلًا وَنَاصِرًا وَمَعِينًا وَهَادِيًّا !! ، فَلَوْ كَشَفَ الْغَطَاءَ عَنِ الْأَطْفَافِ وَبِرِّهِ وَصُنْعَاهُ لَهُ مِنْ حِيثُ يَعْلَمُ وَمِنْ حِيثُ لَا يَعْلَمُ ؛ لَذَابَ قَلْبُهُ حَبًّا لَهُ وَشَوْفًا إِلَيْهِ وَلَتَقْطَعَ شُكْرًا لَهُ ؛ وَلَكِنْ حَجَبَ الْقُلُوبَ عَنِ الْمَشَاهِدِ ذَلِكَ إِخْلَادُهَا إِلَى عَالَمِ الشَّهَوَاتِ وَالْتَّعْلِقِ بِالْأَسْبَابِ ، فَصُدِّثَ عَنْ كَمَالِ نَعِيْمَهَا ، وَذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيِّمِ . وَإِلَّا فَأَيُّ قَلْبٍ يَذُوقُ حَلاوةَ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَحْبَبَتِهِ ثُمَّ يَرْكُنُ إِلَى غَيْرِهِ وَيَسْكُنُ إِلَى مَا سَوَاهُ ؟! هَذَا مَا لَا يَكُونُ أَبْدًا اهـ .

استبانَتِ الطَّرِيقَ .. رَجَمْكَ اللَّهُ يا شِيْخِ الإِسْلَامِ وَيَا عَلَمِ الْأَعْلَامِ ابْنَ الْقِيْمِ ، فِيَا لَكَ مِنْ عَلَمَةَ مُرَبِّ .. وَرَأَيْتَ تَنَوَّعَهَا فَإِلَى أَيْنَ تَذَهَّبُ ، وَكِيفَ تَذَهَّبُ ؟ .. وَمَنِ الَّذِي يُوجِّهُكَ وَيَهْكِنُكَ ؟ .. وَيُزِيدُكَ وَيُسْتَهْرِكَ غَيْرُ الْمُرَبِّ ؟! .. قَالُوا : وَاللَّهِ لَوْلَا الْمُرَبِّ مَا عَرَفْتُ رَبِّي .

إِذَا فُوْظِيَّهُ هَذَا الْمُرَبِّ أَنْ يَخْتَارَ لَكَ ، وَأَنْ يَقْتَرَحَ عَلَيْكَ ؛ بَلْ قَدْ يُلْزِمُكَ أَحْيَا نَبَّا بِمَا يُخَالِفُ هَوَاكَ وَتَظَنُّ أَنَّكَ لَا تَقْلِعُ فِيهِ وَأَنَّكَ لَا تَضُلُّ إِلَّا لَهُ .

وَقَدْ تَصْبِحُ - أَيُّهَا الْأَخُ الشَّابُ الْكَرِيمُ الْمُفَضَّالُ - وَتَرَفُّ عَقِيرَتَكَ سَائِلًا : أَيْنَ الْمُرَبِّ ؟ أَيْنَ الْمُرَبِّ ؟ .. وَأَنَا أَقُولُ لَكَ : «**وَمَنْ يَتَّقَنَ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ بَغْرِيْبًا** ^{وَبَرْزَقًا} مِنْ حِيثُ لَا يَعْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ يَنْهَا مُنْهِيًّا فَدَّ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا» [الطلاق: ٣-٤] .

إِنَّكَ - أَيُّهَا الطَّيِّبُ - تبحث عن المشاهير الأعلام وتظنُّ أنه لا يضلُّ لتربيتك إلا هؤلاء .. وهذا من الغرور والسفه ؛ فالمشاهير من الدُّعاة والعلماء والأركان وطلبة العلم ، يدفعون ضريبة الشُّهْرَة ؛ فلا وقت عندهم لأحد .. تكفيهم همومُهم ومشاكلُهم .. وهم معذورون - غفرَ اللَّهُ لنا ولهم .

فتواضع - أخي الكريم - وابحث عن هذا المُرَبِّي .. أخٌ مغمور لا يُعرف .. لا يُؤْبَهُ له ؛ ولكنه قديم .. يبدو في وجهه سُمْتُ الصالحين .. عابدٌ قلماً تراه يخالطُ الناس فيما يخوضون فيه .. سابق بالخيرات .. التزم مُنْذُ سنين وسَبَرَ أغوارَ الطريق .

قل لي : لن أجده .. وأنا أقول لك : سوف تجد ؛ قال - سبحانه - : «وَالَّذِينَ جَهَدُوا فِينَا لِتَهْدِيهِمْ شُبُّلًا وَلَئَنَّ اللَّهَ لَعَمَ الْمُخْسِنِينَ» [العنكبوت: ٦٩] .. وهذه أيضًا من قوانين هذا الطريق .. أنه لا يُغطِّي مِنْحَةَ السَّيِّرِ فيه إلا مَنْ حَرِصَ وبذَلَ وضَحَّى .. ابحث واصدُقْ واحرص واصبِرْ تُعطَ .. تلك أصولُك يا مسكون .

ثانية: الصَّاحِبُ .. في الهجرة دروسٌ وأسرار .. لِمَّا أراد رسولُ اللَّهِ أن يهاجر اصطحبَ رجليْن .. رجلين فقط .. دليلًا وصاحبًا .. الدليلُ كان خَرِيتَا بصيرًا بالطرق ، وهذا مهمته تنتهي عند ذلك .. أن يَدْلُلُ على الطريق .. أمَّا الصَّاحِبُ فكانت الشُّرُوطُ فيه كثيرةً جدًا ..

لكَ أن تتساءل لِمَ لم يصطحبَ عُمرٌ وهو أشجع ، وسَفِرَةٌ مثلُ هذه يُحتاجُ فيها إلى الشجاعة ، أو لِمَ لم يصطحبَ عليًّا وهو أشَبُّ ومن الأهل ، والتَّضْحِيَةُ به أَسْهَل ؛ بدليل أنه نام في فراشه .

لَمْ اختار أبا بكر دون الناس؟ .. إِنَّ الصُّحْبَةَ فِي طَرِيقِ السَّفَرِ تَحْتَاجُ إِلَى شَخْصٍ عَلَى الْمَنْهَجِ؛ لَذَا اختار رَسُولُ اللَّهِ رَجُلًا قَلْبُهُ قَرِيبٌ مِّنْ قَلْبِهِ فَلَمْ يَخْتَلِفَا مَرْءَةً .. انظُرْ معي إِلَى حادِثَةِ الْغَارِ :

لَمَّا قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَرَآنَا ؛ فَقَالَ لَهُ رَبِّكُمْ : « لَا تَحْزَنْ، إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا »، فَمَاذَا كَانَ رَدُّ أَبِي بَكْرٍ أَوْ تَعْلِيقُهُ عَلَى هَذِهِ الْمَقْوِلَةِ؟ .. بِالْتَّأْكِيدِ لَا شَيْءٌ .. انتَهَتِ الْفَضْيَةُ .. سَلَّمَ .

وَإِنَّا مَتَأْكِدُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ غَيْرُ أَبِي بَكْرٍ لَظُلِّئَ قَلْبًا وَأَعَادَ الْمَسْأَلَةَ؛ وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ قَلْبُهُ عَلَى قَلْبِهِ سَلَّمَ .. وَاسْتَرَاحَ الرَّسُولُ وَاسْتَرَاحَ أَبُو بَكْرٍ .

الخلاصة : إنني أقول لك : لابد من صاحب في هذا الطريق على نفس المنهج قلبك كقلبك؛ لأنني أراك - أيها الحبيب المحب - قد خدعوك .. فقالوا : ابحث عنمن يشدُّك .. وتفاجأ بأنَّ كُلَّ الناس يبحثون عنمن يشدُّهم هذه الأيام .. وتفاجأ أنَّ الشدَّ إلى أسفل لا إلى أعلى ..

إنني أريد - أيها الحبيب - أن تبحث عن مسكين مثلك يبحث عن الطريق إلى الله ويريد أن يصل إلى الله .. هذا شرطه .. إنه حريص على طاعة الله يريد الوصول إلى الله .. ابحث عنه وارض به ولا تشترطه من الكمال؛ فمن لم تكمل نفسه لا ينبغي له أن يبحث عن الكمال عند الآخرين ..

قال الفضيل بن عياض : من طلب أخَا بلا عيب؛ صارَ بلا أخِ .

إذا لا ينبغي أن يزهد السائر إلى الله في أخيه السائر معه على الطريق لخُلُقِي أو خُلُقِين يُنكرهما فيه ، إذا رضي سائر أخلاقه؛ لأنَّ اليسير مغفور والكمال مستحيل .

ومنْ ذَا الَّذِي تُرْضِي سَجَایَاهُ كُلُّهَا
كُفِنِ الْمَرْءَ ثُبَّلَ أَنْ تُعَذَّ مَعَابِيهِ

وَقَالَ أَبُو الدَّرَدَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَعَابِيَةُ الْأَخِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ فَقِيْدِهِ .

وَقَالَ بَعْضُ الْحَكَمَاءِ : طَلْبُ الْإِنْصَافِ مِنْ قِلَّةِ الْإِنْصَافِ .

وَقَالَ بَعْضُ السَّلْفِ : « لَا يُزَهِّدَنَّكَ فِي رَجُلٍ حَمِدَتْ سِيرَتَهُ ،
وَارْتَضَيْتَ وَتِيرَتَهُ ، وَعَرَفْتَ فَضْلَهُ ، وَبَطَّنْتَ عَقْلَهُ ، عَيْبَ حَفْنَيْ ، تُحِيطُ بِهِ
كَثْرَةُ فَضَائِلِهِ ، أَوْ ذَنْبٌ صَغِيرٌ تَسْتَغْفِرُ لَهُ قُوَّةُ وَسَائِلِهِ »^(١) .

وَلَا أَغْدِمُكَ (أَخْرِمُكَ) النَّصِيحَةِ . . . قَدْ يَكُونُ هَذَا الصَّاحِبُ زَوْجَكَ
أَوْ وَالَّدُكَ أَوْ شَقِيقَكَ أَوْ شَقِيقَتَكَ حَتَّى وَإِنْ كَانَ ابْنَكَ أَوْ بَنْتَكَ . . . وَعِنْدَهَا
يَصِيرُ الْأَمْرُ أَقْوَى . . . لِأَنَّ الْمَعَاشَةَ وَطُولَ الصَّحَّةِ وَالْتَّطْبِيعَ بِطَبَاعِ السَّفَرِ
مِنْ لَوَازِمِ هَذَا الطَّرِيقِ . . . وَلَكِنَّ كَمَا ذَكَرْتَ لَكَ عَلَى قَلْبِ وَاحِدٍ ؛ لِأَنَّ
الْخَلَافَ كُلُّهُ شَرٌّ ، وَالطَّرِيقُ مَشْغَلَةٌ ، وَالاِنْشَغَالُ عَنْهَا مَهْلَكَةٌ - ؛ فَلَا
تَصَاحِبْ إِلَّا مَوْافِقًا كَيْ لَا يَزِيدَ الْجَدْلُ وَيَكْثُرُ الْخَلَافُ وَيُضِيِّعُ الطَّرِيقَ .

* رُفَقَةُ الطَّرِيقِ :

قَدْ ذَكَرْتَ لَكَ أَنَّهُ صَاحِبٌ . . . وَلَمْ لَا يَكُونُونَ صُحَّةً؟ . . . قَالَ -
سَبَحَانَهُ - : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاهُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمَاهُ بِنَهْمَتْهُمْ
رُكْمَ سُجَّدًا يَتَعَوَّذُ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرَضِيَّتَنَا سِيمَاهُمْ فِي رُحْمَهِهِمْ مِنْ أَنَّهُ الشُّجُورُ ذَلِكَ
مَنْهُمْ فِي التَّوَرِيدَةِ وَمَنْلَهُ فِي الْأَيْجِيلِ كَزَرَعَ أَخْرَجَ سَطَعَمُ فَنَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَأَسْتَوَى
عَلَى سُوقِهِ » [الفتح: ٢٩].

(١) أدب الدنيا والدين ، للماوردي (١٧٤).

نعم : لابد لك - أيها الحبيب الساير إلى الله - من رفقة وصحبة في هذا الطريق .. لابد لك من مجموعة تأنس بها ؛ لتذهب عنك وحشة التفرد ، وتصبح لك الأخطاء ، وتوضح لك عقبات الطريق .

وإذا كانت الرفقة مهمة ومطلوبة في سفر الدنيا ، فكيف بأسفار الآخرة ، التي يكون فيها المؤمن أشد حاجة إلى المعين الصالح ، والمشارك الموافق ، الذي يكون مع شريكه كاليدين تشيل إحداهما الآخر .. فالزم الركب - أيها الحبيب - ؛ فليلركب خيرية .

« وإن لرقاء ذرب الآخرة خصائص ومواصفات لابد منها ؛ فرقاء الطريق إلى الله - تعالى - هم الذين علّت هممهم ، وصفت نياتهم ، وضيّع سلوكيهم ، حتى سبقو الناس وتركوا السكون ، وتزاحموا على ركوب القافلة ركضا إلى الله - تعالى - ، وتسارعا إلى مرضاته ، «وعجلت إلتك ربي لترضى» [طه: ٨٤]؛ فلم يوقف لهم على رسم ، ولم يلتزموا باسم ، ولم يتظروا أن يشار إليهم بالأصابع ، أو ترفع لهم الأعلام ، فقد علّت منهم الهمة التي لا تيقن دونها حركة السفر ، ولا يرضى صاحبها بغير الخالق عوضا ، كما صفا منهم القصد الخالص من الشوائب حتى لا تتحقق عن المقصود ، وكان منهم التجدد التام للعبود ، وعلامة أخرى لرفقاء الطريق هؤلاء ، ألا وهي صحة السلوك السالم من الآفات والعوائق والقواعد والمحجّب»^(١) .

(١) مسافر في قطار الدعوة ، للشويني (٨١) بتصرف يسير .

وَصِحَّةُ السُّلُوكِ السَّالِمُ هَذِهِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِثَلَاثَةِ شُرُوطٍ هِيَ تَمَامٌ
خَصَائِصُ إِخْرَانِ الدُّرْبِ وَخَلَانِ الطَّرِيقِ :

«**أَحَدُهَا** : أن يكون الدُّرْبُ الأَعْظَمُ الدُّرْبُ النَّبَوِيُّ الْمُحَمَّدِيُّ ، لا على الجواز الوضعية .. **الثَّانِي** : أن لا يُجِيبَ عَلَى الطَّرِيقِ دَاعِيَ الْبَطَالَةِ وَالْوَقْفِ وَالْدَّعْغَةِ .. **الثَّالِثُ** : أن يكون فِي سُلُوكِهِ نَاظِرًا إِلَى الْمَقْصُودِ .. فِيهِذِهِ الْثَلَاثَةِ يَصِحُّ السُّلُوكُ ، وَالْعِبَارَةُ الْجَامِعَةُ لَهَا أَنْ يَكُونَ وَاحِدًا لَوَاحِدًا ، فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ»^(١).

* الْمُضَمَّةُ الثَّانِيَةُ : حَدَّدْ هَدْفَكَ :

تُرَى كَيْفَ يَسَافِرُ الْمَسَافِرُ وَهُوَ بِلَا مَقْصِدٍ؟ .. فَبِالنِّيَّةِ يَتَحَدَّدُ السَّفَرُ وَتَتَوَضُّحُ الْوِجْهَةُ وَعَلَى أَسَاسِهَا يُخَطَّطُ مِنْهُجُ الرَّحْلَةِ طَالِتْ أَمْ قَصَرَتْ ، وَعَلَى صِدْقَهَا يُحْمَلُ الزَّادُ .. وَهَكُذا سَفَرُ الْمُؤْمِنِ لَابْدَ لَهُ مِنَ النِّيَّةِ الصَّادِقَةِ ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ اُمْرٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصَبِّيْهَا ، أَوْ اُنْتَرَأْ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(٢).

فَحَدَّدْ هَدْفَكَ - أخِي الْكَرِيمِ .. مَاذَا تَرِيدُ بِهِذَا الطَّرِيقِ .. تَحْدِيدًا وَاضْحَى لَا لَبَسَ فِيهِ ؛ حَتَّى تَسْتَطِعَ الْوَصُولَ إِلَى مَا حَدَّدْتَهُ . آتَيْتَ مَسْلِكَ هَذَا

(١) تَهْذِيبُ مَدَارِجِ السَّالِكِينَ (٢/٩٠٦).

(٢) مُتفَقٌ عَلَيْهِ : الْبَخَارِيُّ (١) ، وَمُسْلِمٌ (١٩٠٧).

الطريق لفشلك في الحصول على الدنيا ، فأردت أن تحصل عليها بزَغْم الآخرة .. حَدُّ هدفك أيها المسكين ، واعلم أنَّ العليم الخبير بالنوايا بصير .

لِمَا ذَهَبَ أَعْرَابِيًّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْجَهَادِ فَقُسِّمَ لَهُ قَسْمًا مِنَ الْفَقِيْءِ ؛ قَالَ الرَّجُلُ : «مَا عَلِيَّ هَذَا تَبْغُتُكَ !» .. فَحَرَّزَ زَيْنَكَ : عَلَامَ اتَّبَعْتَنَا ؟ !

«وَالنِّيَّةُ - أيها الحبيب - أصل العبادات ، وبها يتميز الصحيح من السقيم ، والخالص من غيره ، وبالنية تتحدد منازل السالكين ، ووجهة القاصدين ، ومن يريد بها وجه الله - تعالى - ، أو ي يريد السفر بأي نوع كالهجرة ؛ إذ إنها قد تكون لمصلحة دنيوية ، أو دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، وبهذه النية يتحدد الإخلاص الذي به يؤجر المرء على متاعب الطريق ، وبه يستعدُّ العذاب ، وبه تَهُونُ مَشَاقُ الطريق .

وَالإخلاصُ وحدهُ يقودُ إلى شفافية القلب ، وصفاء الوجدان ؛ لأنَّ المؤمن لا يفکر بعده إلا في عظمته ربِّه ولا يتوجه إلا إلى خالقه .. فلا يُضِيرُه متاعب المثبطين ، ولا نداء المرجفين ، ولا يُبعدهُ فتوّرُ الهايبيين »^(١) .

يقول ابن القيم - عليه رحمة الله - :

«فَالإخلاصُ سَبِيلُ الْخَلَاصِ ، وَالإِسْلَامُ هُوَ مُرْكَبُ السَّلَامَةِ ، وَالإِيمَانِ شَاطِئُ الْأَمَانِ»^(٢) .

(١) مسافر في قطار الدعوة (٢٢) بتصرف يسير .

(٢) مفتاح دار السعادة (٧٢) بتصرف يسير .

فإذا تحدّث وجهتك - أيها السائر - وعلم مقصودك بتوحيدين : هما توحيد القصد وتوحيد المقصود ؛ فالمعنى هو الله - سبحانه وتعالى - ، والقصد إرادة وجهه الكريم .. إذا تحدّث وجهتك هذه وعلم مقصودك هذا ؛ فقد استرحت في هذه السفارة .. وسيتبين لك ذلك حين ذكر فيما بعد أنَّ المُشَعِّبين كثير ، والسبيل مذهبة ، والعوارض تفتر العزائم .. فإذا حصلَ توحيد القصد وتوحيد المقصود لم يلتقطت إلى الأغمار .

فالنية - أخي السافر - النية .. النيَّة بِدَائِيَّة الطريق .. فطهر قلبك ل تستعيد للسفر .

* الْوَمْضَةُ التَّالِثَةُ : مَقْوِمَاتُ السَّفَرِ :

إذا كنت - أخي السالك - لازلت مصراً على الإتمام ؛ فاعلم أنَّ من مقومات السفر : المنهج ، واعلم أنَّ منهجاً معصوم ؛ فلا مجال لنا للاجتهد فيه ؛ إذ اتفق العلماء على أنَّ أعمال العبادات توثيقية ؛ الظاهر منها والباطن ، ولذا فقد تكفل الشرع - كتاباً وسُنةً - بوصف المنهج في هذا الطريق وصفاً لا يزيغ عنه إلا هالك .

قال - سبحانه - : «إِنَّ عَلَيْنَا لِلْهُدَى» [الليل: ١٢] .. وإذا قال : «عَلَيْنَا»

فقد وجَبَت .. وقال - سبحانه - : «وَهَدَيْنَا أَنَّجِدِينَ» [البلد: ١٠]

وقال - سبحانه - حاكياً عن موسى لما سُئل عن ربه أنه عرفه فقال :

«رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَانَا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى» [طه: ٥٠] ، وقال - سبحانه - :

«وَمَا كَانَ اللَّهُ يُعِيشُ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ مَا يَتَقَوَّلُونَ

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَيْهِ» [التوبه: ١١٥] ، وقال - سبحانه - : «وَالَّذِي أَوْحَيَنَا

إِلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ يَعِبَادُهُ لَخَيْرٌ
بَصَرٌ» [فاطر: ۳۱].

وقال رسول الله ﷺ: «تركتكم على المَحْجَةِ البيضاء»، وفي رواية «بيضاء نقية كالثمس لا يزئغ عنها إلا هالك»^(١).

وقال ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمكتم به لن تضلوا بعدى أبداً
كتاب الله وسُنْتِي»^(٢) وقال ﷺ: «إنه من يعش بعدي فسيرى اختلافاً
كثيراً فعليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين عَضُوا علىها بالتواجذ ، وإياكم
ومحدثات الأمور ؛ فإن كُلّ محدثة بدعة ، وكُلّ ضلاله في النار»^(١) .

بهذه النصوص وإجماع الأمة يتبيّن لنا يقيناً لا شكُّ فيه أنَّ الدين كُمُلٌ .. والطريقُ وُضِيَّعَتْ .. والمَعَالَمُ تُصْبَيَّتْ .. والأصولُ وُضِيَّعَتْ .

فلا مجال لهُرُس الهرانسة ، ولا لِقَرْمَطَة القرامطة .. لا مجال لِفَزْلَكَة المتفزلكين ، ولا مَنْظَرَة المغوروين المُعْجَبِين .. لا مجال لِتَحْدِيَّتِ الدِّين ، ولا لِلْفَهْمِ الْمُسْتَنِير - زعموا - ، ولا لِبَدْعِ أهْلِ الْأَهْوَاء .. الدِّين دِينُ مُحَمَّدٍ وما كَانَ عَلَيْهِ وَأَصْحَابِهِ .

قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلث

(١) أخرجه : أحمد (٤/١٢٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذى (٢٦٧٦) وقال : حسن صحيح ، وقال الألبانى - رحمة الله - : صحيح .

(٢) أخرجه: أحمد (٣/٥٩)، والترمذى (٣٧٨٦) وقال: حسن غريب، وانظر «الصحيح» (١٧٦١).

وبسبعين فرقة كُلُّها في النار إلا واحدة؛ ما أنا عليه وأصحابي، ولن يكون من أمتي أقوام تَجَارِي بهم تلك الأهواء كما يَتَجَارِي الكلب بصاحبه لا يبقى منه عِزْقٌ ولا مِفضل إلا دَخْلَه^(١).

وإن هذا الحديث وأمثاله ليزيد المؤمن إيمانًا - والله - حين يرى تَجَارِي الأهواء بالقوم.. في أيها السائِرُ الْكَرِيمُ، المنهج معصوم لا مجال للاجتهداد فيه.. عَلِمْتَ هذه أَوْلًا فخذِ الثانية.

إذا كان المنهج معصوماً فلابد من المنهج؛ فالبداية - بداية السير - غير المنهجية تؤدي إلى الفتور وتقود إلى الانتكاس، ثم تُكثِّر الشكوى ولا سمِيع ولا مُجيب.

لابد من منهج حقيقي في السير إلى الله - سبحانه وتعالى - ، وفي أصول التعبد: الصلاة والزكاة والصيام والحج والعمرة ونواقلها.. **أقصد أن تُحدِّد لتفسيك منهجاً**: ماذا ستفعل، وكم، ومتى، وكيف؟، وتلتزم بهذا المنهج وتتابع عليه محاسبة شديدة.

مثلاً.. كان رسول الله ﷺ يُصلِّي في اليوم أربعين ركعة؛ سبعة عشرة فرائض، وأثنى عشرة رواتب، وإحدى عشرة تَهَجُّداً وكان إذا فاته شيء منها قضاه.. حتى ثبتَ أنه قضى سُئَةَ الظهر بعد العصر.. فإن كنت تُطْبِقُ هذا وتلتزمُه فالثِّرم ولا تُفْرِطُ، وإياك وإسهام الاستسهال.

(١) أخرجه: أحمد (٤/١٠٢)، وأبو داود (٤٥٩٧)، وصححه الألباني - رحمه الله - في «الصحيح» (٢٠٣، ٢٠٤).

ومثلاً آخر . . كان الصحابة يحزّبون القرآن ؛ أي يختتون كل جماعة مرأة . . يبدأون من عصر الجمعة ويختتون عصر الخميس بمعدل خمسة أجزاء يومياً . . أفتظي هذا؟ . . التزم ولا تفرط . . وإياك وإسهال ولا استهسال .

على هذين المثالين فقى في أجنحة المنهج الثلاثة : طلب العلم والعبادة ، والدعوة إلى الله . . اجعل لك منهاجاً واضحاً . . كم ركعة ستصلي في اليوم؟ ، وكم يوماً ستصوم في الأسبوع؟ ، وكذلك وزنك في الذكر . . وكذا العلم والدعوة . . حدد ماذا ستفعل لتحاسب على ما حددت ولا ترك الأمور مبهمة . . ولا تنس : المنهج معصوم . . كن سلفياً على المنهج .

* الْوَمْضَةُ الرَّابِعَةُ : وَتَزَوَّدُوا :

قال عمر بن عبد العزيز رَحْمَةُ اللَّهِ :

«إِنَّ لِكُلِّ سَفَرٍ زَادَا لَا مَحَالَةَ، فَتَزَوَّدُوا مِنَ الدُّنْيَا لِلآخِرَةِ، وَكُونُوا كَمَنْ عَائِنَّ مَا أَعْدَ اللَّهُ - تَعَالَى - مِنْ ثَوَابِهِ وَعَقَابِهِ، تَرْغِبُونَ وَتَرْهِبُونَ، وَلَا يَطُولُنَّ عَلَيْكُمُ الْأَمْدُ فَتَقْسُو قُلُوبُكُمْ، وَتَنْقَادُوا لِعَدُوكُمْ، فَإِنَّهُ - وَاللَّهُ - مَا بَسْطَ أَمْلُ مَنْ لَا يَدْرِي، لَعْلَهُ لَا يَصْبِحُ بَعْدَ مَسَانِهِ، وَلَا يَمْسِي بَعْدَ صَبَاحِهِ، وَرِبِّما كَانَتْ بَيْنَ ذَلِكَ خَطْفَاتُ الْمَنَابِيَا، فَكُمْ رَأَيْنَا وَرَأَيْتُمْ مِنْ كَانَ بِالدُّنْيَا مَغْتَرًا، وَإِنَّمَا تَقْرَرُ عَيْنُ مَنْ وَثَقَ بِالْتَّجَاهَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا يَفْرَحُ مَنْ أَمِنَ مِنْ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ»^(١) .

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز (٢٥٨).

وقال ابن الجوزي - رَحْمَةُ اللَّهِ - :

«عجبًا لراحل مات وما تزود للرحلة ، ولمسافر ما يجع للسفر رحله ، ولمتنقل إلى قبره لم يتأنب للنثالة ، ولمفترط في أمره لم يستثير عقله .. إخواني ، مَرَّ القرآن على مذرحة ، وخيوط الرؤيل للباقيين مُسْرَحة ، سار القوم إلى القبور هملحة ، وباتت أرواح من الأشباح مُسْتَخْرَحة ، إلى كم هذا التسويف والمجمحة ، بضائعكم كلها يهربة ، وطريقكم صعبة عوسة ، وستعرفون الخبر وقت الحشرجة»^(١).

إني - والله - صدقت يا ابن الجوزي .. وسبحان الملك ! ، كم فضل علم السلف على علم الخلف .. انظر إلى كلام الرجل ترى رجلاً خير وسبَّر ، فتكلم عن رؤية ونظر .

فانطلق في رحلتك على بصيرة وكفالك مجمحة ولجلحة وغزجحة .

واعلم - أخي الحبيب - أنَّ من بركات السفر إلى الله - تعالى - ما يُتَمَّ به من إسباغ النعمَة على العبد ، وما قد يفتح الله على عباده من أبواب وخزائن النعم ، وما يتفضل به على عباده من الرحمة التي لا تخطر على بال بشر إلا من عاش لذتها وازتقَّ من معينها .

*** سَبِيلُ التَّرْزُودِ :****١- التَّوْحِيدُ وَالإِيمَانُ :**

إنني - أيها الحبيب - حين طالبتك بالتزود والتقدُّم يعني بِزَغْمِ أثرك

(١) المذهب (٢١١).

لا تَمْلِكُ ، وَفَتَرَكَ الشَّيْطَانُ بِالْفَتْحِ فِي عَضِيلَكَ بِادْعَاءِ أَنْكَ لِلَّهِ عَاصِ .. لَمْ أَطَالْكَ حِينَ طَالَبْتَكَ مِنَ الرَّزَادِ غَيْرَ : التَّوْحِيدُ وَالإِيمَانُ .. ثُمَّ يُعْطِي اللَّهُ الْبَرَكَةَ فِيهِمَا لِلمسافِرِينَ ، وَيُمْحِقُ الْبَرَكَةَ مِنَ الْجَهَلَةِ الْبَطَالِينَ ..

إِنَّ حَلاوةَ الإِيمَانِ أَعْظَمُ زَادٍ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ ، وَلَا يَتَذَوَّقُ حَلاوةَ السَّبِيرِ وَلَذَّةَ هَذَا الْعِيشِ إِلَّا مَنْ كَانَ لَهُ نَصِيبٌ بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ وَعَاشَ حَقَائِقَ الإِيمَانِ ، وَجَرِبَ هَذِهِ اللَّذَّةِ ..

«فَإِنَّ اللَّذَّةَ وَالْفَرَحَةَ وَالسُّرُورَ وَطَيْبَ الْوَقْتِ وَالنَّعِيمِ الَّذِي لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ ؛ إِنَّمَا هُوَ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ - سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى - وَتَوْحِيدِهِ وَالإِيمَانِ بِهِ ، وَانْفَتَاحِ الْحَقَائِقِ الإِيمَانِيَّةِ ، وَالْمَعَارِفِ الْقَرآنِيَّةِ ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الشِّيُوخَ : لَقَدْ كُنْتَ فِي حَالَةٍ أَقْوَلُ فِيهَا : إِنَّ كَانَ أَهْلُ الْجَهَنَّمِ فِي هَذِهِ الْحَالِ إِنَّهُمْ لَفِي عِيشٍ طَيِّبٍ ، وَقَالَ آخَرُ : «لَتَمُرُّ عَلَى الْقَلْبِ أَوْقَاتٌ يَرْفَضُ فِيهَا طَرَبًا»^(١) ، وَيَقُولُ الْآخَرُ مَعَ فَقْرِهِ : لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ لَجَالَدُونَا بِالسُّيُوفِ .. اللَّهُمَّ لَا تُحْرِمنَا لَذَّةَ الإِيمَانِ وَطَعْمَ الإِيمَانِ وَحَلاوةَ الإِيمَانِ .. آمِينَ .

٢- اليقين :

وَأَنَا إِنَّمَا أَقْصِدُ - أَيُّهَا الْحَبِيبُ - أَنَّهُ فِي الْبَدَائِيَّةِ يَكْفِي مِنَ الرَّازِدِ الْيَسِيرِ ثُمَّ بِبِرَكَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - يَبْارِكُ فِي الْقَلِيلِ فَيَصِيرُ كَثِيرًا .. فَتَزُوَّدُ لِهَذَا السَّفَرِ ابْتِدَاءً بِعُدُّهُ هِيَ الْيَقِينُ .. يَقُولُ أَبْنُ الْقَيْمِ - عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ - :

(١) الفتاوى ، لابن تيمية (٢٨/٣١).

«وفي الطريق أودية وشعوب ، وعقبات ووهود ، وشوك وغُسجع ، وعليق وشبرق ، ولصوص يقتطعون الطريق على السائرين . ولا سيئما أهل الليل المُدلِّجين . فإذا لم يكن معهم عدُّ الإيمان ، ومصابيح اليقين تُقدِّم بزنت الإخبات ؛ وإلا تعلقَت بهم تلك الموانع . وتُشبِّث بهم تلك القواطع . وحالت بينهم وبين السير»^(١) .

فلا بدُّ ابتداءً من يقين يُبَيِّنُ لك الطريق . . فاليقين نور . . هذه هي العدة الثانية من الزاد . . اليقين في الله - تعالى - ، واليقين في رسول الله ﷺ دليلاً ، واليقين في المنهج مُؤَصلًا .

«ومتنى وصلَّى اليقين إلى القلب امتلأ نوراً وإشراقاً . وانتفى عنه كُلُّ زيف وسخط ، وهم وغم . فامتلأ محبة لله ، وخوفاً منه ، ورضا به ، وشكره ، وتوكلًا عليه ، وإنابة إليه . فهو مادةً جمِيع المقامات والحاصل لها»^(٢) .

٣- التقوى :

وتزوَّذ - أيها السائر - أيضًا بتقوى الله في السر والعلانية ؛ فإنها السبيل الأوحد للإخلاص . . وهي : طاعة الله ؛ يُلزوم الأمر والنهي . . قال - سبحانه - : «وَكَرِهُوا فَإِنَّمَا خَيْرُ الرَّازِقَةِ وَأَنْقُونَ يَسْأُلُ الْأَلَّابِيْبِ» [البقرة: ١٩٧] .

تزوَّدوا - أيها السائرون - كُلَّ ساعة ؛ فإن «الدنيا ليست بدار قرار ، دار كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها منها الظعن ، فكم عامِر

(١) مدارج السالكين (٨/٢) بتصريف يسبر .

(٢) تهذيب مدارج السالكين (٢/٧٢٧) .

موثق عمّا قليل يخرب ، وكم مقيم مغتبط عما قليل يظعن ، فاحسنوا - رحمة الله - منها الرحلة ، فأحسن ما يحضر بكم من البنقة ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، إنما الدنيا كفيف ظلال قلص فذهب ، بينما ابن آدم في الدنيا منافس .. إن الدنيا لا تُسر بقدر ما تضر ، إنها تُسر قليلا ، وتُجر حزنًا طويلا^(١) .. إخواته ، هنئنا لمن تزود من الدنيا إلى الآخرة ، ومن المحطة العاجلة إلى المحطة الآجلة ، ومن ضيق المعاش إلى سعة المعاد ، ومن دار الرحيل إلى دار البقاء .

٤- الإخلاص :

أما الإخلاص ؛ فنبأ عجيب وخطره عظيم .. وهو زادك الرابع الذي لا يصلح هذا الطريق إلا به وهو أساس التزود ومُنتهاه .. وحصر الوصول في المخلصين ؛ قال - سبحانه وتعالى - : «قَالَ فِي عَرَبَاتَ لِأَغْنِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخَلَّصُونَ» [ص: ٨٢-٨٣].

ومعلوم أن الإغواء للغاوين الذين عرفوا الطريق فلم يسلكوها .. فالناسُ ثلاثة : راشدٌ وضالٌ وغافرٌ ؛ فالراشدُ من عَرَفَ الطريق وسلكها ، والضالُّ من لم يعرف الطريق فضلُّ عنها ، والغافرُ هو الذي عَرَفَ الطريق ولم يسلكها .. فالإخلاص زاد خطير .. فتزود أيتها السائر .

٥- الخبيثة :

ومن الرّاذِ خَيْثَةً .. خَيْثَةٌ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْهِ بَشَرٌ ، يَصْلَحُ

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي (٢٥٨).

للتوسل به في مَحَطَّاتِ الطريق ومَطْبَاهِه ، كما توسل الذين أَوْفُوا إلى الغار - فانطبقت عليهم الصَّحْرَة - بخبايا أعمالهم الخالصة .

٦- الصبر :

وآخر الزاد الصبر .. الصبر في الطريق .. قال رسول الله ﷺ : «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِّنَ الْعَذَابِ»^(١) .. فإذا كان سَفَرُ الدُّنْيَا يُسَبِّبُ المَشَقَّةَ والَّتَّعْبَ ؛ فكيف بسفر الآخرة الذي فيه الْأَوَاءُ وَالثَّصَبُ !!

قال - تعالى - : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ فِي كَبَدٍ» [البلد: ٤] .

قال الفخر الرازبي : في الكبد وجوه :

أَمَّا الْأَوَّلُ : أي خلقناه أطواراً كُلُّها شدة ومشقة ؛ تارةً في بطن الأم ، ثم زمان الإرضاع ، ثم إذا بلغ ففي الكبد في تحصيل المعاش ، ثم بعد ذلك الموت .

وَأَمَّا الثَّانِي : وهو الكبد في الدين ؛ فقال الحسن : يكابد الشكر على السرءاء ، والصبر على الضراء ، ويكابد المحن في أداء العبادات .

وَأَمَّا الثَّالِثُ : وهو الآخرة ؛ فالموت ومسألة الملك وظلمة القبر ، ثم البعث والعرض على الله إلى أن يستقر به القرار إما في الجنة وإما في النار .

وَأَمَّا الرَّابِعُ : وهو أن يكون اللفظ محمولاً على الكل فهو الحق ، وعندى فيه وجه آخر ، وهو أنه ليس في هذه الدنيا لذة البتة ؛ بل ذاك يظن أنه لذة فهو خلاص عن الألم ؛ فإن ما يُتخيل من اللذة عند الأكل فهو

(١) متفق عليه : البخاري (١٨٠٤) ، ومسلم (١٩٢٧) .

خَلَاصٌ عِنْدَ أَلْمِ الْجُوعِ ، وَمَا يُتَحَيَّلُ مِنَ اللَّذَاتِ عِنْدَ الْمَلْبِسِ فَهُوَ خَلَاصٌ عِنْ أَلْمِ الْحَرَّ وَالْبَرْدِ ؛ فَلَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا أَلْمٌ أَوْ خَلَاصٌ عِنْ أَلْمِ وَانتِقَالٌ إِلَى آخَرِ ، فَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ : «لَقَدْ خَلَقْنَا إِلَيْنَا إِنْسَانًا فِي كَبَدٍ» [الْبَلْدَ : ٤] اهـ^(١) .

فَاغْلُمْ - أيها الحبيب - أَنَّ اللَّهَ يَخْتَبِرُ عَيْنَهُ بِالصَّبْرِ ؛ حَتَّى تَظَهَّرَ جَوَاهِرُهُمْ ، كَمَا حَصَّلَ لِلأَنْبِيَاءِ .. «وَهَذَا نَوْحٌ عَلَيْكُمْ يُضَرَّبُ حَتَّى يُغَشَّنِي عَلَيْهِ ، ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ يَنْجُو فِي السَّفِينَةِ وَيَهْلِكُ أَعْدَاؤُهُ ، وَهَذَا الْخَلِيلُ يُلْقَنِي فِي النَّارِ ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ يَخْرُجُ إِلَى السَّلَامَةِ ، وَهَذَا الْذِي يَضْجُعُ مُسْتَسْلِمًا ثُمَّ يَسْلُمُ وَيَبْقَى الْمَدْحُ ، وَهَذَا يَعْقُوبٌ عَلَيْكُمْ يَذَهِبُ بَصَرُهُ بِالْفِرَاقِ ثُمَّ يَعُودُ بِالْوَصْوَلِ ، وَهَذَا الْكَلِيمُ عَلَيْكُمْ يَشْتَغِلُ بِالرَّعْيِ ثُمَّ يَرْقَى إِلَى التَّكْلِيمِ»^(٢) .

وَالصَّبْرُ دَوَاءٌ .. وَقَدْ قَالَ الْعُلَمَاءُ فِي تَعْرِيفِهِ : حَبْسُ الْقَلْبِ عَنِ التَّسْكُنِ ، وَحَبْسُ الْلُّسُانِ عَنِ التَّسْكُنِ .

فَالطَّرِيقُ طَوِيلٌ وَالْمَآسِي عَلَى الطَّرِيقِ كَثِيرٌ وَالْعَلاجُ الصَّبْرُ ؛ فَإِنَّ الْمُبْتَدَئَ لَا أَرْضَانَ قَطْعَ وَلَا ظَهَرَ أَبْقَى .. وَمَا تَبَيَّنَتْ مَنَازِلُ أَصْحَابِ الْهَمِ إِلَّا بِتَبَيْنَهُمْ بَطْوَلُ الصَّبْرِ حَتَّى نِهَايَةِ الطَّرِيقِ . فَتَرَوْذُ أَيْهَا السَّائِرِ .

وَيَعْدُ : فِيَا سَعَادَةً مَنْ اسْتَفَادَ مِنْ هَذِهِ الْبِرُوقِ وَالْأَنْوَارِ ، وَاسْتَهْلَمَ مِنْ تَلْكَ الإِشَارَاتِ وَالنَّبِيَّهَاتِ ، فَعَرَفَ الطَّرِيقَ ، وَأَبْصَرَ الْمَسَارَ ، وَكَانَ نَعْمَلُ الْمَسَافِرَ فِي قَافْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ .



(١) التفسير الكبير (٣١) / ١٦٥.

(٢) صيد الخاطر ، لابن الجوزي (١٦٣).

آفات على الطريق

أخي السّائر إلى الله ، الطريق إلى الله كالطريق الحسني تماماً .. تجد فيها أنفاقاً مُظلمة ، ومنحدرات خطيرة ، ومطبّات مُرعبة ، وكباري علوية .. كما تجد أحياناً على جانبي الطريق حدائق فاتنة وسبلاً متفرعة .. ومن لم يتبع لمثل هذا ولم يقْدِه للخروج منها خبير بصير ضلٌ ولا بد في الطريق أو انقطع .

أخي الكريم ، إنّ معرفة آفات الطريق من المهمات التي تنبغي للسّائر .

قال ابن القيم - رحمة الله تعالى - :

«ولا يتم المقصود إلا بالهدایة إلى الطريق ، والهدایة فيها ، وأوقات السیر من غيره ، وزاد المسیر ، وآفات الطريق ؛ ولهذا قال ابن عباس في قوله - تعالى - : «إِنَّمَا جَعَلْنَا لِكُلِّ شَرْعَةٍ وَسُنْنَةً» [العاشرة: ٤٨] - قال : سبيلاً وسنة . وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير ؛ فالسُّبُلُ : الطريق ، وهي المنهاج . والسنّة : الشُّرُوعة ، وهي تفاصيل الطريق ، ومحزوناته ، وكيفية المسير فيه ، وأوقات المسير ، وعلى هذا ، فقوله : «سبيلاً وسنة» يكون السبيل : المنهاج ، والسنّة : الشُّرُوعة ، فالمُقدَّم في الآية للمؤخر في التفسير ، وفي لفظ آخر : سُنَّة وسُبُلًا ؛ فيكون المُقدَّم للمؤخر ، والمؤخر للمؤخر»^(١) .

(١) شفاء العليل (٨٢).

فجعلَ من الهدى في الطريق التخلصُ من آفات الطريق وحُزُوناته^(١) ..
ومعرفة تفاصيل تلك الحُزُونات ..

فانتِه مَعِي لَا خَطِيرٌ هَذِه الْآفَاتُ - عَافَانَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهَا - :

* الآفة الأولى : الخوف من وخشية التفرد :

قال بعض السلف : عليك بطريق الهدى ولا يضرُك قلة السالكين ،
وإياك وطريق الضلاله ولا يغرنك كثرة الهالكين .

ومن سُنن الله الرئانية الكوبية أن أهل الحق دائمًا قلة .. هذا أصل
ينبغي ألا يفوتك ؛ قال - سبحانه - : «إِلَّا لِلَّذِينَ مَأْمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَقَلِيلٌ مَا هُمْ» [ص: ٢٤] ، وقال - سبحانه وتعالى - : «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي
الشَّكُورُ» [سما: ١٣] .

وعلى العكس : تجده وضفت الكثرة ذؤماً مع أهل الباطل ؛ قال -
سبحانه - : «وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدِهِ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَنَذِيقِنَّهُ»
[الأعراف: ١٠٢] ، وقال - سبحانه - : «وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَا حَرَضَتْ
بِيَّمُورِمِينَ» [يوسف: ١٠٣] ، وقال - سبحانه وتعالى - : «وَإِنْ قُطِعْ أَكْثَرُ
فِي الْأَرْضِ يُضْلُوكَ» [الأنعام: ١١٦] ، وقال - سبحانه وتعالى - : «وَإِنْ
كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَنِيَّقُونَ» [المائدة: ٤٩] .

فإذا تبيّن لك ذلك ؛ فليايك أن تستوحش من قلة السالكين معك على
الطريق ؛ فإن أكثر السالكين يكتسوا على أعقابهم حين رأوا الجمهرة الغالبة

(١) الحُزُونة: الخشونة ، والحزن: المكان الغليظ الخشن .

على عكس طريق السير أو على جنباتِ هذا الصُّرَاط.. فائِثٌ ولا تحزن.

* الآفة الثانية : فضول الكلام والخلطة :

وهذه أخطر تلك الآفات.. فضول الكلام والخلطة أكثر من الحاجة.. أن يصيِّر لقاء الناس شهوةً وعادةً ينقطع بها عن المقصود.. وقد قيل : إذا رأيت نفسك تأنس بالخلق وتستوحيش من الخلوة ؛ فاعلم أنك لا تصلح لله.. وإن من علامات الإفلاس الاستثناس بالناس.

وللعزلة - أيها الأخ الكريم - مزايا ؛ فإن الاجتماع بالناس لا يخلو من آفات أهونها أن تزيَّن للخلق.. وقد ذُكر عن بعض أهل الحديث أنه قال لأنَّ الشيطان أحب إليَّ من أنْ ألقى حَدِيقَةَ المَزْعُوشِيَّة ؛ أخشى أن أتزيَّن له فأسقُط من عينِ الله.

* الآفة الثالثة : التفَقُّ المُظْلِم :

قد يُصادِفُ السَّائِرُ في طريقه نفَقاً مظلماً لا يستطيع أن يُميِّز فيه طريقه من الطريق الأخرى ؛ ما لم تكن أضواء اليقين كاشفة ، ومسالك الطريق معروفة ؛ كيلا يُضيِّع السَّائِرُ مساره ، أو يتناهى أشلاء تحت وقُع الكارثة ، أو يُشرِّف في التفاؤل عندما يُصرُّ ثُوراً في آخرِ التَّفَقُّ قد يكون وَهْم سَراب.

إنَّ مثلَ هذا النفق كفتن الخلاف بين المسلمين ؛ إذ بينما يسير السائر في ركبِ الميمون ، والطريق سالكة وهو ينتظر الوصول إلى المحطة التالية ؛ فجأة يُظْلِمُ الطريق تماماً كالذي يدخل النفق .. يفاجأ بالظلم الدامس بعد النور المُبَهِّر .. اصطدم بعضُ المسلمين فيما بينهم ، وبعفي بعضهم على بعض ؛ فالتفتِ الظُّلَمَاتِ ، وانطفأتِ الأنوار.

ويضطر السائر المُسْكِن إلى ركوب الظُّلْمَةِ وَذُخُولِ التُّفْقِ ، فإذا لم تكن البصائر على يقين والأبصار على وضوح ؛ فالكارثة ستقع لا محالة ، ويكون الشيء الذي لا يُذْرَى فيه ما المُخْرَج .

ولذا فالأنوار الكاشفة في هذا النفق تمثل في الاستمساك بوضوح المنهج : الكتاب والسنّة بِقُوَّتِهِم سَلَفُ الأُمَّةِ ؛ قال اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - : ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ أَتَبَعُوهُمْ يَأْخُذُنَّ رِزْقَهُمْ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعْدَّ لَهُمْ جَنَّتَ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِهِنَّ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبه: ١٠٠].

لابد أن تتبّع إلى ﴿وَالَّذِينَ أَتَبَعُوهُمْ يَأْخُذُنَّ﴾ ؛ فالإحسان : الرؤية ، ليس مجرد الاتّباع ؛ وإنما إحسان الاتّباع .. والإحسان أن ترى ؛ قال ﷺ : «الإحسان أن تعبد الله كائنك تراه»^(١) .. هذا أول مخرج من النفق .

أما الثُّور الثاني للمُخْرَجِ من هذا النفق المُظْلِمِ فهو لا تُشَغِّلُ نفسك بالمنافشات والجدال والرُّدود ؛ وإنما ﴿بِلِ الْإِنْسَنِ عَلَى قَنْبِيَهُ بَصِيرَةٌ﴾ [القيمة: ١٤] .. اعرف طريقك وامض ، فإن كان ولا بد فألق النصيحة وانطلق .. فأخسر الناس صفةً من انشغل الناس عن نفسه ، وأخسر منه صفةً من انشغل بنفسه عن الله .. فاعرف كواشف الأنفاق .. لتخرج من هذا الظلّام بسلام .

* الآلة الرابعة : چُنْزٌ على الطريق :

وفي الطريق - أيها السائر الحبيب - چُنْزٌ لابد من تجاوزه وعبوره ؛

(١) متفق عليه : البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩).

إذ إن هذا شأن السالكين إلى الله - تعالى - في كل زمان ومكان ؛ بل وإنه من شأن الأنبياء والمرسلين .. ذلكم الجسر هو الابلاء والمحن التي تُصيّب السائر .

فلا بد في هذا الطريق أن يضيقه الابلاء وأن تظهر معده المحنّة ؛ قال الله - تعالى - : «أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُنَزَّلُوهُ أَنْ يَقُولُوا مَا نَحْنَا وَهُنَّ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِي كَانُوا صَدِقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ ﴿١٨﴾ [العنكبوت: ٣-٢] .. وكان أول تبشير الرسول ﷺ بالنبوة إنذاره بالإخراج .. قال ورقة : ما أنتي رجل يمثل ما أُوتيت به إلا عودي .. وقال الراهب للغلام : أنت اليوم أفضل مني وإنك ستبتلني .. وقيل للشافعي : أحب إليك أن يمكن الرجل أو يبتلى ؛ قال لا يمكن حتى يبتلى .

فالجسر إلى التميكن في هذا الطريق هو الابلاء .. ولا بد من الصبر فيه والاحتساب ، والرضا عن الله - تعالى - وبه ؛ فإنه جسر الوصول .. وقد حفظت الجنة بالمكاريه .. يقول ابن القاسم :

«إن تأملت حكمته - سبحانه وتعالى - فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجل الغايات ، وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابلاء والامتحان ، وكان ذلك الجسر لكماله ، كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه ، وكان ذلك الابلاء والامتحان عين المنحة في حقهم ، والكرامة ، فصورته صورة ابتلاء وامتحان ، وباطئه فيه الرحمة والنعمـة ، فكم لله

من نِعْمَةِ جسيمة ، وَمِنْهُ عظيمة ، تُجْنِي من قُطُوفِ الابلاء والامتحان^(١) . وللموحِّن في هذا الطريق خصائص ومميزات ، فكما أن المسلم يجب ألا ينفك عن عبادة ما .. «قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَتَسْكِينِي وَمَمَّا يَرَى اللَّهُ أَعْلَمُ» [الأنعام: ١٦٢] ؛ فلابد أن يكون شعوره بالابلاء هكذا : أنه في عبادة ، يدوم معه في كُلِّ حركاته وسكناته ؛ حتى يستصحب نَيَّةُ العبد على البلاء ، واحتساب الأجر عند السميع البصير «أَلَّذِي يَرَنِكَ جِنَّةُ قَوْمٍ وَنَقْلُبُكَ فِي السَّدِيقَيْنَ» [الشعراء: ٢١٨-٢١٩] .

وهذا الجسر خطير .. جسرُ الابلاء .. فإن كثيراً من السالكين ضعفت قُوَّته عن عبوره فرجعَ القهقرى وتُرَكَ الطريق .

ثم يطالعك جسراً آخر على الطريق .. وهو النفس - نعوذ بالله تعالى - من شرور أنفسنا ومن سُيئاتِ أعمالنا .. يقول ابن القيم في المدارج :

«فالنفس جبل عظيم شاق في طريق السير إلى الله - عز وجل . وكل سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل . فلابد أن يتهمي إليه ، ولكن منهم من هو شاق عليه . ومنهم من هو سهل عليه . وإنه ليسير على من يسّره الله عليه .

وفي ذلك الجبل أودية وشعوب ، وعقبات ووُهود ، وشوك وغُوش ، وعليق وشبرق ، ولصوص يقطعون الطريق على السائرين . ولا سيما أهل الليل المذلجين . فإذا لم يكن معهم عَذْ الإيمان ، ومصابيح اليقين تُقْدِ

بزيت الإخبات؛ وإنما تعلق بهم تلك المowanع. وتشبههم بهم تلك القواطع. وحالت بينهم وبين السير.

فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته. والشيطان على قمة ذلك الجبل. يحدّث الناس من صعوده وارتفاعه. ويُخوّفهم منه. فيتحقق مشقة الصعود وقعود ذلك المخوف على قلبه، وضعف عزيمة السائر ونيته. فيتولد من ذلك: الانقطاع والرجوع. والمغضوم من عصمه الله.

وكلما رقى السائر في ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع، وتحذيره وتخويفه. فإذا قطعه وبلغ قلبه؛ انقلب تلك المخاوف كلها آمناً. وحينئذ يسهل السير، وتزول عنه عوارض الطريق، ومشقة عقباتها. ويرى طريقاً واسعاً آمناً. يفضي به إلى المنازل والمنازل. وعليه الأعلام. وفيه الإقامات، قد أعدت لرักب الرحمن.

فيبين العبد وبين السعادة وال فلاح: قوة عزيمة، وصبر ساعة، وشجاعة نفس، وثبات قلب. والفضل بيد الله يعطيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم^(١).

فالنفس أمارة بالسوء ، داعية إلى المهالك ، طامحة إلى الشهوات؛ ولذا فهي أيضاً جسراً لا بد من عبوره .. أنتي رجل إلى أبي علي الدفاق فقال: قطعت إليك مسافة؛ فقال: ليس هذا الأمر بقطع المسافات ، فاريق

(١) مدارج الساركين (٨/٢).

نفسك بخطوة تصل إلى المطلوب . فلابد من عبور جسر النفس .. شهوتها .. وملذاتها .. أهواها .. وأمالها .. لابد أن تعبر مرحلة «نفسي وما تشتهي» ؛ لتصل عبر جسر نفسك إلى ما يرضي ربك .

ويزيدك بصيرة في الأمر قول ابن القيم - رحمة الله في طريق

الهجرتين - :

«وَكُلَّمَا سَكَنْتَ نَفْسَهُ مِنْ كَلَالِ السَّيْرِ وَمَوَاصِلِ الشَّدَّ وَالرَّحِيلِ ؛ وَعَذَّهَا قُرْبُ التَّلَاقِي وَبَرْدُ الْعِيشِ عِنْدِ الْوَصْولِ ، فَيُخَدِّثُ لَهَا ذَلِكَ نَشَاطًا وَفَرَحاً وَهِمَةً ، فَهُوَ يَقُولُ : يَا نَفْسَ أَبْشِرِي فَقَدْ قَرِبَ الْمَنْزِلُ وَدَنَا التَّلَاقِي ، فَلَا تَنْقَطِعِي فِي الطَّرِيقِ دُونَ الْوَصْولِ فِي حَالٍ بَيْنِكَ وَبَيْنَ مَنَازِلِ الْأَجَيْهَةِ . فَإِنْ صَبَرْتِ وَوَاصَلْتِ السَّيْرَ وَصَلَّتِ حَمِيدَةً مَسْرُورَةً جَزِلَةً وَتَلَقَّتِ الْأَجَيْهَةَ بِأَنْوَاعِ التَّحَفِ وَالْكَرَامَاتِ ، وَلَيْسَ بَيْنِكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ إِلَّا صَبَرْ سَاعَةً ؛ فَإِنْ كُلَّهَا لِسَاعَةً مِنْ سَاعَاتِ الْآخِرَةِ وَعُمُرُكَ درجةً مِنْ دَرَجَ تِلْكَ السَّاعَةِ ؛ فَاللَّهُ اللَّهُ لَا تَنْقَطِعِي فِي الْمَفَازَةِ ؛ فَهُوَ - وَاللَّهُ - الْهَلَاثُ وَالْعَطَبُ لَوْ كُنْتِ تَعْلَمِينَ .

فَإِنْ اسْتَصْبَرْتَ عَلَيْهِ فَلَيَدْكُرْهَا مَا أَمَامَهَا مِنْ أَحَبَّبِهَا ، وَمَا لَدِيهِمْ مِنْ الإِكْرَامِ وَالْإِنْعَامِ . وَمَا خَلْفَهَا مِنْ أَعْدَائِهَا ، وَمَا لَدِيهِمْ مِنْ الإِهَانَةِ وَالْعَذَابِ وَأَنْوَاعِ الْبَلَاءِ ، فَإِنْ رَجَعْتَ فَإِلَى أَعْدَائِهَا رَجُوعُهَا ، وَإِنْ تَقْدَمْتَ فَإِلَى أَحَبَّبِهَا مَصِيرُهَا ، وَإِنْ وَقْتَ فِي طَرِيقِهَا أَدْرَكَهَا أَعْدَاؤُهَا ؛ فَإِنَّهُمْ وَرَاءُهَا فِي الْطَّلَبِ . وَلَابَدُ لَهَا مِنْ قَسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ الْمُتَلَاثَةِ فَلَتَخْتَرْ أَيْهَا شَاءَتْ .

وليجعل حديث الأجيزة وشأنهم حاديهَا وسائِقَهَا . ونور معرفتهم وإرشادهم هاديهَا ودليلها ، وصديقٌ وذادهم وحُبُّهم غِذاءَهَا وشرابها ودواءَهَا ، ولا يُوجِّهُ انفراده في طريق سفَرِه . ولا يغتر بكثره المنقطعين ، فالمُنقطع اقطاعيه وبِعَادِه واصل إِلَيْهِ دُوَّنِهِم ، وحَظَّهُ من القرب والكرامة مُختصٌ به دُوَّنِهِم ، فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم؟ ، ولنعلم أن هذه الوحشة لا تدوم بل هي من عوارض الطريق ، فسوف تبدو له الخيام ، وسوف يخرج إليه المتكلمون يهنتونه بالسلامة والوصول إليهم ، فيا قُرَّاءَ عينيهِ إذ ذاك ، ويا فرحته إذ يقول : «**إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَعْلَمُونَ** ﴿١١﴾ **إِنَّمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكَرَّمِينَ**» [يس: ٢٦-٢٧] .

ولا يستوحش مما يجده من كثافة الطبيع وذوب النفس وبطء سيرها؛

فكلما أدمَنَ على السير وواظَبَ عليه عَدُوا ورَواحاً وسَخَراً^٤ قُرُبَ من المتنزل ، وتلطفَت تلك الكثافة ، وذابت تلك الخبات والأدران ؛ فظهرت عليه همة المسافرين وسيماهم ؛ فتبَدَّلت وخشَّست أنساً وكثافتُه لطافة ودرنه طهارة^(١) .

هذا هو جُسُرُ النفس .. البلاءُ الأكبر .. والعائقُ الأشد .. يُشَبِّهُ الجنس المُعلق الذي لا جوانب له يستندُ عليها السائر .. فهو خطأً جداً لا بدًّ عند المرور عليه من التركيز والهدوء .. والتثيقُ والانتباه لكل حركة يد ونَفَلةِ رجل .. وإنما .. فالسقوط .

نعم : إنَّه جُسُرٌ واهنٌ .. من كثرة الذنبِ والمعاصي .. ولذا كان

(١) طريق الهجرتين (١٨٨ - ١٨٧) .

على السائر أن يأخذ حذره .. ويتدرب المرأة بعد المرأة .. ويحاول ويعيد، ثم يحاول ويعيد حتى ينجح في ترويض نفسه على عبور تلك الجسور.

وبعد - أيها السائر الحبيب - : فلما سعاده من جاهد تلك الآفات ..

نعم : إنها أشواك ؛ لكنها أشواق .. يستشعر فيها السائر لذة الألم لله .. واحتساب الأجر من الله .. فدنس الشوك ويسر إلى الله ..

فقد اقتضت سنته الخالق أن العسل لا يحصل عليه إلا بسلع التحل ..

فما كان للمسافر إلى الله أن يحصل على ما يفيده في طريق وصوله إلا بشيء من المكافدة والعشر ..

يقول ابن القيم - عليه رحمة الله - :

«وما أقدم أحد على تحمل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجلة ، فالنفس مؤكلة بحب العاجل ، وإنما خاصية العقل : تلمع العواقب ، ومطالعة الغaiات ، وأجمع عقلاً كُلَّ أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعم ، وإن من رافق الراحة حصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة ؛ فإن على قدر التعب تكون الراحة»^(١).

* * *

(١) بهذيب مدارج السالكين (١/٣٥٩).

استراحة المسافر

وبعد أن قطعنا شوطاً في التعرف على معالم طريق وعقباته . . وبعد أن تعلمنا كيف يكون العبور على الجسور ؛ آن لنا أن نأخذ قسطاً من الراحة . . فالمسافر إلى الله - تعالى - لا بد له من الاستجمام ؛ ليستعين به على إتمام المسير ، وإكمال الشوط ، ليتيم الثقة ، ويتنشط البدن ، ويترؤح القلب . . فيكون ذلك تقوية للانطلاق في قطع مرحلة تالية .

إذا فلابد للمسافر من وقفات على الطريق . . وقفات ترويحية على جنبات الطريق . . يسترخ فيها إلى بعض المباحثات من لهو ومزاح وانبساط ، وما يتبع ذلك من لين القول ، والبسم ، وانشراح الصدر . . وكل ما يؤدي من مباح إلى تطيب النفس ومؤاستها فهو سنة مستحبة .

يقول ابن القيم - عليه رحمة الله - في «زاد المعاد» :

«وَكَانَتْ سِيرَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ أَزْوَاجِهِ حُسْنَ الْمَاعِشَةِ، وَحُسْنَ الْخُلُقِ .

وكان يُسرِّب إلى عائشة بنات الأنصار يلعبن معها . وكان إذا هويت شيئاً لا محذور فيه تابعها عليه ، وكانت إذا شربت من الإناء أخذه ، فوضع فمه في موضع فمها وشرب ، وكان إذا تعرقت عرقاً - وهو العظم الذي عليه لحم - أخذه فوضع فمه موضع فمها ، وكان يتکئ في حجرها ، ويقرأ القرآن ورأسه في حجرها ، وربما كانت حائضاً ، وكان يأمرها وهي حائض فتثیر ثم يباشرها ، وكان يقبلها وهو صائم ، وكان من لطفه وحسن

خُلُقه مع أهله أنه يمكنها من اللعب ، ويريها الحبشه وهم يلعبون في مسجده ، وهي متكتة على منكبيه تنظر ، وسابقها في السفر على الأقدام مرتين ، وتدافعا في خروجهما من المنزل مرة^(١) .

فقد يحتاج الأمر إلى ملاعبة الزوجة ، أو إرضائهما بترهه لا تخلو من ذكر وتأمل في بديع صنع الله .. وملاءبة للأولاد لا تخلو من تعبد في التربية .. وسمير سريع لطيف مع صحبة صالحة .. بذكر جميل الشرف ونواذر الطرائف والحكايات ، بعيدا عن الماجريات^(٢) .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه وروي عن علي رضي الله عنه أيضا : «رُوحوا القلوب ساعة بعد ساعة ؛ فإنها تملئ كما تملئ الأبدان» .

هذه الاستراحة يجري فيها أيضا شيئاً من التلطف بالنفس وسياستها ؛ لكي تتقاد بعد ذلك أسهل وأيسر .. فالاستقاء مثلاً مع إعمال الفكر والنظر : نوع من أنواع الترويح المأجور عليه إن أحسن المسافر النية .. قال معاذ بن جبل رضي الله عنه : إني لأختسب ثومتي ، كما أختسب قومتي . ولكن الشأن في المزاح فيما يُخسيه ويُضعه مواضعه .. فيضبطه بضوابطه الشرعية .. فما رافقه أو نتج عنه استهزاء أو سخرية أو استخفاف أو تهكم أو كذب .. فهو المنهي عنه شرعا .. وما كان عن تعجب أو إعجاب أو ملاحظة وتحبب ، أو إدخال للسرور على قلب آخر .. فهو المباح شرعا .

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٥٦).

(٢) الماجريات : التحدث بما جرى وما يجري من أخبار السياسة والفن والكرة وغير ذلك .

ولعلَ القاعدة الجامعَة ، ما حَدَّدَهَا الإمامُ التَّوْوِيُّ بِقُولِهِ :

«المِزَاجُ الْمُنْهِيُّ عَنْهُ هُوَ الَّذِي فِيهِ إفْرَاطٌ وَيُدَامُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ يُورِثُ
الضَّحْكَ وَقُسْوَةَ الْقَلْبِ ، وَيُشَغِّلُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ - تَعَالَى - ، وَالْفَكْرُ فِي
مَهَمَّاتِ الدِّينِ ، وَيُؤْوِلُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأوقَاتِ إِلَى الْإِيْذَاءِ وَيُورِثُ الْأَحْقَادَ ،
وَيُسْقِطُ الْمَهَابَةَ وَالْوَقَارَ ، فَأَمَّا مَا سَلَّمَ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ فَهُوَ الْمَبَاحُ الَّذِي كَانَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَفْعُلُهُ ، فَإِنَّهُ ﷺ إِنَّمَا كَانَ يَفْعُلُهُ فِي نَادِرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ
لِمَصْلَحةِ ، وَتَطْبِيبِ نَفْسِ الْمَخَاطِبِ وَمَوْاْسِتِهِ ، وَهَذَا لَا مَنْعَ مِنْهُ قَطُّعاً ،
بَلْ هُوَ سُنْنَةٌ مُسْتَحْبَةٌ إِذَا كَانَ بِهَذِهِ الصَّفَةِ . . فَاعْتَمِدْ مَا نَقَلْنَا عَنِ الْعُلَمَاءِ
وَحَقْقَنَاهُ ؛ فَإِنَّهُ مَا يَنْفَعُ الْأَحْتِيَاجَ إِلَيْهِ ، وَبِاللَّهِ التَّوفِيقُ»^(١) .

وانظر أيضًا إلى الميزان الدقيق . . الذي وضعه سعيدُ بن العاص حين
قال لابنه :

«اقْتِصِدْ فِي مِزَاجِكَ ؛ فَإِنَّ الْإِفْرَاطَ فِيهِ يُذْهِبُ الْبَهَاءَ ، وَيُجْرِيُ عَلَيْكَ
السُّفَهَاءَ ، وَإِنَّ التَّقْصِيرَ فِيهِ يَقْضِيُ عَنْكَ الْمَوَانِسِينَ وَيُوَجِّهُكَ مِنْكَ الْمَصَاحِبِينَ» .

وقد سُئِلَ ابنُ عَمْرٍ - رضيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : هلْ كَانَ أَصْحَابُ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَصْحَّحُونَ؟ ؛ قَالَ : نَعَمْ ، وَالْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ مِثْلُ
الْجَبَلِ . وَقَالَ بَلَالُ بْنُ سَعْدٍ : أَدْرَكْتُهُمْ يَشْتَدُونَ بَيْنَ الْأَغْرَاضِ ، وَيَضْحِكُ
بعضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ كَانُوا رَهَبَانًا»^(٢) .

(١) الأذكار (٢٧٩).

(٢) شرح السُّنْنَةِ ، للبغوي (٣٨١ / ٢).

وفي استراحة المسافر يمكن أن تجِدَ بعض الألعاب والمسابقات ، كما تجِدُ بعض المُسَائِمَات : كالحكمة والطُّرْفَة والفكاهة والمثَل والشُّغْرِ والقصَّة .. وغير ذلك .. وهَذَا طَرْفًا مِنْ تِلْكَ التَّزوِيَحَات :

ترويحة على الطريق : علوم ليست في الكتب

من العلوم علوم لا تكون في الكتب :
 منها من لا يَتَعَلَّمُ إِلَّا مِنَ الْفَقْرِ
 ومنها ما لا يَتَعَلَّمُ إِلَّا مِنَ الْبَلَاءِ
 ومنها ما لا يَتَعَلَّمُ إِلَّا مِنَ الْمَرْضِ
 ومنها ما لا يَتَعَلَّمُ إِلَّا مِنَ الْقَهْرِ وَالْإِذْلَالِ
 ومنها ما لا يَتَعَلَّمُ إِلَّا مِنَ الْهَمْمَوْمِ وَالْمَشَاكِلِ

ترويحة على الطريق : اختبارات

قال بعضهم : يُمْتَحِنُ الْذَّهَبُ بِالنَّارِ
 والمرأة بالذهب
 والرجل بالمرأة

ترويحة على الطريق : المُدَازَّة .. والشَّرَّ

قال الخطابي :

ما ذَفَتْ حِيَا فَدَارِ النَّاسَ كُلُّهُمْ فَلَئِمَا أَنْتَ فِي دَارِ الْمُدَارَةِ
 مَنْ يَذْرِي ذَارَى وَمَنْ لَمْ يَذْرِ سُوفَ يَرَى
 عَمًا قَلِيلًا نَدِيمًا لِلْئَدَامَاتِ

وقال آخر :

لا تلجم من مساوٍ لله سترًا من مساوٍ
فيكثيف الله سترًا من مساوٍ
واذكر محسن ما فيهم إذا ذكروا
وابتغِ بالله عن كلّ فإنّ به غنى لكلّ ويثق بالله يكفيك
 واستغنِ بالله عن كلّ فإنّ به غنى لكلّ ويثق بالله يكفيك

ترويحة على الطريق : البلاء مُوكَلٌ بالمنطق

اجتمع الكسائي واليزيدى عند الرشيد ، فحضرت صلاة المغرب ،
فقدموا الكسائي «أحد القراء السبعة المشهورين» فصلّى بهم فارتعج عليه
في قراءة **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾** [الكافرون: ١] - أخطأ أو نسي في الحفظ - ،
فلما سلم ؛ قال اليزيدى : قارئ وإمام أهل الكوفة يخطأ وينسى ويرتعج
عليه في سورة الكافرون !! .. فحضرت صلاة العشاء ، فتقدّم اليزيدى
فصلّى بهم فازتعج عليه وأخطأ ونسى في سورة **﴿الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [الفاتحة: ٢] ، فلما سلم قال الكسائي له :

احفظ إسائك لا تقول فتبتلى إنّ البلاء مُوكَلٌ بالمنطق

ترويحة على الطريق : التملّق

قال ذو الثوب المضري : أوحى الله إلى يعقوب عليه السلام : يا يعقوب ،
تملّق لي .. قال : يا رب ، كيف أتملّق لك ؟

قال : قل : يا قدِيم الإحسان

يا دائم المعرفة

يا كثير الخير

قالها . . فأوحى الله إليه : وعزتي وجلالي ، لو كان يوسف مينا لأحييتك لك .

ترويحة على الطريق : «ولتكون من المحسنين»

قال يحيى بن معاذ : حظ المؤمن مِنْ ثلاثة خصال ؛ تكون من المحسنين :

أحدُها : إن لم تتفغه فلا تضره

والثاني : إن لم تسره فلا تعممه

والثالث : إن لم تندخه فلا تدمه

ترويحة على الطريق : وينحك .. وينحك

وينحك : رميت يوسف قليك في جب الهوى ،

وحيثت على قميص الأمانة بدم كذب .

وينحك : كلما أوغلت في الهوى زاد التعرّف .

وينحك : إن قصر جهنم لبعيد ، ولكن يظهر

أن همتك أسلف منه .

وينحك : قنديل الفكر في محراب قليك مظلوم ؛

فاطلب له زيت خلوة وفتيله عزم .

ترويحة على الطريق : من أقوال ابن تيمية :

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي

ترويحة على الطريق : مجلستنا

مجلستنا بحر يرده الفيل والعصفور

نحن في روضة طعامنا فيها الخشوع

وشرابنا فيها الدموع

ونقلنا هذا الكلام المطبوع

نداوي امراضاً عجزت بختيشوع

ئرقى الهاوي ونداوي الملشوع

فلينته كان كل يوم لا كل أسبوع

ترويحة على الطريق : «الكم الذكر وله الأنثى تلك إذا . . .»

الخوف ذكر والرجاء أنثى

ومخنت البطالة إلى الإناث أمنيل

من زرع بذر العمل في أرجاء الرجاء نبت فيها الخوف من «ألا تقبل»

الجاهل ينام على فراش الأمن فيتغلل نومه فتكثُر أحلام أمانيه ،

والعالم يضطجع على مهاد الخوف وحارس اليقظة يُوقظه .

ترويحة على الطريق : أدمى دينه بأظفار شكواه

جاء رجل إلى فضيل يشكو الحاجة ، فقال له فضيل : يا هذا ، أمدّرنا

غير الله تريد ؟ !!

ومَرِضَ ابْنُ أَدْهَمَ فَجَعَلَ عِنْدَ رَأْسِهِ مَا يَأْكُلُهُ الْأَصْحَاءُ؛ لَثَلا يَتَشَبَّهُ بِالشَّاكِنِ .. هَذِهِ - وَاللَّهُ - بَهْرَاجَةٌ أَصْحَى مِنْ نَقْدِكَ.

ترويحة على الطريق : لا تُنَازِعُوا أَهْلَ الدُّنْيَا

قال عيسى بن مريم عليهما السلام :

لَا تُنَازِعُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ؛ فَيُنَازِعُوكُمْ فِي دِينِكُمْ؛
فَلَا دُنْيَاهُمْ أَصَبَّتُمْ وَلَا دِينَكُمْ أَبَقَيْتُمْ.

ترويحة على الطريق : ما أَسْوَى السُّوءِ

السُّلْطَانُ السُّوءُ : يُخِيفُ الْبَرِيءَ وَيُصْطِنِعُ الدُّنْيَا
وَالبَلَدُ السُّوءُ : يَجْمِعُ السُّفَلَ وَيُورِثُ الْعَلَلَ
وَالوَلَدُ السُّوءُ : يُشَيِّنُ السَّلْفَ وَيَهْدِمُ الشَّرَفَ
وَالجَارُ السُّوءُ : يُفْشِي السُّرَّ وَيَهْبِطُ السُّترَ

ترويحة على الطريق : سِيَاطُ الْمَوَاعِظِ

- * الْبَلَادُ ضُيُوفٌ فَأَجِسْنَ قِرَاهَا؛ لَتَرْحَلَ عَنْكَ إِلَى بَلَدِ الْجَزَاءِ مَادِحَةً
لا قَادِحةً .
- * فِي كُلِّ يَوْمٍ تَزَهَّنُ قَلْبَكَ عَلَى ثَمَنِ شَهْوَةٍ، فَيُسْتَعْمِلُهُ الْمُرْتَهِنُ ..
فَقَدْ أَخْلَقَ .

* أَتَبْكِي عَلَى مَعَاصِيكَ ، وَالإِصرَارُ يَضْحِكُ !!

* القواطع محنٌ يتبيّن بها الصادق من الكاذب ، فإذا حضّتها انقلبَتْ أعوايَنا ثوّصلك إلى المقصود .. فهي إذاً أغربُ الأغوان .

ترويحة على الطريق : عجبت لهذا الذي

قال بعضهم : عجبت لمن يكفي على موتي غيره دموعاً
ولا يكفي على موتي قلبه ذمماً
وأعجب من ذا أن يرى عيب غيره عظيماً وفي عينيه عن عييه عمي .

ترويحة على الطريق : اطلبوني في المقابل

قال بعض السلف : إذا سمعتم : حيٌ على الصلاة ولم ترُوني في
الصفّ ؛ فاطلبوني في المقابل .

ترويحة على الطريق : أصناف الناس

أضعف الناس من ضعف عن كثمان سرمه
وأقواهم من قوي على عصبيه
وأضيّعهم من ستر فاقته
وأغناهم من فتح بما تيسر له

ترويحة على الطريق : درجات الزلل

بداية الزلل : «إذا مسّهم طيف» [الأمراف: ٢٠١]
ووسط الزلل : «كلا بل ران على قلوبهم» [المطففين: ١٤]
وآخر الزلل : «أنزل على قلوب أفنالها» [محمد: ٢٤]

ترويحة على الطريق : من شعر القضر الذخري

قال أبو الطيب المتنبي :

فلا تقنع بما دون التلجم
كطغم الموت في أمر حظيم
إذا غامرت في شرف مرموم
فقطغم الموت في أمر حظيم
وقال :

وأكمل من عاشر قولاً صحيحاً
واقفه من الفهم السقيم
وقال أيضاً :

ومن البالية عذل من لا يزعمون
عن جهلهم وخطاب من لا يفهم

وقال أبو العناية شاعر الرهف :

عذاباً كثما كثرت لذاته
وثنيان المكرمين لها يصغرون
أرأى الدنيا لمن هي في يديه
ثمين المكرمين لها يصغرون
إذا استغنت عن شيء فداغة
وخذ ما أنت محتاج إليه

ترويحة على الطريق : علامات السعادة

قال الفضيل بن عياض : علامات السعادة خمس :

اليقين في القلب
والورع في الدين
والزهد في الدنيا
والحياء في العينين
والخشية في البدن

ترويحة على الطريق : الأخطر

أَخْطَرُ شَيْءٍ فِي عَصْرِ التَّكْنُولُوْجِيَا
لَيْسَ فِي إِيجَادِ آلاتٍ تُفَكِّرُ كَالإِنْسَانِ
بَلْ فِي إِيجَادِ نَاسٍ يُفَكِّرُونَ كَالآلاتِ

ترويحة على الطريق : قصّة الحية والسكران

عن يوسف بن الحسين يقول : كنت مع ذي الثُّونِ الْمِصْرِيِّ على شاطئِ غدير فنظرتُ إلى عقربٍ أَعْظَمُ مَا يَكُونُ عَلَى شَطْهُ الغدير واقفةً ، فإذا بِضُفْدَعٍ قد خرَجَتْ مِنْ الغدير ، فركبتُها العقربُ ، فجعلَتِ الضُّفْدَعُ تَسْبِحُ حَتَّى عَبَرَتْ ، فَقَالَ ذُو الثُّونِ : إِنَّ لِهَذِهِ الْعَرْبَةِ لِشَائِنَا فَامْضِ بِنَا ، فَجَعَلَنَا نَقْفُو أَثْرَهَا ؛ فَإِذَا رَجَلٌ نَاثِمٌ سَكَرَانٌ ، وَإِذَا حَيَّةٌ قد جاءَتْ فَصَعَدَتْ مِنْ نَاحِيَةِ سُرْرِهِ إِلَى صَدْرِهِ وَهِيَ تَطْلُبُ أَذْنَهُ ، فَاسْتَحْكَمَتِ الْعَرْبَةُ مِنْ الْحَيَّةِ فَضَرَبَتْهَا : فَانْقَلَبَتْ وَانْفَسَخَتْ ، وَرَجَعَتِ الْعَرْبَةُ إِلَى الغدير ، فجاءَتِ الضُّفْدَعُ فَرَكَبَتْهَا فَعَبَرَتْ ، فَحَرَّكَ ذُو الثُّونِ الرَّجُلُ النَّاثِمُ ، فَفَتَحَ عَيْنِيهِ ، فَقَالَ : يَا فَتَنِي ، انْظُرْ مَا نَجَّاكَ اللَّهُ ! ، هَذِهِ الْعَرْبَةُ جَاءَتْ فَقَتَلَتْ هَذِهِ الْحَيَّةَ الَّتِي أَرَادَتْكَ ، ثُمَّ أَنْشَأَتْ ذُو الثُّونِ يَقُولُ :

يَا غَافِلًا وَالْجَلِيلُ يَحْرُسُهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ يَدِبُّ فِي الظُّلْمِ
كَيْفَ تَنَامُ الْعَيْنُونَ عَنْ مَلِكٍ تَأْتِيهِ مِنْهُ فَوَانِدُ النَّعْمِ
فَتَهَضَّ الشَّابُ وَقَالَ : إِلَهِي ، هَذَا فِعْلُكَ بِمَنْ عَصَاكَ ! ، فَكَيْفَ رِفْقُكَ
بِمَنْ يُطِيعُكَ ؟ ! ، ثُمَّ وَلَى ، فَقَلَتْ : إِلَى أَينَ ؟ ، قَالَ : إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ .

ترويحة على الطريق : ديك سهل بن هارون

أورد الجاحظ «زعيمُ البيان العربي» - كما يقولُ عنه الشيخ عبد السلام هارون - هذا الموقف الساخر في كتابه «الحيوان» ، فقال :

«قال دعبد الشاعر : أقمنا عند سهل بن هارون فلم نبرخ ، حتى كدنا نموت من الجوع ، فلما اضطررناه قال : يا غلام ، ويلكَ غدنا !

قال : فأتيانا بقصبة فيها مرق فيه لحم ديك عاسٍ هرم^(١) ليس قبلها ولا بعدها ، لا تجذر فيه السكين ، ولا تؤثر فيه الأضراس ، فاطلع في القصبة وقلب بصره فيها ، ثم أخذ قطعة خبز يابس فقلب جميع ما في القصبة حتى فقد الرأس من الذيك وحده ، فبقي مطرياً ساعة .

ثم رفع رأسه إلى الغلام فقال : أين الرأس؟ ، فقال : رميت به . قال ولم رميته به؟ ، قال : لم أظنك تأكله! ، قال : ولا ي شيء ظنت أنني لا آكله؟ ، فوالله إني لأمّت من يرمي برجليه ، فكيف من يرمي برأسه؟

ثم قال له : لو لم أكره ما صنعت إلا للطيرة والفال لكرهته! . الرأس رئيس وفيه الحواس ، ومنه يضنه الذيك ، ولو لا صوته ما أريده ، وفيه فرقه الذي يتبرك به ، وعيته التي يضرب بها المثل ، يقال : «شراب كعين الذيك» .

ودماغه عجيب لوجع الكلية . ولم أر عظماً قط أهش تحت الأسنان

(١) العاسي : الذي أحسن حتى صلب وجف.

من عظيم رأسه ، فهلا إذ ظنت أنني لا أأكله ، ظنت أن العيال يأكلونه ! وإن كان بلغ من بُلْكَ أنك لا تأكله ، فإن عندنا من يأكله .

أو ما علِمْتَ أَنَّه خَيْرٌ مِن طَرَفِ الْجَنَاحِ ، وَمِن السَّاقِ وَالْعَنْقِ ! ، انظر أين هو ؟ ، قال : وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَيْنَ رَمَيْتُ بِهِ ! ، قال : لَكُثُرِي أَدْرِي ، إِنَّكَ رَمَيْتَ بِهِ فِي بَطْنِكَ ، وَاللَّهُ حَسِيبُكَ ! «^(١)» .

تعقيب :

وبعد هذه الاستراحة التي كان لابد للمسافر منها ، ليدفع عن نفسه السأم والملل والفتور ، ويستنهض بها الهمة في القيام بواجب السير إلى الله .. وبعد هذه الترويات الكثيرة .. آن له التأهُبُ للسير مره أخرى .. والاستعداد للانطلاق في طريق الوصول إلى الله .. حاملا زاده ومئاغه .. ومتوكلا على الله .. ومستعينا به وخذله في قطع المراحل التالية .. متذكرا قول ربِّه - سبحانه وتعالى - : ﴿وَالَّذِينَ جَهَدُوا فِينَا لَنَهِيَنَّهُمْ شُبُّلًا فَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .



(١) تهذيب «الحيوان للجاحظ» ، لشيخ المحققين الأستاذ عبد السلام محمد هارون - رحمه الله رحمة سامية - (٦٧) .

كلمةٌ أخيرة

إذا تَبَيَّنَ لَكَ - أَيُّهَا الْأَخُوْدُ الْكَرِيمُ الْحَبِيبُ - مَا ذَكَرْتُ .. وَأَرَدْتَ أَنْ تَنْطَلِقَ فِي هَذَا الْكِتَابِ «أَصْوَلُ الْوَصْوَلَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى» ؟ فَاعْلَمْ - أَخْيَرًا - أَنَّهَا سَفَرَةٌ .

سَفَرٌ حَقِيقِيٌّ .. لِيُسْتَ رِمْزَةً بَعِيدَةً .. إِنَّمَا هِيَ حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ وَنَقْلَتْهَا .. وَالْإِنْسَانُ حَتَّى فِي حَيَاةِ الْأَعْتِيادِيَّةِ مَا هُوَ إِلَّا بَيْنَ سَفَرٍ وَسَفَرٍ طَالٍ أَوْ قَصْرٍ ؛ لِيَبْهَنَا اللَّهُ بِالصَّغِيرِ عَلَى الْكَبِيرِ ، وَبِالْتَّافِهِ عَلَى الْمَهْمَمِ ، وَبِالْطَّارِئِ عَلَى الْمُسْتَدِيمِ .. وَقَدْ كَانَ يَذْكُرُ أَنَّهُ فِي الدُّنْيَا كَرَابِ استَظَلَّ بِظَلَّ شَجَرَةً ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا^(١) .

وَالْمُؤْمِنُ مَعَ سَفَرِهِ الطَّوِيلَةِ ؛ فَدُونُهَا أَسْفَارٌ .. فَبَعْدَ أَنْ قَطَعَ سَفَرَتَهُ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ تَسَامَى بِنَفْسِهِ مِنَ الْمَعَاصِي إِلَى الطَّاعَاتِ شَمَّرَ عَنْ سَاعِدِ الْجِدَّ حَتَّى سَافَرَ مِنَ السُّفُوحِ الْهَابِطَةِ إِلَى الْقَمَمِ السَّامِقَةِ وَكَانَ مِنَ السَّابِقِينَ بِالْخَيْرَاتِ .. وَهُوَ مِنْ هُوَلَاءِ الَّذِينَ نَدْعُوهُمْ إِلَى هَذِهِ السَّفَرَةِ . إِنَّهُ السَّفَرُ الْأَهْمَمُ الْمُؤْصِلُ إِلَى طَرِيقِ النَّجَاهَةِ إِلَى رَضَا اللَّهِ .

«وَاعْلَمْ أَيْضًا أَنَّ السَّائِرَ إِلَى اللَّهِ لَا يَنْقِطُعُ سِيرَهُ إِلَيْهِ مَا دَامَ فِي قِيدِ الْحَيَاةِ ، وَلَا يَصْلُّ الْعَبْدُ مَا دَامَ حَيًّا إِلَى اللَّهِ وَصُولًا يَسْتَغْنِي بِهِ عَنِ السِّيرِ

(١) أَخْرَجَهُ : أَحْمَدُ ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي «الصَّحِيفَةِ» بِرَقْمِ (٤٣٨) .

إليه ألبته وهذا عين المحال ؛ بل يشتَدُ سيره إلى الله كلما زادت ملاحظته لتوحيده ، وأسمائه وصفاته . ولهذا كان رسول الله ﷺ أعظمَ الخلق اجتهاً وقِياماً بالأعمال ، ومحافظةً عليها إلى أن توفاه الله ، وهو أعظم ما كان اجتهاً وقِياماً بوظائف العبودية ، فلو أتني العبد بأعمال الثقلين جميعها لم تفارقه حقيقة السير إلى الله ، وكان بعدُ في طريق الطلب والإرادة^(١) .

ولا يزال الرسول ﷺ يوصي بسؤال الله - تعالى - الهدىّة ..
وما الهدىّة إلا لمن وجد الطريق بعد الضلال ..

يقول ابن القيم :

« حيث أمره أن يذكر إذا سأله الله الهدى . إلى طريق رضاه وجنته ، كأنه مسافر ، وقد ضلَ عن الطريق . ولا يدرِي أين يتوجَه ، فطلع له رجلٌ خبيرٌ بالطريق عالمٌ بها ، فسألَه أن يدلُه على الطريق ، فهكذا شأن طريق الآخرة ، تمثيلاً لها بالطريق المحسوس المسافر ، وحاجة المسافر إلى الله - سبحانه - إلى أن يهدىء تلك الطريق أعظم من حاجة المسافر إلى بلد إلى من يدلُه على الطريق الموصل لها^(٢) .»

فلا بد لك - أيها السائر الحبيب - في هذا الطريق من صدق اللُّجُلِ إلى الله .. أن يهدِيك ويأخذ بيديك في طريق الوصول إليه .. فدُوماً

(١) تهذيب مدارج السالكين (١٤٨/١) (١٤٩).

(٢) إغاثة النَّهَّان (٥٧/١).

تدعوا وتتضرّع وتتفقّر إليه - سبحانه - تمام الافتقار في كُلّ خطوة وفي كُلّ مرحلة تقطّعها على هذه الطريق .

فالفَقْرُ الْحَقِيقِيُّ : دوام الافتقار إلى الله في كُلّ حال ، وأن يشهد العبد - في كُلّ ذرّة من ذرّاته الظاهرة والباطنة - فاقهَةً تامةً إلى الله - تعالى - من كُلّ وجهه^(١) .

فَاللَّهُمَّ .. إِنَا نَفْتَرُ إِلَيْكَ وَنَسْتَهْدِيكَ ؛ فَاهْدِنَا الصَّالِحَاتِ وَالْأَخْلَاقِ ؛
فإنه لا يهدى لصالحها ولا يصرف سيرتها إلا أنت .. اللَّهُمَّ اهْدِنِي صِرَاطَ
الْوُصُولِ إِلَيْكَ .. يَا مُنْجِي الْهَلْكَنِ وَيَا مُنْقِذَ الْغَرْقَانِ .. يَا عَظِيمَ الْإِحْسَانِ .

إِلَهِي .. إِنْ كَانَتْ ذُنُوبِيْ قَدْ أَخَافَتْنِي ؛ فَإِنْ مَحِبَّتِي لَكَ قَدْ أَجَارَنِي ،
فتولِّ من أمرِي ما أَنْتَ أَهْلُهُ ، وَعُذْ بِفَضْلِكَ عَلَى مَنْ غَرَّ جَهْلُهُ .

إِلَهِي .. لَوْ أَرَدْتَ إِهَانَتِي لَمَّا هَدَيْتِنِي ، وَلَوْ أَرَدْتَ فَضِيْحَتِي لَمْ
تُسْتَرِنِي ؛ فَمُتَغَنِّي بِمَا لَهُ هَدَيْتِنِي ، وَأَدْمِ لِي مَا بِهِ سَتَرَنِي .

إِلَهِي .. وَسِيدِي وَمُوْلَاي .. اغْقِدْ قلبي بِحُبِّ مَحِبَّتِكَ ، وَاسْتَدْرِجْنِي
إلى أقصى مُرَادِكَ ، وَاسْلُكْ بِي مَسْلَكَ أَصْفِيائِكَ ، وَاکْشَفْ لِي عن مَكْنونِ
عِلْمِكَ ؛ حَتَّى أَصِلَّ إِلَى رِيَاضِ قُدْسِكَ ، وَأَجِنْتَنِي مِنْ ثَمَارِ الشَّوْقِ إِلَيْكَ ،
وَأَتَشَرَّبَ مِنْ حِيَاضِ مَعْرِفَتِكَ ، وَأَتَنْزَهَ فِي بَسَاتِينِ آلاَئِكَ ، وَأَسْتَقْعُ في
عُذْرَانِ ذِكْرِ نِعْمَائِكَ .

(١) تَهْذِيب مَدَارِج السَّالِكِينَ (٢/٧٤٩).

اللَّهُمَّ .. اجعْلِ قلْبِي مِنَ الْقُلُوبِ التِّي سَافَرْتُ إِلَيْكَ ، وَأَنْسِثْ بِكَ ،
وَاجْعَلْ نَفْسِي مِنَ النُّفُوسِ التِّي زَالَتْ عَنْ اخْتِيَارِهَا لَهُبَيْتِكَ ، وَأَطْلِقْهَا مِنَ
الْأَسْرِ لِتَجْوَلَ فِي خَدْمَتِكَ مَعَ الْجَوَالِينَ .

اللَّهُمَّ .. آتِ نُفُوسَنَا تَقْوَاهَا ، وَرَزِّكْهَا أَنْتَ خَيْرُ مِنْ زَكَاهَا ، أَنْتَ وَلِيُّهَا
وَمَوْلَاهَا .

اللَّهُمَّ .. إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَتَفَعَّ ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ
نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ ، وَمِنْ ذَغْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا .

آمين .. آمين .. آمين

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
 وَالْتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِيمَانٍ وَإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

* * *

yaqob.com



أصول الوصول

إلى

الله تعالى

وَمِنْ الْعَجَائِبِ ، وَالْعَجَائِبُ جَمْهُ
قُرْبُ الْحَيْبِ وَمَا إِلَيْهِ وَصُولُ
كَالْعَبِسِ فِي الْبَيْنَاءِ يَقْتَلُهَا الظُّلْمَاءُ
وَالْمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَخْمُولٌ



الأصل الأول

عليك البداية وعليه التمام

اعلم حبيبي في الله الكريم السائر إلى الله :

أنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - أَرَادَ بِرَحْمَتِهِ - سُبْحَانَهُ - وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ وَالْخَبِيرُ
الْبَصِيرُ أَنْ يَحْكُمُ هَذَا الْكَوْنَ بِسُنْنَ رَبَانِيَةٍ غَاِيَةٍ فِي الدِّقَّةِ وَالثِّبَاتِ ؛ «فَلَنْ تَجِدَ
إِلِسْنَتَ اللَّهِ تَبَدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ إِلِسْنَتَ اللَّهِ تَغْوِيَلًا» [فاطر: ٤٣] .. تَلَكُمُ الْأُولَى ..

وَأَمَّا الثَّانِيَةُ : فَإِنَّ الْإِنْسَانَ خَلَقَ مِبْتَلًى فِي هَذِهِ الدِّينِ ؛ «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ

وَالْحَيَاةَ لِيَتَلَوَّكُمْ أَيُّكُمْ أَخْسَنُ عَبْدًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْفَقُورُ» [الْمُلْكُ: ٢] .

وَالثَّالِثَةُ : أَنَّ اللَّهَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ خَلَقَ الْخَلْقَ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ ؛ قَالَ
سُبْحَانَهُ : «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذَا أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذَا أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَتِكُمْ

فَلَا تُرِكُوكُمْ أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ يَعْنَى أَنَّكُمْ» [النَّجْمُ: ٣٢] ، وَقَالَ - سُبْحَانَهُ - :
«وَكَفَى بِرَبِّكَ يَذْكُرُ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ حَيْرًا بَعِيرًا» [الْإِسْرَاءُ: ١٧] .

وقد أراد الله ابتلاء وإصلاحاً؛ أن يتلي عباده بتکلیف هو غایة في الخطورة، وهو أنه - سُبْحَانَهُ - أَنَّاطَ بِهِمِ الْبَدَائِيَّةَ، فَأَحَالَ عَلَيْهِمْ بِدَائِيَّةَ الشَّرُوعِ إِلَيْهِ وَالْقَصْدَ نَحْوَهُ؛ قَالَ - سُبْحَانَهُ - فِي الْحَدِيثِ الْقَدِيسِ : «عَبْدِي قَمَ إِلَيَّ أَمْشِ إِلَيْكَ»، وهذا رعاية لجلال العزة وحماية لجناب العظمة: أن يُكَلِّفَ الْعَبْدَ أَنْ يَأْتِي سَيِّدَهُ شَمْ يَكُونُ مِنَ السَّيِّدِ الْقَبُولِ وَالْإِكْرَامِ.

قال - سبحانه وتعالى - : «وَقَالَ رَبُّكُمْ أَذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» [غافر: ٦٠] ، وقال - تعالى - : «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِ فَلَانِي قَرِيبٌ أُجِيبُ دُعَوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» [البقرة: ١٨٦] ، وقال - تعالى - في الحديث القدسي : «يَا ابْنَ آدَمَ، قُمْ إِلَيَّ أَمْشِ إِلَيَّكَ، وَامْشِ إِلَيَّكَ أَهْرُولْ إِلَيْكَ»^(١) . وقال - سبحانه - أيضًا : «مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَبَرًا تَقْرِبَتْ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقْرِبَتْ مِنْهُ بَاغًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُه هَرْوَلَةً»^(٢) . إِذَا فَابَدَ . . ابْدَأْ . . بَدِيلَةُ الْطَّرِيقِ حُطْوَةً، ابْدَأْ حُطْوَةً إِلَيْهِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَبْارِكُ وَيَتَمَّ؛ فَهُوَ - سبحانه - كَرِيمٌ . . ابْدَأْ وَلَا تَشْتَكِ .

إِنَّ كثِيرًا مِنَّا يَشْكُوُ الْفَتُورَ وَيَنْبَمِ .. إِذَا أَصْبَحَتْ بِالْفَتُورِ فَعَلَيْكَ بِالْتَّفَكِيرِ فُورًا فِي عَمَلٍ تَقْوُمُ بِهِ .. اعْمَلْ وَاللَّهُ يَرْفَعُ عَنْكَ الْبَلَاءَ .. ابْدَأْ وَاللَّهُ يَأْخُذُ بِيَدِكَ .. اعْمَلْ .. تَحْرُكْ .

إِنَّ كثِيرًا مِنَ الْإِخْرَوَةِ يَتَنْتَظِرُ نَصْرَ اللَّهِ بِمَعْجَزَةٍ، يَتَنْتَظِرُ إِصْلَاحَ فَسَادِ قَلْبِهِ بِمَعْجَزَةٍ فِي لَحْظَةٍ دُونَ أَنْ يَصْنَعَ شَيْئًا .. وَهَذَا لَا يَكُونُ .

أَخِي ، إِنَّ الْقَضِيَّةَ تَحْتَاجُ إِلَى عَمَلٍ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «بَلِ اغْمِلُوا فَكُلْ مِيسَرًّ لِمَا خَلَقَ لَهُ»^(٣) .. اغْمِلُوا .. لَابْدُ مِنْ عَمَلٍ .

إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَعِيشُ هَذِهِ الدِّنِيَا عَلَى أَنَّهَا «ضَرْبَةُ حَظٍّ»، يَعِيشُ

(١) أَخْرَجَهُ : أَحْمَدُ (٤٧٨/٣) ، وَصَحَّحَهُ الْأَلبَانِيُّ - رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحةِ بِرَقْمِ (٢٢٨٧) .

(٢) مُتَقَوِّلُهُ : الْبَخَارِيُّ (٧٤٠٥)، وَمُسْلِمُ (٢٦٧٥) .

(٣) مُتَقَوِّلُهُ : الْبَخَارِيُّ (٤٩٤٩)، وَمُسْلِمُ (٢٦٤٦) .

الحياة على أنها «ظرف»، فيعيش كيما اتفق، تماماً كالذى يدوس إلى الصلاة ولا يدرى ماذا صلى؛ لأنه في الأصل لا يعبأ بالخشوع، يترك نفسه هكذا، فالملهم عنده أنه أدى الصلاة فقط.. المهم عنده أن يعيش ، والأمر ليس كذلك .

وتأمل معي قصة عُكاشة بن مخضن في حديث السبعين ألفاً، قال رسول الله ﷺ : «غُرِضْتُ عَلَى الْأَمْمِ؛ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْفُطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجْلَانِ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَّتُ أَنَّهُمْ أَمْتَهِي، فَقَبِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، فَنَظَرْتُ إِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقَبِيلَ لِي: هَذَا أَمْتَكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عِذَابٍ»، ثُمَّ تَهَضَّ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ؛ فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ .
 فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ ، وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه؛ فقال : «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَكْتُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» .. فقام عُكاشة فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم ؛ قال : «أَنْتَ مِنْهُمْ». قال : ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : «سَبَقَكَ بِهَا عُكاشة»^(١) .

قد يبدو للناظر أن عُكاشة خطف «الجنة» بغير حساب أو أدركها بكلمة بضربة حظ ؛ ولكنك - أخي - تنظر إلى التشطيبات النهائية

(١) متفق عليه : البخاري (٥٧٥٢)، مسلم (٢٢٠).

ولا ترئ ما وراء ذلك ، إنك تنظر إلى اللقطة الأخيرة ولم تر أصل الموضوع وتقدير الأرزاق .

إن عَكَاشَة سارَ إلى الله طويلاً وعملَ كثيراً حتى بلغ هذه المنزلة . فلما بلغها أوحى الله إلى رسوله ﷺ بقبول عَكَاشَة في رَكِب السبعين المُفْرِّدين ، وأجرَى على لسانِه ﷺ الذي لا ينطقُ عن الهُوَى هذا الكلام ، ثم أنطقَ عَكَاشَة بالطلب في لحظتها ، وهذا دليل ترقية لها فأغطيتها .. هذه حقيقة الأمر .. فليس عَكَاشَة قد خَطَّفَها في لحظة .. لا .. الله عَلِيٌّ حَكِيم .. عَلِيٌّ يعلم أن عَكَاشَة تَعَبَ في السيرِ إِلَيْهِ؛ فكان الأولى بها أحَقُّ بها وأهلُها ، ولما فتحَ الباب وقلَّدَه آخرون مُنعوا ، ولا يظلم رَبُّك أحداً؛ «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَيَكُنَّ النَّاسُ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [يونس: ٤٤].

إن عَكَاشَة بدأ السيرَ إلى الله في هذه الطريق ، فلما وصل تلك المنزلة وأراد الله أن يمْتَحِنَّه إِيَّاهَا؛ أجرَى الله هذا الكلام على لسانِ رسول الله ﷺ وأحضرَه في المكانِ فأسمَعَه ثم أَنْطَقَه فبَشَّرَه .. هذه هي القضية .. فليست خَطْفَةً في لحظة .. افهم ذلك جيداً .

موقف آخر يفسّر لك الموضوع :

امسَكَ جعفر الصادق بغلام له ليعاقبه ، فقال الغلام : يا سيدي ، أتعاقبُ من ليس له شفيعٌ عندك غيرِك؟! ، فقال : انطلق إذا ، فلما انطلق الغلام أثْقَلتَ إِلَيْهِ وقال : يا سيدي ، اعلم أنك لست الذي أطلقتَني ؛ إنما أطلقتني الذي أَجْرَاهَا على لسانِي ، فقال : اذهب فأنَّ حُرّ لوجه الله . وقفَتْ - أيها الإِخْرَة - مع هذا الموقف ملئاً أقول : سبحانَ الله! هذا

كلام عبد لعبد ، فأغتنق العبد عبده ، فكيف إذا جرئ هذا الكلام مع السيد الكريم الله؟! .. اللهم أعتق رقابنا من النار .. أمين .

نعم : لو جرئ هذا الكلام على لسانك لربك لتحرّزت من العبودية لغيره ، ولكن من الذي يجريه على لسانك ، وماذا قدمت لكي يجريه؟! .. لابد أن تبدأ أنت أولاً .. إن الله إذا أراد عبده لأمير هيأه له وأجراه على لسانه؛ فهو - سبحانه - الذي يُعطى لسانه؛ قال - تعالى - : «أَنطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَفَوْهٍ» [فصلت: ٢١] .. أسطق كل شيء .. سبحانه وتعالى . ولذلك قال الله - تعالى - : «فَتَلَقَّأَ إِادُمُ مِنْ زَيْدٍ، كَلَمَتُهُ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ اللَّوَّاْبُ الْجَيْمُ» [البقرة: ٣٧] ، فالله - تعالى - هو الذي أجرى على لسان آدم كلمات التوبة ثم من يقبلها ، فكان الفضل منه أولاً وأخراً . نعم : وفقه للتوبة فتاب ، وقبل توبته؛ لأنه - تعالى - تواب رحيم .

أيها الإخوة ، إن هذه القضية تحتاج إلى وقفة كبيرة ، فالإيمان لا يأتي طفراً ؛ وإنما له مقدمات وتمهيدات تحتاج منك إلى استعانته بالله وعمل ، اللهم ثبت على الإيمان قلوبنا ، وارزقنا فهماً في الدين يرضيك عنا .. أمين .

إن الذي ينظر في قصة السحراء ، سحرة فرعون مع موسى ، هؤلاء الذين آمنوا في لحظة و تعرضوا لأقصى أنواع التهديد : لا قطعن ولا أصلبْن ولا فغلن ولا فعلن ، فثبتوا وقالوا : «فَاقْضِ مَا أَنْتَ قاضٌ» [طه: ٧٢] - إن الناظر إلى هؤلاء يظن أنهم حصلوا على الإيمان في لحظة ؛ لم ينظر لقدر الله كيف عمل في هؤلاء السحرة سنين ليعدهم لتلك اللحظة .. لم اختيار هؤلاء السحراء بالذات؟ ، ولم وجدوا في هذا المكان بالذات؟! ، والجواب : لأنهم سعوا .. نعم - أخي - : إن القضية تحتاج منك إلى سعي .

وفي قصة الثلاثة أصحاب الغار ، لمّا نزلت صخرة فسدّت عليهم باب الغار؛ توسل الأول بعمل صالح فانفرجت الصخرة شيئاً يسيراً حتى رأوا النور ، فلمّا توسل الثاني انفرجت أكثر حتى رأوا السماء ، فلما توسل الثالث انفرجت الصخرة حتى خرجو يمشون ؛ **فعلى قدر عطائك تعطى** ، **وعلى قدر سعيك تمتحن** .

كان رسول الله ﷺ يجلس في حلقة من أصحابه فدخل ثلاثة ، أما الأول : فوجد فرجة فجلس فيها ، وأما الثاني : فاستحبى فجلس خلف الحلقة ، وأعرض الثالث فمشى ؛ فقال رسول الله ﷺ : «أو أخبركم بغير الثالثة نفر ، أمّا الأول : فأوتي إلى الله فآواه الله ، وأمّا الثاني : فاستحبى فاستحبى الله منه ، وأمّا الثالث فأعرض فأعرض الله عنه»^(١) .

فإن أويت إلى الله آواك ، وإن أعرضت عنه أعرض عنك وطردك والثاك . قال الله - جل جلاله - عن يونس عليه السلام : «فَلَوْلَا أَنَّمِّ كَانَ مِنَ الْمُسْتَحِيْنَ لَلَّيْلَةِ فِي بَطْلَيْهِ إِنَّ يَوْمَ يَعْثُونَ» [الصفات: ١٤٣-١٤٤] . مع أنهنبي .. نعم : فلا أحد عزيز على الله - مهما بلغت منزلته - إن لم يثُر إلى الله .. فاثير إلى الله ولا تُعرض .

قال ابن القيم رحمه الله : «وأيما جهة أعرض الله عنها أظلمت أرجاؤها ودارث بها التحسُّن» اهـ .

اثُر إلى الله وابدا .. ابدا خطوة .. اعمل .. اتعب .. تحرك .. اسع وسوف يُتم عليك بخير .

(١) متفق عليه : البخاري (٦٦) ، ومسلم (٢١٧٦) .

ودائماً معلوم أنّ نقطة البداية هي الأشـق ، وانطلاقـة الـبداية هي الأصعب ، وهذا هو عين الابتلاء من الله - سبحانه وتعالـى .. أن يجعلـ الـبداية عليك .. **يقول ابن القـيم - عليه رحمة الله - :**

«ليس للعبد شيء أـنفع من صدقـة ربه في جـمـيع أمـورـه ، مع صـدقـ العـزـيمـة ، فـيـصـدقـة فيـعـزـمـه وـفـيـفـعلـه ؛ قال - تعالى - : ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَمْ يَكُنْ سَكَدَفُوا إِلَهًا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: ٢١] ؛ فـسـعادـتـه فيـصـدقـ العـزـيمـة وـصـدقـ الفـعل ؛ فـصـدقـ العـزـيمـة جـمـعـهـا وـجـزـمـهـا وـعـدـمـ التـرـددـ فيـها ؛ بل تكونـ عـزـيمـة لا يـشـوـبـهـا تـرـددـ ولا تـلـومـ .»

فـإـذا صـدـقـتـ عـزـيمـتـهـ بـقـيـ عـلـيـهـ صـدقـ الفـعلـ ، وـهـوـ اـسـتـفـارـاغـ الـوـسـعـ وـبـذـلـ
الـجـهـدـ فـيـهـ ، وـأـنـ لـاـ يـتـخـلـفـ عـنـهـ بـشـيـءـ مـنـ ظـاهـرـهـ وـبـاطـنـهـ ، فـعـزـيمـةـ الـقـصـدـ
تـمـنـعـهـ مـنـ ضـعـفـ الـإـرـادـةـ وـالـهـمـةـ ، وـصـدقـ الفـعلـ يـمـنـعـهـ مـنـ الـكـسـلـ
وـالـفـتـورـ . وـمـنـ صـدـقـ اللـهـ فـيـ جـمـيعـ أـمـورـهـ صـنـعـ اللـهـ لـهـ فـوـقـ مـاـ يـصـنـعـ
لـغـيرـهـ . وـهـذـاـ صـدقـ مـعـنـىـ يـلـتـئـمـ مـنـ صـحـةـ الـإـلـاـخـاصـ وـصـدقـ التـوـكـلـ ،
فـأـصـدقـ النـاسـ مـنـ صـحـ إـخـلـاصـهـ وـتـوـكـلـهـ﴾^(١) .»

فـأـخـيـ الـحـيـبـ ، أـنـتـ مـبـتـلـيـ بـأـنـ تـبـدـأـ ، وـمـمـتـحـنـ بـأـنـ تـضـدـقـ ، فـإـذا
 بدـأـتـ كـمـاـ يـجـبـ أـتـمـ لـكـ كـمـاـ تـجـبـ .. وـالـانـقـطـاعـ سـبـبـهـ الـبـداـيـةـ الـضـعـيفـةـ ..
 فـإـنـ السـائـرـ إـنـ فـتـرـ عـزـمـهـ اـسـتـمـرـ سـيـرـهـ بـقـوـةـ الدـافـعـ الـأـولـىـ .. فـأـيـنـ بـدـايـتـكـ أـيـهاـ
 الـحـيـبـ؟.. أـغـطـيـنـيـ الـدـفـعـةـ الـأـولـىـ وـأـثـرـكـ الـأـقـسـاطـ عـلـىـ اللـهـ .»

* * *

الأصل الثاني

كن واحداً لواحد على طريق واحد

هذا الأصل هو خلاصة الكلام في أمر السير إلى الله ، والوصول إليه سبحانه وتعالى .. كن واحداً لواحد على طريق واحد؛ تصلن .

كن واحداً .. ما معناها؟

أخي ، هل تعرف في زماننا رجلاً بوجهين؟ .. أنا لا أعرف !! ، فأكثر الناس اليوم بعشرة وجوه ليس بوجهين فقط؛ بل بعشرين ، بخمسين ، بمائة .. حتى ذي الوجهين قلماً تجده !! .. فلين المخلص الذي لا يُعرف له إلا وجه واحد؟! ، اللهم اجعلنا من عبادك المخلصين .

نعم - إخواته - : كثيراً ما تجد إنساناً معك في المسجد ، قدمةً في قدمك ، وكثيرون في كتفك ورأسه بجوار رأسك في السجود ، يتهلل إلى الله ويدعوه ، ويتمتّم بأطيب الكلمات ، ثم إذا خرج من المسجد بوجه آخر ، فإذا دخل بيته مع زوجته وأولاده بوجه ثالث ، وفي العمل بوجه رابع ، فإذا تعامل مع النساء الأجنبية فرقيق طيب ولئن بوجه خامس ، وإذا تعامل مع الرجال بوجه سادس ، فإذا تعامل مع الأكابر أو من هم أعلى منه اجتماعياً كمديره أو رؤسائه في العمل؛ بوجه سابع ، وإذا تعامل مع من هم أدنى منه كالفقراء والضعفاء بوجه ثامن ، وتاسع وعاشر .. من أنت !!؟! ، من أنت يا عبد الوجه؟! ، أي الوجه وجهاً الحقيقية؟!

إلى متى ستظل تخلع وجهها وتلبس آخر؟! ، إلى متى ستظل غشاساً؟!
ألا تعلم أنَّ الله يرى كلَّ هذه الوجوه؟! .. يراك هنا ويراك هناك .. يراك
الآن ويراك غداً.

تجدُّ ذا الوجه إذا مرض فبوجهه ، وإذا صَحَّ بوجه آخر ، وإذا افترى
بوجهه ، وإذا اغتنى وأمتلك فبوجه آخر ، تجده إذا تولى سعي في الأرض
ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، وإذا رَئِسَ فذليلٌ مهانٌ منافق .. تجد
ذا الوجه لا يستحيي من الله وهو يراه .

من أنت أخي؟ .. أجب عن هذا السؤال .. من أنت وأيُّ الوجه
ووجهك ، وأيُّ الأشخاص شخصك ، وأيُّ الطُّرق طريقتك؟ ، لماذا تعيش
عشرين وجهاً ، وعشرين لوناً ، وعشرين طريقة؟!! .. ألا تستحي
من الله وهو يراك؟!

أخي ، كن واحداً ، كن صاحب وجه واحد ، يمشي بطريقة واحدة .
أخي ، أيُّ الوجه أريدُك؟ .. أريد لك وجه العبد .. أن تظلَّ عبداً ..
العبد الذي يركع ويسلام ويتعلَّم القرآن؛ ويتباهي ويتبطل ويتفَرَّغ . هذا العبد
كُنْهُ في البيت مع الزوجة والأولاد ، وكُنْهُ في الشارع مع الناس .. كُنْهُ كيف
كنت ، ومتى كنت ، وأين كنت .. كن عبداً في كلِّ أحوالك .

أخي ، إذا جاءتك امرأة متبرجة لتقضى منك حاجة نراك تتعامل معها
برقة ولطفة ، أرأيت رِفْتك؟ ، أرأيت جمالك؟ ألا يكون هذا مع
زوجتك؟ .. وهي أولئك .. لماذا لا تتعامل بمثل هذا مع شريكه حياتهك
وأم عيالك؟!! .. نعم: العبد هو الذي يتعامل بالرقة والجمال والحنان

والتودد مع الزوجة، أمّا الشدة والوجه الغليظ فمع الأجنبية.. هذا هو المطلوب وبهذا تكون عبداً لله.

أخي في الله، حبيبي في الله، إبني أريدك عبداً لله في البيت، عبداً لله في المسجد، عبداً لله في الشارع، عبداً لله في العمل، عبداً لله وحده هنا حيث يعرفك الناس، عبداً لله هناك حيث تخلو فلا يعرفك أحد إلا الله، فالله الذي يراك هناك هو الذي يعرفك هنا؛ فاستريح أن يراك على غير ما يعرفك.

كن واحداً، ولا تكون عشرة، لا تكون اثنين، كن عبداً لله وحده، ولست أقصد أن تكون دوماً ذليلاً؛ بل العبد على مقتضى العبودية: في البيت رجل له القيامة والتربية، وفي العمل تراه مخلصاً وإن لم يره أحد، وفي الشارع مراقباً لモلاه.

كن عبداً لله وحده مع الرجال والنساء، والأغنياء والفقراء، والصغار والكبار.. كن عبداً وضع يديك ورجليلك في قيود الشريعة الفضيّة لتحرر من العبودية لغير الله.. الزَّمْ الأَمْرَ وَالنَّهِيِّ، وكن كما يريده الله.. عِشْ على مراد اللهِ منك لتكون عبداً.

فكن واحداً: أي كن عبداً..

لواحد:

أي لله وحده؛ قال رسول الله ﷺ: «تَعْسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعْسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعْسَ عَبْدُ الْقَطْفِيَّةِ وَالْخَمِيسَةِ، تَعْسَ عَبْدُ الْمَرْأَةِ، تَعْسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِينَكَ فَلَا انتَقَشَ»^(١).

(١) هذا الحديث أصله في البخاري (٢٨٨٧).

أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ ، وَاصْدُقْ يَا عَبْدَ اللَّهِ : أَنْتَ عَبْدٌ لِمَنْ ؟ لِلَّهِ وَحْدَهُ أَمْ عَبْدٌ
لِلْظُّرُوفِ أَيْضًا ؟ أَمْ عَبْدٌ لِلْبَيْتَةِ وَالْمَجَمِعِ ؟ عَبْدٌ لِلْعَادَاتِ وَالْتَّقَالِيدِ ؟ أَمْ
عَبْدٌ لِلْمَهْنَةِ وَالْوَظِيفَةِ وَالرَّاتِبِ الشَّهْرِيِّ ، عَبْدٌ لِصَاحِبِ الْعَمَلِ ، أَمْ عَبْدٌ
لِزَوْجِكَ وَأُولَادِكَ وَاحْتِياجَاتِهِمْ وَمَطَالِبِهِمْ ! .. عَبْدٌ مَنْ أَنْتَ ؟ .

كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَبِيدٌ لِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ عَبَدَ بَطْنَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ
عَبَدَ شَهْوَتَهُ وَفَرْجَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَبَدَ بَيْتَهُ وَفَرَاشَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَبَدَ رِصَيْدَهُ
وَمَالَهُ ، وَمِنْهُمْ .. وَمِنْهُمْ .. فَكَنْ أَنْتَ عَبْدًا لِلَّهِ .

إِنَّ الْمُتَأْمِلَ - إِخْوَتَاهُ - فِي تَارِيخِ الْعِقِيدَةِ الإِسْلَامِيَّةِ الطَّوِيلِ ، لِيُدْرِكَ
مَدْيَ الْعَنَادِ وَالتَّكَذِيبِ الَّذِي وَاجَهَهُ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ وَرَسُلُهُ فِي تَعْبِيَدِ الْقُلُوبِ لِإِلَهٍ
وَاحِدٍ هُوَ اللَّهُ ؛ فَقَوْمٌ نُوحٌ كَذَبُوا الْمُرْسَلِينَ ، وَكَذَبُتْ ثَمُودٌ وَعَادٌ بِالْقَارَعَةِ ،
وَكَذَبَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مُوسَى وَجَحَدُوا مَا جَاءَ بِهِ ، وَعَانَدَ الْمُشَرِّكُونَ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ .. وَمَعَ كُلِّ هَذَا صَبَرَ هُؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِونَ ؛ لِعِلْمِهِمْ
بِعَظَمَةِ وَأَهْمَيَّةِ مَا يَذْعُونَ إِلَيْهِ .. وَهُوَ التَّوْحِيدُ .

فَالْتَّوْحِيدُ نَظَامُ الْكَوْنِ ، وَلَا يَضْلُّ فِي الطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ إِلَّا التَّوْحِيدُ ؛
تَوْحِيدُ الْقَصْدِ وَتَوْحِيدُ الْمَعْبُودِ ؛ وَلِذَلِكَ إِذَا أَرَدْتَ - أَيْهَا الْحَبِيبُ - أَنْ
تَسِيرَ إِلَى رَبِّكَ سَيِّرًا حَسَنًا فَالْلَّازِمُ التَّوْحِيدُ . قَالَ - سَبَحَانَهُ - : « قُلْ إِنَّ
صَلَافِي وَنُسُكِي وَمَحَيَايَ وَمَسَافِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمَيْنَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أَمْرَتُ وَأَنَا أَرْأُ
الْمُتَبَلِّغُونَ » [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣] .

وَلَا يَبْدُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ - سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى - هُدًى أَنْبِيَاءَ وَرَسُلَهُ بِحَبْوَطِ
الْأَعْمَالِ - وَإِنْ كَثُرْتَ - إِنْ فَاتَهَا التَّوْحِيدُ ؛ فَقَالَ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ جَمِيلَةَ كَثِيرَةٍ

منهم في سورة الأنعام : «وَلَوْ أَشْرَكُوا لَهُ عِتْدًا مَا كَانُوا يَمْلَوْنَ» [الأنعام: ٨٨] ، بل قال مخاطبًا نبيه محمدًا ﷺ : «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لِيَعْجَلَنَّ عَمَلُكَ وَلَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْسِرِينَ بِلِ اللَّهِ فَأَغْبُدُ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ» [الزمر: ٦٥-٦٦] .

وَمِنْ خَطْرَةِ أَمْرِ التَّوْحِيدِ أَنَّ الشَّرْكَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ ذِيْنِ
الثَّنَاءِ ؛ لَذَا عَلِمَكَ الرَّبُّ ﷺ أَنْ تَقُولَ كُلَّ يَوْمٍ مَرَارًا : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ
أَنْ أَشْرَكَ بِكَ شَيْئًا أَعْلَمُهُ وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُهُ»^(١) .

وَمِنْ خَطْرَةِ أَمْرِ التَّوْحِيدِ الْخَوْفُ عَلَى التَّوْحِيدِ ؛ قَالَ اللَّهُ - سَبْحَانَهُ
وَتَعَالَى - حَاكِيَا عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ دُعَوْتَهُ : «وَاجْتَبِنِي وَرَبِّي أَنْ تَعْبُدُ
الْأَقْنَانَ» [إِبرَاهِيمٌ: ٣٥] .. فَهَذَا إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ يَخَافُ عَلَى تَوْحِيدِهِ ؛
فَيَطْلُبُ التَّبَيِّنَ عَلَيْهِ وَيَطْلُبُ لِيَتَبَيَّنَهُ أَلَا يَجِدُونَ عَنْهُ .

وَمِنْ خَطْرَةِ التَّوْحِيدِ أَنَّهُ قَدْ يَلْتَبِسُ عَلَى الْعَبْدِ ؛ قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ - رَحْمَهُ
اللَّهُ تَعَالَى - فِي «الْفَوَائِدِ» :

«الْتَّوْحِيدُ الْأَطْفُلُ شَيْءٌ وَأَنْزَهُهُ وَأَنْظَفُهُ وَأَصْفَاهُ، فَأَدْنَى شَيْءٍ يَخْدِشُهُ
وَيَدْسُهُ وَيَؤْثُرُ فِيهِ، فَهُوَ كَائِنٌ ثُوبٌ يَكُونُ، يَوْثُرُ فِيهِ أَدْنَى أَثْرٍ، وَكَالْمَرَأَةِ
الصَّافِيَةِ جَدًا، أَدْنَى شَيْءٍ يَؤْثُرُ فِيهَا. وَلَهَا شُرُوشُ الْلَّحْظَةِ وَالْلُّفْظَةِ
وَالشَّهْوَةِ الْخَفْيَةِ، فَإِنْ بَادَرَ صَاحِبُهُ وَقَلَعَ ذَلِكُ الْأَثْرُ بِضَدِّهِ؛ وَإِلَّا اسْتَحْكَمَ
وَصَارَ طَبِيعًا يَتَعَسَّرُ عَلَيْهِ قَلْعُهُ.

(١) أَخْرَجَهُ البَخَارِيُّ فِي «الْأَدْبِ الْمُفَرِّدِ» (٧١٧)، وَصَحَّحَهُ الْأَبْنَيُّ - رَحْمَهُ اللَّهُ
تَعَالَى - فِي «صَحِيحِ الْأَدْبِ الْمُفَرِّدِ» .

وهذه الآثار والطبعُ التي تَخْصُلُ فيه : منها ما يكون سريعاً الحصول
سريعاً الزوال ، ومنها ما يكون سريعاً الحصول بطيء الزوال ، ومنها
ما يكون بطيء الحصول سريعاً الزوال ، ومنها ما يكون بطيء الحصول
بطيء الزوال .

ولكن من الناسِ مَنْ يكونَ توحيدُه كبيراً عظيماً ، ينغمُرُ فيه كثيرون من
تلك الآثار ، ويستحيلُ فيه بمنزلة الماءِ الكثير الذي يخالطُه أدنى نجاسة أو
وَسَخٌ ، فيغترُّ به صاحبُ التوحيد الذي هو دونه ، فيخلط توحيده الضعيف
بما خلط به صاحبُ التوحيد العظيم الكثير توحيده ، فيظهرُ من تأثيره فيه
ما لم يظهر في التوحيد الكبير .

وأيضاً فإنَّ المَحَلَ الصافي جداً يظهر لصاحبه مما يدنسه ما لا يظهر في
المحل الذي لم يبلغ في الصفاء مبلغه ، فيتداركه بالإزالة دون هذا ، فإنه
لا يشعر به .

وأيضاً فإنَّ قُوَّة الإيمان والتَّوْحِيد إذا كانت قويةً جداً أحالت الموارد
الردية وفَهَرَتها ، بخلاف القوة الضعيفة^(١) .

فانظر - رحمك الله - إلى توحيدك : هل ما زال على صفائته وظهوراته
ونقاءه أم أنه تلوث من مخالطة البشر ومعاملاتهم ، وغياب العلم عن
القلب ، ونسيان الذكر وكثرة الكلام والجدال المقيت ، وحبُّ العلوِّ
والغَلَبة ، وتعلقُ القلب بمدح الناس ودفع ذمهم ، والشهوات المركبة في

الأنفس ... هذه كلها - والله - إن وقعت في القلب سقطت سماء توحيدك على أرضه ، فلا تقوم لقلبك قائمة .. فيا أخي الحبيب ، كن لواحدٍ تستريح .

قال الله - تعالى - : «**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شَرْكَاهُ مُشَكِّحُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» [الزمر : ٢٩] .**

«يضرب الله المثل للعبد الموحد والعبد المشرك : عبد يملأه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه ، وهو بينهم موزع ؛ ولكل منهم فيه توجيه ، ولكل منهم عليه تكليف ؛ وهو بينهم حائز لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق ؛ ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه ! عبد يملأه سيد واحد ، وهو يعلم ما يطلب منه ، ويكلفه به ، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح .. «**هُلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا**» .. إنهما لا يستويان . فالذى يخضع لسيده واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين . وتجمئ الطاقة وتحدة الاتجاه ، ووضوح الطريق . والذى يخضع لسادته متشاكسين معدّب مقلّب ، لا يستقر على حال ، ولا يرضي واحداً منهم فضلاً على أن يرضي الجميع ! وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال .

فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يقطع الرحلة على هذه الأرض على هدى ؛ لأنَّ بصره أبداً معلقاً بنجم واحد على الأفق فلا يلتوي به الطريق . ولأنَّه يعرف مصدره واحداً للحياة والقوة والرزق ، ومصدراً واحداً للنفع والضر ، ومصدراً واحداً للمنج والمنع ، فستقيم خطاه إلى

هذا المصدرُ الواحدُ، يستمدُّ منه وحدهُ، ويعلقُ يديه بحبلٍ واحدٍ يشدُّ عَزْوَتَهُ . ويطمسُ اتجاهَهُ إلى هدفٍ واحدٍ لا يزولُ عنه بصرُهُ . ويُخدمُ سيداً واحداً يُعرفُ ماذا يرضيه فيفعلُه وماذا يغضبه فيتّقيه .. وبذلك تجتمع طاقتُهُ وتتوحدُ ، فيفتحُ بكلٍّ طاقته وجدهُ وهو ثابتُ القدمين على الأرض متطلعاً إلى إلهٍ واحدٍ في السماء .. ويعقبُ - سبحانه - على هذا المثل الناطق الحي ، بالحمد لله الذي اختارَ لعباده الرَّاحَةَ والأمن والطمأنينة والاستقامة والاستقرار . وهم مع هذا ينحرفون ، وأكثرُهم لا يعلمون ..^(١) . فهل أنت منهم؟ .. هل أنت لواحدٍ؟ ، أم أنك لشركاء متشاكسين؟ !

نعم : إن أكثر الناس اليوم منحرفون عن التوحيد ، ويعيشون في ثبات ، فتجد قلوبهم معلقة بالمال والزوجة والولد والبشر ، فيعيشون مهمومين محزونين مشتتين مضيئين .. ولا يمكن أن يتعلق القلب بالله وحده إلا بأن يكون في قلبك هُم واحد : هو طلب رضا الله والاستعانة به ، فهمُك وهمُك وتفكيرُك دائِرٌ في تحصيل رضا الله؛ ساعتها تكون عبداً لله وحده .. تكون واحداً لواحدٍ بحق ، ومنها تنطلق على طريق الوصول إلى الله - تعالى .

على طرِيقٍ واحدٍ :

إذا كنتَ واحداً لواحدٍ فلكي تصل لابد من أن يكون لك طرِيقٍ واحد إلى الله - تعالى - ، فهما توحيدان : توحيد القصد وتوحيد المعبد .

(١) في ظلال القرآن (٥/٤٠٣ - ٤٠٥) .

هو طريق واحد لا يتعدد ولا يتغير؛ كما قال ربنا - جل وعلا - : «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَنْبِغِي أَشْبُلَ فَنَفَرَقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» [الأنعام: ١٥٣] فوحَدَ سبيله لأنَّه في نفسه واحد لا تعدد فيه، وجمع السُّبُل المخالفَة لأنَّها كثيرة ومُتعددة.

فكن على طريق واحد تصل وهو الطريق إلى الله - سبحانه - وأصله : الكتاب والسنة ، وقال فيه رسول الله ﷺ : «إنه من يعش بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين عَضُوا عليها بالنواجد، وإنَّا لكم ومحدثات الأمور؛ فإنَّ كُلَّ مُخْدَثَةٍ بَدْعَةٌ وَكُلَّ ضلالٍ فِي النَّارِ»^(١) ، وقال ﷺ : «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدِي أبداً كتابَ اللَّهِ وسُنْتِي»^(٢) . فاسلك الطريق الواحد وإذا سلكته فلا تغيير ولا تبدل لثلا تُطرَد.. لا تتلوَّن ولا تتبَعِ الهوى فيضلوك عن سبيل الله .. اللهم تَجْنَّنا من مُضِلَّاتِ الفتَنِ .

لَمَّا جَاءَ حَذِيفَةَ بْنَ الْيَمَانِ الْمَوْتَ جَلَسَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُسْعُودٍ عَنْ دِرَأِهِ وَقَالَ لَهُ : أَوْصِنِي ، فَقَالَ لَهُ : أَلَمْ يَأْتِكَ الْيَقِينُ ، قَالَ : بَلِّي وَعِزَّ رَبِّي ، فَقَالَ حَذِيفَةَ : إِيَّاكَ وَالْتَّلُوْنَ ، فَإِنَّ دِينَ اللَّهِ وَاحِدٌ .

ومن التلون: استحلال الحرام؛ قال العلماء: الفتنة أن تستحل ما كنت تراه حراماً .

(١) أخرجه: أحمد (٤/١٢٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذى (٢٦٧٦) وقال: حسن صحيح، وقال الألبانى: صحيح.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/٥٩)، والترمذى (٣٧٨٦) وقال: حسن غريب، وانظر «الصحىحة» (١٧٦١).

يمشي الشاب في الطريق إلى الله سينين واعتقاده : حُرمة التلفاز ، ثم تفاجأ بالتلتون .. نعم : لقد دخل التلفاز بيوت كثير من الملتزمين .. أدخله لأنه مفتون .. قد تلون ؛ فصار الطريق عنده عدّة طرق .

فبعد أن كان يعتقد أن صلاة الجمعة في المسجد فرض عين ؛ صار يقول : هناك مذاهب أخرى فيمكن أن أصلّي في البيت .. تلون وفتور .. بعد أن كان يعتقد أن طلب العلم لازم له ، وبعد أن كان يعتقد أن الدعوة إلى اللهأمانة في عنقه ؛ تخلّى وانشغل بدنياه ؛ فتشعبت به الطرق .

أيها المفتون : ستموت ، وستحاسب على آرائك القديمة لمَ غيرتها .. لمَ بذلت .. لمَ تلؤنت .. لمَ التفت؟ .. كان راضياً بالقليل ؛ فإذا به يستشرف لحياة المترفين والأغنياء .. لمَ يا عبد الله؟ ، لمَ غيرت طريقك؟ ، إنها سكّة واحدة ومنهج واحد هو الصحيح ، «فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِيقَةِ إِلَّا الضَّلَالُ» [يونس: ٣٢] .. أخي ، الحقُّ واحد لا يتعدد ، فعلى منهجهك فائتُك . «فَلَمَّا آتَيْنَا أَنَّا بَشَّرْتُ مِثْلَكُمْ بِوْحَىٰ إِلَيْنَاهُ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَجْدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُوهُ وَوَبِلٌ لِلْمُشْرِكِينَ» [فصلت: ٦] .

كن على طريق واحد ، واعلم أن الكتاب والسنّة بفهم سلف الأمة منهجه معصوم ، ليس لأنني أقول ذلك ؛ بل لأنَّ الله - تعالى - أمر بذلك ؛ قال - تعالى - : «وَالسَّائِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَصْحَارِ وَالَّذِينَ أَتَيْعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ» [التوبه: ١٠٠] ، وقال - سبحانه - : «فَإِنَّمَا مَأْمَنَّا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَلَدُنْ تَوْلِيَّا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ» [البقرة: ١٣٧] .

سئل أبو علي .. الحسن بن علي بن الجوزياني : كيف الطريق

إلى الله؟، فقال : الطرق إلى الله كثيرة ، وأوضحتُ الطرق وأبعدها عن الشبه : اتباعُ السنة قولًا وفعلاً وعزمًا وعقدًا ونيةً؛ لأنَّ الله يقول : «وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا» [النور: ٥٤]. فقيل له : كيف الطريق إلى السنة ، فقال : مجانبُ البدع ، واتباع ما أجمع عليه الصدرُ الأول من علماء الإسلام ، والتبعادُ عن مجالسِ الكلام وأهله ، ولزومُ طريقة الاقتداء ، وبذلك أمرَ النبي ﷺ بقوله - سبحانه وتعالى - : «ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ أَتَيْنَ مِلَّةً إِبْرَاهِيمَ» [التحل: ١٢٣].

وقال أبو الحسن الوراق : لا يصل العبد إلى الله إلا بالله وبموافقة حبيبه ﷺ في شرائعه ، ومن جعل الطريق إلى الوصول في غير الاقتداء ، يضلُّ من حيث يحسب أنه مهتد .

وقال أبو بكر الطمسوني : الطريق واضح ، والكتاب والسنة بين أظهرنا ، وفضل الصحابة معلوم لسبقهم إلى الهجرة ولصحبتهم ، فمن صحبَّ مَنِّ الكتاب والسنة وتغربَ عن نفسه والخلق ، وهاجر بقلبه إلى الله ؛ فهو الصادق المصيب .

وعن طريق البدع يقول الحسن : صاحبُ البدعة لا يزدادُ اجتهاداً؛ صياماً وصلاةً؛ إلا ازداد من الله بعْداً .

وعن أبي إدريس الخولاني أنه قال : لأنَّ أرى في المسجد ناراً لا أستطيع إطفاءها أحبُّ إلىَّ من أنْ أرى فيه بدعةً لا أستطيع تغييرها . فتمسَّك - أخي - بما كان عليه سلفك الصالح ، وابتعدُ عن البدع وأهلها وكن على طريق واحد «طريق السنة» ولا تلتفت .

قال بِنْ دَارَ بْنُ الْحَسِينِ : صَحْبَةُ أَهْلِ الْبَدْعِ تُورِثُ الْإِعْرَاضَ عَنِ الْحَقِّ .
وقال حَمْدُونَ الْقَصَّارُ : مِنْ نَظَرِي سَيِّدِ السَّلْفِ ، عُرِفَ تَقْصِيرُه
 وَتَخْلُفُهُ عَنْ دَرَجَاتِ الرِّجَالِ . قَالَ الشَّاطِئُ : « وَهَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -
 إِشَارَةٌ إِلَى الْمَثَابَرَةِ عَلَى الْاقْتِدَاءِ بِهِمْ ; فَإِنَّهُمْ أَهْلُ السَّنَةِ »^(١) .

إِخْوَتَاهُ : الطَّرِيقُ إِلَى اللَّهِ وَاحِدَةٌ لَا تَغْيِيرٌ أَبَدًا ، فَلَسْنَا نَجِدُ فِي مِنْهُجِنَا
 أَوْ نَغْيِرُهُ أَوْ نَبْدُلُهُ أَوْ نَعْدُلُهُ .. هُوَ مِنْهُجٌ وَاضْعَفُ ، وَالثَّبَاثُ عَلَيْهِ هُوَ سُرُّ
 الْوَصْوَلِ إِلَى اللَّهِ ، فَإِنْ غَيْرَتْ أَوْ بَدَأَتْ أَوْ جَدَّدَتْ أَوْ تَفَتَّتْ ضَيَعَتْ .

قال ابْنُ الْقَيْمِ : « لَوْ أَنَّ عَبْدًا أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ الْفَ سَنَةً ، ثُمَّ تَفَتَّ
 عَنِ اللَّهِ لِحَظَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ لَكَانَ مَا خَيَرَ فِي هَذَا أَعْظَمُ مِمَّا حَصَّلَهُ فِي الْأَلْفِ
 سَنَةٍ » اهـ .

فَيَزِ - أَخِي - وَلَا تَلْتَفَتْ .. انْطَلَقْ عَلَى طَرِيقٍ وَاحِدٍ .. انْطَلَقْ وَكَنْ
 وَاحِدًا لِوَاحِدٍ عَلَى طَرِيقٍ وَاحِدٍ؛ تَصْلِي بِإِذْنِ اللَّهِ .



الأصل الثالث

ما لا يكون بالله لا يكون

وما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم

تدبر هذه القاعدة؛ فاللزم **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** .. وهكذا بيانها :

ما لا يكون بالله لا يكون :

العبد ضعيف .. خلق في الأصل محتاجاً فقيراً؛ قال الله : **﴿إِنَّا بِهَا**
النَّاسَ أَنْثَرُ الْفَقَرَاءِ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال -
 تعالى - : **﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا﴾** [النَّاسَ: ٢٨] .. بأصل خلقتك
 ضعف؛ انظر قول الله تعالى : **﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَا تَبْعُطُونَ**
الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النَّاسَ: ٨٣]، وقال - تعالى - : **﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ**
وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَرَ مِنْكُمْ قَنْ أَحَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النُّور: ٢١].

وقال - سبحانه وتعالى - : **﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَعْلَمَةَ جَعَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا شَاءَ**
لِمَنْ تُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَلُهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا﴾ **١٦** **وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى**
لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ كَانَ مَشْكُورًا﴾ **١٧** **كُلُّاً ثُمَّ دُهُولًا**
وَهُتُولًا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءَ رَبِّكَ مَغْطُورًا﴾ **١٨** **انظر كَيْفَ فَضَلَّنَا بَعْضَهُمْ**
عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَقْضِيَّاً﴾ [الإِسْرَاء: ١٨-٢١].

«كُلًا نَمْدًا».. من المُمْدُ؟ الله ، ومن المستعان؟ الله .. الله هو المُمْدُ المعطى المستعان.. الله هو الموقف المسند.. الله هو الذي يصطفى ويختار.. فالسير في الطريق إلى الله مبني على الاصطفاء والاختيار ، فإذا اخترتك واصطفاك هيأك .

قال الله - تعالى - في حق يُوسُف عليه السلام : «فَاجْبَنَهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ» [القلم: ٥٠].. اجتباه فجعله .. فأنت ضعيف لا طاقة لك .. أنت ضعيف لا قوًّة ولا قدرة ولا حول لك إلا أن تكون بالله ، فما لا يكون بالله لن يكون ، فالذي أتني بك إلى المسجد ، الله ، والذي أنطق فأسمع ، الله .. الله هو الذي اجتباك وجعلك من الملتزمين .

أخي في الله ، حبيبي في الله على طريق الحق للوصول إلى الله ، الرَّمَّ **«إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»** ، تبرأ من حولك وقوتك والجأ إلى حوله وقوته واستعين به ، استعن به وتوجه إليه واطلب منه .. استعن به وحده يكن لك .. كما قال العلماء : كُنْ لِلَّهِ كَمَا يُرِيدُ؛ يكن لك فوق ما تريده .

قال رسول الله ﷺ : «احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سالت فاسأل الله ، وإذا استعن فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضررك بشيء لم يضررك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رُفعت الأقلام وجفت الصحف»^(١) .

(١) أخرجه : أحمد (١/٢٩٣) (٢٦٦٩) ، والترمذئي (٢٥١٦) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وصححه الألباني - رحمه الله تعالى .

«احفظ الله يحفظك»، والأعجب منها: «احفظ الله تجده تجاهك»، احفظ الله تجده معك، في اتجاهك، في الاتجاه الذي تريده تجده - سبحانه - تجاهك.

إنَّ كثيراً منا حين يسُيرُ في الطريق إلى الله فيصيِّبُه الفتور أو يُفتنُ فيتراجع؛ يظل طيلة الوقت يسألُ عن السبيل إلى الرجوع ، ويُعلمُ أسبابَ الرجوع ويأخذُ بالأسباب وينسى الله ، فلا تُؤتى الأسبابُ ثمرتها .. تقول له : افعلْ كذا ، يقول : فعلْتُ ولم أجد فائدة ، افعلْ كذا .. فعلْتُ ولا فائدة .. افعلْ ، فعلْتُ .. وفعلْتُ .. وفعلْتُ .. نعم : فعلْتُ ولم يستعنَ بالله فلم توجد ثمرة ، ولا توجد ولن توجد إلا بالله .

وتتأملُ معي هذا الحديث العظيم ليثبتَ يقينك في هذه القاعدة: ما لا يكون بالله لا يكون ، وأضعف إليها القاعدة الأولى والأصل الأول: عليك البداية وعليه التمام :

يقول الله - تعالى - في الحديث القديسي : «يا عبادي كُلُّكم ضالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُه فاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ، يا عبادي كُلُّكم جائعٌ إلا مَنْ أطعْمَتُه ، فاسْتَطِعْمُونِي أطعْمُكُمْ ، يا عبادي كُلُّكم عَارٍ إلا من كَسُوْتَه ، فاستكسوْني أكسُوكُمْ ، يا عبادي إنْكُم تُخْطِئُونَ باللَّيْلِ والثَّهَارِ ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، فاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرُ لَكُمْ ..»^(١).

هكذا : «كُلُّكم» ؛ إلا من سأَلَ الله فأعطاه .. فلن تُؤْتَنِ شيئاً إلا

(١) آخرَجَهُ : مسلم (٢٥٧٧).

وعند الله خزانته «وَمَا تُنْزِلُهُ إِلَّا يُقْدِرُ مَعْلُومًا» [الحجر: ٢١]. فاستعن بالله تُعْنَى واستشهده تُهْدَى . . وهكذا : ما لا يكون بالله لا يكون . . فكن لله يكن لك . وإلا فالضياع والتباهي ثم الهلاكة عيادةً بالله - تعالى . . «وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِإِلَهٍ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» [آل عمران: ١٠١].

ما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم :

إخوتي في الله ، ما كان لغير الله اضمحلٌ . . يضمحلٌ . . يتلاشى كالرسوم على رمال الشاطئ؛ تمحوها أمواج البحر . . نعم : ما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل .

شجرة الصُّفَصَاف تقطع في ثلاثة أشهر ما تقطعه شجرة الصنوبر في ثلاثين سنة ، ثم تقول لها : ما قطعتيه في ثلاثين سنة قطعته في ثلاثة أشهر ويُقال لي شجرة ولك شجرة ؛ فتقول لها الصنوبرة : اصبري حتى تهُبَّ رياح الخريف فإن ثبتت لها تم فخرُك ،

وعندما ثبتت دودة القرْ تُشَيَّع ، قامت العنكبوت تتسير وقالت لها : لك نسجٌ ولِي نسج ، فقالت دودة القرْ : أما نسجك فمصابيد الذباب ، وأما نسجي فأزيدية الملوك ، وحال اللمس يبيّن الفرق .

نعم : هكذا - أخي - إذا هبَّ رياح الابلاء فثبتت لها تم فخرُك .
فليست القضية بصورة العمل ؛ فقد تتساوى الأشجار في المناظر ويسمى الكل نسجاً ، ولكن البهرج لا يدوم ، قال الله - سبحانه وتعالى - :
«كَذَلِكَ يَغْرِبُ أَلَّهُ الْحَقُّ وَأَبْنِيَلُ فَأَمَّا الْزَّيْدُ فَيَذَهَّبُ جُفَاهُ وَأَمَّا مَا يَنْعَثُ أَنَّاسٌ فَيَنْكُثُ فِي الْأَرْضِ» [الرعد: ١٧]

فهؤلاء الذين يدخلون الطريق إلى الله لشهوّة أو لهوّي أو لحظة نفس لا ينتفعون ولا يستفيرون ، ولا يستطيع أحدهم أن يتم عملاً ولو كان بسيطاً ، وحين يبدأ في مشروع خير كطلب علم أو عبادة أو دعوة إلى الله ؛ تجده ينقطع ولا يداوم عليه ، ونسأل : ما السر؟!!

إن السر الدفين - إخوته - لعدم القبول هو وجود حظ للنفس في العمل ؛ فالذى يأتي إلى صلاة الجمعة - ليس لله - ، والذى يقوم الليل ، أو يصوم النهار ، أو يحفظ القرآن أو يتعلم العلم ، أو يؤمّ الناس ، أو يخطب الجمعة ، أو يعطي درساً ، أو .. أو .. وفي العمل شائبة من حظ النفس ؛ فعمله باطل باطل .. أحبطه حين عمله لحظة نفسه^(١) .

نعم : سُلْ نفسك : عملك لمن؟ ، واصدق ولا تهرب فالامر جد خطير .. ألا تخاف من هذه الكلمة التي تقضى المضاجع : «عملت ليقال وقد قيل ؛ فلا أجر لك عندي ، ثم يسحب على وجهه إلى جهنم»^(٢) .

اعلم - أخي - أنك إذا صليت ثم خرجت فلم تنهك صلاتك عن الفحشاء والمنكر - اعلم أنك ما صليت لله ، فلو صليت له لأعطيك الثمرة ، وإذا حفظت القرآن فلم تترجم نواهيه ولم تلزمك أوامرها ؛ فاعلم أنك لم تحفظه لله . فالله شكور .. يشكّر على القليل .. إذا عملت له عملاً لابد أن يثنيك ، ويشكرك عليه ، ويعطينك منه ، فإذا لم تُعط فائتهم عملك .. أتهم عملك فإن المعبودة كريمة .

(١) سأتأتي الحديث بتفصيل عن السر الدفين لعدم القبول في الأصل الخامس عشر.

(٢) جزء من حديث «أول من شعر بهم النار ثلاثة». أخرجه : مسلم (١٩٠٥).

فالإخلاص الإخلاص - إخوته.. الإخلاص وإلا الضياع..
الإخلاص وإلا الشروذ عن طريق الله.. الإخلاص حتى لا تضلوا
السبيل.. الإخلاص نور الطريق.

كان الفضيل بن عياض يقول : إذا كان يسأل الصادقين عن صدقهم ،
مثل إسماعيل وعيسي - عليهما الصلاة والسلام - ؛ فكيف بالكاذبين من
أمثالنا؟! ، وكان **عَلَيْهِمُ الْحَمْدُ إِذَا قَرَا :** ﴿وَتَبَلُّ أَخْبَارَكُم﴾ يقول : اللهم إِنَّكَ إِن
بَلَوْتَ أَخْبَارَنَا ، فَضَخَّتْنَا وَهَتَّكْنَا أَسْتَارَنَا ، عَافِيَّتْكَ هِيَ أَوْسَعُ لَنَا ، وَأَنْتَ
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

قال أبو عثمان المغربي : الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى
الخلق .

وقال سهل بن عبد الله التستري : نظر الأكياس في تفسير الإخلاص
فلم يجدوا غير هذا : أن تكون حركته وسكنه في سره وعلاناته لله
تعالى ، لا يمتاز به شيء؛ لا نفس ، ولا هو ، ولا دنيا .

وقيل لحمدون بن أحمد : ما بال كلام السلف أنسٌ من كلامنا؟!
قال : لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ، ورضاء الرحمن ، ونحن
نتكلم لعز النفوس ، وطلب الدنيا ، ورضاء الخلق .

يقول أخي الشيخ سيد العفاني - حفظه الله تعالى - : «فاعقل
درجتك ، ولا تزد عنده الخلق ، وجوهرك جوهر الفضائح ، وسيئ ما بينما
الأبرار ، وعد نفسك مع نفس الكاذبين ، وروحك مع أرواح الهلوك ،

وبدئك مع أبدان المذنبين . وأقبل على تعلم الإخلاص ، فوالله إنَّ علمه خيرُ العلم ، وفقهه الفقهُ كُلُّ الفقه .

يا إخوتاه ، الإخلاص مِسْكُ القلب ، وماء حياته ، ومدار فلاحه كُلُّه عليه .. نعم : بضاعة الآخرة لا يرتفع فيها إلا مخلص صادق .

ولا نجاة ولا فقة إلا مع سير السلف الصالحين .. فقد كان الشيوخ في قديم الزمان أصحابَ قَدَمْ .. والطلابُ أصحابَ ألم ، فذهب القدم والألم ، اليوم غُصَّةٌ ولا قِصَّةٌ ، وإن التربية بالقدوة خيرٌ وسائل التربية . والحكايات عن سَلِفنا جُنَاحٌ من جنود الله - تعالى - يُبَشِّرُ اللَّهُ بِهَا قلوبَ أوليائِه^(١) .

قال الإمام أبو حنيفة : الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحبُّ إلى من كثير من الفقهاء؛ لأنها آدابُ القوم وأخلاقُهم . قال - تعالى - : «لَئَنَّكُنَّ كَانُوكُنْ فِي فَضْلِهِمْ عِبَرَةٌ لِأُولَئِكَ الْمُتَكَبِّرُونَ» [يوسف: ١١١] . وقال - تعالى - لنبيه : «أَوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيهِمْ أَفْتَدَهُمْ أَفْتَدَهُمْ» [الأనعام: ٩٠] .

وانطلاقاً من هذا الكلام الطيب؛ فإن الحديث عن الإخلاص والمخلصين يزيد الإخلاص ، وهاتَّ طرفاً منه :

الصلوة :

قال أبو تميم بن مالك : كان منصورُ بن المعتمر إذا صَلَّى الغداةَ ظهرَ النشاطُ لأصحابِه ، فيحذِّرُهم ويكتُرُ إليهم ، ولعلَّه إنما باتَ قائمًا على أطراfe ، كلُّ ذلك يُخفي عليهم العملَ .

(١) صلاح الأمة في علو الهمة (١٠٦/١ ، ١٠٨) .

قال أبو إسحاق كعب الأحبار صاحب الكتب والأسفار : من تعبد لله ليلةً حيث لا يراه أحدٌ يعرفه ؛ خرج من ذنيبه كما يخرج من ليلته .

صَدَقَةُ السَّرِّ :

وهذا زين العابدين علي بن الحسين : يحمل جراباً الخبر على ظهره بالليل ، فيتصدق به ، ويقول : إن صدقة السر تطفئ غضب رب بَكْرَةَ الْمَوْلَى . ولما مات وجدوه يقوت منه أهل بيت بالمدينة . ولما جاءوا يغسلونه وجدوا بظهره آثار سواد ، فقالوا : ما هذا ؟ ، فقيل : كان يحمل جراباً الدقيق ليلاً على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة .

الصوم :

وإذا ذكر الصوم وإخفاؤه ، فاذكر داود بن أبي هند .. صام أربعين سنة لا يعلم به أهله ولا أحد ، وكان خڑازاً ، يحمل معه غذاءه من عندهم ، فيتصدق به في الطريق ، ويرجع عشاً فيقطّر معهم ، فيظنّ أهل السوق أنه قد أكل في البيت ، ويظنّ أهله أنه قد أكل في السوق .

قال إبراهيم بن أدهم : لا تسأل أخاك عن صيامه ، فإن كان قال : أنا صائم فرحت نفسي ، وإن قال : أنا غير صائم حزنت نفسي ، وكلاهما من علامات الرياء ، وفي ذلك فضيحة للمسئول ، واطلاع على عوراته من السائل .

الذَّكْرُ وقراءةُ القرآن :

قال ابن الجوزي : كان إبراهيم التخعي إذا قرأ في المصحف فدخل داخل ؛ غطاه .

وكان الإمام أحمد يقول : أشتتهي ما لا يكون .. أشتتهي مكاناً لا يكون فيه أحدٌ من الناس .

البكاء :

قال الثوري : البكاء عشرة أجزاء؛ تسعه لغير الله ، وواحد لله ، فإذا جاء الذي لله في السنة مرة فهو كثير .

قال ابن الجوزي : كان ابن سيرين يتحدث بالنهار ويضحك ، فإذا جاء الليل فكانه قتل أهل القرية .

سُودًا وكانت يُكم بِضا ليالينا
حزنًا مع الدهر لا يَلَى ويبلينا
أنسًا بقرهم قد عاد يُبكيانا
ليسق عهْدكم عهد السرور فما

حَالَتْ لفَقِيدَكُمْ أَيَامُنا فغَدَتْ
مَنْ مُبْلِغُ الْمُلْبِسِينَا عَنَّا بانتراهم
أَنَ الزَّمَانَ الَّذِي قَدْ كَانَ يُضْحِكُنَا
لِيُسْقِعَ عَهْدَكُمْ عَهْدَ السَّرُورِ فَمَا

قال محمد بن واسع : إنَّ كَانَ الرَّجُلُ لَيْكِي عَشِيرَةً سَنَةً وَامْرَأَةً مَعَهُ
فِي لِحَافَهُ لَا تَعْلَمُ بِهِ .

وقال سفيان بن عيينة: أصابتنى ذات يوم رقة فبكى، فقلت في نفسي: لو كان بعض أصحابنا لرق معى، ثم غفوت، فأثانى آتٍ في منامي، فرفسى، وقال: يا سفيان، خذ أجرك ممن أحببت أن يراك!!

العلم :

قال الشافعى : وَدِدْتُ أَنَّ الْخَلْقَ تَعْلَمُوا هَذَا (يعنى علمه)، على أَنَ لا يُنْسَبَ إِلَيَّ حِرْفٌ مِنْهُ .

وقال عَوْنَ بْنُ عَمَارَةَ: سمعتْ هشامًا الدُّسْتُوَانِيَّ يقول: وَاللَّهِ مَا أَسْتَطِعُ أَنْ أَقُولَ: إِنِّي ذَهَبْتُ يَوْمًا قَطُّ أَطْلَبُ الْحَدِيثَ أَرِيدُ بَهْ وَجْهَ اللَّهِ بَعْرَفَتْهُ . قال الذهبي: «والله ولا أنا!!» .. فالله اعف عننا!

أصحاب السرائر والخوف من الشهادة:

قال ابن المبارك عن إبراهيم بن أدهم: صاحب سرائر، وما رأيته يُظْهِرُ تَسْبِيحَهُ، ولا شيئاً من الخير، ولا أكل مع قوم إلا كان آخر من يرفع يده.

يقول إمام الوعاظ ابن الجوزي: اشتهر ابن أدهم ببلد، فقيل: هو في البستان الفلانى، فدخل الناس يطوفون ويقولون: أين إبراهيم بن أدهم؟، فجعل يطوف معهم ويقول: أين إبراهيم ابن أدهم؟!

وانظر إلى العلاء بن زياد العدوى الذي قال فيه الحسن البصري: إلى هذا والله انتهى استقلالُ الحزن .. قال له رجل: رأيت كأنك في الجنة، فقال له: وينحك!! أما وجد الشيطان أحداً يسخر به غيري وغيرك.

قال الإمام أحمد: كان سفيان الثوري إذا قيل له: رأيتك في المنام؛ يقول: أنا أغرف بنفسي من أصحاب المنamas.

وابراهيم التخumi الإمام الفقيه: كان لا يجلس إلى السارية في المسجد؛ توقياً للشهرة . وكان يقول: تكلمت ، ولو وجدت بدأ ما تكلمت ، فإن زماناً أكون فيه فقيه الكوفة لزمان سوء .

وكان يقول :

خَلَّتِ الْدِيَارُ فَسُدُّتِ غَيْرُ مُسْؤُدٍ وَمِنَ الْبَلَاءِ تَفْرِدِي بِالسُّؤْدُدِ
وكان محمد بن يوسف الأصبهاني (عروس الزهاد) لا يشتري زاده
من خباز واحد . قال : لعلهم يعرفوني فيحابونني ، فاكون متن أعيش
بديني .

وسفيان الثوري الذي قال عنه الإمام أحمد : أتدرى من الإمام ؟ ،
الإمام سفيان الثوري ، لا يتقدمه أحد في قلبي .. كان يَكْتَلِهُ لا يترك أحداً
يجلس إليه ، إلا نحو ثلاثة أنفس ، فغفل يوماً ، فرأى الحلقة قد كبرت ،
فقام فزِعًا ، وقال : أخذنا والله ولم نشعر ، والله لو أدرك أمير المؤمنين
عمر يَكْتَلِهُ مثلِي وهو جالس في هذا المجلس ؛ لأنقامه ، وقال له : مثلك
لا يصلح لذلك .

وكان يَكْتَلِهُ إذا جلس لإملاء الحديث ؛ يجلس مرعوباً خائفاً ، وكانت
السحابة تمُر عليه ، فيسكت حتى تمر ، ويقول : أخاف أن يكون فيها
حجارة ترجمنا بها .

وكان يقول : كل شيء أظهرته من عملي فلا أعدُ شيئاً ؛ لعجز أمثالنا عن
الإخلاص إذا رأه الناس .. رحمك الله يا سفيان ، والله درك يا إمام ، فكم
علمنَا أن نكون لله .

مر الحسن البصري على طاوس وهو ي沐لي الحديث في الحرم في
حلقة كبيرة ، فقرَبَ منه ، وقال له في أذنه : إن كانت نفسك تعجبك فثم
من هذا المجلس ، فقام طاوس فوراً .

وقال بشر : لا ينبغي لأمثالنا أن يُظهرَ من أعماله الصالحة ذرّة ، فكيف بأعماله التي دخلها الرياء؟!؛ فالأخواني بأمثالنا الكتمان!

وكان مالك بن دينار يقول : إذا ذُكر الصالحون فأفْ لِي وَتُفْ .

وقال الفضيل : من أراد أن ينظر إلى مُرَاء فلينظر إلى .

إخوتاه ، أطَلَنَا الكلام مع المخلصين لأهميته^(١)؛ فبدون الإخلاص لا يكون للأعمال أي قيمة ، ولن تصل إلى الله على الإطلاق ما دُمْتَ مرتاتي .. فابداً من الآن وكُن بِكُلِّكَ لِلله .. أخلصن وإلا فلا تَعْنَ .. أخلصن وإلا فالخسار والدمار وخراب الديار .

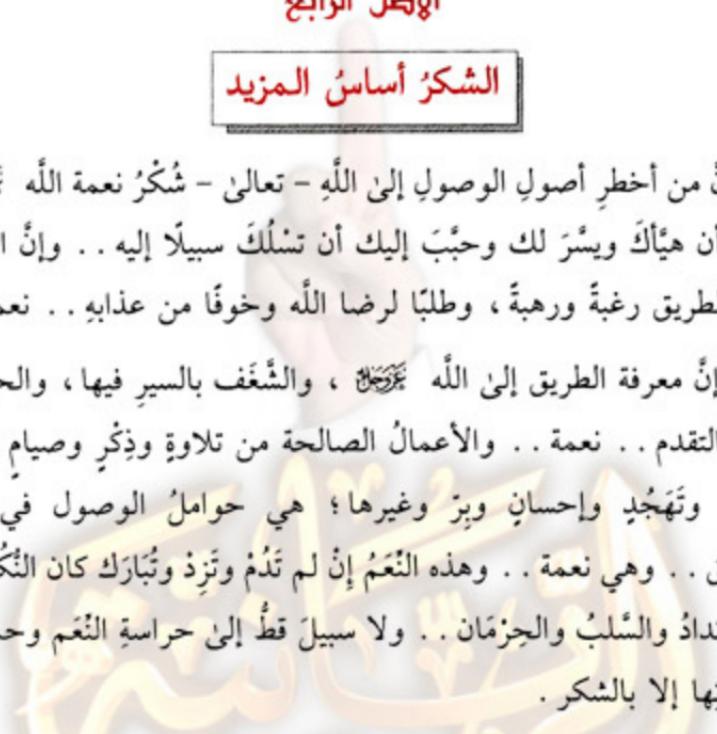
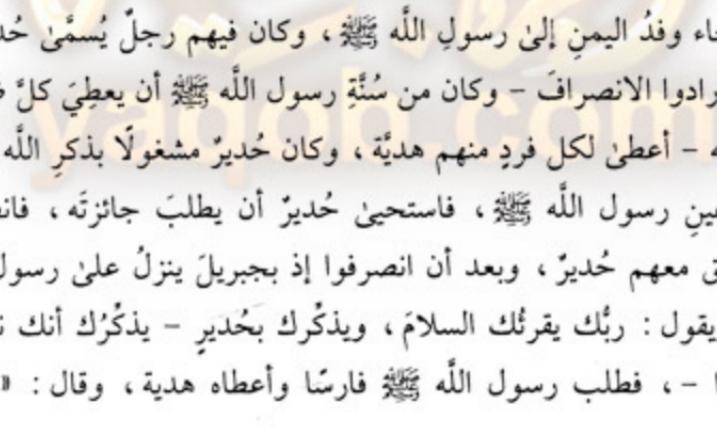
إخوتاه ، ما لا يكون بالله لا يكون ، وما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم .. فاستعينوا بالله وأخلصوا لله ، والزموا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ؛ تصلوا إلى الله - تعالى - بأمان واطمئنان .



(١) راجع مزيداً من الكلام عن الإخلاص والمخلصين في كتابنا «منطلقات طالب العلم» ، الباب الأول «الإخلاص»؛ فهو مهم .

الأصل الرابع

الشكُرُ أساسُ المزید

إنَّ من أخطرِ أصولِ الوصولِ إلى اللهِ - تعالى - شُكُرُ نعمةِ اللهِ  على أنْ هيأكَ ويسَرَ لكَ وحبيبكَ إلَيْكَ أَنْ تسلُكَ سبيلاً إلَيْهِ . . وإنَّ اختيارَ هذا الطريقَ رغبةً ورهبةً ، وطلبًا لرضا اللهِ وخوفًا من عذابهِ . . نعمةٌ . وإنَّ معرفةَ الطريقِ إلى اللهِ  ، والشُغفُ بالسِيرِ فيها ، والحرصُ على التقدُم . . نعمةٌ . والأعمالُ الصالحةُ من تلاوةٍ وذِكرٍ وصيامٍ وقيامٍ وتَبَّاعِلٍ وتَهْجِيدٍ وإحسانٍ وبرٍّ وغيرها؛ هي حواملُ الوصولِ في هذا الطريقَ . . وهي نعمةٌ . وهذه النعمَ إنَّ لم تَدْمُ وتَزِدْ وتُتَبَارَكَ كَانَ التَّكُوشُ والارتِدَادُ والسُلُبُ والجزمانُ . . ولا سبيلاً قطُّ إلى حراسةِ النعمِ وحمايتها وزياطيتها إلا بالشكُرِ .

جاءَ وفَدُ اليمِنِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَكَانَ فِيهِمْ رَجُلٌ يُسَمَّى حُدَيْرًا ، فَلَمَّا أَرَادُوا الْاِنْصِرَافَ - وَكَانَ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ يَعْطِيَ كُلَّ ضَيْفٍ جَائِزَتَهُ - أَعْطَى لِكُلِّ فَرِيدٍ مِنْهُمْ هَدِيَّةً ، وَكَانَ حُدَيْرٌ مُشْغُولاً بِذِكْرِ اللهِ بَعِيدًا عنْ عَيْنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَاسْتَحْيَى حُدَيْرٌ أَنْ يَطْلَبَ جَائِزَتَهُ ، فَانْطَلَقُوا وَانْطَلَقُ مَعْهُمْ حُدَيْرٌ ، وَبَعْدَ أَنْ اِنْصَرَفُوا إِذَا بِجَبَرِيلَ يَنْزَلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَقُولُ : رَبِّكَ يَقْرَئُكَ السَّلَامَ ، وَيَذْكُرُكَ بِحُدَيْرٍ - يَذْكُرُكَ أَنَّكَ نَسِيَتَ حُدَيْرًا - ، فَطَلَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَارْسَأَ وَأَعْطَاهُ هَدِيَّةً ، وَقَالَ : «الْحَقُّ

القوم فاسأل عن حُدِيرٍ ، وأعطيه هديته ، وأقرِّنه مثي السلام» ، فلما أدركَهم قال : أين حُدِيرٌ؟ ، قالوا له : هذا ، فقال له : رسول الله يقرِّنك السلام ويقول لك : «إِنَّهُ تَبَيَّنَكَ فَذَكْرُهُ بِكَ اللَّهُ» ، فقال حُدِيرٌ : **«اللَّهُمَّ كَمَا لَمْ تَنْسِ حُدِيرًا، فاجعِلْ حُدِيرًا لَا يَنْسَاكَ»** ؛ فكان أكثر الناس ذكرًا لله . **«اللَّهُمَّ كَمَا لَمْ تَنْسِ حُدِيرًا، فاجعِلْ حُدِيرًا لَا يَنْسَاكَ»** .. هذا هو موطئ الشاهد ، وهو شُكر النعمة على مقتضاها وهو طلب الزيادة من خير الآخرة .

أيها الإخوة ، ابتلي أحد الإخوة بمرض السكر فقال لي : استفدت من هذا المرض فائدة : ما عرفت نعمة الله في أن أيام ثلاثة ساعات متواصلة إلا بعد المرض ، فكل ساعة أقوم لأدخل الحمام!! .. فهل نَمْتَ أنت ثلاثة ساعات متواصلة؟! .. هل شكرت هذه النعمة؟! .. إذا ابتليت - سُؤال الله لنا ولكل العافية - ستعرف هذه النعمة وتقدِّرُها .

هذا الرجل المكسور يقول : أوَدُّ أن أتقلب على جنبي!! ، فهل تقلب على جنبيك وأنت نائم؟! ، هل شكرت هذه النعمة؟ ، هل فكرت مرة أن تذهب إلى المستشفيات لترى المُقْعَدين الذين لا يملكون حراكا؟ ، لترى في قسم الحرائق ما فعلته النار في الوجوه الجميلة؟ ، ولترى في قسم العيون مَنْ فقدوا نورَ أعينهم؟!

كان بكر بن عبد الله المزني يقول : يا ابن آدم ، إذا أردت أن تعلم قدر ما أنعم الله عليك ، فغمض عينيك .

هل رأيت أصحاب المحاليل المعلقة؟! ، وهل رأيت من عاشوا حياتهم في المستشفيات ثم ماتوا؟! .. كل هذه النعم التي فقدوها الآخرون وملكتها أنت ؟ هل شكرت الله عليها؟!

وأنَّ أَيْهَا الْمُرِيضُ الْمُبْتَلِى ، هَلْ شَكَرْتَ النِّعَمَ الَّتِي أَنْتَ غَارِقٌ فِيهَا؟! ، هَلْ نَظَرْتَ إِلَى مَنْ هُمْ أَشَدُّ مِنْكَ بِلَاهَ؟! .. وَإِنْ كُنْتَ أَنْتَ أَشَدُّ الْمَرْضَى الْمَا؛ فَهَلْ شَكَرْتَ اللَّهَ عَلَى أَنْ ابْتَلَاكَ فِي جَسَدِكَ ، وَحَفِظَ لَكَ قَلْبَكَ فَمَلَأَهُ بِالْإِيمَانِ؟! .. هَلْ شَكَرْتَ هَذِهِ النِّعَمَةَ: نِعَمَةُ الْإِيمَانِ وَالْتَّوْحِيدِ الَّتِي هِي أَعْظَمُ النِّعَمِ .

عَنْ مُجَاهِدِ فِي قَوْلِهِ - سَبَحَانَهُ تَعَالَى - : «وَأَنْسَيْتَ عَلَيْكُمْ نِعَمَ ظَاهِرَةً وَبِأَطْلَانَةً» [لَقَمَانٌ: ٢٠] ، قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

وَعَنْ سَفِيَّاً بْنِ عُيَيْنَةَ قَالَ : مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى الْعَبَادِ نِعَمَةً أَفْضَلُ مِنْ أَنْ عَرَفُوهُمْ : أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . قَالَ : وَإِنْ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ كَالْمَاءِ فِي الدُّنْيَا .

لَقَدْ كَانَ مِنْ هَذِي رَسُولِ اللَّهِ تَعَالَى تَذَكِّرٌ فَاقِدُ النِّعَمَةِ؛ لِيُعَظِّمَ عَنْهُ شَكْرُهَا؛ فَكَانَ تَذَكِّرًا إِذَا أَوَى إِلَى فَرَاشِهِ يَقُولُ : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا، وَكُمْ مَنْ لَا كَافِي لَهُ وَلَا مَأْوَى»^(١) . فَذَاكَ أَبِي وأُمِّي وَنَفْسِي يَا رَسُولَ اللَّهِ تَعَالَى .

قَالَ سَلَامُ بْنُ أَبِي مَطْبِعٍ : دَخَلْتُ عَلَى مَرِيضٍ أَعْوَدُهُ ، فَإِذَا هُوَ يَئِنُّ ، فَقَلَّتْ لَهُ : اذْكُرِ الْمَطْرُوحِينَ فِي الطَّرِيقِ ، اذْكُرِ الَّذِينَ لَا مَأْوَى لَهُمْ ، وَلَا لَهُمْ مَنْ يَخْدُمُهُمْ . قَالَ : ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَمْ أَسْمَعْهُ يَئِنُّ . قَالَ : وَجَعَلَ يَقُولُ : اذْكُرِ الْمَطْرُوحِينَ فِي الطَّرِيقِ ، اذْكُرِ مَنْ لَا مَأْوَى لَهُ وَلَا لَهُ مَنْ يَخْدُمُهُ .

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٧١٠) .

إخوته، شكر النعم أصل؛ قال الملك: «وَإِذْ تَأْذَنَ رَبُّكُمْ لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ إِذَا عَذَابِ لَشَدِيدٍ» [إبراهيم: ٧].

قال ابن القيم - رحمة الله تعالى -: «مَنْ أَنْعَمْتُ عَلَيْهِ بِنِعْمَةٍ فَلَمْ يَشْكُرْهَا؛ عُذْبَ بِتِلْكَ النِّعْمَةِ ذَاتِهَا وَلَا بِذَلِكَ اهْرَأَهُ». .

عرفت - أخي الملتم - ما سبب الفتور؟ لأنك لم تشكر نعمة الالتزام، فلو شكرت هذه النعمة لزادك الله التزاماً؛ قال - تعالى -: «وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادُهُمْ هُدًى وَمَا تَنْهَمُ تَقُولُهُمْ» [محمد: ١٧]. . لكن لما لم تشكر نعمة الالتزام فترت؛ وتراجع التزامك.

قال الحسن: إن الله ليجده ليُمْتَحِنَ ليُمْتَحَنُ بالنعم ما شاء، فإذا لم تشكر، قلبها عليهم عذاباً.

نعم: كل من أعطي أولاداً فلم يشكر نعمة الأولاد يعذب بهم، ومن نعم الله عليه بزوجة فلم يشكر نعمة الزوجة عذب بها، ومن أعطي مالاً فلم يشكره؛ عذب به ولا بد.. وهكذا: كل نعمة لا تشكرها تعذب بها.. وسير الشكر استخدام النعمة في طاعة المنعم.

شكَرْ حَدِيرَ النِّعْمَةِ وسَأَلَ اللَّهَ أَلَا يُسْبِيهِ ذِكْرَهُ، وَلَوْ أَتَنِي أَنَا الَّذِي جَاءَ وَنِي بِالْهَدِيَّةِ لَشَغَلَنِي فَرْحَيَ بِالْهَدِيَّةِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ.. وَاقِعٌ مُّرَّ.. كثِيرٌ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ مُشْغُولٌ بِالنِّعْمَةِ عَنِ الْمُنْعِمِ، مُشْغُولٌ بِالْبَلِيَّةِ عَنِ الْمُبْتَلِيِّ، مُشْغُولٌ عَنِ اللَّهِ بِغَيْرِ اللَّهِ، نَاسٌ لَهُ، غَافِلٌ عَنْهُ.

- إخوته، سليمان بن داود، هذا النبي الصالح ابن النبي الصالح -

عليهم السلام - ؛ ما شغله الملك - الذي ما آتاه الله أحداً من العالمين قبله ولا بعده - عن الشكر والتحديث بنعم الله عليه .

قال - تعالى - : «وَوَرِثَ سُلَيْمَانَ دَاوِدَ وَقَالَ يَتَأْبِيَهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنْطَقَ الظَّفَرِ وَأُوتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١﴾ وَخَيْرَ لِسَلَيْمَانَ جُنُودُمْ بَنْ الْجِنِّ وَالْإِلَيْنَ وَالظَّنِيرِ فَهُمْ يُؤْزَعُونَ ﴿٢﴾ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَأَوْ أَتَمْلَى قَاتَ نَمَلَةً يَتَأْبِيَهَا النَّمَلُ أَذْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَعْطِمُكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٣﴾ فَنَبَسَ صَاحِبُكَا مِنْ قَوْلَهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ يَعْمَلَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَلَدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَلِيلًا تَرْضَنِي وَأَذْخَلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَكَ الْصَّالِحِينَ » [النمل: ١٦-١٩].

ولما حمل إليه عرش بلقيس قال : «هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّ يَسْتَوِيْنَ مَا شَكَرُ أَمْ أَكْفَرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِتَقْسِيمِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّ غَيْرِ كَرِيمٌ » [النمل: ٤٠].

عن الحسن قال : قال نبي الله داود : «إلهي؛ لو أُنْ لكل شعرة مني لسانين يسبحانك الليل والنهر والدهر، ما وفيت حق نعمة واحدة»^(١) .

قال ابن القيم : «حبس السلطان رجالاً فأرسل إليه صاحبه : اشكر الله فضرب ، فأرسل إليه : اشكر الله . فجيء بمحبوس مجوسي منطون ، فقييد وجعل حلقة من قيده في رجله وحلقة في الرجل المذكور ، فكان المجوسي يقوم بالليل مرات ، فيحتاج الرجل أن يقف على رأسه حتى يفرغ ، فكتب إليه صاحبه : اشكر الله . فقال له : إلى متى تقول : اشكر الله ، وأئي بلاء فوق هذا؟ ، فقال : ولو وضع الزئار الذي في وسطه في

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، لابن القيم (١٢١).

وسيطك ، كما وُضِعَ القيدُ الذي في رجليه في رجلِك ؛ ماذا كنتَ تصنع ؟ ؟
فأشكر الله «^(١)» .

ودخلَ رجلٌ على سهيلِ بن عبد الله ف قال : اللصُّ دخل داري وأخذَ متابعي ، فقال : اشكر الله ، فلو دخل اللصُّ قلبك - وهو الشيطان - وأفسد عليك التوحيد ، ماذا كنتَ تصنع ؟ «^(١)» .

سُئلَ بعْضُ الصَّالِحِينَ : كيف أصبحت ؟ ، فقال : أصبحت وينا من نعم الله ما لا يُحصى ، مع كثيِّر ما يُعصى ، فلا ندرى على ما نشكر : على جميلٍ ما نَشَرَ ، أو على قبيحٍ ما ستر ؟

وقال آخر : أصبحت بين نعمتين لا أدرى أيتهما أعظم : ذنوب سترها الله على ؟ ، فلا يقدر أن يعيِّرني بها أحد ، ومحبة قذفها الله في قلوبِ الخلق ؛ لا يبلغها عملي .

نعم - إخوتي في الله - : من أصول السير إلى الله : كُلُّما أنعم الله عليك بنعمة فأشكرها .. إذا حفظت آيةً فأشكرها ، إذا ذكرته لحظةً فأشكرها ، إذا أغفت لحيتك اشكراها ، إذا صليت جماعةً اشكراها ، إذا تعلمت مسألةً اشكراها ، إذا قمت ليلةً اشكراها ، اشكُر الله على نعمته ؛ لأنك إن لم تشكره تُعذَّب .. تلك سُنَّةُ ربانية ؛ فلذلك انشغل بشكر النعمة .

ولكن كيف يكون شكر النعمة ؟
الشُّكْرُ يقوم على خمسةِ أركان :

٢ - الثناء على الله بالنعم .

١ - الإقرارُ بالنعمة .

٣- الخضوع لله بالنعمـة . ٤- حب المـنعم .

٥- استعمال النـعمـة في شـكر المـنعم .

عن عَبْرَةَ بْنِ الْأَزْهَرِ قَالَ : كـان مـحـارـبـ بن دـثارـ - قـاضـيـ الـكـوفـةـ -
قـرـيبـ الـجـوارـ مـثـيـ ، فـرـيمـا سـمـعـتـ فـي بـعـضـ الـلـيلـ يـقـولـ :

«أـنـا الصـغـيرـ الذـي رـبـيـتـ فـلـكـ الـحـمدـ ، وـأـنـا الـضـعـيفـ الذـي قـوـيـتـ فـلـكـ
الـحـمدـ ، وـأـنـا الـفـقـيرـ الذـي أـغـنـيـتـ فـلـكـ الـحـمدـ ، وـأـنـا الـغـرـبـيـ الذـي وـصـيـتـ فـلـكـ
الـحـمدـ ، وـأـنـا الـصـعـلـوكـ الذـي مـؤـلـمـتـ فـلـكـ الـحـمدـ ، وـأـنـا الـعـزـبـ الذـي
رـوـجـتـهـ فـلـكـ الـحـمدـ ، وـأـنـا السـاـغـبـ (ـالـجـائـعـ) الذـي أـشـبـعـتـهـ فـلـكـ الـحـمدـ ،
وـأـنـا الـعـارـيـ الذـي كـسـوـتـهـ فـلـكـ الـحـمدـ ، وـأـنـا الـمـسـافـرـ الذـي صـاحـبـتـهـ فـلـكـ
الـحـمدـ ، وـأـنـا الـغـابـيـ الذـي رـدـذـتـهـ فـلـكـ الـحـمدـ ، وـأـنـا الـراـحلـ الذـي حـمـلـتـهـ
فـلـكـ الـحـمدـ ، وـأـنـا الـمـرـيـضـ الذـي شـفـيـتـهـ فـلـكـ الـحـمدـ ، وـأـنـا السـائلـ الذـي
أـعـطـيـتـهـ فـلـكـ الـحـمدـ ، وـأـنـا الدـاعـيـ الذـي أـجـبـتـهـ فـلـكـ الـحـمدـ؛ فـلـكـ الـحـمدـ
رـبـنـاـ ، حـمـداـ كـثـيرـاـ عـلـىـ حـمـدـيـ لـكـ» اـهـ .

لـلـهـ مـا أـحـلـنـى هـذـا الـكـلامـ!!.. نـعـمـ - وـالـلـهـ - : كـانـ كـلـامـهـ دـوـاءـ
لـلـخـطـائـينـ .

يـا رـبـ

«أـتـمـ نـورـكـ فـهـدـيـتـ؛ فـلـكـ الـحـمدـ ، عـظـمـ جـلـمـكـ فـفـقـرـتـ؛ فـلـكـ
الـحـمدـ ، بـسـطـتـ يـدـكـ فـأـعـطـيـتـ؛ فـلـكـ الـحـمدـ؛ رـبـنـاـ وـجـهـكـ أـكـرـمـ الـوـجـوهـ ،
وـجـاهـكـ أـعـظـمـ الـجـاهـ ، وـعـطـيـتـكـ أـفـضـلـ الـعـطـيـةـ وـأـهـنـاـهاـ ، تـطـاعـ رـبـنـاـ فـتـشـكـرـ ،
وـتـغـصـنـ فـتـعـفـرـ ، وـتـجـبـيـتـ الـمـضـطـرـ ، وـتـكـثـيـفـ الـضـرـ ، وـتـشـفـيـ الـسـقـيمـ ،

وَتَغْفِرُ الذَّنْبُ ، وَتَقْبِلُ التَّوْبَةَ ، وَلَا يَجْزِي بِأَلَائِكَ أَحَدٌ ، وَلَا يَتَلَقَّعُ مِذْهَنَكَ قَوْلُ قَائِلٍ » .. فَلَكَ الْحَمْدُ ..

إِخْوَتَاهُ ، الشَّكُرُ أساسُ المزِيدِ . أَحْبَبْتِي فِي اللَّهِ ، يَا مَنْ عَزَّمْتُمُ السَّيِّرَ إِلَى اللَّهِ ، اشْكُرُوا اللَّهَ .. اشْكُرُوا اللَّهَ .. اشْكُرُوا اللَّهَ يَرْذُكُمْ ..

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ هَمْدَانٍ : « إِنَّ النِّعَمَةَ مَوْصُولَةُ بِالشَّكُرِ ، وَالشَّكُرُ مَتَعْلِقٌ بِالْمَزِيدِ ، وَهُمَا مَقْرُونَانِ فِي قَرْنٍ ؛ فَلَنْ يَنْقُطِعَ الْمَزِيدُ مِنَ اللَّهِ - عَزُّ وَجَلُّهُ - حَتَّى يَنْقُطِعَ الشَّكُرُ مِنَ الْعَبْدِ » اهـ .

فَإِذَا رَأَيْتَ إِيمَانَكَ - أَخِي فِي اللَّهِ - لَا يَزِيدُ فَارْجِعْ إِلَى الشَّكُرِ ..
اشْكُرْ تَزَدَّدْ إِيمَانًا ؛ فَإِنَّ الشَّكُرَ أساسُ المزِيدِ .



الأصل الخامس

أَمْلَكْ عَصَا التَّحْوِيلَةَ

بعض الناس يركب القطار ويظن أن السائق هو الذي يقوده ، وينسى أن هناك عاملاً بسيطاً بيده عصا صغيرةً يتحول بها مجرى القطار كله رغم أنف السائق .. فعصا تحويلة قلبك في يد من؟!

أيها الإخوة : الصراط مذحضة مزلة، تزل عنه الأقدام، فمع طول السفر قد تتحول الأقدام عن الطريق دون شعور؛ ولذا ينبغي أن تملك عصا تحويلة فلا تسلّمها لأحد يتحكمك بها غير الله الذي يهديك الصراط المستقيم، صراط الوصول إليه - سبحانه .

فكم منا من سلم العصا لزوجته فتحوله من طالب علم إلى طالب دنيا ، وكم منا من سلمها لأولاده فتحولوا همه من طالب جنة إلى طالب مال .. عصا تحويلة قلبك في يد من؟ ، أسلّمتها لمن؟ ، لصاحب .. لزميل .. لشيخ .. لمدير؟!!

أخي في الله ، سل نفسك من المحكم فيك ، ومن الذي يسيطر قلبك ، هل الله وحده؟ ، أم أشياء آخر؟ .. قف مع نفسك وقفه لتسليم قلبك لله يقودك كيف شاء .

أخي في الله ، استسلم لله .. سلم قلبك لله؛ قال رسول الله ﷺ :

«ألا إِنَّ السُّلْطَانَ وَالْقُرْآنَ سَيَقْتَرِقانِ، فَدُورُوا مَعَ الْقُرْآنِ حِيثُ دَارٌ»^(١).
 نعم : إننا نحتاج أن نملك عصا التحويلة لندور مع القرآن ، لندور مع
 الشريعة ، لندور مع الدين ، مع الأمر والنهي ، فلا ثبُت على الباطل .
 أخي ، عصا التحويلة خطير ؛ فأيُّ لَعْبٍ بها قد يتسبَّبُ في أن يجده
 القطار عن طريق الوصول ، وربما اصطدم فانقلب ، فتحكُم - أخي - في
 كل ذرة من قلبك ، ووجهها إلى الله وحده ، حرك قطار نفسك في طريق
 واحد .. طريق الوصول إلى الله .

أخي ، سرت إلى الله سينين ثم تحولت ، فما الذي حولك؟! ، من
 الذي حولك؟! ، لم تغيرت فغيرت اتجاهك؟! ، لم انزلقت رجلك
 فخرجت عن طريق السير إلى الله؟!

إننا بحاجة - إخواته - لأن نملك عصا التحويلة ؛ لكي نعيد السير إلى
 الطريق مرة أخرى ، حتى وإن حذنا أو ثهنا أو خضنا أو ضللنا أو أخطأنا أو
 أذنبنا .. لأنَّ مِنَ الْعَوْدِ .. ارجع والله يُعِظِّمَكَ كريم يقبل توبة العبد إذا
 تاب ؛ قال الملك ﷺ : «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ
 يَحِيدُ اللَّهُ عَفْوًا رَّحِيمًا» [النساء: ١١٠] .. فُعِدَ إلى الله واتجه إلى الله ،
 وقف على طريق السير إلى الله .

بعصا التحويلة غير اتجاهك ، وحول قلبك إلى الصراط المستقيم ..
 عدل طريقك ، وأنظم سيرك ، ووجه قلبك تجذب الله غفوراً رحيمـاً .. أملك
 عصا التحويلة تسلك طريق الوصول إلى الله .



(١) آخرجة : الحاكم بلطف : «دوروا مع كتاب الله حيث ما دار» (١٤٨/٢) وبهذا النطق
 ضعفة الآلاني - رحمة الله تعالى - في السلسلة الضعيفة برقم (٣٦٥٥).

الأصل السادس

يَوْمَكَ يَوْمَكَ

أيها الإخوة ، الله - جل جلاله - حين خلق العبد ما خلقه إلا ليعبده؛ قال - تعالى - : «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّا وَالْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» [الذاريات: ٥٦] ، ثم أجرى الله اللطيف الرحيم تكاليفه على العبد فكلفة ما يُطيق .

قال الملك : «وَأَنْ شَاءَ اللَّهُ لَا غَنِتُكُمْ» [البقرة: ٢٢٠] ، يعني : ولو شاء الله لا يُؤركم في العنت والمشقة والتعب؛ ولكن الله يقول : «يُرِيدُ اللَّهُ لَا يُؤركُمْ أَيْسَرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ أَسْرَ» [البقرة: ١٨٥] ، ويقول - سبحانه وتعالى - : «يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُغْفِرَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَوِيفًا» [النّاس: ٢٨] .

فمن رحمة الله ولطفه بالعبد في التكاليف أنه كلفك كل يوم على قدر يومك؛ لكي لا يُغتنمك؛ ولذا فإن من ظلم العبد لنفسه أن يحمل هم غد .. من رحمته - سبحانه - أن جعل التكاليف يوما بيوم .. فلو صليت العشاء لا يطالبك الله بشيء أو فرض حتى أذان الفجر ، فكل وقت له واجب ، والله لا يطالبك إلا بواجب الوقت .. لا يطالبك - سبحانه - بواجب الغد .. أما اليوم فنعم .

إثناك لو ميّث الآن قبل صلاة العشاء ، لن يسألك الله عن العشاء .. لو ميّث قبل أن يمُرُ العام ويحوّل الح Howell؛ لن تُسأل عن زكاة هذه السنة .. لو

عشَتْ عُمْرَكَ وَلَمْ يَبْلُغْ مَالِكُ النَّصَابَ لَا يَسْأَلُكَ اللَّهُ عَنِ الزَّكَاةِ .. وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ .. فَمِنْ ظَلْمِ الْعَبْدِ لِنَفْسِهِ حَمْلٌ هُمْ غَدِيرٌ .

تَجْدُ الرَّجُلَ الْيَوْمَ جَالِسًا يَفْكُرُ : أَخْرُ الشَّهْرِ مِنْ أينْ سَنَاتِي بِالنَّقْوَدِ .. يَا أخِي ، أينَ أَنْتَ وَأينَ آخِرُ الشَّهْرِ؟! .. تَجْدُهُ يَتَكَلَّمُ وَيَقُولُ : الْأُولَادُ عِنْدَمَا يَكْبُرُونَ أينَ سَيَعِيشُونَ؟ .. يَا أخِي ، عِنْدَمَا يَكْبُرُونَ فَلَهُمْ رَبٌّ يَتَكَفَّلُ بِهِمْ أَحَنُّ عَلَيْهِمْ مِنْكَ .. وَهَكُذا يَحْمِلُ الْهَمُّ فَيَشْغُلُ بِهِ .

تَجْدُ الْأَبَّ فِي زَمَانِنَا - لِلأسَفِ الشَّدِيدِ - مُشْغُولًا بِشَرَاءِ قطْعَةِ أَرْضٍ لِيَبْنِي بَيْتًا لِلْأُولَادِ .. مُشْغُولًا بِسَعَادِتِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَرَاحَتِهِمُ الْبَدْنِيَّةِ ، فَيَنْسِى فِي خَضْمِ الْمَشَاكِلِ وَالظَّرُوفِ أَنْ يَعْرَفُهُمْ طَرِيقُ اللَّهِ .

سَبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ!! .. عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَانَ لَهُ أَحَدُ عَشَرَ وَلَدًا ذَكْرًا ، غَيْرُ الْإِنَاثِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الْمَوْتُ قَالَ لَهُ كَاتِبُهُ رَجَاءُ بْنُ حَيْوَةَ : لَوْ أُوصِيَتْ بِهِمْ أَحَدًا .. أَوْصِيَ عَلَيْهِمْ أَحَدًا يُفْقِدُ عَلَيْهِمْ .. قَالَ لَهُ ذَلِكُ؛ لِأَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَمْ يَتَرَكْ وَهُوَ يَمُوتُ إِلَّا عَشْرَةً دَرَاهِمَ .. أَحَدُ عَشَرَ وَلَدًا وَرَثُوهُمْ أَحَدُ عَشَرَ دَرَاهِمًا . قَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : وَاللَّهِ لَسْتُ أُوصِيَ بِهِمْ أَحَدًا إِلَّا اللَّهُ ؛ إِنْ يَكُونُوا صَالِحِينَ فَاللَّهُ يَتَولَّ الصَّالِحِينَ . ثُمَّ جَمَعُهُمْ فَقَالَ : إِنِّي أَمُوتُ وَلَمْ أَتُرْكُ لَكُمْ شَيْئًا ، غَيْرَ أَنْكُمْ مَا مَرَرْتُمْ بِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ عَلَيْهِ حَقًّا .

وَهَذِهِ الْكَلْمَةُ الْأُخِرَةُ كَلْمَةُ جَمِيلَةٍ .. أَنْكَ حِينَ تَرْكُ أَوْلَادَكَ وَيَكُونُ لَكَ ذَكْرٌ طَيِّبٌ عِنْدَ النَّاسِ؛ تَجْدُهُمْ كَلْمًا مَرًّا عَلَيْهِمُ الْأُولَادُ يَقُولُونَ : اللَّهُمَّ ارْحُنْ أَبَاكَ؛ لَقَدْ كَانَ رَجُلًا صَالِحًا .. وَهَذِهِ تَكْفِي .

نعم، هذا هو الوالد الحقيقي الذي عرف الطريق إلى الله فعرّفه لأبنائه، لا ذلكم الأب الذي ضيّع أيامه وانشغل بالدنيا... وتتعجب حين تعلم أن هذا الأب كلما انشغل بالأولاد ليرضيهما لا يرضون؛ فترداد المشاكل والهموم، ولو أنه شغل نفسه وعياله بالله لحلّت المشاكل.

إننا اليوم ونحن ننظر في واقع المسلمين، لا نجد أحدًا يعيش يومه فالكل ينظر للمستقبل وناسٌ أنه يمكن ألا يكمل يومه... قال ابن عمر: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح»^(١).

لقد تعجبت لبعض الأفكار والأخلاقيات التي وصلت إلى القرى!!، وكيف لا أدهش ونحن دائمًا نعد هؤلاء الفلاحين أصولنا... هؤلاء أولاد الأصول... هؤلاء هم الناس الذين يفهمون في الأصول، ألا لعنة الله على الظالمين، الذين لوثوا صفاء الريف الروحي.

أفسد التلفاز أخلاقياتهم، فتجد الرجل يرسل ابنته لتعلم، وقد تسافر وحدها وترجع بالليل؛ فتقول له: لماذا تعلم البنات؟ فهي في النهاية ستتزوج وتجلس في البيت؛ يقول لك: حتى يكون في يديها «سلاح». وتقول له: وإذا طلقت بسبب السلاح أو لم تتزوج فما الحل؟!.. وهل كان مع أمها سلاح؟، هل كان معها «بكالوريا»؟!.. وأملأ أنت ماذا كان معها؟! ماذا كان سلاحهم؟!!.. إن السلاح هو رضا الله.

نعم: فهو لاء الناس ينظرون إلى المستقبل ولا يعيشون واقعهم،

(١) هذا الجزء من الحديث موقوف على ابن عمر. انظر: «جامع الأصول»، لابن الأثير (ج ١٨٥).

لا يعيشونَ يومَهُم .. وانظرْ حولَك لترى النَّاسَ كَيْفَ يَعِيشُونَ ، وَكَيْفَ تَعْلَقَتْ قُلُوبُهُمْ بِالْغَدِ .

ولهذا؛ فليكِي تصل إلى رضا اللَّهِ ، عِشْ يَوْمًا بِيَوْمٍ ، فاجعل كلَّ يَوْمٍ هدفًا تصلُّ به إلى أعلى درجة في الجنة .. ابْدأ يَوْمًا جديداً من صلاة الفجرِ ، وضع في حسابك أنه آخرُ يَوْمٍ في عُمُرِكَ؛ ولذا تسأْل نفسك ماذا سأَفْعَلُ؟ .. أَوْلُ شَيْءٍ: أَتُوبُ - اللَّهُمَّ تَبْ عَلَيْنَا يَا رَبَّ .

إِخْوَتَاهُ، هل فيكم أحدٌ يَوْدُ أن يتوبَ الْيَوْمَ؟ ، إذا قال: نَعَمْ ثَبَّتْ ، قلتُ: مِنْ مَاذَا؟ ، قال: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، قلت: لَسْتَ صَادِقًا .. إِنَّ الَّذِي يَقُولُ: ثَبَّتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَرِيدُ أَنْ يَخَادِعَ اللَّهَ .. أَخْيَ ، قَلْ لِي ، حَدَّدْ لِي مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ ثَبَّتْ؟ ، مِنَ النَّظَرِ لِلنِّسَاءِ ، مِنَ الْكَذِبِ ، مِنَ السُّجَاجِيرِ ، أَمْ مِنَ الْئَوْمِ عَنْ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، أَمْ مِنَ النَّفَاقِ .. ثَبَّتْ مِنْ مَاذَا؟! مِنْ أَكْلِ الْحَرَامِ ، أَمْ مِنْ حَلْقِ الْلَّحْيَةِ .. مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ثَبَّتْ؟!

ساعطيكَ فرصةً أخْرَى الْآنَ - وسُمِّها اختباراً إن شئت - : استحضرْ في ذهنِكَ الْآنَ ذَنْبَكَ ، ذَنْبَكَ ثَقِيلًا وَتُبْ مِنْهُ الْآنَ .. إِذَا هِيَ نَتُوبُ .. الْآنَ .. اللَّهُمَّ تَبْ عَلَيْنَا يَا رَبُّ .. اللَّهُمَّ تَقْبِلْ تَوْبَتَنَا ، وَاغسلْ حَوْبَتَنَا ، وأُجِبْ دَعْوَتَنَا .

نَعَمْ - أَيْهَا الْإِخْرَةُ - تَبْدأُ الْيَوْمَ فَتَقُولُ : الْيَوْمَ سَأَتُوبُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى النِّسَاءِ .. وَغَدِ يَارَبِّ .. وَعَهْدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، الْيَوْمَ لَنْ أَنْظَرَ وَلِيَكَنْ مَا يَكُونَ ، الْيَوْمَ تَحدُّ .. الْيَوْمَ سَاحْفَظُ رُبْعًا ، الْيَوْمَ سَأَقْرَأُ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءَ ، الْيَوْمَ سَأَصْوُمُ ، الْيَوْمَ سَأَتَصْدِقُ بِخَمْسَةِ جَنِيَهَاتٍ ، .. وَهَكَذَا كُلَّ يَوْمٍ تَسأْلُ

نفسك : ماذا سأعمل اليوم؟ ، فيكون لك خطأ عمل واضح ، فتنجز كل يوم شيئاً جديداً ؛ فيصبح لحياتك معنى .

يقول ابن القيم : «العبد من حين استقرت قدمه في هذه الدار فهو مسافر فيها إلى ربه ، ومدة سفره هي عمره الذي كتب له . فالعمر هو مدة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربه - تعالى - ، ثم قد جعلت الأيام والليالي مراحل لسفره ؛ فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى يتنهى السفر . فالكيسنقطن هو الذي يجعل كل مرحلة تصب عينيه ؛ فيهتم بقطعها سالماً غانماً ، فإذا قطعها جعل الأخرى نصب عينيه ولا يطول عليه الأمد فيقسوا قلبه ويمتد أمله ويحضره بالتسويف والوعود والتأخير والمظلل ، بل يعد عمره تلك المرحلة الواحدة فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته ، فإنه إذا تيقن قصرها وسرعة انقضائها هان عليه العمل وطوعت له نفسه الانقياد إلى التزود ، فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره استقبلها كذلك ، فلا يزال هذا دأبه حتى يطوي مراحل عمره كلها فيحيد سعيه ويتنهج بما أعدده ليوم فاقته و حاجته ، فإذا طلع صبح الآخرة وانقشع ظلام الدنيا ؛ فحيثند يحمد سراء وينجل عن كراه ، فما أحسن ما يستقبل يومه وقد لاح صباحه واستبان فلاحة»^(١) .

إذا نريد أن نجعل كل يوم وحدة مستقلة نعيشها ونخطط لها في حينها ، أما «غداً» فلا علاقة لنا به ، فحينما يأتي سنفك له في حينه ، وأما «آمس» فقد انقضى وانتهى فلا علاقة لنا به أيضاً ، نحن الآن في «اليوم»

(1) طريق الهجرتين (١٨٩) .

ماذا سنصنع به ، هل سنضيّعه بالتفكير في «أمس» و«غدِّ» ، أم أننا سنجعل حياتنا وحدة مستقلة نعيشها يوماً بيوم لثُرْيَح ونستريح؟

أخي في الله ، فاتتك صلاة بالأمس ، فاعزم اليوم ، على ألا تضيّع فرضاً في جماعة .. بالأمس لم يكن في القراءة خشوع ولا فهم ولا تركيز ، وكانت دماغك مشغولة ، فتوكل اليوم على الله ، وارم حمولك عليه لتصل إليه ، وعش يومك الذي أنت فيه .

ابن يومك وارفع بناءه بأداء ما يرضي الله ، ويقرب إليه ، بحيث إنك لو مُت في هذا اليوم دخلت الجنة - اللهم ارزقنا الجنة يا رب .

ويقول ابن القيم أيضًا: «السَّنَة شَجَرَة، وَالشَّهُورُ فَرَوْعُهَا، وَالْأَيَّامُ أَغْصَانُهَا، وَالسَّاعَاتُ أُوراقُهَا، وَالْأَنفَاسُ ثُمُرُهَا، فَمَنْ كَانَ أَنفَاسُهُ فِي طَاعَةٍ فَثَمَرَتْ شَجَرَتِه طَبِيعَةٌ، وَمَنْ كَانَ فِي مُعْصِيَةٍ فَثَمَرَتْهُ حَنْظَلٌ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْجَدَادُ يَوْمَ الْمَعَادِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَبَيَّنُ حَلُوُ الشَّمَارِ مِنْ مُرُّهَا» اهـ .

البنات اللواتي كُنْ يَتَزَيَّنُونَ في «الكواشير» في دمياط وانهدم عليهن البيت مُتَّن .. أربع عرائس والبنات اللواتي معهن مُتن جميـعا .. ولو كانت تلك البنت العروس تظن أنها ستموت لـمَا دخلت ، ولـمَا ذهبت ، ولـمَا عُلِّمَت بطاعة الله في آخر يوم تفارق فيه الحياة استعداداً للقاء الله .. وهكذا يومك ، لا بد أن تملأه بطاعة الله معتقداً أنه اليوم الأخير لك على الدنيا ، وإلا فسيأتيك الموت كما أتى العرائس ، فتموت ولم تصل إلى الله .

أخي في الله ، حبيبي في الله ، أوصيك بوصية الإمام المؤمن ابن قدامة رَحْمَةُ اللَّهِ إِذْ يَقُولُ : «فَاغْتَبْتُمْ - يَرْحُمُكُمُ اللَّهُ - حَيَاتُكُنَّ التَّفِيْسَةَ ، وَاحْتَفَظْ بِأَوْقَاتِكُنَّ الْعَزِيزَةَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَدَّةَ حَيَاتِكَ مَحْدُودَةَ ، وَأَنفَاسَكَ مَعْدُودَةَ ؛

فكلُّ نفسٍ يَنْفَضُّ به جزءٌ منك . والعمرُ كله قصيرٌ ، والباقي منه هو اليتيمُ ، وكلُّ جزءٍ منه جوهرةٌ نفيسةٌ لا عَدْلَ لها ولا خلفٌ منها ، فإنْ بهذه الحياة اليتيمَة خلوة الأبد في النعيم أو العذاب الأليم ، وإذا عادلت هذه الحياة بخلود الأبد؛ علمت أنَّ كلَّ نفسٍ يعادلُ أكثرَ من ألفِ ألفِ عامٍ في نعيم ، وما كان هكذا فلا قيمة له ، فلا تضيئْ جواهرَ عمرِك النفيسة بغير طاعةٍ أو قربةٍ تتقرب بها ؛ فإنك لو كان معك جوهرةٌ من جواهيرِ الدنيا لسألك ذهابها ، فكيف تفرط في ساعاتِك ، وكيف لا تحزن على عمرِك الذاهب بغير عوضٍ؟! اهـ .

وعن عمر بن ذر أنه كان يقول : «اعملوا لأنفسكم - رحمكم الله - في هذا الليل وسواده ، فإنَّ المغبونَ من غُبَّ خيرَ الليل والنهاير ، والمحرومُ من حُرمَ خيرَهما ، إنما جعلا سبيلاً للمؤمنين إلى طاعة ربِّهم ، ووبالآلام للآخرين للغفلة عن أنفسهم ، فأحْيوا لله أنفسكم بذكرِه ؛ فإنما تحيَا القلوبُ بذكرِ الله تعالى . كم من قائم لله - جلَّ وعلا - في هذا الليل قد اغْبَطَ بقيامه في ظلمةِ حضرته ، وكم من نائم في هذا الليل قد ندمَ على طولِ نومته عندما يرى من كرامة الله للعبادين غداً ؛ فاغتنموا ممَّر الساعاتِ واللَّيالي والأيام - رحمكم الله - ، وراقبوا الله - جلَّ وعلا - في كلِّ لحظةٍ ، وداوموا شكره» اهـ .

فذلك أطالبك - أخي في الله - لكي تصل إلى رضوان الله ﷺ بأمرِهم : هو أنْ تَخْصُّ لك عَزْلَةً شعوريةً تماماً عن المستقبل وما يجري فيه ؛ لأنك لا تعلمُ الغيب ؛ قال ربنا - جل جلاله - : «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّا ذَا تَكْسِبُ غَدَاءً» [لقمان: ٣٤] ، ولا تَخْفَ من المستقبل فالله معك يعينك ، وهو - سبحانه - لا يضيئْ عباده الصالحين ؛ «إِنَّ وَلَيْلَةَ الْأَلْيَى نَزَّلَ الْكِتَابَ

وَهُوَ يَتَوَلَّ الْمُنَاهِيْجِينَ ﴿الأعراف: ١٩٦﴾ ، فدفع عنك هَمَّ غَدِ لغَدِ ، فرَزَقْ غَدِ عند ربِك ، ولربما جاء «غَد» فلم يجدُك .. اللَّهُمَّ ارزقنا حَسَنَ الخاتمة .

فاللزم يومك الذي أنت فيه ، وابذلْ قُصَارَى جُهْدِك في أن تجعلَ من هذا اليوم مَطْيَةً للوصول إلى اللَّه - تعالى - ؛ فقد يكون آخر يوم لك في هذه الحياة .. فيومك يومك يا طالب الوصول .

يقول ابن القيم رحمه الله: «هلَّمْ إلى الدخول على الله ومجاورته في دار السلام بلا نصب ولا تعبر ولا عناء ، بل من أقرب الطرق وأسهليها؛ وذلك أنك في وقت بين وقتين وهو في الحقيقة عمرُك ، وهو وقتُك الحاضرُ بين ما مضى وما يُستقبل؛ فالذي مضى تصلحه بالتوبَة والنندم والاستغفار ، وذلك شيء لا تَعْبَ عليك فيه ولا نصب ولا معاناة عمل شاق؛ وإنما هو عمل القلب ، وتمتنع فيما يُستقبل من الذنوب ، وامتناعك ترك وراحة؛ ليس هو عملاً بالجوارح يشق عليك معاناته ، وإنما هو عزم ونية جازمة تُريح بَدْنك وقلبك وسررك ، فما مضى تصلحه بالتوبَة ، وما يُستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية ، وليس للجوارح في هذين نصب ولا ثعب؛ ولكن الشأن في عمرك ، وهو وقتُك الذي بين الوقتين؛ فإن أضفته أضعت سعادتك ونجاتك ، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين الذي قبله وبعده بما ذكرت؛ نجوت وفزت بالراحة واللذة والتعيم»^(١) .

هذه خلاصة الكلام أيها السائر : يومك يومك .



الأصل السابع

وليسفك بيتك

قال رسول الله ﷺ لمن سأله عن النجاة: «أمسك عليك لسانك، وليسفك بيتك، وابنك على خطيبتك»^(١). قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «أخسر الناس صفة من اشغل الناس عن نفسه، وأخسر منه صفة من اشغل بتنفسه عن الله».

وقال بعض السلف: «علامة إعراض الله عن العبد اشغاله بما لا يعنيه»، وقال بعض السلف أيضاً: «علامة الإفلاس كثرة الحديث عن الناس».

وقال ابن الجوزي: «إذا رأيت نفسك تأنس بالخلق و تستوحش من الخلوة؛ فاعلم أنك لا تصلح لله».

وقال ابن قدامة: «إذا رأيت الناس يُعجبون بك؛ فاعلم أنهم إنما يُعجبون بستر الله عليك؛ فلا تذهب عن الناس الذباب و حجرك مملوء بالعقارب».

مصيرنا عصرينا الانشغال بالناس، ومن الانشغال بغير الله الانشغال

(١) أخرجه الترمذى: ث: الزهد، ب: ما جاء في حفظ اللسان (٢٤٠٦) وقال: حديث حسن، وصححة الألبانى -رحمه الله تعالى-

بوسائل الإعلام والجرائد والمجلات والتلفاز .. وللأسف الشديد بدأ بعض الإخوة يقتني التلفاز ، وهذه نكسة .. نكسة ؟ قال العلماء : الفتنة أن تستحل ما كنت تراه حراما .. فالذى كان اعتقاده أن التليفزيون حرام ويدأ اليوم يدخله بيته فهو مفتون - كما ذكرنا .

وتجده يقول : أنا أدخلته بيتي لمتابعة نشرة الأخبار لأعرف أحداث العالم ، وأشاهد بعض القنوات المفيدة ، .. اعلم يا أخي ، أن الجلوس اليوم أمام نشرات الأخبار بغير ضوابط فتنة .. نعم : فتنة ؛ لأنك قد تنشغل بالعالم عن نفسك .

إخوته ، إن ما تشاهدونه في نشرات الأخبار من أحداث فلسطين - اللهم اكشف عنهم الكربة ، اللهم انتقم من اليهود وعجل بزوالهم - وكل ما حصل ؛ لا يساوي عشر معشار واحد على مائة ألف بالنسبة لما حصل في أماكن أخرى ، لكن الأماكن الأخرى أعموها عنكم وعثموا عليها ، وهذه فتوحها لكم تشاهدونها .. لماذا ؟ .. ما السر ؟ .. إن النيران التي يؤججونها داخل النفوس لها علة ، فتیقظ حتى لا تقع في الشرك .

إننا - إخوته - في زمن تصغير الكبراء وتصغير المسائل الكبيرة ؛ ولذلك فإن القضية التي تقلقكم دائمًا ، قضية فلسطين .. هذه قضية كبيرة جداً صعّروها في فلسطين ، ثم قاموا بتصغيرها أكثر في القدس .. والقضية أكبر من ذلك ؛ فلو أن إسرائيل أعطت الفلسطينيين دولة مستقلة ذات سيادة وحدود وكفّت عن قتل المسلمين .. فهل عندها تنتهي القضية ؟ لا .. عندهم انتهت ولكنها عندنا لم تنته ولن تنتهي .. القضية

قضية اليهود وليست فلسطين - اللهم انقذ من اليهود.. هذا مثالاً للإعلام في العالم؛ فما الفائدة من تضييع طاقات الشباب أمام هذه الشاشات؟!
 إنَّ الَّذِينَ يَجْلِسُونَ الْيَوْمَ أَمَامَ التَّفَازِ وَيَبُودُونَ أَنْ يُنْقذُوا فِلَسْطِينَ تَرَاهُمْ أَكْثَرَ النَّاسِ رُكُودًا؛ فَتَرَى الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَشْغُلُ بِسَمَاعِ الْأَخْبَارِ أَكْثَرَ مِنِ الْإِمْسَاكِ بِالْمَصْحَفِ.. يَظْلِمُ يَتَكَلَّمُ فِي الْأَخْبَارِ وَتَنْقِلُهَا أَكْثَرُ مِنْ ذَكْرِ اللَّهِ وَالدُّعَاءِ.. إِذَا فَالْتَّفَرَجَ وَالْأَنْشَغَالُ بِهَذِهِ التَّرَهَاتِ لَا يُنْقَذُ الْمُسْلِمِينَ.. لَابْدُ أَنْ تَفْهَمَ الْوَضْعَ.. نَرِيدُ أَنْ نَوْفَقَ التَّفَرَجَ وَالْأَنْشَغَالَ بِالنَّاسِ؛ لِأَنَّهُ مَوْقُفُ الْبَعْدِ الْمُذَلِّلِ الْمُتَخَازِلِ، وَلِنَتَشَغَّلَ بِأَنفُسِنَا أَوْلًا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، فَبِصَلَاحِ النَّفْسِ تَنْصَلُحُ الْأُمَّةُ وَيَكُونُ النَّصْرُ.

ولذلك يقول العلماء عن هذه القضية: الفتنة دوارة، ويسمون ما يجري الآن «دوامات الفتنة».. الدوامة هل رأيتها؟.. الفتنة مثلها دوارة، فمن الممكن وفي دوران الفتنة أن تطالنا.. فوارد جداً أن تجد الأعداء غداً أمام بيتك، فيا ثرى - ساعتها - هل ستثبت أم ستبيع دينك؟! وزوجتك ستثبت أم تبيعك؟! وأولادك هل سيثبتون على الدين أم أنهم سيتبررون ويتعلمون ويترشدون؟!!.. تدبر ما أقول لك وقف مع نفسك وقفه رجل يريد لها النجاًة.. انشغل بنفسك وأهل بيتك؛ قال الله تعالى - : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ مَاءَمُوا قُوَّا آنْفُسَكُمْ وَآهَلِيكُمْ نَارًا» [التريم: ٦].

نعم: إن انشغالك بنفسك هو الأصل؛ قال الله : «فَقَتَلَنَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكُفُّ إِلَّا نَفْسَكَ» [النساء: ٨٤]، وقال - تعالى - : «وَلَا تَرِدْ وَازِرَةً وَذَرْ أَخْرَى» [الأنعام: ١٦٤].. فالأسأل في الإسلام : أئُجُّ بنفسك أولاً.

أيها الأخ الكريم، سؤال واضح ومحدد وصريح ويحتاج إلى إجابة قاطعة : كيف حالي مع الله؟ .. أسألك في التو واللحظة : الآن ، هل الله راض عنك؟ أجب ولا تكن مغروراً .. لو مث اليوم في لحظتك هذه ، هل ستكون مع النبي محمد ﷺ في الجنة؟! .. هذه هي القضية التي أقصدها .. أن تجعل نفسك قضيتك ، ورضا ربك عنك هو موضوعك .

نعم يا شباب : كلنا مشغولون؛ ولكن ٩٩% من الشغل بالآخرين ، ٩٩% من الشغل بأنفسنا ليس بالله .. حتى الجزء اليسير الذي ننشغل فيه بأنفسنا لنصلحها لا يكون لله - ولا حول ولا قوة إلا بالله - ؛ فاللهم ارزقنا الإخلاص واجعلنا من أهله ؛ لذلك لا تغتر بعبادات تزديها ، وقربات تقوم بها ، وطاعات تقدمها ، وعبادات تغير بصورها وهي في الحقيقة من الفتنة .

أيها الإخوة في الله ، أحبتي في الله ، تأملوا معي هذه القصة : خرج رجل من الصوفية إلى الخلاء يعبد الله ، فوجد في الصحراء على الأرض غرابةً أعمى مكسور الجناح ، فوقف يتأمل ويقول : سبحان الله! غراب أعمى مكسور الجناح وفي صحراء! من أين يأكل ويشرب وكيف يعيش؟! فبينما هو ينظر إذ جاء غراب آخر فوقف ففتح الغراب الأعمى فمه ، فأطعمه الغراب الآخر في فمه وسقاه حتى شبع .

تعجب الرجل وقال : سبحان الله! .. والله لقد أراني الله آية .. أبغض هذا أعنى من أجل الرزق .. وأوى إلى كهف فأقام فيه ، فسمع به عالم فسأل عن مكانه ، فقالوا : أوى إلى كهف يعبد ، فمضى إليه وقال له : ما الذي حملك على ما صنعت؟؛ فحكى له قصة الغراب ؛ قال له :

سبحان الله! ولم رضيت أن تكون الأعمى؟!

سبحان الله العظيم ، كم في هذه القصبة من فوائد! .. منها : تصديق حديث رسول الله ﷺ : «تَضَرُّ اللَّهُ امْرَءاً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَاعَاهَا فَأَدَاهَا كَمَا سَمِعَهَا ، فَرُبَّ مُبْلِغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»^(١) .. فالله أرى الآية للرجل الأولى ، وأما الثاني فسمع بها فقط ولكنه انتفع بها أكثر من الأولى ؛ فكان أفضل من الأولى ، فلم لا تكون الأفضل؟!

لماذا ترضي أن تكون الأعمى؟! ، لم لا تكون أنت المبصر وتطعم العمى؟! ، لم ترض الذئبة؟! ، لم تؤثر النوم والكسل؟! .. هذا هو الواقع الآن في الأمة ، فشبّابها اليوم يفضلون العمى ، يريدون أن يناموا وغيرهم يعمل لهم ، يتذمرون من يحمل عنهم همومهم ، ويحل لهم مشاكلهم.

نعم - إخواته - : كثير منا يطالب دائنا بحقوقه ولا يلتفت إلى واجباته .. فقبل أن تطالب بحقك أذ ما عليك من واجب ، ولا شك أن أول الواجبات علينا أنفسنا .. وللأسف الشديد تجلس مع بعض الإخوة فتجد أحدهم يقول : أنا خائف على الأخ فلان ؛ لأنه ظل أيامًا لم يصل الفجر .. أقول له : حفظ أنت على نفسك .

نعم : لا مانع من أن تخاف على إخواننا؛ ولكن لا ينبغي أن نشغل بعيوبهم؛ قال رسول الله ﷺ : «يرى أحدكم القذارة في عين أخيه ، ولا يرى الجذع في عين نفسه»^(٢) . فإذا كنتم يا هؤلاء صادقًا في كلمتكم

(١) أخرجه : أحمد (٣٢٥)، وابن ماجه (٢٣٦)، وصححه الألباني - رحمه الله تعالى .

(٢) أخرجه : ابن حبان (١٨٤٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٥) موقوفا على أبي هريرة رضي الله عنه ، وانظر «الصحيحه» (٣٣).

«أخافُ على فلان» فاذهب إليه سراً، وابحث عنه لعله متورط في مشكلة ، لعل له عذرًا ، اذهب إليه وساعده على القيام للصلوة؛ وإنما فاكفه شرك ، ولا تعن الشيطان عليه ، وانشغل بنفسك فهذا أولى بك .

الزم نفسك وألزمها طاعة الله .. احملن هم نفسك ، فهذا أصل من الأصول المهمة .. وليسْعَكَ بَيْتُكَ .. انشغل بإصلاح قلبك ، وأمر صلاتيك ، وذكري لله ، وحفظك للقرآن ، وتعلمك للعلم ، ودعوتك إلى الله ، وتربيتك لأهلك وأهلك بيتك على الكتاب والسنّة .. وليسْعَكَ بَيْتُكَ .

* * *



الأصل الثامن

الصادقُ حبيبُ اللهِ

أريدُ أن أسألكَ سؤالاً ، وأجنبني بصرامةً : باللهِ عليكَ ، هل تريدينَ أن تدخلَ الجنةَ أم تودُّ أن يكونَ معكَ اليومَ مليوناً من الجنَّياتِ؟! ..
 لا تُحبِّبِي الآن لأنكَ ستُكذبُ ، ر بما تقولُ : الاثنين ، نجمع بينَ الخيرينِ ..
 أعطني المليونَ وأدخلني الجنَّةَ أيضاً ؛ أقولُ : لا .. لا يكونُ ؛ فالقضيةُ إما
 دنيا وإما آخرةٌ ؛ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : «إنَّ الآخِرَةَ قدْ تولَّتْ مُقْبِلَةً ، وإنَّ
 الدُّنْيَا قدْ تولَّتْ مُدْبِرَةً ، ولكلِّ منها بُنُونَ ؛ فكُونوا أَبْنَاءَ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا
 أَبْنَاءَ الدُّنْيَا»^(١) .

من انشغلَ بدنياه أضرَّ بآخرته ومن انشغلَ بآخرته أضرَّ بدنياه ولا بدُّ .

شعبةُ بنُ الحجاجِ أميرُ المؤمنينَ في الحديثِ قالَ : «لَازَمَتِ الْحَدِيثُ
 فَأَفْلَسْتُ ، وَلَزِمَّ أَخِي فلانَ دُكَانَهْ فَأَنْجَحَ وَأَفْلَحَ» .. قالَ : «فلانٌ» ظلٌّ ياتاجُرُ
 حتى أصبحَ صاحبَ ملايينِ ، أمّا أنا فطلبْتُ العلمَ وليسَ عندي الآنَ أيُّ
 شيءٍ ..

(١) آخرجه: ابن عدي في «الكامل»؛ لكن بلفظ: «أيُّها الناس إنَّ الدُّنْيَا عَرَضَ حاضرَ
 يأكلُ منها البرُّ والفاجرُ ، وإنَّ الآخِرَةَ وَعْدٌ صادقٌ يَحْكُمُ فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ ، يَحْقُّ فِيهَا
 الْحَقَّ وَيُبْطِلُ فِيهَا الْبَاطِلَ أَيُّها النَّاسُ ، فَكُونُوا أَبْنَاءَ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا أَبْنَاءَ دُنْيَا ، فَإِنَّ
 كُلَّ أَمْ يَتَبعُهَا وَلَدُهَا» (٤/٤٠٢).

ولذلك قال الإمام الشافعى : « لا يصلح لطلب هذا العلم إلا رجل ضربه الفقر . قالوا : ولا الغنى المكفى ؟ قال : لا .. يعني : حتى من كان عنده مال يكفيه لا يصلح لطلب العلم .. ولأجل ذلك أقول بدون مبالغة : كُلُّكم غير صالحين لطلب العلم ؛ لأننا - يا شباب - أصحاب دنيا . فلنكن صادقين وواضحين وصريحة .. فلو كنا نطلب الله لرضينا بالكتفاف .

بقي ابن مخلد .. ذلكم العالم تلميذ الإمام أحمد ، لما اشت肯ى إليه الطلبة الفقير ، قال : والله لقد جاء على يوم بعث فيه سراويلي لأشتري الكاغيد - الورق - ، وقال : ولقد كانت تمضي على أيام لا أذوق فيها طعاما ، فأنقل بين المزابل أكل ورق الكرنب الذي يلقى الناس .. نعم : هذا هو طالب العلم .. وهذه هي الآخرة .. وهؤلاء هم الصادقون .

قال رسول الله ﷺ : « طوبى لمن هدى الإسلام ، ورزق كفافا ، وقئنة الله بما آتاه »^(١) : وقال ﷺ : « اللهم اجعل طعام آل محمد قوتا »^(٢) ، وكان ﷺ لا يدخر لغدرا .

إخواته ، ما المقصود بالصدق ؟ .. لأن الناس اليوم قد صغروا قضية الصدق جدا ، فعندهما يأتي أحد ليتكلم في الصدق تنصرف الأذهان إلى قول الحق وصدق اللسان فقط ، والصدق معنٍ أكبر من ذلك بكثير ..

(١) أخرجه : الترمذى (٢٣٤٩) ، وصححه الألبانى - رحمة الله تعالى - في « صحيح الجامع » برقم (٣٨٢٦) .

(٢) أخرجه : البخارى (١٠٥٤) .

نعم : فنحن في زمن تصغير الكبير .. تصغير الأكابر والقضايا الكبيرة وتكبير الأصغر والمسائل الصغيرة .. والصدق أكبر مما تظنو.

الصدق - إخوته - هو الإسلام : قال - سبحانه وتعالى - : «**وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدْقِ وَصَدَقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُنْقُوتُ**» [الزمر: ٣٣] ، وقال ربنا : «**لَيْسَ الَّذِي أَنْتُمْ تُؤْلُوا وُجُوهَكُمْ فِي كُلِّ الْمُشْرِقِ وَالْمُغْرِبِ وَلَكُنَ الَّذِي مَنْ مَأْمَنَ بِاللَّهِ وَأَلْيَوْرَ الْآخِرَ وَالْمُتَبَعَّكَهُ وَالْكَتَبَ وَالْتَّيْنَ وَعَائِي الْمَالَ عَلَى حُمَّيْهِ دَوِيَ الْفَرِيفَ وَالْيَتَمَّ وَالْمَسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّاَلِيْنَ وَفِي الْإِقَابِ وَأَقَامَ الْعَصْلَوَهُ وَعَائِي الْزَّكَوَهُ وَالْمُؤْفُوتَ يَعْهُدُهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالْقَدِيرَينَ فِي الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَجِئَنَ الْبَانِيَهُ أُولَئِكَ الَّذِيْنَ صَدَقُوا**» [البقرة: ١٧٧].

فبعد أن ذكر الله أركان الإيمان وأركان الإسلام : قال : «**أُولَئِكَ الَّذِيْنَ صَدَقُوا**» .. إذا فالصدق هو الدين كله .. والتقوى أيضاً تشمل الدين كله ، فكل طاعة تقوى .

لكنَّ أَعْزَأَ أَنْوَاعَ الصَّدَقِ : صدق العزم؛ قال - تعالى - : «**طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ إِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَمَّا سَكَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ**» [محمد: ٢١] .. هذه الآية مبهرة .. اقرأها ثانية .. هل فهمتها؟ .. أسألك : لديك رغبة في دخول الجنة؟ .. لديك استعداد لقيام الليل الليلة من أولها لآخرها ، وتصبح صائمًا ، وتصدق بنصف ما تملك من مال؟ ، تقول : نعم ، إن شاء الله .. وهذا ما يقوله الله في الآية .. «**طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ**» .. فترى هذا الشخص يسمع الكلام فيتكلم كلامًا جميلاً ، فإذا عزم الأمر .. أتدري ما معنى هذه النقطة؟! ؟ أي إذا عزم الأمر لم تجد أحدًا ، «**فَلَمَّا سَكَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ**» .

يقول ربك : «وَأَقْسَمُوا بِإِلَهٍ جَهَدَ أَيْمَنَهُمْ لَئِنْ أَمْرَتُهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تَقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً» [التور : ٥٣].

عندى كراسة اسمها «آيات فاضحة» . . . أجمع فيها الآيات التي تفضح البواطن وتظهر الحقائق وتجلو الخفايا السيئة والردية ، آيات تُجسّ حين تقرؤها أنها تتكلّم عنك أنت وتنوّجه أصابع الاتهام إليك ، وهذه الآية منها ، آية فاضحة فعلاً؛ فزقت الكلام تجذبهم ، لكنّ وقت الجد والتنفيذ ما تجذب أحداً على الإطلاق - اللهم استرنا ولا تفضحنا ، اللهم عافينا ولا تبتلينا ، اللهم ثب علينا يا رب العالمين ، اللهم إنا نسألك أن ترزقنا الصدق والإخلاص ، اللهم ارزقنا صدق العزم معك يا الله . . . أمين .

إخواته ، الصادق في عزمه : هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها مثيل ولا ضعف ولا تردد؛ بل يستحق نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات

إخواته ، أصدقوا في عزمكم مع الله ، وكونوا على استعداد للوفاء بهذا العزم؛ فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال؛ إذ لا مشقة في الوعيد والعزم ، فإذا حُقّت الحقائق ، وهاجت الشهوات؛ انحلت العزيمة ولم يتحقق الوفاء بالعزم . قال - سبحانه تعالى - : «مِنْ أَمْوَالِنَّاسِ رِحَالٌ صَدَقُوا مَا عَنْهُدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فِيمْنَهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَمْ وَمَنْهُمْ مَنْ يَنْظَرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا» [الأحزاب : ٢٣].

عن أنس بن مالك تَعَالَى : «عُمَيْ أَنْسُ بْنُ النَّضِيرِ - سُمِّيَّتْ بِهِ - لِمَا شَهَدَ بِدَرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَكَبَرَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : أَوْلُ مَشَاهِدٍ قَدْ شَهَدَهُ

رسول الله ﷺ غبَثْ عنه !! ، أَمَا وَاللَّهُ ، لَئِنْ أَرَانِي اللَّهُ مَشَهِدًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَرِئَنِي اللَّهُ مَا أَصْنَعُ ، قَالَ : فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرُهَا ، فَشَهَدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحْدِي مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ ، فَاسْتَقْبَلَ سَعْدَ بْنَ مَعَاذَ ، فَقَالَ : يَا أَبَا عُمَرَ ، إِلَى أَيْنَ ؟ - تَنْبِيَهًا عَلَى خَطْبَهِ فِي الْإِنْهَازَمِ وَالْفَرَارِ - ، ثُمَّ قَالَ أَنْسٌ : وَاهَا لِرِيحِ الْجَنَّةِ !! أَجَدُهَا دُونَ أَحَدٍ . فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ، فَوُجِدَ فِي جَسِيدِهِ بَضْعُ وَثَمَانِينَ ؛ مِنْ بَيْنِ ضَرَبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمَيَةٍ . قَالَتْ عَمْتُ الرَّبِيعَ بَنْتُ النَّصْرِ : فَمَا عَرَفْتُ أخِي إِلَّا بِبَيْنَهُ . وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : «إِنَّ رِجَالًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ مَنْ قَضَى نَحْنُ بَعْدَمْ وَمَنْهُمْ مَنْ يَنْظَرُ وَمَا يَدْلُوُ بِتَدْبِيلِهِ» [الأحزاب: ٢٣] ^(١) .. لِلَّهِ ذَرْهُ مِنْ صَادِقِ رِبَانِي !! .. يَجُدُّ حَلاوةُ الْعَمَلِ قَبْلَ الشَّرْوِعِ فِيهِ ، يَجُدُّ رِيحَ الْجَنَّةِ قَبْلَ أَنْ يَقَاتَلَ !! .. وَمَا ذَكَرَ إِلَّا لِصَدِيقِهِ فِي الْوَفَاءِ بِالْعَزْمِ .

أيتها الإخوة الأحباب ، من الشواهد القوية على الصدق في قصة أصحاب الأخدود ^(٢) : أَنَّ الْوَلَدَ حِينَما تَعْلَمُ مِنَ الرَّاهِبِ التَّوْحِيدَ وَتَعْلَمُ مِنَ السَّاحِرِ الْكُفَّارَ ؛ كَانَ فِي دَاخِلِ قَلْبِهِ إِرَادَةٌ صَادِقَةٌ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ .. لَدِيهِ مِيُولٌ فَطَرِيَّةٌ لِلرَّاهِبِ لِكُلِّهِ يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ لَدِيهِ يَقِينٌ أَنَّ مَا هُوَ عَلَيْهِ هُوَ الصَّوَابُ .. قَالَ : حِينَ رَأَى دَابَةً تَقْطَعُ طَرِيقَ النَّاسِ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبُّ إِلَيْكَ فَاقْتُلْ الدَّابَةَ وَدُعِ النَّاسُ يَمْشُونَ .. فَلَمَّا كَانَ صَادِقًا فِي طَلَبِ الْحَقِّ أَرَأَهُ اللَّهُ آيَةً .. وَهَذِهِ نَقْطَةٌ مُهِمَّةٌ جَدًا ، أَنَّهُ صَدَقَ فَعَرَفَهُ اللَّهُ الْحَقُّ فَعَرَفَهُ وَسَارَ عَلَيْهِ وَثَبَتَ ، فَشَقَّ شِيَخُهُ أَمَامَهُ نَصْفَيْنِ وَشَقَّ صَدِيقَهُ أَمَامَهُ نَصْفَيْنِ ،

(١) متفق عليه : البخاري (٤٠٤٨) ، ومسلم (١٩٠٣) .

(٢) آخرجه : مسلم (٣٠٠٥) .

وَصُبِّعَدَ بِهِ إِلَى الْجَبَلِ ، وَأَدْخَلَ إِلَى الْبَحْرِ وَهُوَ فِي مِنْتَهِي الثَّبَاتِ . وَعَلَامَةُ الصَّدِيقِ أَنَّهُ دَلَّ الْمَلَكَ كَيْفَ يَقْتُلُهُ!! .. قَالَ الْغَلامُ لِلْمَلِكَ : لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمْرُكَ بِهِ ، خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانِتِي وَضَعْهُ فِي كَبِدِ قَوْسِكَ ثُمَّ قَلْ : بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغَلامِ ؛ حِينَذَاكَ تَقْتَلُنِي .. إِذَا فَالْغَلامُ هُوَ الَّذِي دَلَّ الْمَلَكَ كَيْفَ يَقْتُلُهُ .. وَلَمْ يَضْحَى بِنَفْسِهِ فِي سَبِيلِ الْقَتْلِ؟! ؛ حَتَّى يَسْمَعَ النَّاسُ كَلْمَةً : بِسْمِ اللَّهِ .. حَتَّى يَعْرَفَ النَّاسُ أَنَّ لَهُمْ مَعْبُودًا اسْمُهُ اللَّهُ .. هَذَا هُوَ الصَّدِيقُ .

شَاهِدْ ثَانٍ فِي الصَّدِيقِ مِنْ نَفْسِ الْقَصَّةِ .. الرَّاهِبُ لِمَا جَاءَهُ الْغَلامُ وَقَالَ لَهُ : كَانَتْ دَابَّةً تَعْتَرِضُ طَرِيقَ النَّاسِ فَرَمَيْتُهَا فَقَتَلْتُهَا ؛ قَالَ لَهُ الرَّاهِبُ : أَيْ بَنِيُّ ، أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي .. صِدْقٌ .. فَلَمْ يُخْفِ تِلْكَ الْأَفْضَلِيَّةَ .

حَتَّى السَّاحِرُ كَانَ صَادِقًا مَعَ نَفْسِهِ .. تَعْلَمُونَ أَنَّ السَّاحِرَ كَذَابٌ كَبِيرٌ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ صَادِقًا مَعَ نَفْسِهِ ؛ حِيثُ قَالَ لِلْمَلِكَ : إِنِّي كَبَرْتُ ، فَأَبْلَغْنِي غَلامًا أَعْلَمُهُ السُّحُرَ يَكْنِي لَكَ مِنْ بَعْدِي .. السَّاحِرُ يَقُولُ : أَنَا سَأَمُوتُ .. لَمْ يَدَاهِنْ نَفْسَهُ - وَإِنْ كَانَ يَدَاهِنُ النَّاسُ .

إِذَا فَالْغَلامُ صَدَقَ فَعَرَفَ ، وَالرَّاهِبُ صَدَقَ فَلَمْ يُخْفِ ، وَالسَّاحِرُ صَدَقَ فَلَمْ يَدَاهِنْ نَفْسَهُ .

وَإِنْ كُنْتَ تَعْجَبُ مِنْ قَوْلَنَا : صَدَقَ السَّاحِرُ مَعَ نَفْسِهِ ، فَالْعَجَبُ أَكْثَرُ لِمَنْ لَمْ يَصِلُوا حَتَّى إِلَى تِلْكَ الْدَّرْجَةِ «الصَّدِيقُ مَعَ النَّفْسِ» .. هُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدَاهِنُونَ حَتَّى عَلَى الْوَاقِعِ .. إِنْ بَعْضَنَا - وَلِلأسْفِ الشَّدِيدِ - يَكْذِبُ الْكَذِبَةَ فَتَكْبُرُ فِي كَذِبِهَا .. يَلْتَزِمُ بِالْكَذِبِ فَتَكْبُرُ الْكَذِبَةَ ، وَيَسْعَى أَنْهُ هُوَ

الذي كذبها في الأصل ، فيعيش كذبة «شيخ» أو «ملتزم» .. تماماً كالذى في يده بعمره يتافق منها؛ ولكن الناس ظنواها تمرة ، فقالوا : تمرة .. تمرة لذيدة في يده .. فأكلها !!! .. نعم : أكلها لمهانة نفسه .

قال محمد بن كعب : إنما يكذب الكاذب من مهانة نفسه عليه .

قال بعضهم : لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره .

أيضاً من القصص الطريفة ، أنه كان هناك رجل أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة ومعه خطاب ، فكان يمشي في الشارع فأعطي الخطاب لرجل يقرؤه له؛ لكن هذا الرجل كان ضعيف النظر ، فحاول أن يقرأ فلم يستطع ، فأخرج نظارته وقرأ له وقعد يفهمه الموضوع .. فقال الأمي في نفسه متعجبًا : النظارة فعلت كل هذا! . وقال للرجل : ما هذه النظارة العجيبة؟! ، قال له : هذه نظارة قراءة ، فذهب واشتري نظارة قراءة وليس بها وأخذ ينظر بها ولا يستطيع القراءة!! .. ونسي أن القضية ليست في النظارة .. القضية في الدماغ التي وراء النظارة .. فهمت ما أقصد؟!

بعض الناس يعتقد أنه طالما أطال لحيته ، وقرأ كتابين ، واستمع لبعض الشرائط ، وحضر بعض الدروس قد أصبح «الإمام» .. لا يا بنى ، القضية في القلب الذي وراء النظارة .. في القلب الذي وراء المظاهر .. نعم - إخواته - : لابد أن يوافق المظاهر المخبر؛ وإلا كذاين غشاشين مخادعين لأنفسنا قبل الناس .

قال عبد الواحد بن زيد : كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به ، وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له ، ولم أر أحداً قط أشبة سريره بعلانية منه .

وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول : إلهي ، عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة ، وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة ، ويبكي .

وقال أبو يعقوب التهرجوري : الصدق موافقة الحق في السر والعلانية .

إخواته ، اصدقوا في أعمالكم مع الله ؛ « فمخالفة الظاهر للباطن عن قصد هي الرياء ، وإن كانت عن غير قصد يفوّت بها الصدق ؛ فقد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفاً بذلك الوقار ، فهذا غير صادق في عمله ، وإن لم يكن مرائياً » .

سؤال : هل تحب أن ينصر الله الإسلام؟ .. أرأيت أن أمّة محمد ﷺ كلّ أمّة محمد ﷺ مثلّك .. لو أنّ الأمّة كلّها الصغار والكبار مثلّك بالضيّط .. بذنبيك وعيوبك وإيمانك وأعمالك .. تُنصر الأمّة؟! .. الأمّة تُنصر بالخلص .. اللهم اجعلنا من المخلصين .. هل تصلح أنت للنصر؟! .. لا يمكن؛ وإنما قلْتَ : نعم ، فأنت مغروز جدًا .. إذا أقول لك : إن قولك : إنك تحب أن ينصر الله الإسلام كذب .. أؤلّ نصر الدين أن تصلح نفسك .. من هنا البداية .

ولذا؛ فحينما أقول لك : هل تصلح أن تكون مجددًا للإسلام؟ ، فلا نقل : الله المستعان وتنصرف .. لا .. فكلمة « الله المستعان » هذه تحتاج إلى شغلي ، تحتاج إلى علم وعبادة ، تحتاج إلى صلة بالله ، تحتاج إلى جهد ليلى نهار .. فإن كنت صادقاً مع الله فتعال إلى هنا واحفظ لنفسك خندقاً .. احفظ بنفسك .. احفظ واتعب ؛ فأمر الدين يحتاج إلى شغيل وسهر وجهاد؛ فاصدق ولا تكن كذباً .

الإمام النووي لما جاءه الموت قالوا له : لم لم يتزوج ؟ ، قال : لو تذكري لفعلت .. نسيت .. والإمام ابن تيمية أيضاً مات ولم يتزوج .. أيضاً نسي .. سبحان الله العظيم ! نسوا الزواج ، تلكم القضية التي تكاد تطيش بعقول الشباب .. والملزم منهم على الخصوص .

نعم : فمن يوم أن يلتزم الشاب لا تجد شيئاً في رأسه يفكّر فيه ليلاً نهاراً إلا الزواج ، فصار الزواج شغله الشاغل وهمه الدائم؛ ولذلك أصبح الزواج عقبة .. فتراء إذا رأى منتبه قال : أتزوج هذه .. لا ، بل هذه .. وهكذا .. ليس هؤلاء المؤمن لهم أن يكونوا رجالاً ..

فهل هؤلاء هم الذين سيحملون الدين؟! .. هل هؤلاء هم الذين سينصر الله بهم الدين؟! ، أين الرجال؟! ، بل أين أنصاف الرجال؟! ، بل أين أبناء الرجال؟! .. يا حسرة على الرجال !!

إخواته ، إن الله ينصر الدين برجالي قضيتم الدين .. رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه .. رجال لا يعرفون إلا الله .. رجال يحبون الله ويحبهم .. رجال صادقون فعلاً .

إخواته ، اصدقوا الله في استقامتكم .. استقيموا بصدق ولا تلتفتوا إلى غير الله .

قال الشاعر :

أردناكم صرفاً فلما مزجتم	بعدهم بمقدار التفاصيل عثا
وقلنا لكم لا تُسكنوا القلب غيرنا	فأنسختم الأغيار ؛ ما أنتم مئا

قال جعفر الصادق : الصدق هو المجاهدة ، وأن لا تختار على الله غيره ، كما لم يختر عليك غيرك ؛ قال - تعالى - : «**هُوَ أَجْتَبَنَاكُمْ**» [الحج : ٧٨].

والصدق - إخواته - مفتاح الصديقية ، وأعلى مراتب الصدق : الصديقية ، وأعلى مراتب الصديقية لأبي بكر رضي الله عنه^(١) :

كما جاء في الحديث : «إِنَّ الرَّجُلَ لِيَصْدِقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِيقًا»^(٢) . فالصدق مفتاح الصديقية ، ومبؤها وهي غايتها ، فلا ينال درجتها كاذب ألبته ، لا في قوله ، ولا في عمله ، ولا في حاله .. قال الله - تعالى - عن أبي بكر رضي الله عنه : «**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَوَّنُونَ**» [الزمر : ٣٣] .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : والذي نفسي بيده ، إن الله سمي أبا بكر في السماء صديقاً .

فالذى جاء بالصدق : من هو شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله . فالصدق : في هذه الثلاثة . فالصدق في الأقوال : استواء اللسان على الأقوال ، كاستواء السُّبْلَة على ساقها . والصدق في الأعمال : استواء الأفعال على الأمر والمتابعة ، كاستواء الرأس على الجسد . والصدق في الأحوال : استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص ، واستفراغ الوسعي ، وبذل الطاقة ؛ فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق .

(١) انظر : صلاح الأمة (٥/٣٣ ، ٣٥ - ٣٦) .

(٢) متفق عليه : البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧) .

ويَحْسِبُ كَمَالِ هَذِهِ الْأَمْوَارِ فِيهِ وَقِيَامِهَا بِهِ؛ تَكُونُ صَدِيقِيَّتُهُ؛ وَلَذِلِكَ كَانَ لِأَبِي بَكْرِ الصَّدِيقِ تَعَالَى ذِرْوَةُ سَنَامِ الصَّدِيقِيَّةِ، سُمِّيَّ «الصَّدِيقَ» عَلَى الإِطْلَاقِ، و«الصَّدِيقُ» أَبْلَغُ مِنَ الصَّدُوقِ، وَالصَّدُوقُ أَبْلَغُ مِنَ الصَّادِقِ. فَأَعْلَى مَرَاتِبِ الصَّدِيقِ: مَرْتَبَةُ الصَّدِيقِيَّةِ؛ وَهِيَ كَمَالُ الْإِنْقِيَادِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، مَعَ كَمَالِ الْإِخْلَاصِ لِلْمُرْسِلِ.

قال ابن القيم : «قال شيخنا : والصادق أكمل من المحدث؛ لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديد والإلهام والكشف؛ فإنه قد سلم قلبه وسره وظاهره وباطنه للرسول ﷺ ، فاستغنى به عمما منه . قال : وكان هذا المحدث يعرض ما يُحدِثُ به على ما جاء به الرسول ﷺ ؛ فإن وافقه قبله ، وإن رده ، فعلم أن مرتبتة الصديقية فوق مرتبتة التحديد»^(١) .

والفهم عن الله ورسوله ﷺ عنوان الصديقية ، ومنتشر في الولايات النبوية ، وفيه تفاوت مراتب العلماء ، حتى عد ألفاً واحداً .

أخي في الله ، حبيبي في الله ، **الصادق حبيب الله** ، فهل تريد الله أم تريد الدنيا؟ .. هل تريد الجنة أم تريد شهواتك؟ .. تريد الرفعة في الدنيا أم تريد المنزلة العليا في الجنة؟ .. هذه قضية تحتاج منك أن تكون صادقاً فيها .. فاصدق الله ؛ فقد قال رسول الله ﷺ : «اصدق الله يصدقك»^(٢) .

(١) مدارج السالكين (١/٣٩ - ٤٠).

(٢) أخرجه : النسائي ، وصححه الألباني - رحمة الله تعالى - في صحيح السنن .

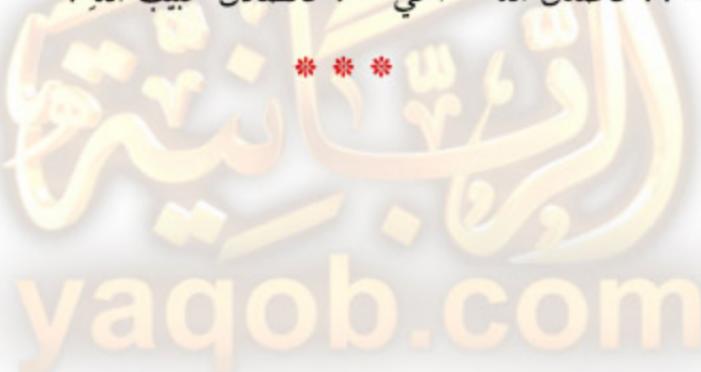
قال أبو سليمان : اجعل الصدق مطيتك ، والحق سيقك ، والله - تعالى - غاية طلبتك .

وقال ذو التون المصري : الصدق سيف الله في أرضه ، ما وضع على شيء إلا قطعه .

وقيل : من طلب الله بالصدق ؛ أعطاه الله مرأة يُنصر منها الحق والباطل .

وقال محمد بن سعيد المروزى : إذا طلبت الله بالصدق ؛ آتاك الله تعالى مرأة بيديك ، تُبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة .

وقال أبو سليمان : «من كان الصدق وسليته ؛ كان الرضا من الله جائزته .. فاصدق الله - أخي - ؛ فالصادق حبيب الله .



الأصل التاسع

دوماً في المعاملة السُّحْبُ من الرَّصِيدِ

في المعاملة مع الله - جل جلاله - دائمًا السُّحْبُ من الرَّصِيدِ .

قال الله - تعالى - : «فَإِنْ تَوَلُوا فَأَعْلَمُ أَنَّهَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِيَعْقِضٍ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَيْرَكَ مِنَ الْأَتَاسِ لَفَسِقُونَ» [المائدة: ٤٩].

وأنت سائرٌ في طريقك إلى الله تُفاجأ بأنك قد تعسرت عليك طاعة .. لست قادرًا على قيام الليل مثلاً .. ونسأل ما السبب؟!

قال سفيان : اغتبث إنساناً فحرمت قيام الليل شهراً .. وقال بعضهم : أصبت ذنبنا فأنا منذ أربع سنين إلى ورا .. أربع سنين في النازل بسبب ذنب .. قال الله : «إِنَّ الَّذِينَ تَوَلُوا مِنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَجْمَعَانِ إِنَّمَا أَسْرَرَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ بِيَعْقِضِ مَا كَسَبُوا» [آل عمران: ١٥٥].

وقال رسول الله ﷺ : «احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك^(١) .. تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» .. هذا هو معنى الكلمة «السُّحْبُ من الرَّصِيدِ» .

(١) أخرجه : أحمد (١/٢٩٣ ، ٣٠٧) ، والترمذى (٢٥١٦) وقال : حديث حسن صحيح ، وصححة الألبانى - رحمه الله تعالى - في صحيح السنن .

فلا بد أن يكون لك عند الله رصيده سابق من الخيرات يُثمر خيرات جديدة يُقبلك الله بكل تهمها ويكونان رصيدها لك في المستقبل .

وهكذا .. «وَالَّذِينَ آهَنَدُوا زَادَهُمْ هُدَىٰ وَإِنَّهُمْ لَتَقْوَىٰ نَفْرَاهُمْ» [محمد: ١٧] ، فكلما ازدادوا هدى آتاهم تقوى ، وكلما ازدادوا تقوى زادهم هدى .

إن التعامل مع ربنا الكريم عظيم ، وكلما كان رصيده عنده أعلى كان رزقك منه في الخيرات أوفر .

انظر إلى الثلاثة الذين نزلت عليهم الصخرة في الغار لما كانوا في الأصل وأول الأمر مخلصين ، بدليل أنهم توسلوا بأعمال كانوا فيها مخلصين ؛ وفهم الله للتوصيل بها .. يعني : كي يوفّقك الله فلا بد أن يكون لديك عمل ؛ قال - سبحانه تعالى - : «وَهُوَ وَلِيَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [الأنعام: ١٢٧] . فالولاية تحتاج للعمل .. إذا فحينما تأتي لتبدأ في التعامل مع الله فأنت تسحب من رصيده السابق .. من أعمال عنده ، فتستجلب بها الزيادة والجديدة .

والبداية - لا شك - تحتاج إلى معاناة ؛ لذا يقول العلماء : «من كانت له بداية مُحرقة ؛ كانت له نهاية مُشرقة» .. أن تكون الانطلاق الأولى قوية ومؤثرة وصحيحة .. قال أحد السلف : عالجت قيام الليل عشرين سنة ثم تمنت به عشرين سنة .. وقال آخر : حرست قلبي عشرين سنة فحرستني عشرين سنة .. نعم : لا بد دائمًا أن يكون السحب من الرصيد .

كنت مرة في سفر لبلاد غربي فرأيت في المسجد شابا قد امتلا وجهه بنور الإيمان ، فتعجبت من أن أجده في هذا الجو وجهاً يُذكر بالله ، فقلت

له : مَنْ أَنْتَ وَمَا الَّذِي جَاءَ بِكَ إِلَى هَنَاءِ؟ ، قَالَ لِي : مِنْذُ شَهْرٍ وَأَنَا مَاكِثٌ فِي الْمَسْجِدِ لَا أُخْرُجُ .. لِمَاذَا؟! .. قَالَ : لِأَنِّي عِنْدَمَا سَافَرْتُ إِلَى هَذَا الْبَلَدِ ابْنَهَرْتُ ، وَطَبِعًا كَنْتُ أَعْيُشُ فِي بَلْدِي فِي الْكَبْتِ ، فَلَمَّا جَئْتُ إِلَى هَنَاءِ وَجَدْتُ الْإِنْفَاتَاحَ ، وَلَا أَحَدٌ يَقُولُ لِي : أَينَ تَذَهَّبُ أَوْ مَنْ أَيْنَ أَنْتَ؟ ، فَالْحَيَاةُ مَفْتُوحَةٌ ، فَشَرَبْتُ لِلْخَمْرِ وَزَنَّا وَسَرْقَةً وَكُلُّ شَيْءٍ .

يَقُولُ : حَتَّى مَرِضْتُ مَرْضًا شَدِيدًا جَدًّا .. كَنْتُ أَظْلَلُ أَشْعَلُ حَتَّى أَسْقَطْتُ مِنْ عَلَى السَّرِيرِ وَأَنَا فِي الشَّقَّةِ وَحْدِي .. وَفِي لَحْظَةٍ سَعَلْتُ فَوْقَعْتُ فَحَاوَلْتُ أَنْ أَقُومَ فَلَمْ أَسْتَطِعْ .. فَقَلْتُ : يَا رَبُّ يَا رَبُّ يَا رَبُّ وَبِكِيتُ .. ثُمَّ أَفَقْتُ وَقَلْتُ : يَا رَبُّ!! لَكُنْ : بَأْيُ وَجْهٌ أَنَادِي رَبِّي؟!! .. فَأَنَا لَا أَصْلِي وَلَا أَصُومُ وَلَا أَعْرُفُ رَبِّنَا .. أَقُولُ يَا رَبُّ لِمَاذَا؟! .. قَالَ : وَسَاعَةً أَنْ وَقَعْتُ فِي ذَهْنِي هَذِهِ الْكَلْمَةُ؛ ارْتَعَشْتُ وَخَرَجْتُ أَجْرِي بِسُرْعَةٍ أَبْحَثُ عَنْ مَسْجِدٍ؛ فَوَجَدْتُ هَذَا الْمَسْجِدَ فَدَخَلْتُ فِيهِ وَلَمْ أُخْرُجْ حَتَّى الْآن!!

فَالَّذِي أَعْجَبَنِي - يَا شَبَابُ - مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ هُوَ كَلْمَةُ هَذَا الشَّابِ :

أَقُولُ : يَا رَبُّ؛ لَكُنْ يَا رَبُّ يَمْ؟!! .. مَاذَا لَدِيْعَنَدَ اللَّهِ كَيْ أَدْعُوهِ؟!! .. وَهَذَا هُوَ مَعْنَى : «تَعْرَفُ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّحَاءِ يَعْرَفُكَ فِي الشَّدَّةِ» .. هَذَا هُوَ مَعْنَى الْكَلْمَةِ الَّتِي أَقُولُهَا لَكُمْ دَائِمًا : «إِيَّاكَ أَنْ تَبْيَعَهُ فَيَبْيَعُكَ» .

وَهُوَ أَيْضًا مَعْنَى حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ : «وَأَمَّا ثَالِثُ فَأَعْرَضْ؛ فَأَعْرَضْ اللَّهُ عَنْهُ»^(١)، وَمَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَاهُمْ» [النُّور: ٦٧]. فَمَاذَا قَدَمْتَ وَمَا رَصِدْتُ لَكِي تَطْلُبَ؟! ، وَهَلْ تَرِيدُ مِنَ اللَّهِ وَأَنْتَ لَسْتَ

(١) أَخْرَجَهُ : مُسْلِمٌ (٢١٧٦) .

على ما يريده؟!! .. قال ابن القييم - عليه رحمة الله - : «كُنْ لِلَّهِ كَمَا يُرِيدُ؛ يَكُنْ لَكَ فَوْقَ مَا تُرِيدُ». فلذلك دوماً في المعاملة السُّبْحَ من الرصيد.

عن الشعبي: أَنَّ قَوْمًا مِنَ الْمَهَاجِرِينَ خَرَجُوا مَتَطْوِعِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَنَفَقُوا حِمَارُ رَجُلٍ مِنْهُمْ ، فَأَرَادُوهُ عَلَى أَنْ يَنْطَلِقَ مَعَهُمْ فَأَبَى ، وَانْطَلَقَ أَصْحَابُهُ مَرْتَحِلِينَ وَتَرْكُوهُ ، فَقَامَ فَتَرَضَّا وَصَلَّى ، ثُمَّ رَفَعَ يَدِيهِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي خَرَجْتُ مِنَ الدَّفِيْنَةِ (مَكَانٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْبَصْرَةِ) مَجَاهِدًا فِي سَبِيلِكَ وَابْتِغَاءَ مَرْضَايْكَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ تُحْيِي الْمَوْتَى وَتَبْعَثُ مِنْ فِي الْقُبُورِ . اللَّهُمَّ فَأَحْيِ لِي حَمَارِي . ثُمَّ قَامَ إِلَى الْحَمَارِ فَضَرَبَهُ ؛ فَقَامَ الْحَمَارُ يَنْقُضُ أَذْنِي ، فَأَسْرَجَهُ وَأَلْجَمَهُ ثُمَّ رَبَّكَهُ ، فَأَجْرَاهُ حَتَّى لَحِقَ بِأَصْحَابِهِ ، فَقَالُوا لَهُ : مَا شَأْتَكِ؟ ، قَالَ : شَأْنِي أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ لِي حَمَارِي ..

فانظر - أخي في الله - ماذا قال الرجل.. قال : خرجت مجاهداً في سبيلك وابتغا مرضايتك .. **نعم** : هذا هو الرصيد الذي سحب منه، ولذلك استجيبت دعاؤه . وهذا معنى التوسل بالعمل الصالح ؛ **﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مَنَادِيَا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنَّ مَا إِيمَنَا بِرَبِّكُمْ فَنَامَنَا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾** [آل عمران: ١٩٣] .. انظر إلى فاء الترتيب في قوله - تعالى - : **﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ﴾**. أي نتوسل لك بسرعة استجابتنا لمناديك أن تستجيب دعاءنا .

وانظر إلى البراء بن مالك الذي لقي المشركين وقد أوجعوا في المسلمين ، فقالوا له : يا براء ، إنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : «إِنَّكَ لَوْ أَقْسَمْتَ عَلَى اللَّهِ لَا يَرْبُكَ» فَاقْسِمْتَ عَلَى رَبِّكَ ؛ فَقَالَ : أَقْسِمُ عَلَيْكَ يَا رَبَّ لَمَّا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ ، وَالْحَقْتَنِي بَنْيَتِكَ ؛ فَمُنِحُوا أَكْتَافَهُمْ ، وَقُتِلَ البراء شهيداً .. **نعم** : مجَابُ الدُّعَوةِ .. يَسْأَلُ رَبِّهِ النَّصْرَ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَلِنَفْسِهِ الشَّهَادَةَ ؛ فِي جَاب

وبنالها . . سبحان الله العظيم يقسم على الله فَيُجِيبُ في التَّوْ وَاللَّحْظَةِ . .
نعم - إخواته - : لأنَّ له في الأصلِ رصيده يسحبُ منه .

والواعظ البر عمر بن ذر ، قال عنه كثير بن محمد : سمعت عمر بن ذر يقول : اللَّهُمَّ إِنَا أَطْغَنَاكَ فِي أَحَبِّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْكَ أَنْ تُطَاعَ فِيهِ : الإِيمَانُ بِكَ وَالإِقْرَارُ بِكَ ، وَلَمْ نُعَصِكَ فِي أَبْعَضِ الْأَشْيَاءِ أَنْ تُعَصِّنِ فِيهِ : الْكُفْرُ وَالْجَحْدُ بِكَ . اللَّهُمَّ فَاغْفِرْ لَنَا بِيَتْهَمَّا ، وَأَنْتَ قُلْتَ : ﴿وَاقْسِمُوا بِاللَّهِ جَهَنَّمَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمْوَثُ﴾ [التحل: ٣٨] ، وَنَحْنُ نُقْسِمُ بِاللَّهِ جَهَنَّمَ أَيْمَانِنَا لَتَبْعَثَنَّ مِنْ يَمْوَتْ ، أَفْنِرَاكَ تَجْمُعُ بَيْنَ أَهْلِ الْقِسْمَيْنِ فِي دَارِ وَاحِدَةٍ؟^(١) . نعم : قَدْمَ الطَّاعَةِ وَالْإِيمَانِ وَابْتَعَدَ عَمَّا يَغْضِبُ الرَّحْمَنَ ، فَحَرِيَّ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ .

وعامر بن عبد قيس الذي كان يسأل ربه أن ينزع شهوة النساء من قلبه ؛
فكان لا يُبالي أذكراً لقي أو أئنـى .. استجـاب الله دعـاهـه؛ لأنـ له عند الله
رصـيدـاً كـبـيراً من الصـالـحـاتـ .. فـما رـصـيدـكـ أـنتـ لـكـيـ تـطلـبـ؟!

حبيبي في الله ، أدـلـكـ علىـ ما يـزيدـ فيـ رـصـيدـكـ منـ الحـسـنـاتـ؟..
الـقـرـآنـ .. الـقـرـآنـ مـعـيـنـ لاـ يـنـضـبـ .. هوـ أـفـضـلـ الذـكـرـ وـأـحـسـنـ الـطـاعـاتـ؛
فعـضـ عـلـيـهـ يـسـاعـدـكـ فيـ الـقـيـامـ بـالـصـالـحـاتـ .

أخـيـ فيـ اللهـ ، قـدـمـ صـالـحـاـ تـجـذـ صـالـحـاـ .. اـمـاـ رـصـيدـكـ لـتـسـحبـ منهـ
عـنـ الـحـاجـةـ؛ فـدوـمـاـ فيـ الـمـعـالـمـةـ معـ اللهـ السـحـبـ منـ الرـصـيدـ .



(١) سير أعلام النبلاء (٦/١٨٥).

الأصل العاشر

القرآن قائدٌ وسائقٌ وحادي

قال الله - عز وجل - : «وَلَوْ شِئْنَا لَعَثَّنَا فِي كُلِّ قَرْبَةٍ نَذِيرًا ۝ فَلَا تُطِعُ الْكَافِرِينَ وَجَهَدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا» [الفرقان: ٥٢-٥١] .. وجاهدهم بماذا؟ ، بالقرآن .. كان الله - جل جلاله - يشير في هذه الآية إلى أن هذا القرآن بدليل من إرسال الرسل؛ فقد كفل الله به مهمة جميع الرسل؛ بأن يصنع القرآن رجالا كالرسل .

يقول ربى - وأحق القول قول ربى - : «وَقَاتُلُوا أَنْوَلًا أُنْزَلَ عَلَيْهِ مَا إِنَّمَا مِنْ رَبِّي» [العنكبوت: ٥٠]؛ فقال الله : «أَوَلَمْ يَكْنِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ الْكِتَابَ يُشَارِكُونَ عَلَيْهِمْ» [العنكبوت: ٥١] .. فهم يطلبون آية فعرفهم أعظم آية .. هي القرآن .

وقال رسول الله ﷺ : «ما مننبي قبلي إلا وأوتني ما على مثله آمن البشر ، وكان الذي أوتيته كتابا ينتلى ، وأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيمة»^(١) .

وفي سورة البقرة يقول الله - سبحانه وتعالى - : «أَفَ كَالَّذِي مَكَرَ عَلَى قَرْبَتِهِ حَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُمْكِنُهُ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا قَائِمَاتُهُ اللَّهُ يَمْكِنُهُ مَا شَاءَ

(١) متفق عليه : البخاري (٧٢٧٤) ، ومسلم (١٥٢) .

عَامِرٌ ثُمَّ بَعْثَمَهُ» [البقرة: ٢٥٩].. الرجل يقول : هل يعقل أن يحيي الله هذه .. كيف ؟ ! فرأاه الله الآية في نفسه .. أماته الله وأحياءه .. قال له : أرأيت ؟ ، قال : ما رأيت شيئاً .. قال له الله : كم لبشت ؟ ، قال : لبشت يوماً أو بعض يوم .. لا .. «فَانظُرْ إِلَّا طَعَامَكَ وَشَرَابَكَ لَمْ يَكُسُنَّهُ وَانظُرْ إِلَّا حِمَارَكَ» .. أراه الآية بعينيه ؛ «وَانظُرْ إِلَّا الْعِظَادَمَ كَيْفَ تُثْثِرُهَا ثُمَّ تَكْسُوُهَا لَحْمًا» [البقرة: ٢٥٩].. الحمار قَدَّامه .. هيكل عظيمي على الأرض ، بدأ العظم يقف ويتركب ببعضه في بعض ، وبعد العظم الغضاريف وبعدها كُسي اللحم ثم تفخ في الحمار الروح وتهق .. نظرت بأم عينك ؟ ! .. «فَالْأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَوِيرٌ» [البقرة: ٢٥٩]

وبعد هذه القصة مباشرة : «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّ أَرِيفٍ كَيْفَ تُعِيِّنَ الْمَوْتَنَ» [البقرة: ٢٦٠].. نفس السؤال .. لكن الله لم يره الآية في نفسه ؛ بل قال : «فَعَدَ أَرْبَعَةَ مِنَ الطَّيْرِ فَصَرَهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعَهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعِيًّا» [البقرة: ٢٦٠].. فالأخير أراه الله الآية في نفسه ، وسيدنا إبراهيم أراه الله الآية في الطير .. في الكون .

ونفس السؤال وجّهه العاصُ بنُ وائل السهمي ، وأبي بن خلف إلى النبي محمد ﷺ ، قال الله : «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَيَسِّيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُخْيِي الْعَظَلَمَ وَهِيَ رَمِيمَةُ» [يس: ٧٨] ؛ فأجاب الله عليه بقرآن : «فَلَمْ يُخْيِيَ الَّذِي أَنْشَأَهَا أَئِلَّا مَرَقَ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيهُ» ⑥ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْشَأْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ⑦ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلْ وَهُوَ الْخَلَقُ الْعَلِيمُ» [يس: ٨١-٧٩] .

إذا فالاول أرأه الله الآية في نفسه .. في حماره وطعامه ، وسيدنا إبراهيم عليه السلام أرأه الله الآية في الطير ، أما في أمّة محمد عليه السلام فالآية في القرآن ، هذه هي القضية .. قضية كلية .. أن ديننا كله مرده إلى القرآن والسنة .. القرآن هو الأصل والسنّة متممة ومكملة ومفسرة .. ولذلك لابد أن تذكروا دوما : **«كل ما شغلك عن القرآن فهو شوّم عليك»** .

بعض الناس طيلة الوقت يستمع إلى الشرائط ، ويحضر للمشايخ ، ويقرأ في كتب العلم وهو هاجر للقرآن .. كل هذا لن ينفعك .. القرآن هو الذي يصنعك .. القرآن يربّيك .. القرآن ينفعك .. فعليك بالقرآن حفظاً وتلاوةً وتدبّراً وتفسيراً ومذاكرة .. تفهم معنى الكلمة مذاكرة؟!

القرآن فيه علم العقيدة والفقه والسيرة والتفسير والتاريخ واللغة والبلاغة والرقائق .. كل شيء .. القرآن كلام الله .. كتاب مبارك يربّيك على العلم والعمل والدعوة .. القرآن هو طريقك لأن تكون رجلاً .. نعم : القرآن هو الذي يصنع الرجال ، وسيظل يصنعهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

نعم - إخواته - : القرآن مَصْنُعُ الرجال .. القرآن يُفْرِخُ الأبطال .. في حظيرة العبودية .. وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته .. فهل أنت من أهل الله؟ .. هل أنت من أهل القرآن؟! .. هل وهبْتَ كلَّ حياتك للقرآن؟ ، وهل وَضَعْتَهُ على قيمة أولوياتك؟ .. هل فكرت مرة أن تذاكره كما تذاكر الكتاب الدراسي بِجَدْ واجتهاد؟!

أخي في الله ، إذا كنت بعيداً عن القرآن فاعلم أنك محروم كلَّ

الحرمان ، ولو دُفِتَ لما ابتعدت .. تعالَى الله واعْكُفْ على القرآن لُضْئَعْ ، وإلا فما أبعَدَ الدوَاءَ عن تلك الأدواءِ .

قال - تعالى - : «وَلَوْ أَنَّ فُرْزَانَا شَيْرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمْ بِهِ الْمَوْقِعُ بَلْ يَلْهُ أَلْأَمْرُ جَيْبَعًا» [الرعد: ٢١] .

كان المشركون يطلبون من رسول الله ﷺ آياتٍ حسيةٍ : تسخير الجبال أو تقطيع الأرض أو تكليم الموتى ؛ فأنزل الله هذا القرآن ، وكأنَّ الآيات تُشير إلى أنَّ هذا القرآن ليس من شأنه ذلك بل أعظم من ذلك وهو صياغة النفوس ، وصناعة القلوب ، وإيجاد الإنسان الذي يرضاه الله له عبداً .

لقد تربَّى الصحابة - رضوان الله عليهم - أفضل جيل عرفه التاريخ على يد أعظم مربٍ عرفته البشرية .. تربُّوا بالقرآن ، فكان منهم ما تسمع وتقرأ .. إيمانٌ وثباتٌ تزول دونه الجبال .. وهاكَ مثالاً واحداً منهم :

عبدٌ بنٌ بِشَرٍ .. صَدِيقُ الْقُرْآنِ .. يقول عنه الدكتور عبد الرحمن

رأفت البasha - رحمه الله تعالى - :

«إن نشَدَتَهُ بين العبادِ وجدتَهُ التَّقِيُّ التَّقِيِّ قَوَامُ اللَّيلِ بأجزاءِ القرآنِ . وإن طَلَبَتَهُ بين الأبطالِ الْفَيْتَهُ الْكَبِيَّ الْحَمِيَّ خَوَاضُ المَعَارِكِ لِإعلاَءِ كَلْمَةِ اللهِ . وإن بحثَتَ عنه بين الْوُلَاهِ رأيَتَهُ القويُّ المؤْتَمِنُ على أموالِ المسلمينِ .

وقد استمع عبدُ بنٌ بِشَرٍ إلى مُصَبَّعٍ بنٌ عَمِيرٍ حين أتى المدينة وهو يرتَلُ القرآن بصوته الفِضُّليِّ الدافِئِ ونَبَرِتَهُ الشُّجُّيَّةُ الْأَسِرَةُ ؛ فشُغِفَ ابنٌ بِشَرٍ بكلام الله حُبًا ، وأفسحَ له في سُورَيَّدَاءِ قَلْبِهِ مكانًا زَخْبًا ، وجعلَه شُغْلَه

الشاغل؛ فكان يردد في ليله ونهاره وجله وترحاله حتى عرف بين الصحابة بالإمام وصديق القرآن^(١).

ومن الأئمة الذين رياهم القرآن، الإمام أبو بكر محمد بن أحمد بن سهل، **المعروف بابن النابليسي** : قال عنه أبو ذر الحافظ : سجنه بنو عبيد - الفاطميون - وصلبوه على السُّتْة، سمعت الدارقطني يذكُره ويبكي، ويقول : كان يقول وهو يُسلِّخ : «كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَبِ مَسْطُرًا» [الإسراء: ٥٨].

«قال أبو الفرج ابن الفرج : أقام جوهر - القائد - لأبي تميم صاحب مصر أبا بكر النابليسي، فقال له : بلغني أنك قلت : إذا كان مع الرجل عشرة أسمُهم، وجب أن يرمي في الرُّوم سهُمًا وفيها تسعة.. قال : ما قلت هذا، بل قلت : إذا كان معه عشرة أسمُهم وجب أن يرميكم بتسعة، وأن يرمي العاشر فيكم أيضًا؛ فإنكم غيرُتم الْمَلَة وقتلت الصالحين، وأدعيتم نُورَ الْأَلْوَهِيَّة.. فشَهِرَ ثم ضربَه، ثم أمر يهوديًّا فسلَّخَه..».

قال معمُّر بن أَحْمَدَ بْنِ زِيَادِ الصَّوْفِيِّ : أخبرني الثقة أنَّ أبا بكر سُلَيْخَ من مفرق رأسه، حتى بلغ الوجه، وكان يذكر الله ويصبر حتى بلغ الصدر، فزجمَه السلاخ، فوكَرَه بالسُّكين مَؤْضِعَ قُلْبِه فقضى عليه؛ وأخبرني الثقة : أنه كان إمامًا في الحديث والفقه، صائم الدهر، كبير الصُّولَة عند العامة والخاصة، ولما سُلَيْخَ كان يسمعُ من جسده قراءة القرآن^(٢).

(١) صور من حياة الصحابة (٣٥٦ - ٣٥٩).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤٨/١٦ - ١٤٩).

نعم : لما أطعْمَ القرآن لحْمَهُ ، وأسقَاهُ دَمَهُ .. لما اخْتَلَطَ القرآن بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ فَجَرِيَ فِي عُرُوقِهِ وَبَيْضَهِ جِسْهُ ؛ نَطَقَ جَسْدُهُ الطَّاهِرُ بِالْقُرْآنِ .. اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ ، اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا نِعِيمَ الْقُرْآنِ وَطَعْمَ الْقُرْآنِ وَلَذَّةَ الْقُرْآنِ وَحْلَوَةَ الْقُرْآنِ .. يَا كَرِيمُ يَا رَحْمَنُ .. يَا كَرِيمُ يَا مَثَانَ .

اللَّهُمَّ يَا رَبَّنَا اجْعَلْ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رِبِيعَ قَلْوِينَا ، وَنُورَ أَبْصَارِنَا ، وَجَلَاءَ أَحْزَانِنَا وَهُمُومِنَا وَغُمُومِنَا ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ حُجَّةً لَنَا لَا عَلَيْنَا ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ لَنَا فِي الدُّنْيَا إِمَامًا ، وَفِي الْقَبْرِ مُؤْنِسًا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا ، وَعَلَى الصَّرَاطِ نُورًا ، وَمِنَ النَّارِ سَيْرًا وَحِجَابًا .. اللَّهُمَّ يَا رَبَّنَا رَبَّنَا بِالْقُرْآنِ وَلِلْقُرْآنِ وَعَلَى الْقُرْآنِ .. اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا نِعْمَةَ الْقُرْآنِ .. آمِينَ .

نعم - والله - : القرآن نعمة . **وتأمل ماذا يقول من ذاق نعمة القرآن .. إنه رجل رباه القرآن وسرى بالفاظه ومعانيه في دمه .**

«الحياة في ظلال القرآن نعمة» ، نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها ، نعمة ترفع العمر وتباركه وتُنْزِكيه ، والحمد لله لقد مَنَّ علىَّ بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان ، دُقْتُ فيها من نعمته ما لم أذقُ قطُّ في حياتي .. عِشْتُ أَمْلَى في ظلال القرآن ذلك التصورُ الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود ، لغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني .. وعِشْتُ في ظلال القرآن أحْسَنَ النَّاسَقَ الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها الله وحركة هذا الكون الذي أبدعه الله .. وعِشْتُ في ظلال القرآن أَرْأَى الوجود أكبر بكثير من ظاهره المشهود ، أكبر في حقيقته وأكبر في تعدد جوانبه ، إنه عَالَمُ الغَيْبِ وَالشَّهادَةِ لَا عَالَمُ الشَّهادَةِ وَحْدَهُ ، وإنَّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ لَا هُذَا

الدنيا وحدها .. عشت في ظلال القرآن أرى الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرقته البشرية من قبل للإنسان ومن بعد ، إنه إنسانٌ بتفخمة من أمر الله .. وهو بهذه التفخمة مُستَخلِفٌ في الأرض .. وفي ظلال القرآن تعلمت أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء ولا للفلقة العارضة ؛

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَا بِقِدْرَةٍ﴾ [القمر: ٤٩].

ومن ثم عشت - في ظلال القرآن - هادئ النفس ، مطمئنٌ السريرة ، فرير الضمير .. عشت أرى قضاء الله وقدره ، أمره ومشيته في كل حادث ، وفي كل أمر . عشت في كثب الله وفي رعايته . عشت أستشعر إيجابية صفاته - تعالى - وفاعليتها .. ﴿أَمَنَ يُحِبُّ الْمُضْطَرَ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ الشَّوَّهَ﴾ [النحل: ٦٢] .. ﴿وَهُوَ الْفَاعِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْغَيْرُ﴾ [الأنعام: ١٨] .. ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١] .. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْوِلُ بَيْنَ الْأَرْضِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤] .. ﴿فَنَالَّا يُرِيدُهُ﴾ [البروج: ١٦] .. ﴿وَمَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ بَغْرِبًا﴾ [الطلاق: ٢] .. ﴿هُمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ مَاجِدٌ بِنَاصِيَّهُمَا﴾ [هود: ٥٦] .. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ يَكْفِي عَبْدَهُ وَمَنْغُوفُوكَ بِالْأَزْيَرِكَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦] .. ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكَرِّرٍ﴾ [الحج: ١٨] .. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادِ﴾ [الزمر: ٢٣] ^(١).

ذلك ما أحشه وهو يقرأ القرآن ويعيش معه ، فما النتيجة والمحصلة من هذه المعايشة الطويلة؟ .. يقول كفالة : «وانتهيَتْ من فترَةِ الحياة في

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب - رحمه الله تعالى - ، المقدمة (١١ - ١٣) بتصرف.

ظلال القرآن إلى يقين جازم حاسم : أنه لا صلاح لهذه الأرض ، ولا راحة لهذه البشرية ، ولا طمأنينة لهذا الإنسان ، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة ولا تنساق مع سُنن الكون وفطرة الحياة إلا بالرجوع إلى الله . والرجوع إلى الله - كما يتجلّى في ظلال القرآن - له صورة واحدة وطريق واحد ، واحد لا سواه . إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسّمه للبشرية في كتابه الكريم ، إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها ، والتحاكم إليه وحده في شُؤونها ؛ وإلا فهو الفساد في الأرض ، والشقاوة للناس والارتياح في الحمّاء الجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِبُوا لَكَ فَاعْلَمُ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ هُوَ هُنَّ مُنَذَّرُونَ إِنَّمَا يُغَيِّرُ هُنَّ مَنْ يُغَيَّرُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

إن الاحتكام إلى منهج الله في كتابه ليس نافلة ولا تطوعا ولا موضع اختيار ، وإنما هو الإيمان أو فلا إيمان .. والأمر إذا جد .. إنه أمر عقيدة من أساسها ، ثم هو أمر سعادة هذه البشرية أو شقاءها . إن هذه البشرية وهي من صنع الله لا تُفتح مغاليق فطرتها إلا بمقاتيح من صنع الله ، ولا تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذي يخرج من عنده - سبحانه - ، وقد جعل في منهجه وحده مفاتيح كل مغلق وشفاء كل داء ؛ ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنَ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] .. ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي إِلَيْهِ إِنَّمَا أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

لقد تسلّم الإسلام القيادة بهذا القرآن وبالتصور الجديد الذي جاء به من القرآن ، وبالشرعية المستمدّة من هذا التصور .. فكان ذلك مؤلدا

جديداً للإنسان ، أعظم في حقيقته من المولد الذي كانت به نشأته . لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصوراً جديداً عن الوجود والحياة والقيمة والنظم ، كما حقق لها واقعاً اجتماعياً فريداً كان يعُزز على خيالها تصوّره مجرّد تصوّر قبل أن ينشئه لها القرآن إنشاء .. نعم لقد كان هذا الواقع من النظافة والجمال والعظمة والارتفاع والبساطة واليسر والواقعية والإيجابية والتوازن والتناسق .. بحيث لا يخطئ البشرية على بال ، لو لا أن الله أراد لها وحقّه في حياتها .. في ظلّ القرآن ، ومنهج القرآن ، وشريعة القرآن «^(١)».

لذلك نصيحتي لكم دائمًا : ربوا أولادكم على القرآن ، دعوهם للقرآن يربّهم .. ربوا معهم على مائدة القرآن .. فالقرآن القرآن .. القرآن أصل .. ومن سلك طريق القرآن فقد بلغ مراد الله منه ..

قال - تعالى - : «وَأَغْنِيهِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا» [آل عمران: ١٠٣] . قال العلماء : حبل الله : القرآن .. فاجعل القرآن معك وكن مع القرآن .. لا تنسأ أبداً ، فإنه القائد والحادي والسائق إلى الله .. اللهم اجعلنا وأهلينا وذرياتنا من أهل القرآن أهلك وخاصتك ^(٢) .

* * *

(١) في ظلال القرآن ، المقدمة (١٥/١ - ١٦) بتصرف .

(٢) لنا محاضرة في شريطين بعنوان «القرآن يصنعك» استمع إليها تفاصيل يا ذن الله .

الأصل الحادي عشر

لا تلبس ثياب الفراغ أثناء العمل

عندنا في مصر تجد الميكانيكي طوال الأسبوع يلبس العمل المُزَيَّت ، تراه وهو لابس «العفريتة» الزرقاء ، ويدها مُزَيَّته ووجهه فيه الشُّخْم ، ويوم الأحد لا تعرفه! .. فتراه قد رجَّل شعره ووضع عليه الفزلين والكريمات ، ولبس البدلة ووضع المنديل الأحمر والأزراء الألمااظ ، وارتدى النظارة الشمسية ، وخرج في أحسن صورة ، وهو يقول : وقت الشغف شغل ، أما آخر الأسبوع فتنزه وفسح وترويع .. هذا الأسطنـى لو جاء الورشة يوم الاثنين بهذا اللبس ماذا يقول له صاحب الورشة؟ ، سيقول له : ارجع ، فليس هذا شكل من يريد أن يستغل !! .. هذا ما أقصده بقول : لا تلبس ثياب الفراغ أثناء العمل .. فبعضنا يريد أن يعيش الجنة في الدنيا مثل هذا الرجل .

إن بعضنا يريد أن يلتزم بالدين وفي نفس الوقت يريد شقة واسعة ، ومحملـاً وسيارة مكيفة ، وعروسـاً عينها زرقاء وشعرها أصفر وطويلة وعريضة ومطيبة وطالبة علم ، وعشـرة أولاد صـبيان ، وبينـا تدلـله ، وخدـاماً وخدـامة .. لا .. الدنيا دارـ ابتلاء؛ **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا إِلـٰهـنـا فـي كـبـيـر﴾** [البلـد: ٤] ، **﴿أَلـٰهـي خَلَقَ الـْمـوـتَ وَالـْحـيـةَ يـَبـلـوـكـمْ أـيـكـوـمْ أـخـسـنـ عـمـلـاً﴾** [الـمـلـك: ٢] .

المؤمن في هذه الدنيا في الشغل .. ومتى الفراغ؟ .. الفراغ في الجنة .. فحينما تدخل الجنة افعل ما شئت ..

الدنيا دار عمل ، فلا تلبس ثياب الفراغ أثناء العمل ، فلست في فسحة من أمرك؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(١) .. الدنيا سجن المؤمن ، والسجن له ظروفه .. السجن له ملائمه وأكله وشربه ، وله أحكامه ومواعيده ، وله ضوابطه .. الدنيا سجن؛ فلا تحاول في السجن أن تعيش الجنة .

السجن له مواعيده .. مواعيد الفسح .. هناك مواعيد للصلوة لا يصح النوم فيها ولا الشغل أثنائها .. هذا هو سجن الدنيا .. لابد أن تقطع هكذا .. لكن الذي يريد أن يعيشها على أنها الجنة؛ فيأكل على مزاجه ويشرب على مزاجه ويمشي على مزاجه وينام على مزاجه ، ويفعل ما يريد وما يشتهي؛ سيضل الطريق لا محالة .

لابد أن تعيش الدنيا كما يريد الله لا كما تريدها أنت .. فأنت الآن في سجن التكاليف الشرعية .. وإن كنت مكتفيا بهذه التكاليف النبيلة ، فهناك أناس غيرك مكتفون أيضا بالعادات والتقاليد؛ لكن ليس لهم أجر ولهم أنت أجر .. فلو كنت تمرض فالكافر يمرضون ، ولو كنت تتعب فالمنافقون يتعبون .. إذا كنت تؤذى في سبيل الله؛ فهناك من يؤذون من أجل مناهج باطلة بل وكفرية .. «إِن تَكُونُوا قَائِمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمُوْنَ كَمَا تَأْمُوْتُ وَرَجُوْنَ مِنْ أَكْثَرِ مَا لَا يَرْجُوْنَ» [النساء: ١٠٤]؛ أنت ترجو بالذي

(١) أخرجه: مسلم (٢٩٥٦).

تعمله أجرًا هم لا يرجونه .. وهذا هو عزاؤك .. أنَّ اللَّهَ - تعالى -
سيعطيك .. فضيًّا نفسك في سجن التكاليف الشرعية ليكون الخروج على
باب الجنة .

ولذلك لم يقلِ اللَّهُ للمؤمنين بعد عزوة أحد : كفاكما مَا حَدَثَ واقعدوا
في بيتكم .. لا .. بل قال - سبحانه وتعالى - : «وَلَا تَهْتَوْا فِي آبَيْغَاءِ» ..
خلفهم وإياكم أن ترکوهم .. نعم : شُغل مستمرٌ ، وعمل متواصل ، وجهدٌ
غير مُنقطع .

ومع ذلك تَجِدُ بعض الناس يريدُ أن يتناولَ كلَّ الشهواتِ ، وأن يعيشَ
دومًا في عافية .. يا أخي ، إنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ أُوذِيَ وطُردَ وشُتِّمَ بل
وتُقْلَى في وجهه الشريف .. اضطُهدَ أعزُّ وأطهُرُ مخلوقٍ على ظهرِ
الأرض .. ﷺ .. شتموه ووضعوا الترابَ على رأسه .. خنقوه بشويه
ورموا الحجَّرَ عليه .. وحُفِرَ له حُفرةٌ في غزوة أحد ليقع فيها .. فوقع
وَجْحِيَّسَ ساقاه .. ودخلت حلقات المِغَفرَ في وجنتيه .. شقُوا رأسه
وأذْمَوْا وَجْهَهُ وضربوا كَتْفَهُ .. ورمَوه بالسهام .. وفي الطائف رَمَوهُ
بالحجارة حتى جُرِحَ كُلُّ جسده - فداء أبي وأمي ونفسِي ﷺ .. وقع من
على الفرس فجُحِشَ جنبُه الشريف .. مَرِضَ بالحُمَّى حتى لم يُطْقِ حُمَّاهُ
أحد .. عاش غريباً .. مُطارداً من كُفَّارٍ يريدون قتله .. فداء أبي وأمي
ونفسي رسولُ اللَّهِ .

من يوم أنْ تُودِيَ ﷺ بـ «يَكَابِثَا الْمُذَبِّرِ ⑩ فَرُّ فَانِيزَ» [المدثر: ٢-١]؛ قام
ولم يرْقُدْ أو يرْكَدْ بعدها لحظة .. ذهب زمانُ النُّومِ يا خديجة .

إخوتهِ ، إنَّ المُتَفَقَّهَ في سيرة النبِيِّ مُحَمَّدٌ ﷺ لا يجُدُ لحظةً استرخَ فيها ؛ فأيامُهُ كُلُّها جِهادٌ وَتَعْبٌ وَمُشَقَّةٌ .. وإنَّ العينَ لَتَذَرِّفُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً بِهِ .. مشى كثِيرًا وَجَرِيَ كثِيرًا .. جَاءَ شُهُورًا .. وَكَانَ يَأْكُلُ الدَّفْلَ (أَرْدَأُ التَّمَرِ) وَرَبِّما لَا يَجِدُهُ .. سَهِيرَ السَّنِينَ الطَّوِيلَةِ .. وَنَامَ عَلَى الْحَصِيرِ .. وَلَمْ يَلْبِسْ الدِّيَاجَ أَوَ الْحَرِيرَ .. عَاشَ هَذِهِ الدِّنِيَا فِي كُدُّ وَنَصَبٍ؛ لِيَقِيمَ الْحَقَّ وَيُبَلِّغَ دُعَوَّةَ رَبِّهِ .

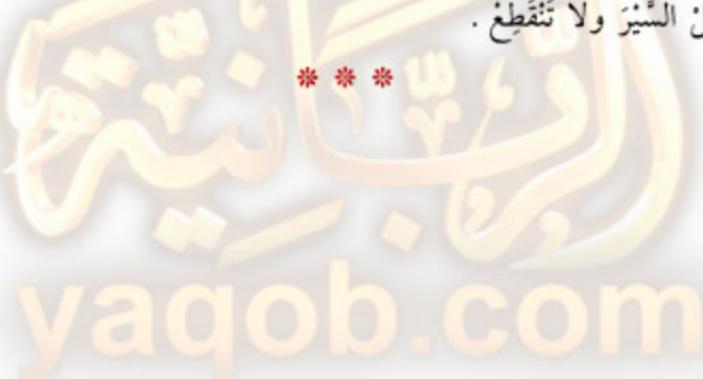
بَأَبِيِّهِ وَأَمِيِّهِ وَنَفْسِيِّهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .. أُرْسِلَ بِالْمَدِيرِ فَقَامَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا ؛ فَلَمْ يَهُدَ حَتَّى جَاءَهُ نَصْرُ اللَّهِ ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْرَاجًا . هَكُذا عَاشَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَتُرِيدُ أَنْتَ أَنْ تَعِيشَهَا نَظِيفَةً حُلْوَةً! .. تُرِيدُ أَنْ تَعِيشَهَا مُمْتَعًا مُعَافَى! .. تُرِيدُ أَنْ تَعِيشَهَا فِي رَاحَةٍ وَآمَانٍ! .. لَا يَا أخِي .. هَذِهِ دُنْيَا .. الْأَصْلُ فِيهَا الْمَشَاكِلُ وَالْأَحْزَانُ؛ وَإِلَّا لَمَّا كَانَ هُنَاكَ اشْتِيَاقٌ لِلْآخِرَةِ .. الدُّنْيَا - يَا أخِي - لِلْعَمَلِ وَالتَّعَبِ وَالْجُدُّ وَالْاجْتِهَادِ؛ فَلَا تَلْبِسْ ثيابَ الفراغِ أثناءِ العملِ .

الدُّنْيَا شُغْلٌ .. شُغْلٌ لِلآخرَةِ؛ فَالْزَّمِنُ الشُّغْلُ حَتَّى تَمَرُّ هَذِهِ الدَّارِ إِسْلَامٌ .. فَإِذَا أَرْدَتْ زَوْجَةً فَلَتَكُنْ مَا تَكُونُ .. قَصِيرَةً أَوْ نَحِيفَةً أَوْ .. أَوْ .. الْمَهْمَمُ أَنْ تَكُونَ صَاحِبَةً دِينٍ وَ«بَنْتُ أَصْوَلٍ» .. وَلَا تَتَنَازِلَ عَنْ هَذِينَ الشَّرَطَيْنِ أَبَدًا .. وَارْضَ بِهَا مَهْمَا كَانَتْ صِفَاتُهَا ، وَاتَّخِذْهَا بُلْغَةً إِلَى الْجَنَّةِ .. وَفِي الْجَنَّةِ سِيَصْنَعُهَا اللَّهُ لَكَ مِنْ جَدِيدٍ «إِنَّا أَنْشَأْنَاهُ إِنْشَاءً ۝ بَعْلَمْتَنَاهُ أَبْكَارًا ۝ عُرِبًا أَتَرَابًا ۝» [الواقعة: ٣٥-٣٧] ؛ بَلْ وَيَزِيدُ لَكَ سَبْعِينَ حُورِيَّةً مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ .. الْزَّمِنُ الشُّغْلُ وَلَا تَحْزُنْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا تَفْكُرْ

فيها ، فإن جاءتك أو لمَحْت إِلَيْكَ ، فسخّرْهَا فِي خَدْمَةِ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ عَمَلِ الْآخِرَةِ ؛ وَإِلَّا فاطرْحَهَا جانِبًا وَامْضِ فِي طَرِيقِكَ إِلَى اللَّهِ .

إخْوَتَاهُ ، إِنَّ الَّذِي يَسِيرُ عَلَى هَذَا النَّهَجِ هُوَ رَجُلُ الْآخِرَةِ الَّذِي يَرِيدُ الْوَصْوَلَ ؛ فَلَا يَخْلُعُ ثِيَابَ الْعَمَلِ حَتَّى يَلْقَأِ اللَّهَ ، أَمَّا الَّذِي يَرِيدُ أَنْ يَلْبِسَ ثِيَابَ الْفَرَاغِ أَثْنَاءَ الْعَمَلِ فَيَشْغُلُ قَلْبَهُ بِالزَّوْجَةِ وَالْمَالِ ، وَالْأُولَادُ فَهُوَ رَجُلُ الدُّنْيَا يَعِيشُ لَهَا ؛ وَلَذَا لَنْ يَصِلَّ إِلَى اللَّهِ مَطْلَقًا حَتَّى يَخْلُعَ ثِيَابَ الْفَرَاغِ ، وَيَلْبِسَ دَائِمًا ثِيَابَ الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ .

فَوْظُفْ - أخِي فِي اللَّهِ - كُلُّ أَرْكَانِ حَيَاتِكَ فِي الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ ، وَوَاصِلُ الشُّغَلِ لِيلًا نَهَارًا .. فَإِنْتَ فِي مَقَامِ مُسْتَغْبَدٍ ، وَلَا يَصِحُّ لِلْأَجِيرِ أَنْ يَلْبِسَ ثِيَابَ الرَّاحَةِ فِي زَمَانِ الْاسْتِجَارَ ، وَكُلُّ زَمَانٍ الْمُتَقْبِي نَهَارًا صُومُ .. فَوَاصِلُ السَّبَرِ وَلَا تَنْقَطِعْ .



الأصل الثاني عشر

في الطريق موافق للتمييز

السائل إلى الله أو عموم من يعيش في هذه الحياة لا بد أن يتعرض لمواقوف.. فهذه الحياة أمواج تترافق يركب الإنسان فيها طبقاً عن طبق.. هذه المواقف للتمييز.

قال - سبحانه - : «فَقَدْ خَلَتِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَنَّةٌ فَسَيِّرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوْا كِيفَ كَانَ عَيْنَةُ الْمُكَذِّبِينَ هَذَا بَيْانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمُوعِظَةٌ لِلشَّاكِرِينَ وَلَا تَهْمُّوْا وَلَا تَخْرُّوْا وَإِنْتُمُ الْأَعْذُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمْكُنُكُمْ فَيْحَ فَقَدْ مَسَ الْقَوْمَ فَتَرَحُّبُهُ وَتَلَكُ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهُمْ بَيْنَ أَنَّا سِرَّا وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ مَأْمَنُوا وَيَتَّحَقَّ الْكُفَّارِينَ أَذْ حَيْبَتِمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْأَصْدِرِينَ» [آل عمران: ١٣٧-١٤٢].

تُدْلِكُ هذه الآيات على أن الله - سبحانه وتعالى - يقلب الأيام على الناس ليتبين أحوالهم ، وليعلم الله علم ظهور وإقامة حجج على العباد من يستحق الجنة مِمَّن لا يستحقها .. فالسائلون إلى الله صفوة؛ ولكن «ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الحقائق من الظواهِر وما كان الله ليطلعكم على القنبلة ولكن الله يحيط من رسوله، من يشاء فاما من آمنتوا بالله ورسوله وإن ثُمِّنُوا وَتَنَّوْا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ» [آل عمران: ١٧٩].

أيها الإخوة، التمييزُ بين النعمة والثُّقْمَةِ والفتنة ، وبين المِنَّةِ والحُجَّةِ ، وبين العَطِيَّةِ والبَلَيَّةِ ، وبين المِنْكَنَةِ والمِسْتَحْجَةِ أمرٌ مهمٌ للسائل في الطريق إلى الله .

ففي طريق الوصول إلى الله لابد أن تكون صاحب تمييز بين النعمة والفتنة .. فقد يصيب رجلين شيء واحد ، ويكون بالنسبة لأحدهما نعمة وللآخر فتنة .. قد يكون الشيء الواحد لرجل بليئة وللآخر عطية .

يقول ربك : «أَوْ كَصَيْبَرْ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلْمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ» [البقرة: ١٩] .. صَيْبَرْ «مَاءً» يحيي الله به الأرض ؛ ولكن في نفس الوقت فيه ظلمات ورعد وبرق .. «يَجْعَلُونَ أَصْدِيعَهُمْ فِي مَا ذَرَّاهُمْ مِنَ الْصَّوْعِقِ حَذَرَ الْمَوْتَ» [البقرة: ١٩] .

يقول العلماء : هذا هو المثل المائي الذي ضربه الله ﷺ للقرآن ، أنه صَيْبَرْ وهو للمؤمنين ؛ قال - تعالى - : «وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَرِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا» [الإسراء: ٨٢] .

في قصة كعب بن مالك لما جاءه كتاب من ملك غسان يقول له : «بلغنا أنَّ صاحبَك قد قَلَّاكَ ، ولم يجعلك الله بدارِ مهانة ، فالحقُّ بنا نُوايسِك» ؛ لم يقل - أي كعب - : جاء الغيث .. ولكنه التمييز .. قال : «وهذا من البلاء ، فتيممت التئور فسجّرته» .

نعم : فقد يُرزق العبد مالاً ويظن أنه نعمة ويكون هذا المال بالنسبة له فتنة .. قد يُرزق عملاً وهذا العمل من وجهة نظر الناس جميعاً كرم ، وهو في حقه بلاء .. قد يحفظ القرآن ويكون عليه حجة .. نعم : القرآن حجة لك أو عليك .

قال العلماء : «إذا رأيت أنَّ الله يعطي العبد على معاصيه ؛ فاعلم أنه

استدرجـ» .. تعصـي وـيكرمـك ، وـتعصـي ويـزدـك ، وـتعصـي وـيـبارـك لـك .. إـذـا سـيـتـقـمـ منـك .. لـا تـطـمـنـ ؟ فـهـوـ سـبـحـانـهـ يـجـرـكـ لـيـتـقـمـ منـكـ ؛ قـالـ - تـعـالـى - : «سـتـدـرـجـهـمـ مـنـ حـيـثـ لـا يـعـلـمـونـ (١) وـأـنـلـيـ لـهـمـ إـنـ كـبـدـيـ مـتـبـنـ (٢) » [القـلمـ: ٤٤-٤٥].

يقول صاحـبـ الـظـلـالـ فيـ هـاتـينـ الـآـيـتـينـ : «إـنـ شـأنـ الـمـكـنـبـينـ وـأـهـلـ الـأـرـضـ أـجـمـعـينـ لـأـهـوـنـ وـأـصـغـرـ مـنـ أـنـ يـدـبـرـ اللـهـ لـهـمـ هـذـهـ التـدـابـيرـ .. وـلـكـنـهـ سـبـحـانـهـ - يـحـذـرـهـمـ نـفـسـهـ لـيـدـرـكـواـ أـنـفـسـهـمـ قـبـلـ قـوـاتـ الـأـوـانـ . وـلـيـعـلـمـواـ أـنـ الـأـمـانـ الـظـاهـرـ الـذـيـ يـدـعـهـ لـهـمـ هـوـ الـفـقـحـ الـذـيـ يـقـعـونـ فـيـهـ وـهـمـ مـغـرـرـوـنـ . وـإـنـ إـمـهـالـهـمـ عـلـىـ الـقـلـمـ وـالـبـغـيـ وـالـإـعـرـاضـ وـالـضـلـالـ هـوـ اـسـتـدـرـاجـ لـهـمـ إـلـىـ أـنـسـوـاـ مـصـيـرـ . وـأـنـ تـدـبـirـ مـنـ اللـهـ لـيـخـمـلـوـاـ أـوـزـارـهـمـ كـامـلـةـ ، وـيـأـتـوـ إـلـىـ الـمـوـقـبـ مـُـتـقـلـيـنـ بـالـذـنـوبـ ، مـُـسـتـحـقـيـنـ لـلـخـرـيـ وـالـرـهـقـ وـالـتـعـذـيبـ ..

ولـيـسـ أـكـبـرـ مـنـ التـحـذـيرـ ، وـكـشـفـ الـاسـتـدـرـاجـ وـالـتـدـبـirـ ، عـدـلـاـ وـلاـ رـحـمـةـ . وـالـلـهـ - سـبـحـانـهـ - يـقـدـمـ لـأـعـدـائـهـ وـأـعـدـائـ دـيـنـهـ وـرـسـوـلـهـ عـدـلـهـ وـرـحـمـتـهـ فـيـ هـذـاـ التـحـذـيرـ وـذـلـكـ النـذـيرـ . وـهـمـ بـعـدـ ذـلـكـ وـمـاـ يـخـتـارـوـنـ لـأـنـفـسـهـمـ ، فـقـدـ كـُـشـفـ الـقـنـاعـ وـوـضـحـتـ الـأـمـورـ !

إـنـهـ - سـبـحـانـهـ - يـمـهـلـ لـوـ لاـ يـهـمـلـ . وـيـمـلـيـ لـلـظـالـمـ حـتـىـ إـذـا أـخـذـهـ لـمـ يـقـيـثـهـ . وـهـوـ هـنـاـ يـكـشـفـ عـنـ طـرـيقـتـهـ وـعـنـ سـنـنـهـ الـتـيـ قـدـرـهـاـ بـمـشـيـتـهـ . وـيـقـولـ لـرـسـوـلـهـ ﷺ : «فـذـرـيـ وـمـنـ يـكـذـبـ يـهـنـاـ الـحـدـيـثـ (٣) » [الـقـلمـ: ٤٤] ، وـخـلـ بـيـنـيـ وـبـيـنـ الـمـعـتـزـيـنـ بـالـمـالـ وـالـبـنـيـنـ وـالـجـاهـ وـالـسـلـطـانـ ، فـسـأـمـلـيـ لـهـمـ ، وـأـجـعـلـ هـذـهـ النـعـمةـ فـخـمـهـمـ ! فـيـطـمـئـنـ رـسـوـلـهـ ، وـيـحـذـرـ أـعـدـاءـ .. ثـمـ يـدـعـهـمـ لـذـلـكـ التـهـديـدـ الرـعـيـبـ ! (٤) .

(١) فـيـ ظـلـالـ الـقـرـآنـ (٦/ ٣٦٦٨ - ٣٦٦٩).

فلا تفرح - أخي في الله - بالكرم بعد المعصية ، وكن مميزاً بين العطية والبلية وبين النعمة والنقمـة ؛ ولذا قال ﷺ : «إِكْيَنْلَا تَأْسُوا عَلَىٰ مَا فَائِكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَاٰءَاتَكُمْ» [الحديد: ٢٣].

تقول زوجة سعيد بن عامر الجمحي : استيقظت يوماً على صوته وهو يقول : أعود بالله منك ، أعود بالله منك ، أعود بالله منك ، فقمت فوجدت بين يديه سريراً مال وهو يدفعها بيده كأنها عقرب ، قلت : مالك ، قال : «دخلت عليّ الدنيا لتفسيـد عليّ ديني » .

نعم - إخواته - : لابد أن يكون لديك بصيرة وتميـز بين ما ينفعك وما يضرك في آخرتك . فإذا أعطاك الله نعمة واستعملتها في طاعته كانت نعمة ، وإذا استعملتها في المعصية كانت مخـنة وفتـنة .. أعطاك الله مـالا : هل هذا المال زادك ثـرـيـاً أم أبعـدـك؟! .. أعـطاـك زـوـجـةـ أـعـانـتـكـ عـلـىـ طـاعـيـهـ ، فـهـذـهـ الزـوـجـةـ نـعـمـةـ ، ولو شـغـلـتـكـ عـنـ اللـهـ كـانـتـ فـتـنةـ .

فانظر كل لحظـةـ في حـيـاتـكـ لـتـرـىـ النـعـمـ الـتيـ وـهـبـهاـ اللـهـ لـكـ : هل تـقـرـبـكـ منهـ أـنـ تـبـعـدـكـ عـنـهـ؟! .. هلـ هـيـ نـعـمـ أـمـ يـقـمـ؟! .. هلـ توـقـفـكـ بـيـنـ يـدـيـ اللـهـ أـمـ تـشـغـلـكـ عـنـهـ؟! .. تـزـيدـكـ إـيمـانـاـ أـمـ تـقـسـيـ قـلـبـكـ؟! .. تـزـيدـكـ شـكـراـ أـمـ طـمـعاـ؟!

قفـ معـ نـعـمـ اللـهـ لـتـعـلـمـ أـيـنـ قـدـمـكـ .. لـتـعـلـمـ أـيـنـ أـنـتـ .. فـيـ طـرـيقـ الـوـصـولـ أـمـ تـائـهـ فـيـ طـرـيقـ أـخـرىـ؟! .. فـرـقـ بـيـنـ النـعـمـ وـالـنـقـمـ .. وـبـيـنـ الـمـخـنـةـ وـالـمـثـحـةـ .. وـبـيـنـ الـبـلـيـةـ وـالـعـطـيـةـ .. وـبـيـنـ الـحـجـجـ وـالـمـتـهـ .. مـيـزـ لـتـعـرـفـ أـيـنـ الـفـتـنـةـ لـتـجـتـبـهاـ فـتـصـلـ إـلـىـ اللـهـ بـسـلامـ .

الأصل الثالث عشر

الاعتصام بالله عقيدة وعمل ودعا

قال - تعالى - : «فَلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ لَكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَعْدُونَ لَهُمْ مِنْ دُورِنَ اللَّهِ وَلَيْهَا وَلَا نَصِيرًا» [الأحزاب: ١٧]. إذا فالإنسان يحتاج مولى ونصيرا ، وليس لك من دون الله ولـه ولا نصيرا ؛ فلذلك إذا أردت الوـلـيـ والـنـصـيـرـ فـاعـتـصـمـ بـالـلـهـ ؛ قال - تعالى - : «وَمَنْ يَعْصِمُ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ» [آل عمران: ١٠١] .. ولكن كيف نعتصم بالله ؟

امرأة العزيز قالت: «وَلَقَدْ رَوَدْنَا عَنْ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصِمُ» [يوسف: ٣٢] .. كيف استعصـمـ ؟ .. أولاً : عـقـيـدـةـ ؛ قال : «مَعَادُ اللَّهِ» .. أـعـوـذـ بـالـلـهـ ، التـجـيـ إلى الله وأـحـتـمـيـ بهـ وـهـدـهـ .. وـلـمـ يـقـلـ لـهـاـ : هلـ أـصـابـكـ الـجـنـونـ؟! .. وـلـمـ يـقـلـ أـيـضـاـ : أـلـاـ تـعـرـفـينـ مـنـ أـنـاـ؟! ، أـنـاـ يـوـسـفـ بـنـ يـعقوـبـ اـبـنـ إـسـحـاقـ اـبـنـ إـبـراهـيمـ عـلـيـهـ السـلـامـ .. أـنـاـ اـبـنـ هـؤـلـاءـ الـأـنـبـيـاءـ .. لـمـ يـقـلـ لـهـاـ : اـذـهـبـيـ لـحـالـكـ يـاـ بـنـيـةـ هـدـاـكـ اللـهـ .. لـمـ يـقـلـ ذـلـكـ ؛ وـإـنـماـ قـالـ : مـعـادـ اللـهـ . عـقـيـدـةـ أـنـ الذـيـ يـنـجـيـنـيـ هـوـ اللـهـ .

وـأـيـضـاـ لـمـ فـشـلـتـ اـمـرـأـةـ العـزـيـزـ وـسـمـعـتـ النـسـوـةـ يـتـكـلـمـنـ ؛ قـالـتـ فـيـ نـفـسـهـاـ : آتـيـ بـهـ إـلـيـهـ أـمـ آتـيـ بـهـ إـلـيـهـ؟ .. الـأـمـرـانـ .. أـتـ بـهـنـ وـأـفـعـدـهـنـ وـأـخـرـجـتـهـ عـلـيـهـنـ .. خـرـجـ وـلـمـ يـكـنـ أـمـامـهـ كـيـدـ اـمـرـأـةـ بـلـ كـيـدـ نـسـاءـ ؛ فـقـالـ فـيـ التـوـ : «رَبِّ الْيَجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ» [يوسف: ٣٣] .. يـاـ ربـ ،

السجن أحب إلي من حَرِير امرأة العزيز .. سبحان الله! .. تُشم رائحة الصدق من الكلام.

بالله عليك - أخي - هل تَجِد في نفسك هذه النقطة؟ .. إننا - وللأسف - نضحك من أنفسنا .. نهُرج ونلعب في دين الله .. هل فعلاً السجن أحب إليك من دعوة الفاتنات أو الغانيات الفاجرات؟ .. قال يوسف: يا رب، عذاب السجن أحسن عندي من قصور العزيز .. العذاب من أجلك يا رب أحب إلي من أن أنام وأنا لك عاص .. هذا هو الاعتصام؛ فكن على عقيدة صادقة بالله لتعتصم بها وقت الشدائـد.

يقول ربي في يوسف ﷺ: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشْدَهُ مَا تَبَتَّهُ حُكْمًا وَعَلِمَ أَنَّكَذِيلَكَ يَمْرِزُ الْمُحْسِنِينَ» [يوسف: ٢٢] .

«فقد أُتيتِ صحة الحكم على الأمور ، وأُوتِي عِلْمًا بمصائر الأحاديث أو بتأويل الرؤيا ، أو بما هو أعم ، من العلم بالحياة وأحوالها ؛ فاللُّفْظ عامٌ ويشمل الكثير . وكان ذلك جزاء إحسانه . إحسانه في الاعتقاد وإحسانه في السُّلُوك : «وَكَذِيلَكَ يَمْرِزُ الْمُحْسِنِينَ» .. وعندئذ تجيئه المحنـة الثانية في حياته ، وهي أشد وأعمق من المحنـة الأولى . تجيئه وقد أُتيتِ صحة الحكم وأُتيتِ العلم - رحمة من الله - ليواجهها وينجو منها جزاء إحسانه الذي سُجِّلَ الله في قرآنـه .

والآن نشهد ذلك المشهد العاصف الخطير المُثير كما يرسمه التعبير: «وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَقَتْ الْأَبْرَارَ وَقَالَتْ هَيَّا لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّمَا رَقَ أَخْسَنَ مَشَائِي إِنَّمَا لَا يُقْلِعُ الظَّالِمُونَ» [يوسف: ٢٣] ..

وإذن فقد كانت المُراودة في هذه المرة مكشوفة ، وكانت الدعوة فيها سافرية إلى الفعل الأخير . . وحركة تغليق الأبواب لا تكون إلا في اللحظة الأخيرة ، وقد وصلت المرأة إلى اللحظة الحاسمة التي تهتاج فيها دفعه الجسد الغليظة ، ونداء الجسد الأخير : «وقالت هيئت لك» [يوسف : ٢٣] .

هذه الدعوة السافرية الظاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة . إنما تكون هي الدعوة الأخيرة ، وقد لا تكون أبداً إذا لم تضطر إليها المرأة اضطراراً . والفتى يعيش معها وقوتها وفتوتها تتکامل ، وأنوثتها هي كذلك تکمل وتتضخم ، فلابد كانت هناك إغراءات شتى خفيفة لطيفة ، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة .

«فَالْمَعَاذُ لِلّهِ إِنَّمَا رَبِّ أَخْسَنَ مَنْوَىٰ إِنَّمَا لَا يُفْلِيْحُ الظَّالِمُونَ» ..

«معاذ الله» ..

أعيذ نفسي بالله أن أفعل ؛ «إِنَّمَا رَبِّ أَخْسَنَ مَنْوَىٰ» ..

وأكرمني بأن نجاني من العجب وجعل في هذه الدار مثواي الطيب الآمن .

«إِنَّمَا لَا يُفْلِيْحُ الظَّالِمُونَ» .. الذين يتجاوزون حدود الله ، فيرتكبون ما تدعيني اللحظة إليه^(١) .. عقيدة .. عقيدة في الله اعتصم بها يوسف فنجاه الله من الفتنة .

(١) في ظلال القرآن (٤/١٩٧٩) بتصريف .

ويقول شيخ الإسلام وعلم الأعلام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في

المفاسد العاجلة والأجلة ليعشق الصور :

«والله - سبحانه وتعالى - إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس؛ وهم قوم لوط والنساء؛ فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف، وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصره وعفته وتقواه، مع أن الذي ابْتُلَى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله عليه، فإن موافقة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي هنا هنا في غاية القوّة؛ وذلك لوجوه :

أحدها: ما رَكِبَ اللَّهُ - سبحانه - في طَبِيعِ الرَّجُلِ مِنْ مَيِّلَهُ إِلَى الْمَرْأَةِ، كَمَا يَمِيلُ الْعَطْشَانُ إِلَى الْمَاءِ، وَالْجَانِحُ إِلَى الطَّعَامِ، حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَصْبِرُ عَلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى النَّسَاءِ، وَهَذَا لَا يُدْمِمُ إِذَا صَادَفَ حَلَالًا.

الثاني: أن يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان شاباً، وشهوّة الشّباب وجدّه أقوى.

الثالث: أنه كان عزباً لا زوجة له ولا سُرُّية تكبيرٍ جدة الشهوة.

الرابع: أنه كان في بلاد غربة لا يتأتى للغريب فيها قضاء الوطر، ما يتأتى لغيره في وطنه وأهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال؛ بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى موافقتها.

السادس: أنها غير آبية ولا ممتنعة؛ فإن كثيراً من الناس يُزيلُ رغبتها في

المرأة إياوها وامتئاعها ، لما يجده في نفسه من دلّ النفس والخضوع والسؤال لها .

السابع : أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد ، فكفته مؤونة الطلب ودلل الرغبة إليها ، بل كانت هي الراغبة الذليلة وهو العزيز المرغوب إليه .

الثامن : أنه في دارِها وتحت سلطانِها وقُهْرِها ، بحيث يخشى إن لم يطأوْغها من أذاها له ، فاجتمع داعي الرغبة والرهبة .

التاسع : أنه لا يخشى أن تتم عليه هي ولا أحد من جهتها ؛ فها هي الطالبة والراغبة ، وقد غلقت الأبواب وغيّبت الرؤباء .

العاشر : أنه كان مملوكاً لها في الدار ؛ بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ، ولا ينكر عليه ، وكان الأمن سابقاً على الطلب ، وهو أقوى الدواعي .

الحادي عشر : أنها استعانت عليه بأئمَّة المكر والاحتيال ، فأرَتَه إياهن وشكَّت حالها إليهين ؛ لتسعيَن بهنَّ عليه ، فاستعان هو بالله عليهين ؛ فقال : ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدُهُنَّ أَصْبِرْ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِّنَ الْمُنْهَلِهِنَّ﴾ [يوسف: ٢٣] .

الثاني عشر : أنها توعَّدَتَه بالسُّجن والصُّغار ، وهذا نوع إكراه ؛ إذ هو تهديدٌ من يغلبُ على الظن وقوع ما هدد به ، فيجتمع داعي الشهوة ، وداعي حب السلامَة من ضيق السجن والصغار .

الثالث عشر : أن الزوج لم يُظهر من الغيرة والثخوة ما يُفرق به بينهما ، ويتبعُ كُلَّاً منهما عن صاحبه .

ومع هذه الدواعي كلها فقد آثر مرضاه الله وحوقه، وحمله حبه لله على أن يختار السجن على الزنا؛ فقال: «رَبِّ الْتِجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ» [يوسف: ٣٣]، وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى - إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه^(١).

ثم إن الاعتصام لن يكون إلا إذا كان هناك عمل ودعاء.. فمثلاً: الأخ الذي أقول له ثُبٌ، فيقول: ادع لي يا «عم الشيخ»؛ أقول له: يا بُنِيٌّ، «ثُبٌ» هذه تحتاج إلى عمل وشغل، وأن تدعوا أنت لنفسك أولاً، ثم أدعو أنا لك بعد ذلك.. يوسف عليه السلام كان محسناً.. محسناً في الاعتقاد ومحسناً في السلوك؛ وفوق ذلك دعا بالعصمة؛ فكانت النجاة.. نجا لأنه في الأصل أحسن العمل.

نعم: كان يوسف محسناً مع ربِّه وأيضاً مع الناس، وقد سمي الله قصته «أَخْسَنَ الْفَصَصِ» [يوسف: ٢]، ووصفه السجناء بالإحسان فقالوا: «نِتَّنَا إِتَّأْوِيلَةً إِنَّا نَرَنَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» [يوسف: ٣٦].. وبالإحسان مكّنه الله - تعالى - في الأرض؛ «وَكَذَلِكَ مَكَّنَاهُ لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُهُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ تُعِيبُهُ إِرْهَمَنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا تُنْصِبُهُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» [يوسف: ٥٦].. وقال له إخوه وهم لا يعرّفونه: «فَخَذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَنَا مِنَ الْمُحْسِنِينَ» [يوسف: ٧٨].. ثم أتى على ربه بإحسانه إليه: «وَقَدْ أَخْسَنَ بِإِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ الْتِجْنِ» [يوسف: ١٠٠].

(١) الداء والدواء (١٨٥ - ١٨٧) باختصار.

قال - تعالى - : «وَلَقَدْ هَمَتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَبَّهُنَّ رَبِّهِ كَذَلِكَ يُنَصِّرُ فِيْهِ الشَّوَّهَ وَالْفَخَثَاءَ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُغْنِصِينَ» [يوسف: ٢٤] ، وهؤلاء ليس للشيطان عليهم سلطان البتة .. ومع كل ذلك فزع يوسف إلى الله وقال : «مَعَادَ اللَّهُ إِنَّمَا رِقَّ أَخْسَنَ مَنْوَى إِنَّمَا لَا يَقْلِبُ أَفْلَلِمُونَ» [يوسف: ٢٣] . ولابد أن تعلم أن طهارة يوسف عليه السلام كانت أساس الاعتصام .. إذا فالاعتصام بالله لابد أن يكون على عقيدة راسخة بالله وعمل دائم له ، وسلوك قوي معه - سبحانه - ومع الناس .

نعم - إخواته - : الاعتصام عمل .. الاعتصام دعاء .. الاعتصام عقيدة .

فاربط قلبك بالله وحده ، واصدق معه ، واعمل ما في وسعك ، وادع بأخلاق ، يغضبك الله فتهدي إلى طريق الوصول إليه .

قال ربك : «وَمَنْ يَعْصِمِنِي بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ» [آل عمران: ١٠١] .

قال ابن كثير رحمه الله : «أي ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكيل عليه هو العمدة في الهداية ، والعدة في مباعدة الغواية ، والوسيلة إلى الرشاد ، وطريق السداد وحصول المراد»^(١) .

فاعتصم بالله يا طالب الوصول .

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٦٦/١) .

الأصل الرابع عشر

من استطال الطريق صُفَّ مَشِيه

الطريق إلى الله طويلة جداً، بعيدة جداً؛ ولذا تحتاج إلى همة وعمل دائم وعدم التفات لكي تقطعها وتصل بسلام؛ وإنما فلو ظللت تقول: الطريق طويلة وبعيدة وأنت مكانك؛ فلن يصل.. فاستعن بالله واترك السكوت.. اعمل واجتهد واتعب حتى الموت؛ قال - تعالى - : «وَأَعْبُدْ رَبِّكَ حَتَّى يَأْنِيَكَ الْيَقِينُ» [الحجر: ٩٩]؛ أي الموت.

وقال - تعالى - : «إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ» [الشرح: ٧]. قال ابن كثير : «وقال زيد بن أسلم والضحاك : فإذا فرغت أي من الجهاد، فانصب أي : في العبادة : «وَإِنَّ رَبَّكَ فَازْغَبْ» [الشرح: ٨]. قال الشوري : اجعل نيتك ورغبتك إلى الله - عز وجل»^(١).

«إِذَا فَرَغْتَ مِنْ شُغْلِكَ مَعَ النَّاسِ وَمَعَ الْأَرْضِ، وَمَعَ شَوَّاعِلِ الْحَيَاةِ.. إِذَا فَرَغْتَ مِنْ هَذَا كُلَّهُ، فَتَوَجَّهْ بِقَلْبِكَ كُلَّهُ إِذْنَ إِلَيْهِ مَا يَسْتَحِقُ أَنْ تَنْصَبَ فِيهِ وَتَكِدَّ وَتَجْهَدَ.. الْعِبَادَةُ وَالتَّجَرِدُ وَالتَّطَلُّعُ وَالتَّوْجِهُ.. «وَإِنَّ رَبِّكَ فَازْغَبْ».. إِلَيْ رَبِّكَ وَحْدَهُ خَالِيَّاً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى مِنْ أَمْرِ النَّاسِ الَّذِينَ تَشْتَغِلُ بِدُعْوَتِهِمْ.. إِنَّهُ لَابْدَ مِنَ الزَّادِ لِلْطَّرِيقِ.. وَهُنَّا الزَّادُ.. وَلَابْدَ

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٥٢٨).

من العدة للجهاد . وهنا العدة .. وهنا ستجد يسرا مع كل عسر ، ومرجا مع كل ضيق .. هذا هو الطريق !^(١)

هذا هو الطريق إلى الله ، فجئ ولا تئن ؛ فرسول الله ﷺ لما قال له خديجة : ألا تئم يا رسول الله ؟! قال : «مضى عهد النوم يا خديجة » .. وقال ﷺ لعاشرة لما تعجبت من عبادته وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه : «أفلا أكون عبدا شكورا»^(٢).

أخي في الله ، اثبت في الطريق على الطاعة ولا تيأس من طول الطريق ، فما عليك إلا أن تجده السير وشروع الخطأ ولا تلتفت وستصل بإذن الله .. صبر نفسك واضطير ، واعلم أن الصبر على الطاعة هو الصبر الأعلى ، وأكمل الناس صبرا على الطاعة أولو العزم من الرسل ؛ ولذا أمر رسوله ﷺ أن يصبر صبرهم ؛ فقال - تعالى - : «فاصبر كاما صبر أولوا العزم من الرسل» [الاحقاف: ٣٥] ، ومعلوم أن الأمر للقدوة أمر لأتباعه .. ونهاه أن يتتبّه بصاحب الحوت ؛ حيث لم يصبر صبر أولي العزم ؛ فقال - تعالى - : «فاصبر ليك ربك ولا تكون كمسحٍ للحوت إذ نادى وهو مكتوم» [القلم: ٤٨] .

ولقد جعل الله الوصول إليه والفوز بالجنة والنجاة من النار لا يحظى به إلا الصابرون ؛ فقال - تعالى - : «إني جزيتهم اليوم بما صبروا لأنهم هم الفائزون» [المؤمنون: ١١١].

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٩٣).

(٢) متفق عليه : البخاري (٤٨٣٧) ، ومسلم (٢٨٢٠) .

فَمَذْرَاٰ (١) وَيُمَدِّدُكَ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَيَجْعَلُ لَكُّمْ جَهَنَّمَ وَيَجْعَلُ لَكُّمْ أَنْهَارًا (٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَقَارًا (٣) [نوح: ١٣-٥].

قال أبو القاسم الغرياني في التسهيل لعلوم التنزيل : « ذكر أولًا أنه دعاهم بالليل والنهار ، ثم ذكر أنه دعاهم جهازًا ، ثم ذكر أنه جمع بين الجهر والإسرار ، وهذه غاية الجهد في النصيحة وتبلیغ الرسالة » اهـ .
وقال القاسمي في محسن التأويل : « بذل نوح غاية الجهد دائمًا بلا فتور ولا توان ، وضاقت عليه الرحيل في تلك المديدة الطوال » اهـ .

ويقول أخي فضيلة الشيخ سيد بن حسين العفاني - حفظه الله تعالى - :

« كفاح نبيل طويلاً .. سلك نوح إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم شئ الأساليب ومتنوع الوسائل في ذايب طويلاً ، وفي صبر جميل ، وجهد نبيل ، ألف سنة إلا خمسين عاماً .. ثم عاد إلى ربه يقدم حسابه ، ويتثبت شكوكه ، في هذا البيان المفصل وفي هذه اللهجة المؤثرة .

وصورة نوح في دعوته ، وهو لا يمل ولا يفتر ، ولا ي Yasus أيام الإعراض والإصرار ، صورة لإصرار الداعية على الدعوة ، وتحين كل فرصة ليبلغهم إياها ، وإصرارهم هم على الضلال .

ولم ينس نوح - عليه الصلاة والسلام - الدعوة حتى حين حضرته الوفاة ؛ فقد وصى ابنته بـ « لا إله إلا الله » ونهاهما عن الشرك ، وأمرهما بسبحان الله وبحمده .

وإن الإنسان ليأخذه الدهش والعجب ، كما تغمّره الرؤعة والخشوع ، وهو يستعرض هذا الجهد الموصول من الرسلي - عليهم صلوات الله

وسلامه - لِهُدَايَةِ الْبَشَرِيَّةِ الضَّالَّةِ الْمَعَانِدَةِ ، وَيَتَدَبَّرُ إِرَادَةُ اللَّهِ الْمُسْتَقْرَةُ عَلَى إِرْسَالِ هُؤُلَاءِ الرَّسُولَ ، وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ لِهَذِهِ الْبَشَرِيَّةِ الْمَعْرِضَةِ الْعَنِيدَةِ .

وَقَدْ يَعْنِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَسْأَلُ : ثُرِيَّ هَلْ تُساوِي الْحُصْيَلَةُ هَذَا الْجَهَدُ الطَّوِيلُ ، وَتَلِكَ التَّضْحِيَاتُ النَّبِيَّةُ ، مِنْ لَدُنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، ثُمَّ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا وَمَا تَلَاهُمَا مِنْ جُهُودِ الْمُؤْمِنِينَ بِدُعْوَةِ اللَّهِ وَتَضْحِيَاتِهِمُ الصُّخَامُ ، ثُرِيَّ : هَلْ تُساوِي هَذَا الْجَهَدُ الَّذِي وَصَفَهُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَدْ اسْتَغْرَقَ عُمُراً طَوِيلًا بِالْعَطْلَوْلِ ، لَمْ يَكْتُفِ قَوْمُهُ فِيهِ بِالْإِعْرَاضِ ، بَلْ أَتَبْعَوْهُ بِالسُّخْرِيَّةِ وَالْاِتَّهَامِ ، وَهُوَ يَتَلَقَّاهَا بِالصَّبَرِ وَالْحُسْنِي ، وَالْأَدِيبِ الْجَمِيلِ وَالْبَيَانِ الْمُنِيرِ؟!

ثُمَّ تَلِكَ الْجَهُودُ الْمَوْصُولَةُ مِنْذَ ذَلِكَ التَّارِيخِ ، وَتَلِكَ التَّضْحِيَاتُ النَّبِيَّةُ الَّتِي لَمْ تَنْقُطْعْ عَلَى مَدَارِ التَّارِيخِ مِنْ رَسُلٍ يُسْتَهْزَأُ بِهِمْ ، أَوْ يُحْرَقُونَ بِالنَّارِ ، أَوْ يُشَرَّوْنَ بِالْمَنْشَارِ ، أَوْ يَهْجُرُونَ الْأَهْلَ وَالْدِيَارَ .. حَتَّى تَجْئِيَ الرَّسَالَةُ الْآخِرَةُ ، فَيَجْهَدُ فِيهَا مُحَمَّدٌ ﷺ ذَلِكَ الْجَهَدُ الْمَشْهُودُ الْمَعْرُوفُ ، ثُمَّ تَوَالَى الْجَهُودُ الْمُضْنِيَّةُ وَالتَّضْحِيَاتُ الْمُذْهِلَةُ مِنْ الْقَائِمِينَ عَلَى دُعُوتِهِ فِي كُلِّ أَرْضٍ وَفِي كُلِّ جَبَلٍ؟؟ ..

ثُرِيَّ تُساوِي الْحُصْيَلَةَ كُلَّ هَذِهِ الْجَهُودِ ، وَكُلَّ هَذِهِ الْجَهَادِ الشَّاقِ الْمَرِيرِ؟!

ثُمَّ ثُرِيَّ هَذِهِ الْبَشَرِيَّةِ كُلُّهَا تُساوِي تَلِكَ الْعِنَيَّةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ اللَّهِ ، الْمُتَجْلِيَّةِ فِي اسْتِقْرَارِ إِرَادَتِهِ - سُبْحَانَهُ - عَلَى إِرْسَالِ الرَّسُلِ تَثْرِي ، بَعْدَ الْعِنَادِ وَالْإِعْرَاضِ وَالْإِصْرَارِ وَالْاسْتِكْبَارِ مِنْ هَذَا الْخُلُقِ الْهَزِيلِ الصَّغِيرِ الْمُسْمَئِ بِالإِنْسَانِ؟! . وَالْجَوابُ بَعْدَ التَّدَبُّرِ : أَنْ نَعَمْ .. وَبِلَا جَدَالٍ!!

إِنَّ اسْتِقْرَارَ حَقِيقَةِ الإِيمَانِ بِاللَّهِ فِي الْأَرْضِ يُساوِي كُلَّ هَذِهِ الْجَهَادِ ،

وكل هذا الصبر ، وكل هذه المَشَقَّة ، وكل هذه التضحيات النبيلة المطردة من الرسل وأتباعهم الصادقين في كل جيل !

فالدعوة إلى الله لابد أن تمضي في طريقها كما أراد الله؛ لأن الحصيلة تُسْتَحِقُ الجهود المُضْنِيَّة والتضحيات النبيلة ، ولو صُرِّغَت فانحصرت في قلب واحد ، يقرُّبُ من الله ويُجْبِه ويُشْتَاقُ إليه . قال ﷺ : «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَّةُ، فرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْفُطُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجْلَانُ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»^(١) اهـ^(٢) .

حبيبي في الله ، لا تُسْتَطِلُّ الطريق إلى الله؛ فمن استطال الطريق ضعف مثيئه ؛ فواصل العمل .. واصل؛ فالله معك .. واعلم أن الشرط في السير أن تجهد وتتعب .. فواصل العمل ولا تقطع .. وتذكرة دائماً نحوًا على الكتاب .. أخي في الله ، اعمل بلا انقطاع ، وعند الله المستراح .

إخواته ، زِنوا حُلُوَّ المُشَتَّهِي بِمُرُّ العِقَابِ يَيْنَ لِكُمُ التفاوت .. لِمَا عَرَفَ الْقَوْمُ قَدْرَ الْحَيَاةِ، أَمَاتُوا فِيهَا الْهُوَى فَعَاشُوا، جَمَعُوا بِأَكْفُ الْجِدْ من الزَّمْنِ مَا نَثَرَهُ زَمْنُ الْبَطَالَةِ .. هَانَ عَلَيْهِمْ طُولُ الْطَّرِيقِ لِعِلْمِهِمْ أَيْنَ الْمَقْصِدُ، وَخَلَّتْ لَهُ مَرَاثِي الْيَلَى حُبًّا لِعَوَاقِبِ السَّلَامَةِ، فِيَا بُشِّرَاهُمْ يَوْمَ يَقَالُ : «هَذَا يَوْمُكُمْ» .



(١) متفق عليه: البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٦) .

(٢) صلاح الأمة في علو الهمة (٢٢ - ١٨/٢) باختصار .

الأصل الخامس عشر

السر الدفين لعدم القبول وجود حظ للنفس في العمل

هل تصلني لله أم تستجمن؟! .. تصوم من أجل أن تُرِيحَ بطنك ، أم من أجل أن يرضي الله عنك؟! .. تُنكرُ الناس ليعاملوك معاملة حسنة أم تُكرِّهم لله لأنك تُحبه؟! .. أغفينا لحيتك توقيراً أم لأنها سُنة النبي ﷺ؟! .. تدفع ما عليك ليقول عنك الناس : محترم أم لترضي ربك؟! .. تُحتج وتعتبر رباء وفسحة وتغيير جوًّا أم ل تستغفر ربك هناك؟! ..

قال الحسن كثيرون : رَحِيمُ اللَّهُ عَبْدًا وَقَفَ عَنْهُمْ ، فَإِنْ كَانَ اللَّهُ مَضِي ، وَإِنْ كَانَ لِغَيْرِهِ : تَأْخِرٌ .. اغْتَرَبَ عَنْ بَلْدِكُ ، وَهَاجَرَتِ إِلَى اللَّهِ لِمَاذَا؟! .. لِتَعْلَمَ الْعِلْمَ وَتَعْبُدَ اللَّهَ وَتَدْعُوَ إِلَيْهِ لِمَاذَا؟! .. لِمَاذَا تَعْلَمَ الْعِلْمَ؟! .. لِمَاذَا تَدْعُوَ إِلَى اللَّهِ؟! .. لِمَاذَا تَقْوُمُ اللَّيْلَ وَتَصْوُمُ النَّهَارَ؟! .. لِمَاذَا تَتَصَدِّقُ؟! .. لَوْ كَانَ فِي هَذِهِ الْأَعْمَالِ شَيْءٌ وَلَوْ بِسِيطٌ مِنْ حَظَّ النَّفْسِ ، لَا يَقْبُلُهَا اللَّهُ أَبْدًا .

قال الله - تعالى - في الحديث القدسي : «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً وَأَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكَهُ وَشَرَكَهُ»^(١) .. فَاللَّهُ يَعْلَمُ غَيْرَهُ .. عَزِيزٌ .. يَعْلَمُ .. لَا يَقْبُلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا وَابْتَغَيَ بِهِ وَجْهَهُ .. اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا الْإِحْلَاصَ وَاجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِهِ .

(١) أخرجه : أحمد (٣٠١/٢) ، ومسلم (٢٩٨٥) واللفظ له .

لذلك فإن الذين يأتون يوم القيمة وأعمالهم لم تقبل سيفاجئون بأن أعمالهم كانت لله ، ولكنها لم تكون خالصة .. كان فيها شيء من حظ النفس .. يالله!! .. فصحح نيتك؛ فالطريق إلى الله لا يصلح فيها إلا حسن النية .. أخلص قبل أن يأتيك يوم القيمة .

وآه من يوم القيمة! .. اللهم ارحم يوم القيمة ضعفنا ، اللهم ارحم ذل وقوفنا بين يديك يا أرحم الراحمين .. يوم القيمة وما أدراك ما يوم القيمة! .. إياك أن تنسى ذلك اليوم .. قال ربنا : «ولمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَانَ» [الرحمن: ٤٦] .. تذكر هذا المقام يوم وقوفك بين يديه وأعمالك كلها معروضة عليه .. يوم يقول لك : عبدي ، عشت سبعين سنة ولم تصل إلا سنتين لماذا؟ ، فتتساءل : وعزتك وجلالك يا رب صليت من يوم أن ذهبت إلى المدرسة وأنا في أولى ابتدائي ، ماذا حصل؟!! .. تجد خمسين سنة من عمرك لم تقبل وعشرون سنتين فقط قبلك!! .. «وَيَدَاكُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا بِحَسِيبٍ» [الزمر: ٤٧] .. السبب : وجود حظ النفس .. صفت كثيرة ، ولم يقبل إلا التزّر القليل .. نعم : لوجود حظ النفس في العمل .

أقول لكم كثيراً : لو كان لها «دور ثان» ، لو كان فيها «ملحق» ، أو لو كان لها «إعادة» ؛ لقلنا : يا رب ، أخطأنا فارجعنا تصلح ما كان منا .. لكن هي مرة واحدة إذا ذهبت فيها إلى جهنم كانت المصيبة .. قال الحسن : «ابن آدم ، عن نفسك فكايض ، فإنك إن دخلت النار لم تنجز بعدها أبداً» .. اللهم ارزقنا حسن الخاتمة ، اللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك .

نعم - إخواته - : السُّرُورُ الدُّفَينُ لعدم القبول هو وجود حظ النفس في العمل .. أن تزوج بالبناتِ الفلانية لأنها تعجبك وتحبها ولا تتزوج ليعقل الله ويسترك .. تكرُّم الناس ليكرِّموك ليس لأجل أن يكرِّمك الله .. تصلِّي لتستريح ليس لأنه أمرك بالصلاحة .. تؤدي الحقوق كما ينبغي ليقولوا عنك : أمين ، ليس لأن الله ألزمك بذلك ..

فوجود حظ للنفس في العمل معناه : أن تستغل لحسابك .. تعمل لنفسك وليس لله .. وجود حظ للنفس .. إياك أن تنسى هذه الكلمة .. أن تصير «شَعَالاً» لحسابك .. لمزاياك .. لهواك .. لنفسك .. لا لله .. اللهم استرنا ولا تفضحنا .

هذه هي المشكلة الكبيرة .. أن مُعظمنا أكثر عمله لنفسه لا لله .. هذه هي الحقيقة ولا تغضب؛ لذلك قف وقفَةً جادةً وحققَ الإخلاص .. جرد النية لله ، فلا تدري متى تموت .. أخلصْ يقبلن عملك ، وإلا فسيطُرُ في وجهك ، وتُخسر الوصول إلى الله .

قال أبو أيوب مولى ضيغم بن مالك : قال لي أبو مالك يوماً : يا أبي أيوب ، احنز نفسك على نفسك؛ فإني رأيت هموم المؤمنين في الدنيا لا تنتهي ، وايم الله ، لئن لم تأت الدار الآخرة المؤمن بالسُّرور؛ لقد اجتمع عليه الأمران : هم الدنيا ، وشقاء الآخرة . قال : قلت : بأبي أنت وأمي ، وكيف لا تأتيه الآخرة بالسُّرور ، وهو يتضبّل لله في دار الدنيا ويدأب؟! ، قال : يا أبي أيوب ، فكيف بالقبول؟! وكيف بالسلامة؟! ، ثم قال : كم من رجل يرى أنه قد أصلح نفسه ، وقد أصلح قرباته ، قد أصلح

همته ، قد أصلح عمله ؛ يجمع ذلك يوم القيمة ثم يُضرب به وجهه^(١) . إخوته ، حاسبوا أنفسكم واظروا فيها .. عامر بن قيس كان يقول لنفسه : قومي يا مأوى كل سوء ، فوعزه ربى لأزحفن بك رحف البعير ، وإن استطعت أن لا يمس الأرض زهمك (شحم الجسم) لأفعلن . ثم يتلوي كما يتلوي الحب على المقلبي ، ثم يقوم فينادي : اللهم إن الناز قد منعني من النوم ؛ فاغفر لي .

وَتَعْبَدْ رَجُلَ بَيْتِ شَغِيرِ سَمَعَةٍ :

لنفسه أبكي لست أبكي لغيرها لنفسه في نفسي عن الناس شاغل إخوته ، إن فتنة النفس والشهوة ، وجاذبية الأرض والدعوة والاطمئنان ، وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان ، والاستواء على مرتضاه ، مع المعوقات والمُثبطات في أعماق النفس - هي الفتنة الكبرى .

لكن ما الحل - إخوته - لنفسي عن أعمالنا حظ النفس ليقبلنا الله؟

النفس تضهرها المجاهدة فتنفي عنها الخبث ، وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ . ويكتفي قول الله تعالى : «وَالَّذِينَ جَهَدُوا فِيمَا لَهُتَبَّئُمْ شُبَّلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلَّ الْمُخْسِنِينَ» [العنكبوت: ٦٩] .

قال أبو يزيد البسطامي : عالجت كل شيء ، مما عالجت أصعب من معالجة نفسي ، ما شيء أهون على منها .

(١) صفة الصفة ، لابن الجوزي (٣٦٠ / ٣) .

وقال : دَعْوَتْ نفسي إلى الله ، فَأَبْتَ عَلَيَّ وَاسْتَصْبَبْتُ ، فَتَرَكْتُهَا وَمَضِيَتْ إِلَى الله .

وقيل لبعض أهل الرِّياضَة : كَيْفَ غَلَبْتَ نَفْسَكَ؟ فَقَالَ : قَمَتْ صَفَ حَرِبَهَا بِسَلَاحِ الْجِدْ ، فَخَرَجَ مَرْحُبُ الْهُوَيِّ يُدَافِعُ ، فَعَلَاهُ الْعَزْمُ بِصَارِمِ الْحَزْمِ ، فَلَمْ تَمْضِ سَاعَةً حَتَّى هَلَكَتْ خَيْرٌ .

وقيل لآخر : كَيْفَ قَدَرْتَ عَلَى هَوَاكَ؟ فَقَالَ : خَدَعْتَهُ حَتَّى أَسْرَهُ ، وَاسْتَبَلْتُ عُودَةً فَكَسَرَهُ ، وَقَيَدْتُهُ بِقَيْدِ الْعُزْلَةِ ، وَخَفَرْتُ لَهُ مَطْمُورَ الْخُمُولِ فِي بَيْتِ التَّوَاضُعِ ، وَضَرَبْتُهُ بِسَيَاطِ الْجُوعِ فَلَانَ.. يا فُلانُ : أَلَكَ فِي مَجَاهِدِ النَّفْسِ نِيَّةً ، أَمِ النِّيَّةُ نِيَّةً؟ .. أَتَعْبَثُنِي وَأَنْتَ أَنْتَ .. إِلَى مَنِ تَجُولُ فِي طَلَبِ هُجُولٍ؟!^(١) ، مَا عَزَّ يَوْسُفُ إِلَّا بَتَرَكَ مَا ذَلَّ بِهِ مَاعِزٌ .

إِخْوَتَاهُ ، لَا يَقْبِلُ اللَّهُ عَمَلاً فِي حَظِّ الْنَّفْسِ ، فَخَلُوا أَنْفُسَكُمْ وَتَعَالَوْا إِلَى اللَّهِ .. وَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ عَلَيْهَا بِالْمَجَاهِدَةِ وَالْإِحْسَانِ فِي الْمُعَامَلَةِ ؛ قَالَ رَبِّي - وَأَحَقُّ الْقَوْلِ قَوْلُ رَبِّي - : «وَالَّذِينَ جَنَهَدُوا فِيْنَا لَهُدِيَّهُمْ شُبَّلَنَا وَلَنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» [العنكبوت: ٦].



(١) جمع هَجَلْ : وَهِيَ الْمَفَازَةُ الْوَاسِعَةُ ، وَتُجْمَعُ عَلَى أَهْجَالٍ وَهَجَالٍ أَيْضًا . انظر : المعجم الوسيط .

الأصل السادس عشر

الأمر كُلُّه بِيَدِ اللَّهِ؛ فَسَلَّمْ تَسْلَمْ

قال - تعالى - عن إبراهيم : «إِذَا قَالَ لَكُمْ رَبُّكُمْ أَسْلِمُوا قَالَ أَسْلَمَتُ إِنِّي
أَسْلَمَتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بْنَهُ» [البقرة : ١٣٢-١٣١].

قال ابن كثير رحمه الله : «وقوله - تعالى - : «إِذَا قَالَ لَكُمْ رَبُّكُمْ أَسْلِمُوا قَالَ
أَسْلَمَتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» أي : أمره الله - تعالى - بالإخلاص له والاستسلام
والانقياد؛ فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدراً. قوله : «وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بْنَهُ
وَيَعْقُوبُ» أي : وصَّى بهذه الملة وهي الإسلام لله ، أو يعود الضمير على
الكلمة ، وهي قوله : «أَسْلَمَتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ»؛ لحرِّصهم عليها ومحبِّتهم
لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ، ووصَّوا أبناءهم بها من بعدهم » اهـ .

فَسَلَّمْ لِرِبِّكَ يا طَالِبَ الْوَصْوَلِ ، فَالْأَمْرُ كُلُّهُ لَهُ . قالَ الْمَلِكُ : «إِذَا
نَصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَنِكُمْ فَأَثْبِتُمْ
عَمَّا يَعْمَلُونَ لِكَيْلًا تَخْرُجُوا عَلَى مَا فَاءَكُمْ وَلَا مَا أَمْسَكْتُمْ وَاللَّهُ خَيْرُ
يَعْمَلُونَ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْفَتْرَةِ أَمْمَةً نَعَسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ
وَطَائِفَةً قَدْ أَهَمَّتُمْ أَنفُسَهُمْ يَظْهُرُونَ بِاللَّهِ غَيْرِ الْحَقِيقَ ظَنْ لِجَهَنَّمَ يَقُولُونَ هَلْ
لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلُّهُ بِيَدِ اللَّهِ يُخْفَوْنَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكُمْ
يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَّا قُلْ لَوْ كُنُتمْ فِي بُيوْتِكُمْ لَبَرَّ الْأَدْيَنَ
كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِنَّ مَضَاجِعَهُمْ وَلِبَتْلِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيَمْحَصَ مَا فِي
قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِدَارِ الصُّدُورِ» [آل عمران : ١٥٣-١٥٤].

«وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتُمْ أَنفُسُهُمْ» .. نعم : فكم من ناسٍ في هذه الدنيا لا هم إلا أنفسهم .. سلّموا أمرهم لأنفسهم لا لله .. وقد يدّعى قالوا : من عاش لنفسه عاش صغيراً ومات حقيراً .. فسلّم نفسك لله وحده يأمرها وينهاها بما هو أدنى وأصلح لها ، فهو سبحانه عاليٌ حكيم .. ضغط يديك ورجليك في قيود الشريعة الفضيحة لتحرر من ذل العبودية لغير الله .. سلّم نفسك فالامر كله لله .

كم رأينا رجالاً أهملُ شيءٍ لديه أن يأكل ويشرب ويلبس وينام .. أهمل شيءٍ مزاجه ، أهمل العيال فمالي وللعيال !؛ فأنا الذي آتي بالعيال .. والزوجة؟! .. ومالي بالزوجة ، فلتذهب لأهلها يطعموها .. وعن الآخرة يقول : حينما يأتي الحساب ستفرج !!

طبعاً أنت ستتعجب لهذا الرجل ، فكلامه لا يقوله إلا جاهل أو عاصٍ ، ولكن لا تتعجب ، فهذا الكلام موجود بداخل الكثير منا - معاشر الملترمين - وإن كان لا يقوله بلسانه .. نعم : كثيرٌ منا يوؤُد أن يعيش لنفسه - وتقبّيه فقط - .. ودعونا نتصارح حتى تعالج تلك المشاكل ؛ وإلا فسيظل السوس ينخر في العظم .. عظم الأمة .

إن سبب مصائبنا اليوم أنفسنا .. ترانا «من코سين موكونين» لماذا؟ .. من أنفسنا .. شلة يهود .. شرذمة يهود يضرّوننا على أم رؤوسنا لماذا؟ .. لماذا استضعفونا واستهانوا بنا؟ .. ليهواننا على أنفسنا .. مع أننا أكثر من هؤلاء الناس جميعاً ، وعندنا كل الإمكانيات التي تؤهّلنا لسيطرة العالم ولكن لا نُسود .. لأن «السوس» في قلوبنا .

إنَّ أَوْلَى نَصِيرِ الدِّينِ أَنْ تُصْلِحَ نَفْسَكَ .. فَمَنْ هَنَا الْمَنْتَلِقُ ، وَمَنْ هَنَا الْبَدَائِيَةُ .. إِصْلَاحُ النَّفْسِ يَكُونُ بِتَسْلِيمِهَا لِلَّهِ بِكُلِّ حُبٍّ وَرَضَا يَأْمُرُهَا وَيَنْهَا كَيْفَ شَاءَ .

البداية من نفسك .. وَهَذَا الْكَلَامُ ثُلَثُهُ مِنْ عِشْرِينَ سَنَةً .. وَعَشْرَ .. وَخَمْسَ .. وَالْأَمْسَ .. وَالْيَوْمَ .. وَسَأَظْلِلُ أَقْوَلَهُ حَتَّى أَمُوتُ؛ لِأَنَّهُ قَانُونُ إِلَهِيٌّ؛ «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُولُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا يُغَيِّرُهُمْ» [الرعد: ١١] .. قَانُونٌ إِلَهِيٌّ .. «ذَلِكَ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُكَفِّرْ يَعْمَلَهُمْ أَنْفَعَهُمْ عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا يُغَيِّرُهُمْ» [الأنفال: ٥٣] .

وَإِنَّ الَّذِي يَتَحَدَّثُ عَنِ التَّغْيِيرِ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ لَنْ يَغْيِرْ شَيْئًا عَلَى الْإِطْلَاقِ .. فَالْبَدَائِيَّةُ إِذَا مِنْ أَيْنَ؟ .. مِنْ عِنْدِ أَنفُسِنَا .. وَهَذَا لَيْسَ مِنْ عِنْدِي؛ وَلَكِنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ كَمَا مَرَّ .

إِذَا فَلَابِدُ مِنِ التَّحْدِيقِ .. تَدْرِي مَعْنَى التَّحْدِيقِ؟ .. التَّحْدِيقُ فِي ذَوَاتِ أَنفُسِنَا .. أَيُّ شَيْءٍ فِي أَنفُسِنَا يَجُبُ أَنْ يَغْيِرَ؟ .. فَغَيْرُ نَفْسِكَ وَسَلْمُ نَفْسِكَ لَا لِنَفْسِكِ وَلَكِنَّ لِلَّهِ .

يقول الله - تعالى - : «وَطَلَبَيْفَةٌ قَدَّ أَهْمَمَهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلَمُونَ بِاللَّهِ عَزَّ

الْحَقَّ ظَنَّ الْمُنْهَلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَنُونَ» [آل عمران: ١٥٤] ..

يقول هؤلاء المنافقون : مَنْ الَّذِي أَتَنَا إِلَيْنَا .. مَا لَنَا وَلَهُذَا الْأَمْرُ؟! ..

كَالَّذِينَ يَقُولُونَ : مَا لَنَا وَفَلَسْطِينُ؟! ، وَيَقُولُونَ : هُمُ الَّذِينَ بَاعُوا أَرْضَهُمْ ..

إِنَّ الْقَضِيَّةَ يَا هُؤُلَاءِ! لَيْسَ فَلَسْطِينُ .. هَذِهِ قَضِيَّةُ الْإِسْلَامِ وَالْيَهُودِ ..

الْقَضِيَّةُ قَضِيَّةُ إِسْلَامٍ وَكُفَّرٍ .

وإن الذي يهتم ويحزن لأحوال المسلمين ينبغي أن يفكر في نفسه فيصلحها لتنصلح أمنة الجريحة .. وليسلم لله وليقن بـلسان الحال والمقال : سمعاً وطاعةً يا رب .. «وَقَاتُلُوا سَمِعَكَ وَأَطْعَنَكَ رَبَّكَ وَإِيَّاكَ الْعَمِيرُ» [البقرة: ٢٨٥] .. فلا يحل لخيته مثلاً ويقول : أخلقها وأرخ دماغك .. لا .. فأين السمع والطاعة إذا؟! .. أين التسليم الذي نتحدث عنه؟!! .. أنت لم تُرِخ نفسك بل عصيت ربك الذي بيده الأمر والنهي .

لماذا سجن الإمام أحمد بن حنبل؟ .. من أجل العقيدة .. يقولون له : القرآن مخلوق ، قال لهم : القرآن كلام الله غير مخلوق .. سجنوه وضربوه .. الذي ضربه قال : ضربتُ أحمد سبعة عشر سوطاً لو ضربتها جبل لانهاد .. نعم : سجن .. وفي شغب أبي طالب كم ضرب أناس! .. النبي ﷺ نفسه سجن وضرب .. فالتأديب بالسجين والضرب الآن ليس جديداً .. «مَمَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا فَدَ قِيلَ لِرَسُولِ مِنْ قَبِيلَكَ» [فصلت: ٤٣] ..

أبو سيدنا إبراهيم قال له : «لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَكَ» [موسم: ٤٦] .. فرعون قال لموسى عليه السلام : «لَأَجْعَلَنَكَ مِنَ الْسَّاجِنِينَ» [الشعراء: ٢٩] .. فهذه سُنة كونية .. سُنة دائمة لا تغير .. وابتلاءُ أحمد بن حنبل كان من أجل كلمة ما أسهل أن يتنازل عنها الناس اليوم ؛ بل والملتزمون .

قال أبو سعيد الواسطي : دخلت على أحمد السجن قبل الضرب فقلت : يا أبا عبد الله ، عليك عيال ولك صبيان وأنت معذور ، كأنني أسهل عليه الإجابة .. كأنه يقول له بلغة عصرنا : وراءك عيال وتحتاج إلى تربيتهم ، قل لهم الكلمة التي يريدونها .. «القرآن مخلوق» .. وآخر

من هنا.. ألسنَت من داخل قلبك تعتقدُ أن القرآن كلامُ الله؟!؛ إذا لا حرج عليك، طالما أن قلبك مطمئنٌ بالإيمان!!

فقال الإمام أحمد: «يا أبا سعيد، إنْ كان هذا عقلك فقد استرحت!!.. وما أكثر أصحاب العقول المستريحة في زماننا.. أراخ دماغه.. وغيره عابي بأي أمر.. وتارك نفسه مع الماشي، وحينما يموت لا يجد إلا النار.

لذلك - إخواته - حينما يقول الله: «هَل لَنَا مِنْ أَمْرٍ مِنْ شَيْءٍ»؛ نقول له: إن الأمر كله لله.. الأمرُ أمرُ الله.. فإذا أرادك أن تحمل فاحمل ما أمرك به.. هذه مسئوليتك.. وهذه هي الأمانة التي قال الله عنها: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبْيَتْكُمْ أَنْ يَحْمِلُنَّهَا وَأَشْفَقْنَمِنْهَا وَحَلَّهَا لِلنَّاسِ إِنَّمَا كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» [الأحزاب: ٧٢].. احمل مسئولية هذا الدين، فالدين أمانة.. الدين تسبك وصهرك.. الدين مسئولية كل مسلم.. الدين مسئوليتك الشخصية، وسوف تسأل عنه.. والله ثم والله لتشائل عن دين الله.. ماذا عملت به، وماذا قدمت له؟

قال أبو بكر الصديق لما منعوا الزكوة: أينَقْصُ الدينُ وأنا حي؟! كلا والله.. فهل ينقصُك وأنت حي.. هل ينقصُ الدين في بيتك وفي منطقتك وفي أرضك وفي كل العالم؟!.. نعم ينقص؛ لأنك لم تتحمله.. والمنافقون هم الذين لا يريدون أن يحملوا الدين.. «يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنْ أَمْرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلُّهُ لِلَّهِ».. يقولون لأنفسهم: ما الذي أتي بكم إلى هنا؟!.. «يَخْفَقُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبَدِّلُونَ لَكُمْ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ

لَمَّا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا فَتَنَاهُنَا ﴿١٥٤﴾ [آل عمران: ١٥٤] .. لو كان الموضوع بأيدينا! .. ما الذي جاء بنا إلى هنا؟! .. ما لنا وللقتال.. لماذا نقاتل؟! .. لا .. فليس الأمر بأيديكم؛ **﴿فَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَّ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَصَارِعِهِمْ﴾** [آل عمران: ١٥٤] .. لو لم يأتكم رسول ولو لم تخرجوا لقتلهم هنا أيضاً .. طالما أنه - سبحانه - كتب عليكم أن تقتلوا هنا فسوف تقتلون هنا ولا محالة .. هذا قدر.

ولذلك فإن من يحلق لخيته حتى لا يؤذى تجده يحلقها فيؤذى .. مكتوبة مكتوبة .. فالقضية ليست قضية أسباب .. القضية من مسبب الأسباب .. اتبه .. لذلك حينما يأتي ويقول : أحلق لخيتي ، نقول له : يا أخي ، البلاء يدفع بطاعة الله ورسوله لا بمعصية الله ورسوله .. فهل تعصي ربك لتدفع عنك البلاء؟! .. اللهم ارفع عن المسلمين البلاء ..

أطع ربك .. نفذ أوامره؛ فالامر كله له لا لمن تخاف منهم .. سلم تسلّم؛ فالذي أمرك الله .. الله العزيز .. الله العظيم .. الله اللطيف **﴿أَللّٰهُ لَطِيفٌ يُعْبَادُ﴾** [الشورى: ١٩] .. الله الرحيم .. الله الحفيظ .. فكُن معه ، فأنت في حماه ، ولن يضيعك أبداً؛ فهو الله ..

كلمة جميلة جداً لأبي إسماعيل الهرمي يبين فيها هذا الأصل .. يقول : **«أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَمْرَ صَادِرٌ مِنْ عَيْنِ مَنْ لَا يَخَافُ عِوَاقِبَ الْأَمْرِ»** .. فالذى أمرك من؟ .. الله .. هل يخاف؟ .. أعود بالله وحشا لله .. قال ربى : **«فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبِّهِمْ يَذَّهَّبُهُمْ فَسَوَّنَهَا ﴿١٤﴾** ولا يخاف عقبتها **﴿[الشمس: ١٤-١٥]﴾**.

فكن معه وسيحميك ويحرسك ويحفظك ويسددك وينجيك، وإن ابتلاك فسيرضيك.

قال ابن القيم - رحمة الله - : «أصدق الله ، فإذا صدقت عشت بين عطفه ولطفه؛ فعطفه يقيك ما تحذر ، ولطفه يرضيك بما يقدر» اهـ .
ستعيش وتحيا بين العطف واللطف .. فيعطف عليك .. فكل ما تخاف منه لن يحدث؛ لأنـه - سبحانه - هو الملك ، فلا يجري في الكون شيء إلا يقدرـه وإذـنه ومشيـته ، فسيـحميك بـعطفـه .. وإذا قـدرـ عليك شيئاً تـكرـهـه فـسيـرضـيك بـلطفـه . إذا فـكنـ للـلهـ كـماـ يـرـيدـهـ؛ يـحـمـيكـ وـيـرـضـيكـ .. فـسلـمـ لهـ تـسلـمـ .

فـلـآنـ كانـ يـقـودـ السيـارـةـ وـفيـ لـحظـةـ الـقـدـرـ لمـ يـرـ أـمـامـهـ؛ فـكـانـ الحـادـثـ .
وـفـيهـ حـصـلـ العـطـفـ وـالـلـطـفـ .. فـالـعـطـفـ : أـنـ السيـارـةـ تـكـسـرـتـ لـكـنهـ خـرـجـ
هوـ وـأـولـادـهـ سـالـمـينـ .. هـذـاـ عـطـفـ .. أـمـاـ اللـطـفـ : فـإـنـهـ نـزـلـ منـ السيـارـةـ
سـاجـدـاـ يـقـولـ : الـحـمـدـ لـلـهـ .. يـقـولـونـ لـهـ : السيـارـةـ اـنـتـهـتـ ؛ يـقـولـ : يـاـ أـخـيـ ،
الـحـمـدـ لـلـهـ ، الـحـمـدـ لـلـهـ .. فـهـذـاـ لـطـفـ .. وـعـلـىـ الـعـكـسـ : مـنـ يـحـلـقـ
بـلـحـيـتـهـ .. فـيـعـصـيـ فـيـؤـذـيـ فـيـتـلـقـظـ بـمـاـ يـسـخـطـ اللـهـ .. فـلـاـ هوـ نـقـذـ الـأـمـرـ فـعـاشـ
بـعـطـفـ اللـهـ ، وـلـاـ هوـ سـكـتـ فـعـاشـ سـعـيـداـ وـفـازـ بـلـطـفـ اللـهـ .

وهـكـذاـ .. إـذـاـ عـشـتـ لـلـهـ فـنـقـذـ أـوـامـرـهـ؛ وـسـلـمـتـ لـهـ زـيـمامـ نـفـسـكـ
فـأـطـغـتـهـ فـيـ كـلـ مـاـ يـأـمـرـكـ بـهـ؛ سـلـمـتـ ، وـسـيـرـكـ بـيـنـ عـطـفـهـ وـلـطـفـهـ - اللـهـمـ
احـفـظـنـاـ بـعـطـفـكـ وـلـطـفـكـ يـاـ رـبـ .. فـسلـمـ تـسلـمـ لـتـصـلـ ؛ فـالـأـمـرـ كـلـهـ لـلـهـ .

الأصل السابع عشر

دليل عدم رضاه عنك عدم رضاك عنه

رجل تضايقه زوجته ببعض الشيء، ولكنه رجل صالح وراضٍ وصابرٍ ويقول : بذنبي .. هذا الرجل الراضي يُفاجأ بأنَّ اللَّهَ يُرضيه ؛ ففيأتيه برقيل يجلس بجواره ويقول له : يا أخي ، لا أدرِي ماذا أفعل مع زوجتي !! .. كلما أكلَّمها كلمة ثوبخني وثبيثني .. فيقول صاحبنا : اللَّهُمَّ لك الحمد ، إِذَا فَلَّا في نعمة .

ورجل آخر كلما تضايقه زوجته يقول : يا رب ، ماذا عملت في دنياي حتى تبتليَّني بهذه البلوى؟! ؛ فيُقْعِدُ اللَّهُ له رجلاً بجواره يقول له : يا أخي ، سبحان اللَّهِ ! ، لماذا تعذب نفسك؟! طلقها واسترخ من مشاكلها!! .. ولو رضيَ لارضاه اللَّهِ .

قال سفيان : قال الحسن : من رضي بما قسم اللَّهُ له وسعة ، وببارك اللَّهُ له فيه ، ومن لم يرض لم يتسع ، ولم يبارك له فيه .

وقال أبو عثمان العجري : منذ أربعين سنةً ما أقامني اللَّهُ في حال فكرهته ، وما نقلني إلى غيره فسخطته .

لقد حدث لأحد الإخوة موقف عجيب .. كان نائماً بالليل فعطنى فقام ليشرب ورجع ، فوجد زوجته قد استيقظت وتقول له : أين كنت؟ ،

فقال : كنت أشرب ، فبكـت وقـالت له : لـم لـم تـوقظـني ؟ ، لـم لـم تـأـمـرـني ؟ ،
ما فـائـدـتي إـذـن ؟ !!

فالـذـي وـضـعـ هـذـا الرـجـلـ لـهـذـا ، وـوـضـعـ هـذـا مـنـ ؟ .. اللـهـ ..
فـحـينـمـا تـرـضـى يـُـرـضـيـكـ ، وـحـينـمـا تـسـخـطـ يـُـرـضـيـكـ سـخـطـاـ ؛ قـالـ رـسـولـ اللـهـ
صـلـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ : «إـنـ اللـهـ إـذـا أـحـبـ قـوـمـاـ اـبـلـاهـمـ ، فـمـنـ رـضـيـ فـلـهـ الرـضاـ ، وـمـنـ سـخـطـ
فـلـيـهـ السـخـطـ»^(١) .. هـذـهـ هـيـ القـضـيـةـ : أـنـكـ إـذـا كـنـتـ رـاضـيـاـ دـائـمـاـ ،
أـرـضـاـكـ اللـهـ وـبـعـثـ إـلـيـكـ ماـ يـُـرـضـيـكـ وـمـنـ يـُـرـضـيـكـ .

وـالـقـصـةـ الـتـيـ مـرـتـ مـنـ خـيـرـ الشـواـهـدـ .. قـصـةـ حـدـيـرـ .. لـمـ مـشـأـ

وـوـجـدـ كـلـ وـاحـدـ مـنـهـمـ فـيـ يـدـهـ الـهـدـيـةـ ؛ لـمـ يـقـلـ : وـأـنـاـ ؟ ، وـلـمـ يـرـجـعـ

لـيـقـولـ : أـنـاـ لـمـ آـخـذـ هـدـيـتـيـ يـاـ رـسـولـ اللـهـ .. وـلـوـ طـلـبـ لـأـعـطـاهـ الرـسـولـ

صـلـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ .. لـكـنـ الرـجـلـ كـانـ رـاضـيـاـ ، فـيـكـفـيـهـ أـنـ اللـهـ ذـكـرـهـ .. وـلـمـ ذـكـرـ الرـسـولـ

صـلـلـهـ عـلـيـهـ بـهـ ؛ أـرـسـلـ إـلـيـهـ هـدـيـتـهـ بـسـرـعـةـ .. فـحـازـ الـهـدـيـةـ وـذـكـرـ اللـهـ .. لـرـضـاهـ .

سعـدـ بـنـ أـبـيـ وـقـاصـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ مـعـرـفـ أـنـهـ كـانـ مـسـتـجـابـ الدـعـوـةـ ، وـكـانـ

قدـ كـفـ بـصـرـهـ فـيـ آـخـرـ عـمـرـهـ ، قـالـ لـهـ اـبـنـهـ : يـاـ أـبـتـ أـرـاكـ تـدـعـوـ لـلـنـاسـ ! هـلـاـ

دـعـوـتـ لـنـفـسـكـ أـنـ يـرـدـ اللـهـ عـلـيـكـ بـصـرـكـ ، قـالـ : يـاـ بـنـيـ ، قـضـاءـ اللـهـ أـحـبـ

إـلـيـهـ مـنـ بـصـرـيـ .

إـخـوـتـاهـ ، هـلـ أـنـتـ رـاضـونـ عـنـ اللـهـ ؟ ، هـلـ فـعـلـاـ قـضـاءـ اللـهـ وـقـدـرـهـ أـحـبـ

إـلـيـكـمـ مـاـ أـنـتـمـ فـيـهـ مـنـ بـلـاءـ وـفـتـنـةـ وـغـزـبـةـ ؟ .. إـذـا أـرـدـتـمـ أـنـ تـأـكـدـواـ ؛ فـالـرـضـاـ

عـنـ اللـهـ يـصـحـ بـثـلـاثـةـ شـرـوـطـ ذـكـرـهـ اـبـنـ الـقـيـمـ فـيـ الـمـارـاجـ :

(١) آخرـةـ : أـحـمـدـ وـالـترـمـذـيـ ، وـصـحـيـحةـ الـأـلبـانـيـ فـيـ «الـصـحـيـحةـ» بـرـقمـ (١٤٦) .

الأول : استواء النعمة والبلية عند العبد؛ لأنَّه يشاهد حسن اختيار الله له .

الثاني : سقوط الخصومة عن الخلق ، إلا فيما كان حقاً لله ورسوله ﷺ . فالراضي لا يُخاصِّم ولا يعاتب إلا فيما يتعلَّق بحق الله ، وهذه كانت حال رسول الله ﷺ ؛ فإنه لم يكن يُخاصِّم أحداً ، ولا يعاتبه إلا فيما يتعلَّق بحق الله ، كما أنه لا يغضُّب لنفسه ، فإذا اشْتَهِكت محارم الله لم يقم لغصبي شيءٍ حتى يتقدَّم لله . فالمخاصمة لحظة النفس تُطفئ نور الرضا وتُذهب بهجتها ، وتُبدل بالمرارة حلاوتها ، وتُكدر صفوها .

والشرط الثالث: الخلاص من المسألة للخلق والإلحاح ؛ قال -

تعالى - : «**يَنْكِبُهُمُ الْجَاهِلُونَ فَيَأْتُهُمْ مِنَ الْتَّعْقِفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ لَا يَسْتَعْلَمُونَ النَّاسُ إِلَّا حَافَّاً**» [البقرة: ٢٧٣] . قال ابن عباس : إذا كان عنده غداء لم يسأل عشاء ، وإذا كان عنده عشاء لم يسأل غداء^(١) .

ثم يبَيِّنُ كفالتَّهُ أَنَّ مِنْعَ اللَّهِ - تعالى - لعبدِه عطاء ، وابتلاءه إِيَّاه عافية ، فيقول :

«فإِنَّه - سبحانه - لا يقضى لعبدِه المؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، ساءه ذلك القضاء أو سره . فقضاؤه لعبدِه المؤمن عطاء ، وإن كان في صورة المُنْعَنَّ . ونَعْمَة ، وإن كانت في صورة مُحَنَّة . وبِلَائِه عافية ، وإن كان في صورة بُلَيَّة . ولكن لجهلِ العبد وظلمه لا يَعُدُّ العطاء والنَّعْمَة والعافية إِلَّا مَا أَنْتَ بِهِ فِي الْعَاجِلِ ، وَكَانَ مَلَائِمًا لطبيعتِه . ولو رزق من

(١) مدارج السالكين (٢/٢١٣ وما بعدها) باختصار .

المعرفة حظاً وافراً لعد الممنوع نعمة ، والبلاء رحمة ، وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية ، وتلذذ بالفقر أكثر من لذته بالغنى ، وكان في حال القلة أعظم شكرًا من حال الكثرة .

فالرَّاضِي : هو الذي يعُدْ نعم الله عليه فيما يكرهه ، أكثر وأعظم من يعيمه عليه فيما يُحبه ؛ كما قال بعض السلف : ارض عن الله في جميع ما يفعله بك ؛ فإنه ما منعك إلا ليعطيك ، ولا ابتلاك إلا ليعافيتك ، ولا أمرضك إلا ليشفئيك ، ولا أماتك إلا ليحييتك . فإنك أن تفارق الرَّضى عنه طرفة عين ، فتسقط من عينه^(١) .

إخوته ، قال الثوري يوماً عند رابعة : اللهم ارض عنا . فقالت : أما تستحي أن تسأله الرضا عنك وأنت غير راض عنـه ؟ ، فقال : أستغفر الله . ثم قال لها جعفر بن سليمان : متى يكون العبد راضياً عن الله ؟ ، قالت : إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمـة .

دخل رجل على أبي العالية في مرضه الذي مات فيه ، فقال : إن أحبه إلى ، أحبه إلى الله - عز وجل .

وقيل لـ يحيى بن معاذ : متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا ؟ ، فقال : إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه ، فيقول : إن أعطيتني قبلت ، وإن منعني رضيت ، وإن تركتني عبدت ، وإن دعوتني أجبت .

وعن حفص بن حميد قال : كنت عند عبد الله بن المبارك بالكوفة ،

(١) مدارج السالكين (٢/٢٢٤ - ٢٢٥) بتصرف .

حين ماتت امرأته ، فسألته : ما الرضا؟ ، قال : الرضا : لا يتمنى خلاف حاله .

ونظر رجل إلى فرحة في رجل محمد بن واسع فقال : إني لأرحمك من هذه القرحة ، فقال : إني لا شكر لها منذ خرجت إذ لم تخرج في عيني .

بشير الطبرى كان عنده مزرعة فيها أربعمائة جاموسية .. ثروة تقدر بـ مليون جنيه اليوم .. فهجّم الرؤوم يوماً عليها ، فساقوا الجواميس كلها . وكان عنده مئة عبد يحرسونها ، فأرسل هؤلاء العبيد إلى بشير أن قد أخذت الجواميس ، فركب مع ولده إليهم .. فلما وصل إلى المزرعة لقيه العبيد يبكون .. يا سيدنا ، يا مولانا : أخذت الجواميس ، فقال : وأنتم أيضاً : اذهبوا فأنتم أحرار لوجه الله .. فقال له ابنه : أفترضنا يا أباها ، فقال : اسكت يا بني ، إن الله أراد أن يبتلي رضائي به ، فأحبيب أن أزيده .. رجمك الله يا بشير .. إن الله يمتحنني أرضي بقضائه أم لا ، قلت له : لا ، أنا راض جداً ، وهذه الزيادة أيضاً من أجلك يا رب .. اذهبوا فأنتم أحرار لوجه الله !!

العبد ذو ضجيج والرُّب ذو قدر والدُّهر ذو دُول والرُّزق مَقْسُوم والخَيْر أَجْعَنْ في ما اختارَ خالقُنا وفي اختيارِ سواه اللُّؤْمُ والشُّوْم
يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - :

«وثمرة الرضا : الفرخ والسرور بالرب - تبارك وتعالى - ، ورأيت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - في المنام ، وكأنني ذكرت له

شيئاً من أعمالي القلب ، وأخذت في تعظيمه ومنفعته - لا أذكره الآن - ؛
فالقال : أما أنا فطريقتي : الفرح بالله ، والسرور به . أو نحو هذا من
العبارة «^(١)» .

إلهي .. مُسْنَنا كِيفَ شَيْثَ ؟ فَسُوفَ نَرَضَنِي .. إلهي :

إذا ازْتَحَلَ الْكَرَامُ إِلَيْكَ يَوْمًا لِيَلْتَمْسُوكَ حَالًا بَعْدَ حَالٍ
فِيَانَ رِحَالَنَا حُطْتَ لِتَرْضَى بِجَلْمِكَ عَنْ حُلُولِ وَازْتَحَالِ
أَنْخَنَا فِي فِنَائِكَ يَا إِلهي إِلَيْكَ مُعَرْضِينَ بِلَا اعْتَدَالِ
فَسُسْنَنا كِيفَ شَيْثَ وَلَا تَكْلُنَا إِلَيْكَ تَذَبِّرِنَا يَا ذَا الْمَعَالِي

يقول ابن الجوزي - عليه رحمة الله وبركاته - في «صَبَدُ الْخَاطِرِ»

تحت عنوان «فصل : تذكرة أحوال الرسول» :

«من أراد أن يعلم حقيقة الرُّضى عن الله - عَزَّ وَجَلَّ - في أفعاله ،
 وأن يدرِّيَ من أين ينشأ الرُّضى ؛ فليتَفَكَّرْ في أحوال رسول الله ﷺ .
فإنَّه لَمَّا تَكَاملَتْ مَعْرِفَتَهُ بِالْخَالقِ - سُبْحَانَهُ - رَأَى أَنَّ الْخَالقَ مَالِكُ ،
وَلِلْمَالِكِ التَّصْرِفُ فِي مَمْلُوكِهِ ، وَرَأَهُ حَكِيمًا لَا يَصْنَعُ شَيْئًا عَبَيْنًا ، فَسَلَّمَ
تَسْلِيمَ مَمْلُوكِ لِحَكِيمٍ ؛ فَكَانَتِ الْعَجَابُ تَجْرِي عَلَيْهِ وَلَا يَوْجَدُ مِنْهُ تَغْيِيرٌ ،
وَلَا مِنَ الطَّبِيعِ تَأْفُفُ .

ولا يقول بلسان الحال : لو كان كذا ، بل يُثْبِتُ لِلْأَقْدَارِ ثُبُوتَ الْجَلِيلِ
لِعَوَاصِفِ الرِّيَاحِ .

هذا سيد الرسل ﷺ بعث إلى الخلق وحده ، والكفر قد ملا الآفاق ،
فجعل يقراً من مكان إلى مكان ، واستقر في دار الخزران^(١) ، وهم
يضربونه إذا خرج ، ويذمون عقيبه ، وشق السلي على ظهره ، وهو ساكت
ساكن .

ويخرج كُلَّ مُؤْسِمٍ فيقول : من يُؤْوِيني ، من ينْصُرُني ؟

ثم خرج من مكانة فلم يقدر على العود إلا في جوار كافر ، ولم يوجد
من الطبع تألف .

إذ لو كان غيره لقال : يا رب ، أنت مالك الخلق ، وقدر على النصر ،
فلِمْ أذل ؟

كما قال عمر رضي الله عنه يوم صلح الحديبية : ألسنا على الحق ؟ ، فلِمْ
نعطي الدنيا في ديننا ؟ !!

ولما قال هذا ، قال له الرسول ﷺ : «إني عبد الله ، ولن يضيعني » ،
فجمعت الكلمتان الأصلين اللذين ذكرناهما .

فقوله : إني عبد الله ، إقرار بالملك وكأنه قال : أنا مملوك يفعل بي
ما يشاء .

وقوله : لن يضيعني ، بيان حكمته ، وأنه لا يفعل شيئاً عيناً .

ثم يبتلى بالجوع فيشد الحجر ، ولله خرائن السموات والأرض .

(١) هي دار الأرقام . آلت إلى الخزران بعد ذلك .

وتفتئل أصحابه، ويُسْجِّع وجهه، وتنكس رُباعيَّته، ويُمثِّل بعْمه وهو ساكت .

ثم يُزَرِّق ابناً ويسْلَب منه، فيتعلَّل بالحسن والحسين فيُخَبِّر بما سيجري عليهم .

ويسكن بالطبع إلى عائشة رضي الله عنها، فيُنْعَص عيشه بقذفها .

وبالغ في إظهار المعجزات، فيقام في وجهه مُسَيْلَمَة والعَشَيْيَة وابن صياد .

ويُقيِّم ناموس الأمانة والصدق ، فيقال : كاذب ساحر .

ثم يغلق المرض كما يُوعَدُ رجلان ، وهو ساكن ساكت .

فإن أخبر بحاله فليُعْلَم الصبر .

ثم يُشَدَّد عليه الموت ، فيُسلِّب روحه الشريفة وهو مضطجع في كساء ملئن وإزار غليظ ، وليس عندهم زيت يوقَّد به المصباح ليُلْتَبِّذ .

هذا شيء ما قدر على الصبر عليه كما ينبغي نبي قبله ، ولو ابْتَلَيْتَ به الملائكة ما صَبَرَت .

هذا آدم عليه السلام يُتَّاخَ لـ الجنة سوى شجرة ، فلا يقع ذباب حرصيه إلا على العقر . ونبينا صلوات الله عليه وسلم يقول في المباح : « مالي وللنديا !

وهذا نوح عليه السلام يُضَحِّي بما لا يَقَى ، فيتصبَّح من كَمَد وجَدَه ﴿لَا نَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَارًا﴾ [نوح: ٢٦] . ونبينا صلوات الله عليه وسلم يقول : « اللهم اهدِ قومي فليتَهم لا يعلمون » .

هذا الكلمُ موسى ﷺ، يستغيثُ عند عبادة قومه العجل على القدَرِ قاتلاً : «إِنَّ هُنَّ إِلَّا فِتْنَتُكَ» [الأعراف: ١٥٥]، ويوجّهُ إليه ملَكُ الموت فيقلُّع عينَهُ .

وعيسى ﷺ يقول : «إِنْ صَرَفْتَ الْمَوْتَ عَنْ أَحَدٍ فَاصْرُفْهُ عَنِّي» . وَبَيْنَا
ﷺ يُخَيِّرُ بَيْنَ البقاءِ والموتِ ، فيختار الرَّحِيلَ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى .

هذا سليمان ﷺ يقول : هَبْ لِي مَلَكًا ، وَبَيْنَا ﷺ يقول : «اللَّهُمَّ
اجْعِلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتَنَا» .

هذا - والله - فعلَ رَجُلٌ عَرَفَ الْوُجُودَ وَالْمُؤْجِدَ ، فماتَتْ أَغْرَاضُهُ ،
وَسَكَتَتْ اعْتِراضَاهُ ؛ فَصَارَ هَوَاهُ فِيمَا يَجْرِي» ^(١) .

فإِذَا رضيَّتْ يَا عَبْدَ اللَّهِ ؛ فاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ راضٍ عَنْكَ .. فَدَلِيلُ عَدَمِ
رضاهُ عَنْكَ عَدَمُ رضاكَ عَنْهُ .. فازْدَرَ عنَّ اللَّهِ تَصِيلُ إِلَيْهِ .. وَتَذَكَّرُ دائِمًا
أَخْوَالُ الرَّسُولِ ﷺ .

* * *

(١) صيد الخاطر (٣٥٨ - ٣٥٥) .

الأصل الثامن عشر

إِيَّاكَ أَنْ تَنْكُرَ بِهِ فَيَنْكُرُكَ بِكَ

تَدَبَّرْ معي هذه الآيات : قال - تعالى - : «وَالَّذِينَ يَنْكُرُونَ الْسَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ» [فاطر: ١٠] ، وقال - تعالى - : «وَيَنْكُرُونَ وَيَنْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ حَرَّمَ الْمُنْكَرِينَ» [الأنفال: ٣٠] ، وقال - تعالى - : «وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرُهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ» [إِبرَاهِيمَ: ٤٦] ، وقال - تعالى - : «وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنْقِيَّةً مَكْرُهُمْ أَنَا دَمَرْتُهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْعَبْنَاهُمْ ﴿٧﴾ فَتَلَكَ يُوْتُهُمْ خَاوِيَّةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيَّةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» [النَّحْل: ٥٢-٥٠] ، وقال - تعالى - : «قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَفَ اللَّهُ بِمُنْكَرِهِمْ بَرِزَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ» [النَّحْل: ٢٦] .

وقال بِرْجِيل : «وَإِذَا أَذْفَنَ النَّاسَ رَحْمَةً بَيْنَ بَعْدِ ضَرَّةٍ مَسَّتُهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرُهٌ فِي مَا يَأْتِنَا قُلْ اللَّهُ أَنْصَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَنْكُرُونَ» [يوسُف: ٢١] ، وقال بِرْجِيل : «وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا يَنْفَسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» [الأنعام: ١٢٣] ، وقال بِرْجِيل : «وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» [النَّحْل: ٥٠] ، وقال بِرْجِيل : «أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْبِسَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْلِمُهُ

الْمَدَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِيمَهُ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٧﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَحْوِفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّاجِحٌ ﴿٨﴾ [التحل: ٤٥-٤٧].

وقال - جل وعلا - : «سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ إِمَّا كَانُوا يَتَكَبَّرُونَ» [الأعاصم: ١٢٤] ، وقال - جل وعلا - : «أَتَتَكَبَّرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكَرُ السَّيِّئَةِ وَلَا يَبْحِثُ الْمَكْرُ السَّيِّئَ إِلَّا بِأَهْلِهِ» [فاطر: ٤٣] ، وقال - جل وعلا - : «وَمَكَرُ أُولَئِكَ هُوَ بُورٌ» [فاطر: ١٠] ، وقال - جل وعلا - : «وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَهُ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْبِيْبُ كُلُّ نَفْسٍ» [الرعد: ٤٢] ، وقال - جل وعلا - : «أَنَا مُنْتَهِيَ الْمَكْرُ اللَّهُ فَلَا يَأْمُنُ مَكْرُ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَيْرُونَ» [الأعراف: ٩٩].

إن التأمل في هذه الآيات ومعادوّة قراءتها يتأنّ وتدبّر يُغرسُ في القلب الخوف من المكر؛ فها هي عاقبة المكر تراها واضحة أمامك في الآيات .. . وكأن الآيات تقول لك: إياك أن تمكر .. إياك ..

قال رسول الله ﷺ: «المكرُ والخداعُ والخيانةُ في النارِ»^(١) .. فإذاك أن تمكرَ فيمكر بك.

كثيرٌ من الناس يعيشُ في هذه الدنيا يعاملُ الله بالمكر .. غباءً .. يتعامل مع زوجته بالمكر ، مع أبيه بالمكر ، مع مدبره وزميله في العمل بالمكر ، مع جاره ومن حوله بالمكر؛ ففيظنُّ أنه يستطيعُ أن يمكر بالله!

(١) آخرجه: الحاكم في «المستدرك» (٤/٦٠٧)، وصححه الألباني - رحمه الله تعالى - في «صحبي الجامع الصغير» برقم (٦٦٠٢).

كلمة خطيرة لابن الجوزي يقول فيها: «تُصِرُّ على المعاصي وتصانع

بعض الطاعات ، والله إنَّ هذا لمكرًا اهـ .

فتراء قد واعدَ البنت الفلانية ليقابلها غداً ، ويجلسُ في المسجد أمام الخطيب وهو يفكُّ في الموعد .. إصرارٌ على المعصية .. أتمكرُ بربك؟! .. يأكلُ الحرام وواعد على رشوة ، ومع ذلك يصلِي ويتصدقُ وحاجزُ في العمرة .. تمكرٌ بمن؟!

وستجد من يجلس في المسجد يستغفرُ وهو يحملُ علبة السجائر .. مُصرٌّ على المعصية ، ويقول : اللهم تب علني! .. بمن تمكر؟!! .. وأعجبُ من هؤلاء جميعاً من إذا سمع بهذا الكلام قال معاندًا : إذا والله لن أتوب ولن أصلِي .. لا .. أنا لا أقول ذلك الكلام لتنقولَ هذا ، ولكن أقوله لكِي لا تمكر بربك .. فهو الذي خلقك ويعلمك .

فالذى قد واعدَ البنت الفلانية وجاء ليصلِي يمكر .. **نعم :** هذا مكر .. وتعجبُ من قوله حين يسمع بهذا الكلام : أنا آسف ، لن أصلِي بعد ذلك .. وهذا هو الغلط .. هذا هو العور في البصيرة .. فبدلاً من أن تقول : تبَّ إلى الله ، تقولُ هذا الكلام؟! .. سلم يا رب سلم .. تصرُّ على المعاصي وتصانع بعض الطاعات إنَّ هذا لمكر .. فالمفترض والمتوقع حينما أقول لك هذا الكلام أن تقول : لا للعصية ، لا أن تقول : لا للطاعة!!

وفرقٌ كبيرٌ بين الذي يعصي ثم يستغفر ويتوب ويندم ويعزم على لا يعود ، وبين من يمكرُ السينيات .. وفرقٌ كبيرٌ بين من يعملُ السوء بجهالة ثم يتوب من قريب ، وبين الذي يُدبِّر ويُمكر ويُصِرُّ ويُسْتَمِرُ .

هذا هو الملحظ الخطير عند تأمل الآيات السابقة :

أنك تجد التفريق بين من يتورط في المعصية عند غلبة الشهوة مع الجهل وشدة الغفلة ، وبين من يمكر للموضوع في الحال ويدبر ويحتاط ويلفت ويدور ، ويبحث عن الشبهات ويعامن عن الضوابط ؛ لذا كانت عقوبة الماكر أشد بكثير من عقوبة العاصي

لذا إذا قلت لك : تصانع بالطاعات وأنت مصر على المعاصي ؟ فلا تقل : إذا لن أصل إلى أنتهي عن المعاصي !! .. لأن هذا مكر !! .. ولم لا تنتهي عن المعاصي وتستمر في الصلاة؟!! .. اللهم تب على كل عاصٍ مسلم يا رب ..

وتأمل معى قصة أصحاب السُّبْت لِمَ مكروا على الله واستخفوا بزواجره ؛ مُسخوا قردة ..

قال الله - تعالى - : «وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْبَيْكَةِ أَلَّيْ كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبَتِهِمْ شَرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْتَوْنَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ تَبُوُّهُمْ بِمَا كَاثُوا يَقْسُطُونَ» [الأعراف: ١٦٣]. أبي : واسأل يا محمد يهود المدينة عن أخبار أسلافهم وعن أمر القرية التي كانت بقرب البحر وعلى شاطئه ماذا حل بهم لما عصوا أمر الله واصطادوا يوم السبت؟، ألم يمسهم قردة وخنازير؟! والاعتداء في السبت مجرد معصية أهون من كثير من معاصيهم؛ كقتل الأنباء وطلب رؤية الله جهرة وطلب أصنام وعبادة العجل .. الاعتداء في السبت أخف من كل هذا بلا شك .. وفي كل هذا لم يمسخوا؛ وإنما مُسخوا

باعتداهم في السبت .. وهذا يدلّك على أن العقوبة لم تكن على مجرد المعصية ؛ وإنما العقوبة على المكر .

قال القَيْرُوزَ آبَادِي : «إنَّ مَعْصِيَتَهُمْ هَذِهِ كَانَ فِيهَا اسْتِخْفَافٌ بِاللَّهِ» ؛ إذ حفروا الحُفْرَ يوم الجمعة وَنَصَبُوا عَلَيْهَا الشَّبَاكَ فَوَقَعَتْ فِيهَا الْأَسْمَاكُ يَوْمَ السَّبْتِ وَهُمْ يَنْظَرُونَ ، ثُمَّ جَمَعُوا السَّمْكَ يَوْمَ الْأَحَدِ .. فَتَرَاهُمْ قَدْ خَادُوا وَمَكَرُوا بِتَضْيِيقِ الشَّبَاكِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَجَلَسُوا كَالْمُسْتَخْفَفِينَ بِرَبِّهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ يَضَعُونَ أَيْدِيهِمْ فِي جِيوبِهِمْ وَهُمْ يَنْظَرُونَ إِلَى السَّمْكِ يَتَسَاقِطُ فِي شَبَاكِهِمْ الَّتِي نَصَبُوهَا وَيَقُولُونَ : يَا رَبَّ ، انْظُرْ كَيْفَ نَحْنُ مَطْبَعُونَ لَكَ يَوْمَ السَّبْتِ فَلَمْ نَضَعْ شَيْئًا مُّطْلَقاً .. وَهِيَهَاتِ هِيَهَاتِ .

تَعَالَى مَعِي إِلَى سَرِيدِ الْقِصَّةِ :

«كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ قَدْ طَلَبُوا أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ يَوْمَ رَاحَةٍ يَتَخَذُونَهُ عِيَّدًا لِلْعِبَادَةِ ؛ وَلَا يَشْتَغِلُونَ فِيهِ بِشَؤُونِ الْمَعَاشِ ، فَجَعَلَ لَهُمْ السَّبْتَ .. ثُمَّ كَانَ الْاِبْلَاءُ لِرَبِّهِمُ اللَّهِ وَيَعْلَمُهُمْ كَيْفَ تَقْوَى إِرَادَتُهُمْ عَلَى الْمُغْرِيَاتِ وَالْأَطْمَاعِ ؛ وَكَيْفَ يَنْهَضُونَ بِعَهْدِهِمْ حِينَ تَصْطَدِمُ بِهِنَّهُ الْمُغْرِيَاتِ وَالْأَطْمَاعِ .. وَكَانَ ذَلِكَ ضَرُورِيًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ تَخلَّلُتْ شَخْصِيَّاتُهُمْ وَطِبَاعُهُمْ بِسَبِّبِ الدُّلُّ الَّذِي عَاشُوا فِيهِ طَوِيلًا ؛ وَلَا بُدُّ مِنْ تَحرِيرِ الإِرَادَةِ بَعْدِ الدُّلُّ وَالْعِبُودِيَّةِ ؛ لِتَعْتَادَ الصِّمْدَةِ وَالثِّباتِ . فَضَلَّ عَلَى أَنَّ هَذَا ضَرُورِيًّا لِكُلِّ مَنْ يَحْمِلُونَ دُعَوةَ اللَّهِ ؛ وَيُؤْهَلُونَ لِأَمَانَةِ الْخِلَافَةِ فِي الْأَرْضِ .. وَقَدْ كَانَ اخْتِبَارُ الإِرَادَةِ وَالْاسْتِعْلَاءِ عَلَى الْإِغْرَاءِ هُوَ أَوْلُ اخْتِيَارٍ وُجْهَةً مِنْ قَبْلٍ إِلَى آدَمَ وَحَوَّاءِ .. فَلَمْ يَضْمُدَا لَهُ وَاسْتَمْعَا لِإِغْرَاءِ الشَّيْطَانِ بِشَجَرَةِ الْخَلْدِ وَمُلْكِ

لا يئلي ! ، ثم ظلَّ هو الاختبار الذي لا بدَّ أن تجتازه كُلُّ جماعةٍ قَبْلَ أن يأذنَ اللَّهُ لها بِآمانةِ الاستخلاف في الأرض .. إنما يختلفُ شَكْلُ الابتلاء ، ولا تغْيِر فحواه !

ولم يضمدْ فريقٌ من بنى إسرائيل - في هذه المرة - للابتلاء الذي كتبه اللَّهُ عليهم بِسَبِّبِ ما تكرَّرَ قَبْلَ ذلك من فسوقِهم وانحرافِهم .. لقد جَعَلَتُ العِيتَانُ في يومِ السَّبْتِ تتراءَى لهم على السَّاحِلِ ، قريةَ الْمَأْخُذِ ، سهلَةَ الصَّيْدِ . فتفوَّهُمْ وَتَقْلِيلُهُمْ من أيديِهم بِسَبِّبِ حُزْمَةِ السَّبْتِ التي قطعوها على أنفُسِهم ! ، فإذا مضى السَّبْتُ وجاءَتْهُمْ أيامُ الْحِلِّ ؛ لم يجدوا العِيتَانَ قريةَ ظاهِرَةً ، كما كانوا يجدونها يومَ الْحُرُمِ ! .. وهذا ما أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَن يذكُّرَهُمْ بِهِ ، ويذكُّرَهُمْ ماذا فعلوا وماذا قالوا ..

على أَيَّةٍ حال ، لقد وقع ذلك لأهل القرية التي كانت حاضرةَ التَّخْرِيرِ من بنى إسرائيل .. فإذا جماعةٌ منهم تَهْبِطُ مطاعِمُهُم أمامَ هذا الإغراء ، فتهاوَى عزائمُهُم ، وينسُونَ عهْدَهم مع ربِّهم وميثاقِهم ، فيحتالونَ العِيَلَ - على طريقة اليهود - للصَّيْدِ في يومِ السَّبْتِ ! ، وما أكثرَ العِيَلَ عندما يَلْتَوِي القلب ، وَتَقْلِيلُ التَّقْوَى ، ويُصْبِحُ التعاملُ مع مجرد النصوص ، وَيُرَادُ التَّفْلُتُ من ظاهرِ النصوص^(١) .

إِنَّ أَوامِرَ الشَّرِيعَةِ ونواهِيَها لَا يَخْرُسُها مجْرُدُ وجودِ النَّصُوصِ في الْكُتُبِ أو عَلَى أَلْسِنَةِ الدُّعَاةِ والوُعَاظِ ، بل وَلَا السِيفُ وَلَا الْمِدْفعُ ؛ إنما

(١) الفلال (٣/١٣٨٣ - ١٣٨٤) بتصرف .

تَخْرُسُهَا الْقُلُوبُ الْيَقِظَةُ التَّقِيَّةُ الَّتِي تَسْتَقِرُّ تَقْوَى اللَّهِ فِيهَا وَخَشْيَتُهُ ، فَتَحْرِسُ هِي شَرِيعَتَهَا وَتَحْمِيَهَا . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

«إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ وَبَيْنِهِمَا أُمُورٌ مُشَبِّهَاتٍ، لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنْ أَنْقَى الشَّبَهَاتَ فَقَدْ اسْتَبَرَ لِدِينِهِ وَعَرَضَهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشَّبَهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى عَنْ حَوْلِ الْجَمَعِ يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حُمْنًا، أَلَا وَإِنَّ جَمِيعَ اللَّهِ مَحَارِمَهُ»، ثُمَّ عَقَبَ عَلَى ذَلِكَ بِقُولِهِ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضَغَّةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقُلُوبُ»^(١).

فَمَهِما قُلْنَا: حلال .. حرام .. يجوز .. لا يجوز .. يجب .. يُنْكِرُه .. فلن يجد هذا الكلام صدئ إلا عند أصحاب القلوب التقية التقية والنوايا الطيبة.

«مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَفْشِلُ الْأَنْظَمَةُ وَالْأَوْضَاعُ الَّتِي لَا تَقْوُمُ عَلَى حِرَاسَةِ الْقُلُوبِ التَّقِيَّةِ . وَتَفْشِلُ النَّظَرِيَّاتُ وَالْمَذاهِبُ الَّتِي يَضْعُها الْبَشَرُ لِلْبَشَرِ وَلَا سُلْطَانٌ فِيهَا مِنَ اللَّهِ .. وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَعْجَزُ الْأَجْهِزَةُ الْبَشَرِيَّةُ الَّتِي تُقْيِيمُهَا الدُّولُ لِحِرَاسَةِ الْقَوَافِنِ وَتَفْيِيذِهَا . وَتَعْجَزُ الْمُلْاَحَقَةُ وَالْمُراَقِبَةُ الَّتِي تُتَابِعُ الْأُمُورَ مِنْ سُطُوحِهَا !

وهكذا راح فريق من سُكَّان القرية التي كانت حاضرة البحر يحتالون على السبت ، الذي حُرِمُ عليهم الصَّيْدُ فيه .. وروي أنهم كانوا يُقيِّمون

(١) متفق عليه : البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩).

الحواجيز على السُّمَكِ وَيُحَوِّطُونَ عَلَيْهِ فِي يَوْمِ السَّبْتِ؛ حَتَّى إِذَا جَاءَ الْأَحَدُ سَارُعُوا إِلَيْهِ فَجَمِيعُهُوْ؛ وَقَالُوا: إِنَّهُمْ لَمْ يَصْطَادُوهُ فِي السَّبْتِ، فَقَدْ كَانَ فِي الْمَاءِ - وَرَأَهُ الْحَوَاجِزُ - غَيْرَ مَصِينِدٍ»^(١).

وَأَتَى لَهُمْ أَنْ يَذْخُلَ عَلَى اللَّهِ؛ وَاللَّهُ - سَبْحَانَهُ - يُرَاقِبُ خَلْجَاتِ النُّفُوسِ وَأَسْرَارِ الْقُلُوبِ.. فَمَمَّا قَالُوا: «غَيْرَ مَصِينِدٍ» بِالسِّتِّينِ؛ فَقَدْ اصْطَادُوا بِقُلُوبِهِمْ وَنَيَّابَهُمْ..

فِي مَنْ تَصِينِدُ الْمَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ مَكْرًا وَخِدَاعًا، اللَّهُ يَرَكُّ وَيَعْلَمُ نُوَايَاكُ؛ فَاتَّقُ اللَّهَ وَاخْدُرْ مَعْبَةً دَثْبَكَ وَعَاقِبَةً فِعلِكَ.. وَمَمَّا خَدَعْتَ النَّاسَ وَمَكَرْتَ عَلَى الْخَلْقِ وَدَخَلَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ؛ فَلَنْ تَخْدُعَ اللَّهَ.. إِذَا مَكَرْتَ؛ فَاغْلُمْ أَنَّهُ «لَا يَحْبِبُ الْمَكْرُ أَشَيْئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ إِلَيْتَ أَنَّهُ تَبَدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ إِلَيْتَ أَنَّهُ تَحْوِيلًا» [فاطر: ٤٣] .

يَا مَنْ تَمْلِأُ قَلْبَكَ بِالْهَمُومِ وَتَدْنُسُهُ بِالْمَعَاصِي عَامِدًا، ثُمَّ تَسْأَلُ اللَّهَ سَلَامَةَ الْقَلْبِ!.. إِنَّ هَذَا لَمَكْرًا.. مُسْتَمِرٌ فِي شَحْنِ قَلْبِكَ بِالْهَمُومِ وَمُتَعَمِّدٌ.. تَحْمِلُهُمُ الْمَالِ وَهُمُ الْلَّبَسِ وَهُمُ الصِّيفُ وَهُمُ الشَّتَاءُ وَهُمُ الْعِيَالُ وَهُمُ الْبَنَاتِ وَهُمُ الْمُرْتَبُ وَهُمُ الشُّغْلِ وَهُمُ.. وَهُمُ.. وَتَقُولُ: يَا ربُّ، طَهُّرْ قَلْبِي.. وَأَنْتَ الْمَداوِمُ عَلَى تَدْنِيسِهِ!!.. إِنَّ هَذَا لَمَكْرًا.. اللَّهُمَّ طَهُّرْ قَلْبَنَا يَا ربُّ.

حَرِيصٌ عَلَى الدِّنِيَا، غَافِلٌ عَنِ الْآخِرَةِ، كَثِيرُ الذُّنُوبِ، بَطِيءُ التَّوْبَةِ،

(١) المرجع السابق (١٣٨٤/٣).

ثم تشكو قسوة القلب!! .. إن هذا لمكر .. إياك أن تمكر .. كن صادقا مع الله .. لا تكن ثعلبا؛ فالطريق وعرة .. الطريق إلى الله وعرة، ولن تصل إلا بتوفيقه ، أفيه تمكر وهو دليلك الوحيد؟!!
ولذا إذا أردت الوصول إلى الله؛ فثب من المكر ، فاجعل همومنك هما واحدا هو الله .. الهموم تجسّه فطهر قلبك منها .. اللهم طهر قلوبنا يا رب .

أسباب تطهير القلب من الهموم

ولكي أساعدك - ساعدني الله وإياك - ، فمن أسباب تطهير القلب من الهموم سبعة :

أولاً: الصلاة على النبي ﷺ :

لما قال رجل : يا رسول الله ، أجعل كل دعائي صلاة عليك؟ ، قال : «إذا يكفر الله ما أهملك»^(١) .
وفي الرواية الثانية : «يغفر ذنبك وتكتف ما أهملك»^(٢) .

أخذ مشايخنا ذهب إليه رجل يشتكي سرقة سيارته ، فقال له : اذهب واجلس في المسجد وصلّي الصلاة الإبراهيمية : «اللهم صلّى على محمد

(١) أخرى : أحمد (١٣٦/٥) ، وابن أبي شيبة (٢٥٣/٢) ، (٣٢٥/٦) ، والطبراني (٣٥/٤) ، وهو حديث حسن.

(٢) أخرى : الترمذى (٢٤٥٧) وقال : حسن صحيح ، والحاكم (٤٢١/٢) ، وقال الألبانى : حسن .

وعلى آل محمدٍ كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيدٌ . اللهم بارك على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيدٌ». وسبحان الله العظيم ! ما ارتفعت الشمسُ بعد صلاة الفجر إلى الضحى إلا وعادت إليه سيارته .. وهذا ليس كلاماً صوفياً ، ولكنه يقينٌ في الحديث .. الصوفيُّ صاحبُ بدعةٍ يؤلفُ لك حكايةَ ، أما أنا فأكلمك في السنة .. هذا كلام النبي ﷺ . صلٌّ عليه يكفيك الله ما أهْمَك .. أي شيء تحمل همه فأكثُر من الصلاة على النبي ﷺ يُفرج ويُقضى ويُحلَّ .

ثانياً : قراءة المعرّزتين :

قال رسول الله ﷺ : من قرأ «قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق حين يصبح وحين يمسى كفاه الله كلَّ ما أهْمَه»^(١) .. ولكن الشرط - يا شباب - : اليقين والاحتساب ، وهو أنْ أقرأها وأنْوَي بقراءتها أن يكفيي الله همومي .. أقرؤها وأنا أعلم يقيناً بأنَّ الله قادرٌ أن يكفيي همومي ، وأنَّ النبي ﷺ صدَّق .. أقرأها باليقين والاحتساب يكفيك الله ما أهْمَك ..

ثالثاً : تركُ : حسيبي الله :

قال رسول الله ﷺ : «من قال حين يصبح وحين يمسى حسيبي الله

(١) أخرجه : أبو داود (٥٠٨٢) ، ك : الأدب ، ب : ما يقول إذا أصبح ، والترمذني (٣٥٧٥) ، ك : الدعوات وقال : حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وقال الألباني - رحمة الله تعالى - : حسن .

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوْكِيدُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، سَبْعَ مَرَاتٍ ؛ كَفَاهُ
اللَّهُ كُلُّ مَا أَهْمَمَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(١) .

أَثْنَاءَ قَوْلِكَ : حَسْبِيَ اللَّهُ .. تَدْبِرُ مَعْنَاهَا .. حَسْبِيَ اللَّهُ .. كَفِيلِي ..
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوْكِيدُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ .. تَخْيِيلُ الْقَبْرِ حَتَّى يَكْفِيكَ
هُمُ الْقَبْرِ ، وَالصَّرَاطُ حَتَّى يَكْفِيكَ هُمُ الصَّرَاطِ ، وَتَطَايِيرُ الصَّحْفِ حَتَّى
يَكْفِيكَ تَطَايِيرُ الصَّحْفِ ، وَالْمِيزَانُ حَتَّى يَكْفِيكَ هُمُ الْمِيزَانِ ، وَالْعَرْضُ
عَلَى اللَّهِ حَتَّى يَكْفِيكَ هُمُ الْعَرْضِ عَلَيْهِ ..

رابعاً : زِكْرُ دُعَاءِ الْهَمَّةِ :

قال رسول الله ﷺ: «من قال: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابنُ عَبْدِكَ وَابنِ
أَمْبَتِكَ، ناصِبِيَتِي بِيَدِكَ، ماضٍ فِي حُكْمِكَ، عَذْلٌ فِي قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ
اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِّيَّتْ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَمْتَهُ أَحَدًا مِنْ
خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْتَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عَنْكَ؛ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ
رِبِيعَ قَلْبِيِّ، وَشَفَاءَ صَدْرِيِّ، وَجَلَاءَ هَمْيِّ وَغَمْيِّ؛ إِلَّا أَبْذَلَهُ اللَّهُ مَكَانَ الْهَمَّ
فَرْجًا». قالوا: يا رسول الله: أَتَعْلَمُهَا؟، قال: «يَنْبَغِي لِكُلِّ مَنْ سَمِعَهَا
أَنْ يَعْلَمَهَا»^(٢). إِذَا فَلَيْزَمُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ حَفْظُ هَذَا الْحَدِيثِ.

(١) أَخْرَجَهُ: أَبْرَارُ دَاؤِدَ (٥٠٨١)، وَقَالَ الْأَلْبَانِيُّ - رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي «الْفَصِيفَةِ» (٥٢٨٦) : مُنْكَرٌ، وَإِسْنَادُ المُوْقَوفِ رَجَالُ ثَقَاتٍ .

(٢) أَخْرَجَهُ: أَحْمَدَ (١/٣٩١) (٤٣١٨)، وَالْحَاكِمُ (١/٥٠٩)، وَقَالَ أَحْمَدَ شَاكِرَ - رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى - : إِسْنَادُهُ صَحِيقٌ .

خامسًا : الاستغفار :

قال رسول الله ﷺ : «من لزم الاستغفار؛ جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»^(١).

سادسًا : جعل الهموم همًا راضيًا :

قال رسول الله ﷺ : «من جعل الهموم همًا واحدًا هم الآخرة كفاه الله ما أهمه، ومن تشعبت به الهموم لم يبالي الله به في أي أودية الدنيا هلك»^(٢).

إذا فهمك ليل نهار هو : يا ثُرٰى هل الله راض عنِّي أم لا؟.. هل لو مِثُّ الآن سأدخل الجنة أم النار؟.. يا ثُرٰى ساقع على الصراط أم سأمُّ بسلام؟.. يا ثُرٰى الميزان أي كِفتئه ستحْفُ؟.. عند تطابير الصحف سأَخُذ باليمين أم بالشمامي؟.. هذا هُمك الرئيس والأساس : الآخرة.. أما هموم الدنيا فكثيرة وهينية على الله، ومن تشعبت به عاش شقياً ومات شقياً.

سابعاً : الدعاء :

الدعاء سلاحك، فادع الله أن يجمع عليك شملك ويكتفيك ما همك، اضرغ إليه وقل : اللهم فرغ قلبي لك حتى لا يحول بيني

(١) أخرجه : أحمد، وقال أحمد شاكر - رحمة الله تعالى - : إسناده صحيح .

(٢) أخرجه : ابن ماجه، وقال عنه الألباني - رحمة الله تعالى - : حسن « صحيح الجامع » (٦٠٦٥) .

وبينك شيء .. اللهم اجعل همومي هماً واحداً هو لك ، واجعل أشغالى شغلاً واحداً هو بك ، واجعل أفكارى فكرةً واحدةً هي فيك .. ارحمنى يا ربى وجمع شتات قلبي .. ا肯نى ما أهمنى وغمىنى .. قل : اللهم إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهُمَّ وَالْحَزَنِ .. ادعُ اللَّهَ وَهُوَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - قريبٌ يستجيب دعاء المهموم المضطرب^(١).

وهكذا يا أخي في الله يا طالب الوصول يكون لهم .. فظهور قلبك من هموم الدنيا .. وكمن صادقاً ، ولا تمكر بالله حتى لا يمكر بك ف تكون من الهالكين الخاسرين .. اجعل همك الذي تعيش له وتعيش به : هو الدار الآخرة .. رضا الله وفقط .. فلا تمكر وإلا فلن تصل إلى الله على الإطلاق .



(١) نصح هنا بقراءة الباب السادس «الدعاء» من كتاب «فروا إلى الله» ذلكم الكتاب المبارك الذي كتب الله له القبول في الأرض ، لشيخنا الكريم أبي ذر القمي - أتابه الله .

الأصل التاسع عشر

اجن العسل ولا تكسر الخلية

لكل باب مفتاح؛ فاجن العسل ولا تكسر الخلية.

بعض الناس إذا أراد أن يحصل على عسل من خلية النحل يدبر برجليه فيها فيُدغدها .. مهلاً مهلاً فلها مفتاح .. إذا كنت لا تعرف فأنت بمن يعرف حتى تأكل عسلاً .. وتترك الخلية تخرج العسل مرة ثانية .. لا تكسر الخلية.

أيها الإخوة، إن بعضنا حينما يسير في الطريق إلى الله ويريد أن يجني شيئاً من الخير؛ تراه يهجم عليه بدونوعي ولا امتلاك مفاتيح .. مفاتيح الوصول .. سينكسب عسلاً ولكن لآخر مرة .. فافهم ولا تهجم .. وادع الله أن يرزقك الفهم في دينك .. اللهم فهمنا ما تحبه وترضاه لتفعله، اللهم بلغنا رضاك يا رب.

وقد ذكر ابن القيم في كتابه **القيم** «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» - اللهم بلغنا بلاد الأفراح يا رب - ذكر مجموعة مفاتيح؛ **قال - رحمة الله تعالى** - :

«وقد جعل الله - سبحانه - لكل مطلوب مفتاحاً يُفتح به؛ فجعل مفتاح الصلاة الظهور .. كما قال: مفتاح الصلاة الطهارة .. ومفتاح

الحج الإحرام.. ومفتاح البر الصدق.. ومفتاح الجنة التوحيد.. ومفتاح العلم حسن السؤال وحسن الإصغاء.. ومفتاح النصر والظفر الصبر.. ومفتاح المزيد الشكر.. ومفتاح الولاية المحبة والذكر.. ومفتاح الفلاح التقوى.. ومفتاح التوفيق الرغبة والرهبة.. ومفتاح الإجابة الدعاء.. ومفتاح الرغبة في الآخرة الزهد في الدنيا.. ومفتاح الإيمان التفكير فيما دعا الله عباده إلى التفكير فيه.. ومفتاح الدخول على الله إسلام القلب وسلامته له.. والإخلاص له في الحب والبغض والفعل والترك.. ومفتاح حياة القلب تدبر القرآن والتضرع بالأسحار وترك الذنوب.. ومفتاح حصول الرحمة الإحسان في عبادة الخالق والسعى في نفع عبيده.. ومفتاح الرزق السعي مع الاستغفار والتقوى.. ومفتاح العبر طاعة الله ورسوله.. ومفتاح الاستعداد للآخرة قصرُ الأمل.. ومفتاح كل خير الرغبة في الله والدار الآخرة.. ومفتاح كل شر حب الدنيا وطول الأمل»^(١).

قال ابن القيم: «مفتاح الصلاة الطهور».. فلكي تصلي كما ينبغي توهماً كما ينبغي.. يقول العلماء: وإذا أخطأ الإمام ولبس عليه في الصلاة؛ فإن هذا دليل على أن من خلقه لم يحسن الوضوء.

فانظر كيف تؤثر طاعة أو معصية المأمور على الإمام.. وإذا كان تأثيره يصل إلى الإمام بما بالك على صلاته هو.. إذا حينما تقول لي: أنا أشروع بذهني في الصلاة؛ أقول لك توهماً وضوءاً بحق.. نريد ونحن

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (٤٨).

نوضاً أن تُحسَّ بمعنى كل حركة .. فإذا غسلت يديك فانظر للمياه واستشعر نزول الذنوب معها .. استشعر تساقط الذنوب التي جنتها يداك .

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا غَسَلَ الْعَبْدُ يَدِيهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ بَطَشَّهَا يَدَاهُ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ، إِذَا تَمْضَمَضَ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ بَطَشَّهَا لِسَانُهُ حَتَّى تَخْرُجَ الْخَطَايَا مِنْ بَيْنِ أَسْنَانِهِ»^(١).

تخيل وأنت تغسل وجهك .. تخيل الخطايا وهي تخرج من تحت أشفار عينيك .. عينك هذه التي كم جنت .. فتوضاً بحق ؛ فاللوصوة مفتاح الصلاة .. «ومفتاح الحج الإحرام» ؛ فإذا أحرمت كما ينبغي ؛ استمتعت بالحج ؛ فحججت بحق .. المفاتيح كثيرة ..

فأمسيك المفاتيح يفتح لك الباب ، أما إذا تركت المفاتيح وكسرت الباب .. فستدخل ؛ ولكن ستفقد العسل باقي عمرك .

وللشّر مفاتيح :

ومفتاح الزنا النظر . ومفتاح النار الإعراض عن الله . ومفتاح النفاق الكذب . ومفتاح الرّياء الجدل . ومفتاح كل إثم الخمر . ومفتاح العشق الاختلاط .. هذه مفاتيح الشر فاعرفها جيداً .

قال ابن القاسم : «كما جعل - سبحانه الشرك والكبر والإعراض عمّا بعث الله به رسوله والغفلة عن ذكره والقيام بحقه مفتاحاً للنار ، وكما جعل الخمر مفتاح كل إثم .. وجعل الغنى مفتاح الزنا .. وجعل إطلاق النظر في الصور

(١) أخرجه : مسلم (٢٤٤).

مفتاح الطلب والعشق . . وجعل الكسل والراحة مفتاح الخيبة والحرمان . .
وجعل الماصي مفتاح الكفر . . وجعل الكذب مفتاح النفاق . . وجعل الشَّجَعَةُ
والحرص مفتاح البخل وقطيعة الرحم وأخذ المال من غير جله . . وجعل
الاعراض عمما جاء به الرسول مفتاح كل بدعة وضلاله »^(١) .

فلذلك - أيها الإخوة - ايتُوا البيوت من أبوابها . . فإذا أتيت الباب
فأملك المفتاح تدخل وتصل .

أيها الإخوة ، إننا بحاجة إلى أن نملك المفاتيح التي تفتح بها أبواب
الخير إلى الله . .

قال ابن القيم : « وهذا باب عظيم من أفعى أبواب العلم ، وهو معرفة
مفاتيح الخير والشر ، لا يُوقن لمعرفته ومراحتيه إلا من عظم حظه
وتوفيقه ؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - جعل لكل خير وشر مفتاحا وبابا
يدخل منه إليه »^(١) .

ثم يعقب - رحمة الله - في نهاية كلامه عن المفاتيح قائلاً :

« وهذه الأمور لا يصدق بها إلا كل من له بصيرة صحيحة وعقل يغرس
به ما في نفسه وما في الوجود من الخير والشر ؛ فينبغي للعبد أن يعتنِي كلَّ
الاعتناء بمعرفة المفاتيح وما جعلت المفاتيح له ، والله من وراء توفيقه
وعدله له الملك وله الحمد وله النعمة والفضل لا يُسئل عما يفعل وهم
يُسئلون »^(١) .

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (٤٩).

أخي في الله ، هذا أصل إياك أن تنساه .. لكل خير باب ، ولكل باب مفتاح .. فإن أتيت الباب فقد أهلت للخير فاستعد .. وكما يقول أهل الأمثال : «إنما يسقط التفاصُلُ لِمَن يبحث عنه تحت الشجرة» .. فهل الذي يبحث عن التفاصُل تحت عمود الكهرباء سينزل عليه تفاصُل؟! .. لا يمكن .. وإنما ينزل التفاصُل للذِي يبحث عنه في مكانه المناسب ، فلذلك لكل خير باب إذا أتيته فقد أهلت للخير ، ولم يبق لك إلا أن تفتح الباب . وإذا كان فتح الباب بالمفتاح ؛ فالمفتوح لا بد أن يكون له أسنان ؛ قال رسول الله ﷺ : «مفتاح الجنة لا إله إلا الله»^(١) .. فكل مفتاح له أسنان ، وأسنان لا إله إلا الله شرائع الإسلام وسُنن المصطفى ﷺ .. إذاً فلا تقل : ربنا عفور رحيم ، وتترك العمل ؛ لأنك بذلك تكسرُ الخلية .. فأين مفاتيحك وأين أسنانها؟!!

قال وهب بن منبه حين قيل له : أليس قد قال رسول الله ﷺ : «مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟» ، قال : «بلني ، ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان ؛ فإن جئت بمفتاح له أسنان ؛ ففتح لك ، وإلا لم يفتح لك»^(٢) .

فلذلك فإن «لا إله إلا الله» لها «أسنان» .. شروط .. حقيقها ليفتح لك باب الجنة .. فللجنّة باب ، وللباب مفتاح ، وللمفتاح أسنان ، وكذلك كل أنواع الخير لها أبواب .

(١) أخرجه : أحمد (٥/٢٤٢) ، والبزار (١/٩) «كشف الأستار» رقم (٢) ، وإسناده ضعيف .

(٢) أخرجه : البخاري عن وهب بن منبه معلقاً في كتاب الجنائز ، بـ : في الجنائز ، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله (٣/١٠٩ فتح) .

والقضية الخطيرة أن بعضنا يأتي بباب الخير ثم يرجع .. اللهم ثبّتنا على الإيمان يا رب .. كثير من الناس أكرمه الله وتاب عليه بعد أن كان يعمل في الذنوب والمعاصي ، ثم عاد وأثر المعصية وترك الطاعة وابتعد عن طريق الله - اللهم ثبّ علينا توبه ترضيك ، اللهم إنا نسألك توبه من عندك تصلح بها قلوبنا ، وتهدي بها أفندتنا ، وتُنور بها بصائرنا .

أحبتي في الله ، تجده بعض الشباب الذين عرفوا طريق الخير قد وصل إلى الباب فدخل المسجد وحضر الدروس وسمع الشرائط ، فوقف بهذا على الباب ؛ وفجأة تجده قد أعطى الباب ظهره ! .. قال الملك : «وَمَن يَتَقْبِلْتَ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ أَثْنَيْكَيْنَ» [آل عمران: ١٤٤] .

وسبب هذا الرجوع - إخواته - أنا في زمان التزيين .. فتنـة التزيين .. نعم : التزيين فتنـة خطيرة جداً في هذه الأيام .. إننا في زمان يزيـن فيه الباطل ، ويـجمل ، ويـظہر في صورة الحق فتقبلـه النفوس فـتفـتن .

ومن أخطر أسباب التزيين^(١) : الهوى - اللهم إنا نعوذ بك من الهوى - ، وأخطر ما في الهوى أن سلطانـه قويـ ، ومـكرـه حـفيـ .. الهوى هو المـزاج .. مـزاجـك الشخصـي .. كـم من أـنـاسـ من حـولـنا تـابـوا - يا رب ثـبـتنا عـلـى التـوـبـة يا رب - ؛ فـبدأ الـواحدـ مـنـهـمـ يـصـلـيـ وـانتـهـيـ عـنـ المـشـيـ معـ الـبـنـاتـ ، وـأـلـغـيـ اـسـطـوـانـاتـ «المـزيـكاـ والـدـيسـكـوـ» .. لـكـنـ فـيـ دـاخـلـهـ هـوـيـ .. فـيـ نـفـسـهـ هـوـيـ : أنه لا يـزالـ يـوـدـ أنـ يـعـصـيـ لـيـسـمـتـعـ بـالـمـعـصـيـةـ . فـإـذـا قـرـأـ فـيـ الـجـرـائـيدـ فـوـجـدـ الشـيـخـ الـفـلـانـيـ يـسـأـلـ عـنـ الـأـغـانـيـ فـيـقـولـ :

(١) لنا خطبة في شريط بعنوان «فتنة التزيين» استمع إليها تـقـدـ بـإـذـنـ اللهـ .

«الأغاني كالشعر حسنة حسنٌ وقيحٌ فَيَبْيَحُ»؛ فماذا تتوقع منه؟! .. لا شك أنه سيفشّن بفتوى مُضليلة ملتبسة. وليس قول هذا الشيخ: «أنا أسمع الغناء» بحجّة لنفسه أو لغيره.

الشاهد: أن الشباب حينما يقرأ هذه الفتاوي البلّاوي؛ يقول: إذاً فهي حلالٌ، وبيّاناً في تشغيلها لغبّة الهوى، ولا حول ولا قوّة إلا بالله . والله - يا إخوة - إن أحد إخوانكم كان معه في المسجد وفي الدرس ، بل وكان يحضر معه في السيارة .. فتىن - اللهم رُدْه إلينا رِدًا جميلاً .. قال لي : سمعت قليلاً من «الغناء» وبعدها غرقت في بحر الشهوات .. تاه .. ضلل؛ لأن المترافق خطأ .. سلطان الهوى قويٌ .. وتياره جارف .. وأمواجُه ترمي بعيداً عن الشاطئ في داخل البحر .

نعم : سلطان الهوى على القلب والعقل قويٌ وخفى . تجد صاحب الهوى يقول: سأمتع نفسي بعض الشيء وبعض الوقت - يقصد بالمعصية! - ، ثم إنني أعوذ إلى الله ، إذا فلن أضرر كثيراً .. أقول لك : أنت لا تضمن ، فقد يسخط الله عليك وقت معصيتك - هذه التي تستصغرُها - فتنحرف وتنجرف لتعيش في الطين .

اللَّهُمَّ ثُبِّتْنَا عَلَى الإيمانِ يَا رَبِّ .. اللَّهُمَّ إِنَا نَسْأَلُكَ ثِباتَ عَلَى الْحَقِّ ، وَالْعَزِيزَةَ عَلَى الرُّشْدِ ، وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بَرٍ ، وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ .. اللَّهُمَّ اصْرِفْ عَنَا مَكْرَهَ الْهَوْيِ وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ .

والشاهد: أن بعض الناسِ بل الكثير يأتون الباب - وهذا فضل الله عليهم -؛ ولكنهم لا يريدون ولوّجه .. لا يريدون أن يدخلوا في

الطاعة ، ويستمرون فيها ويشتتوا عليها .. لا يريدون ذلك ؛ لأن قلوبهم قد أشربت الهوى .. فتراءهم يرجعون فيؤلون الخير ظهوراً لهم .. لأنهم لم يمتلكوا من البداية مفاتيح الخير؛ بل حرصوا على مفاتيح الشر كالهوى الذي هو مفتاح كل مصيبة .. فتجده قد أتى الباب ، وهذا هو الباب سيفتح ؛ فإذا به - فجأة - قد ولّى وترك الباب!! ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ..

فيا من تأتون الأبواب وليس معكم مفاتيحها .. يا من لم تعرفوا مفاتيحها فلم تستطعوا أن تصنعوا شيئاً ، دعوني أعطكم مجموعة مفاتيح اجعلوها معكم واحتفظوا بها .. وإياكم أن تستعملوا هذه المفاتيح في باب أحد غير الله ..

هل لديك استعداد الآن لتأخذ هذه المفاتيح؟ .. وفيما ستأخذها؟ .. خذها في قلبك .. أريدك أن تعلق هذه المفاتيح في قلبك وترتبطها به - اللهم افتح قلوبنا يا رب - ؛ لأن هذه المفاتيح إذا دخلت على قلبك بالحق؛ سيفتح بها أيضاً قلوباً أخرى مغلقة ..

المفاتيح :

أولاً : مفتاح الإجابة الدعاء :

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «أنا لا أحمل هم الإجابة؛ وإنما أحمل هم الدعاء؛ فإني إذا ألهمني الدعاء فإن الإجابة معه» .

إخوتي الشباب ، وأنت ساجد في الصلاة ماذا طلبت من الله؟ ، وأي دعاء حضر في قلبك؟ - اللهم ارزقنا حضور القلب يا رب .. هل

طلبت من ربك الفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ؟ ، هل طلبت منه أن يرزقك
قِيَامَ اللَّيلِ؟ ، وَالخُشُوعَ فِي الصَّلَاةِ؟ ، هل طلبت منه أن يَرْزُقَكَ الْجَلْمَ؟ ..
طلبت منه التوبَةِ؟ ، طلبت منه الإِنْبَاتَةِ؟ ، طلبت منه النجاَةَ مِنَ الْفَتْنَ؟ ، وأن
يُصْرِفَ عَنْكَ الأَذَى؟ .. ما زَالَتْهُ؟ !!

لِلأسف الشديد ، إِنَّ أَكْثَرَنَا يَدْعُو اللَّهَ وَهُوَ فِي غَفْلَةٍ . قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِلُ الدُّعَاءَ مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَوْا»^(١) .. فَلَذِلْكَ إِذَا أَرَدْتَ
شَيْئًا أَوْ حَزَبَكَ أَمْرًا فَالدُّعَاءُ مَفْتَاحُكَ ، فَادْعُ لِيَفْتَحَ لَكَ .. إِذَا فَالْإِجَابَةُ
بَابٌ ، وَمَفْتَاحُهَا الدُّعَاءُ ، وَالدُّعَاءُ بَابٌ وَمَفْتَاحُهُ حُضُورُ الْقَلْبِ ، وَأَسْنَانُ
الْمَفْتَاحِ الْإِخْلَاصُ .

وَإِذَا لَمْ يُفْتَحْ الْبَابُ فَلَا تَنْصَرِفْ وَلَكِنْ ظَلِّ وَاقْفَا وَحاوِلْ الْفَتْحَ ..
حَرِّكْ الْمَفْتَاحَ .. حَرِّكْ قَلْبَكَ بِالْإِخْلَاصِ .. لَا تَعْجَلْ وَلَا تَيَأسْ فِي سَيِّئَةِ
وَاحِدَةٍ لِلْمَفْتَاحِ يُمْكِنُ الْفَتْحُ ، وَلَكِنَّ الْمَهْمَّ أَنْ تُدِيمَ الْإِخْلَاصَ فَلَا تَعْجَلْ؛
قال رسول الله ﷺ : «يَسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَغْجُلْ»؛ يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ
أَرْ يَسْتَجَابُ لِي»^(٢) .

ثانية: مفتاح الرغبة في الآخرة الزهد في الدنيا:

اللَّهُمَّ إِنَا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا .. الدُّنْيَا فَتْنَةٌ .. وَفَتْنَةُ الدُّنْيَا

(١) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدِرُكَ» (٦٧٠/١)، وَالتَّرْمِذِيُّ (٣٤٧٩)، كُـ: الدُّعَوَاتُ، بـ: مَا جَاءَ فِي جَامِعِ الدُّعَوَاتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَحُسْنَةُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى - فِي «صَحِيحِ سَنْنِ التَّرْمِذِيِّ».

(٢) مُتفَقُ عَلَيْهِ: الْبَخَارِيُّ (٦٣٤٠)، وَمُسْلِمُ (٢٧٣٥).

مصبوبة .. وإن الخطر الأكبر في الدنيا تزيينها .. تزيين الدنيا؛ قال الملك - جل جلاله - : «زَيْنِ لِلشَّاءِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْمَنِّيَرِ الْمُغَنَّطَةِ مِنَ الدَّهَرِ وَالْفَضْكَةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوْمَةِ وَالْأَنْفَمِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَكِّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدُهُ حُكْمُ الْعَوَابِ» [آل عمران: ١٤] .. «وَرُخْرُخًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» [الزخرف: ٣٥] .

«دنيا» .. ماذا تعني هذه الكلمة؟ .. تعني : سيارة أغلى وأفضل ، وأحسن ، وشقة فارهة وملايين ونساء .. ثم ماذا بعد؟! .. دُخول جهنم .. هذه هي الحقيقة .

فيما من لا تركب إلا سيارة جديدة لتلقي نظر البنات ، فتشتكي الدنيا وتريد أن تفتين الآخرين؟! .. هذه فتنه على فتنه ، ومصبوبة على مصبوبة ، أن تُفتش فتفتش الآخرين .. فتذكّر آخرتك ، تذكّر يوم الحساب يوم الوقوف والعرض على الله .. يوم يُجاء بجهنم «يَوْمَئِذٍ يَذَكَّرُ الْإِنْسَنُ وَأَنَّ لَهُ الْأَذْكَرَ» [الفجر: ٢٢] .. تذكّر يوم تقول : «يَنِيتَنِي فَدَمَتْ لِيَبَاقِي ⑯ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ⑯ وَلَا يُؤْتِقُ وَنَافِهُ أَحَدٌ» [الفجر: ٢٦-٢٤] .

ولكي يكون لديك رغبة في الآخرة؛ ازهد في حُطام الدنيا زائل .. الدنيا زائلة فالقلها وراء ظهرك ، بل ضئلها تحت قدميك .. ونظره واحدة إلى ملائكة ثُهُونها عليك؛ فتأملن حالك يوم وضعك في التراب ، يوم أن تترك الأهل والأحباب ، يوم أن تخلي أحسن الثياب ، وترتدي ثياب الموتى .. وتذكّر فقط القبور ، فأهواها كافية لجعلك تُقبل على الآخرة؛ فترهد في الدنيا .

إِنَّ الْمَيْتَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ كَلْمَهُ الْقَبْرُ .. وَهَذَا هُوَ أَوَّلُ هُولٍ «تَكْلِيمُ الْقَبْرِ» .. تُكَلِّمُهُ جُدْرَانُ الْقَبْرِ فَتَقُولُ لَهُ - أَيُّ الْمُؤْمِنِ - : أَمَا إِنْكَ كُنْتَ أَفْضَلَ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِيِّ ، أَمَا إِذْ بَلَيْتُكَ الْيَوْمَ وَصَرَّتِ إِلَيَّ فِي بَطْنِي فَسَرَّتِي صَنْبَعِيَّ بِكَ .. ثُمَّ يَضْصِمُهُ الْقَبْرُ ضَمَّةً الْأُمُّ الْحَثْنِيَّ لَوْلَدِهَا الْغَائِبِ - اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ يَا رَبَّ - ، مَثْلَمَا تَكُونُ رَاجِعًا مِنْ سَفَرٍ فَتَضْصِمُكَ أُمْكَ إِلَى حُضْنِهَا .. أَخْذَتْكَ بِشَدَّةٍ وَضَمَّتْكَ بِقُوَّةٍ ؛ لِكُنَّهَا ضَمَّةً جَمِيلَةً .. ضَمَّةً مُرِيحَةً .. إِنَّهَا أُمْكَ الْأَرْضِ .. إِنَّهَا أُمْكَ أَبْوَكَ .. أَصْلُكَ وَفَصْلُكَ ..

أَمَا الْآخَرَ - يَا رَبَّ اسْتَرْنَا يَا رَبَّ ، اللَّهُمَّ ارْزَقْنَا حَسْنَ الْخَاتِمَةِ ، اللَّهُمَّ لَا تَتُوفِّنَا إِلَّا وَأَنْتَ رَاضٌ عَنَّا - فَيُكَلِّمُهُ الْقَبْرُ فَيَقُولُ لَهُ : أَمَا إِنْكَ كُنْتَ أَبْغَضَ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِيِّ .. فَتَدْبِرِ - أَخِيَّ - حَالَ هَذِينَ الرَّجُلَيْنِ .. فَكُرِّزَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي يَضْسِعُونَكَ فِيهِ فِي الْقَبْرِ وَيَقْفَلُونَ عَلَيْكَ .

كُنْتَ حَاضِرًا دُفِنَ أَحَدُ الْإِخْرَوَةِ - اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ وَارْحَمْ مَوْتَى الْمُسْلِمِينَ يَا رَبَّ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ كُلَّ مَيْتٍ مُسْلِمٍ يَا حَيٌّ يَا قَيْوَمٍ - وَنَحْنُ نَرَى الرَّجُلَ الَّذِي دَفَنَهُ وَهُوَ يَضْسِعُ تُرَابًا وَطَوْبًا وَطَيْنًا وَجَبَسًا!! .. وَيَؤْكِدُ الْقَفْلَ عَلَيْهِ!! .. سَبَحَانَ اللَّهِ هَلْ سِيَجْرِي وَيَتَرَكُ الْقَبْرُ؟! .. اتَرَكَهُ يَا أَخِي لَقَدْ أَوْجَعَتْ قَلْبِي .. سَيَفْعَلُونَ بِكَ مُثِلَّ هَذَا فِي يَوْمِ مِنَ الْأَيَامِ .

الْكُلُّ سِيَرُكَ .. لَنْ تَنْفَعَكَ زَوْجَتُكَ وَلَا حَبِيبَتُكَ وَرُوحُ قَلْبِكَ ، «حَيَاتُكَ» الَّتِي ضَيَّعْتَ عُمْرَكَ مِنْ أَجْلِهَا وَعَصَيْتَ رَبِّكَ لِتُرْضِيَّهَا لَنْ تَسْأَلَ عَنْكَ .. وَهُمْ يُعْلَقُونَ عَلَيْكَ الْقَبْرَ لَنْ تَجِدَ أَحَدًا يَجْلِسُ مَعَكَ وَلَا أَحَدًا يُمسِكُ بِكَ . أُمْكَ ، أَبُوكَ ، إِخْوَانُكَ ، أَصْدِقَاؤُكَ ، أَحْبَابُكَ ، أَمْوَالُكَ ..

كُلُّهُمْ سَيُسْلِمُونَكَ ثُمَّ يَذْهَبُونَ لِلرَّاحَةِ .. سَيَسْدُونَ عَلَيْكَ وَيُخْكِمُونَ الْغَلْقَةَ
وَيَتَرَكُونَكَ لِتَظْلِلَ وَحْدَكَ؟ فَتُوَهُّمُ نَفْسَكَ، وَتَخَيَّلُ حَالَكَ.

ظلمةً .. وَخَشْنَةً .. خَوْفً.. رُعْبً.. غُرْيَانً.. وَتَفَاجَأَ بِأَنَّ أَحَدًا

يَقُولُ لَكَ : أَمَا إِنَّكَ كُنْتَ أَبْغَضَ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِي .. مَنْ أَنْتَ؟ ..
مَاذَا جَرِي؟!! .. تَجِدُ جَدْرَانَ الْقَبْرِ تَكَلُّمُكَ!! ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَأْتِيكَ
الْمَلَائِكَةُ لِتَسْأَلُكَ : مَنْ رَبِّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ ، وَبَعْدَ اِنْصَارِهِمْ تَفَاجَأَ
بِرَجُلٍ أَسْوَدِ الْوَجْهِ ، أَسْوَدِ الثُّوبِ ، مُنْتَنِي الرِّبِيعِ ، فَتَقُولُ لَهُ : مَنْ أَنْتَ؟! ،
فَوِجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي لَا يَجِدُهُ بِالْخَيْرِ ، يَقُولُ لَكَ : أَلَا تَعْرِفُنِي ، أَنَا
حَبِيبُكَ .. عَمْلُكَ ..

آه.. آه.. آه.. وَاللَّهِ يَكَادُ الْقَلْبُ يَقْفَضُهُ حِينَماً أَتَخَيَّلُ هَذَا
الْمَوْقِفَ . وَالْعَجْبُ - إِخْوَتَاهُ - أَنَّا نَسْمَعُ بِهَذَا الْكَلَامَ وَنَقْرَأُهُ وَنَسْتَوْعِبُهُ
وَنَفْهَمُهُ وَنَعْجَبُ بِهِ ، ثُمَّ نَعْمَلُ أَعْمَالًا سَتَدْخُلُ عَلَيْنَا سَوْدَاءَ : تَزْنِي ..
تَكْذِبُ .. تَنَامُ عَنْ صَلَاةٍ .. تَغْتَابُ .. تَئْمَ .. تَؤْذِي .. تَعْمَلُ أَعْمَالًا
سَيِّئَةً .. سَتَدْخُلُ عَلَيْكَ وَأَنْتَ فِي قَبْرِكَ وَحْدَكَ ..

فِي أَهْوَالِ الْقَبْرِ وَظُلْمَتِهِ تَنْظَرُ وَتَسْأَلُ : مَنْ أَنْتَ؟ ، يَقُولُ لَكَ : أَنَا
عَمْلُكَ الْأَسْوَد.. أَنَا مَعَاصِيكَ ، أَلَا تَعْرِفُنِي؟!! ، أَنَا حَبِيبُكَ الَّذِي عَشَّتُ
مَعَكَ طَوْلَ عُمْرِكَ .. أَنَا عَمْلُكَ السَّيِّئَ.

لَكِنَّ الْمَصِيَّبَةَ الْكَبِيرَى أَنَّهُ سَيَظْلِلُ مَعَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ! ، فَلَوْ كَانَ مَعَكَ
وَقْتًا مَحْدُودًا لِهَانَ الْأَمْرُ شَيْئًا .. لَكِنَّ لَا .. لَيْسَ غَيْرُهُ مَعَكَ إِلَى يَوْمِ

القيامة؛ لذلك فإنَّ مفتاح الرغبة في الآخرة الزهُد في الدنيا ، فالذى تحب أن يكونَ معك في قبرِك من هذه الدنيا فاعمله^(١) .

أقول لكم شيئاً جميلاً : الذي يريد أن يكون قبره «مُكيفاً» ، «يُكِيف» لنا هذا المسجد .. الذي يريد لمة نور في قبره يتصدق على الفقراء بلمية كهرباء .. الذي يريد أن يأكل ويشرب في قبره يطعم «رم خمسين مسكيناً .. شغل جوارحك في طاعة الله .. المصنع الذي وهبه الله لك ، شغله في إنتاج الحسنات ، ولا تشغل نفسك بجُمِيع الدنيا .. فالدنيا لن تنفعك ، ولن ينفعك ما فيها إلا العمل الصالح ؛ فازهدها ترحب في الآخرة .

أخي في الله ، والله الذي لا إله غيره ولا رب سواه ، لن تستقيم لك رغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا .. اللهم إننا نعوذ بك من الدنيا .

أبو طلحة الأنباري رَوَى عَنْهُ كَانَ لَهُ بَسْتَانٌ مِنْ تَحْتِيْلِ وَأَعْنَابٍ ، لَمْ تَرَفِعْهُ الْمَدِينَةُ بِسْتَانًا أَعْظَمَ مِنْهُ شَجَرًا ، وَلَا أَطِيبَ ثَمَرًا ، وَلَا أَعْذَبَ مَاءً .. وَفِيمَا كَانَ أَبُو طَلْحَةَ يَصْلِي تَحْتَ أَفْيَاهِ الظَّلْلِيلَةِ ؛ أَثَارَ اِنْتِبَاهَهُ طَائِرٌ غَرِيدٌ أَخْضَرٌ الْلَّوْنُ أَحْمَرُ الْمِنْقَارِ ، مُخَضْبُ الرُّجْلَيْنِ .. وَقَدْ جَعَلَ يَتَوَاثِبُ عَلَى أَفْنَانِ الْأَشْجَارِ ظَرِيْبَا مُغَرِّدًا مُتَرَاقِصَا .. فَأَعْجَبَهُ مَنْتَرَاهُ ، وَسَبَّحَ بِفَكِرِهِ مَعَهُ .. ثُمَّ مَا لِيْكَ أَنْ رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ ؟ فَإِذَا هُوَ لَا يَذْكُرُ كَمْ صَلَى ؟ رَكْعَتِينَ ؟ ثَلَاثَتَينَ ؟ .. لَا يَدْرِي .. فَمَا أَنْ فَرَغَ مِنْ صَلَاةِهِ ، حَتَّى غَدَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَشَكَا لَهُ نَفْسَهُ الَّتِي صَرَفَهَا الْبَسْتَانُ وَشَجَرَةُ الْوَارْفُ ، وَطَيْرُهُ الْغَرِيدُ

(١) لمزيد من الكلام عن القبر وأحواله راجع كتابنا «القبر رقية من الداخل» ، واستمع كذلك لشريط «أهوال القبر الستة» ، و«القبر يتكلّم» لنا أيضًا ؛ ثيَّدْ ياذن الله .

عن الصلاة .. ثم قال له : اشهد يا رسول الله : أني جعلت هذا البستان صدقة لله - تعالى .. فضغطه حيث يُحب الله ورسوله^(١) .

يُذكِّر أبو طلحة في تصرُّفه هذا بالنبي سليمان عليه السلام ، الذي راح يغقر خيله بسيفه في سوقها وأعناقها ، لِمَا شغلَه تقدُّمها عن صلاته وتسابيحه ؛ قال - تعالى - : «وَوَهَبْنَا لِدَاؤَدْ سُلَيْمَانَ نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَيْنِي الصَّدِيقَتُ لِلْحَيَادِ ۝ فَقَالَ إِنِّي أَحَبِّتْ حُبَّ الْحَيَّرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحَجَابِ ۝ رُدُّوهَا عَلَىٰ فَطَفِقَ مَسْتَحًا يَأْسُوقُ وَالْأَفْسَاقِ» [ص: ٣٠-٣٣] .

وهكذا تأمل - أخي في الله - أبو طلحة وكيف أنه رَفِيعُه لِمَا وجدَ الحقيقة وطيورها «الدنيا» قد شغلته وألهته عن الله ؛ سارع بتركها والزهد فيها .. نعم : فمفتأن الرغبة في الآخرة الزهد في الدنيا .. فاللهُم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا .. اللهم واجعل الآخرة هي دارنا وهمنا ، واجعل مثنا رِضاك عنا .. اللهم ولا تحرمنا لذة النظر إلى وجهك الكريم .. آمين .

ثالثاً : مفتاح الإيمان التفكُّر في آلاء الله ومخلوقاته :

التفكير في النعم هو مفتاح الإيمان ؛ قال الله : «فَإِذَا كُرِّرَوا مَاءَ الْأَوَّلِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» [الأعراف: ٦٩] . قلت لأخ بكلية الهندسة : أعطاك الله عقلًا .. هذا العقل نعمة أم لا؟ .. نجحت في الثانوية العامة بمجموع ٩٨% ودخلت كلية الهندسة بحبك لها ، واجتهدت فتفوقت وعُيِّنت

(١) متفق عليه : البخاري (٥٦١١) ، ومسلم (٩٩٨) .

مُعِيداً، ثم حصلت على الماجستير والدكتوراه.. كل هذا بهذه الدُّماغِ التي وهبها الله لك.

أعطاك نعمَة العقلية المتفكرة هذه.. فهل استعملتها في الوصول إليه سبحانه؟!.. استعملتها في الدنيا كثيراً؛ ولكن ترك لا تُشغِلُها مطلقاً مع الله!!.. لماذا عطَلْتها في التجارة مع الله؟!.. يا بني، إن سُكَّةَ الله تحتاج إلى هندسة.. تحتاج إلى عقل.. فشُغل عقلك في التفكير في النعم والتأمل في المخلوقات؛ لتزداد عظمة الله في قلبك.

تعلمون - إخوتي في الله - أن أنواع التوحيد ثلاثة :

توحيد الربوبية . توحيد الألوهية . توحيد الأسماء والصفات .

أما توحيد الربوبية : فهو توحيد الله بأفعال الله؛ فالله هو الذي يُنَزِّلُ المطر، ويحيي ويميت، يُعطي وينعم، يُضر وينفع، يعز ويذل.. لم يعارض فيه أحدٌ من الخلق، فلم يقل أحدٌ: إنه هو الذي خلق السماء والأرض، والمشركون كانوا يُقرون بذلك.. ولم ينكِّره إلا الملاحدة والشيوعيون في زماننا، الذين انكَسَّتْ فطرتهم فلم يُعملوا عقولهم.

ودائماً أقول جملة : «إِنَّ عِيْنَ أَصْغَرِ نَمَلَةٍ تَفَقَّعَ عِيْنَ أَكْبَرِ مُلْحِدٍ».

نقول له: خذ النملة وسلن نفسك: من الذي وضع عينها هنا وجعلها ترى؟!.. تَفَكَّرْ في خلقها حتى لا تقول: خَلِقْتَ صُدْفَةً.

اما توحيد الألوهية : فهو توحيد الله بأفعال العباد، يعني لا نسجد إلا لله، ولا ندعُ إلا لله، ولا نثني إلا لله، ولا نخاف إلا من الله.. صرف جميع أنواع العبادة لله.

وأما النوع الثالث فهو توحيد الأسماء والصفات: وهو أن ثبت لله ما أثبته لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ.

فالربوبية - كما قلت - لم يخالف فيها أحد؛ ولذلك تجد كثيراً من الإخوة لا يهتم ولا يعبأ بتوحيد الربوبية .. يقول: ليس هناك مشكلة ، أهم شيء توحيد الألوهية ، نعم: هذا صحيح ، ولكن الربوبية هي المدخل وهي الموقـد للألوهية ، فكلما ازداد القلب تاماً وتفكرـاً في نعم الله ، في النفس والكون ؛ ازداد شكرـاً وعبادة لله^(١).

ولذا أسان: متى كانت آخر مرة نظرت فيها إلى السماء؟! .. أقول - وللأسف الشديد - : لقد أصبحنا في زمان يحول أهله الطاعات إلى معاـصـ .. فأصبح لا ينظر إلى السماء إلا «الحبـيـة» ، فيقولون: «أنا بـأعـدـ النجـوم» .. ويظلـون يـنظـرون إلى القـمـ .. مـعاـصـ .. فـأـينـ المـتأـمـلـونـ المتـدـبـرونـ بـحـقـ ، أـينـ أـصـحـابـ العـقـولـ الـلـبـيـةـ المـتـفـكـرـةـ؟!!

إخواته ، الـبـحـرـ من آيات الله ، فـهلـ تـأـمـلـتـمـوهـ؟!! .. إن ولـداـ علىـ الـبـحـرـ ذـاقـ الـمـيـاهـ فـوـجـدـهـاـ مـالـحـةـ جـدـاـ ، فـسـأـلـ أـمـهـ:ـ مـنـ الـذـيـ وـضـعـ مـلـحـاـ فـيـ الـبـحـرـ؟!! .. فـجـلـسـتـ أـفـكـرـ:ـ مـنـ الـذـيـ وـضـعـ مـلـحـاـ فـيـ الـبـحـرـ؟!! .. «هـذـاـ عـذـبـ فـرـاتـ وـهـذـاـ مـلـحـ أـجـاجـ» [الفرقان: ٥٣] .. أـجـاجـ:ـ مـلـحـ .. مـنـ الـذـيـ فـعـلـ هـذـاـ؟!! .. سـبـحـانـهـ هوـ الـمـلـكـ .. انـظـرـ إـلـىـ نـهـرـ النـيـلـ وـذـقـ مـاءـ ، سـبـحـانـ اللهـ .. الفـرقـ شـاسـعـ .. مـاءـ وـمـاءـ لـكـنـ الـطـبـيـعـةـ مـخـتـلـفةـ!!

(١) نـصـحـ هـنـاـ بـقـرـاءـةـ الفـصـلـ الطـوـبـيـ وـالـجمـيلـ الـذـيـ كـتـبـهـ أـبـنـ الـقـيمـ يـكـتـلـهـ عنـ التـأـمـلـ فـيـ الـنـفـسـ وـالـكـونـ مـنـ كـتـابـهـ الـقـيـمـ «مـفـتاحـ دـارـ السـعـادـةـ» ، وـكـذـلـكـ كـتـابـ «الـتـفـكـرـ» مـنـ «إـحـيـاءـ عـلـمـ الدـينـ» لـأـبـيـ حـامـدـ الغـزـالـيـ يـكـتـلـهـ .

من اليوم ينظر إلى البحر؟! .. لا أحد.. سوئي أصحاب مصائب السوء .. ينظرون نظر عصيٰن وخيانة .. حولوا الطاعات إلى معاصٰن .. لا يقف على النيل اليوم أحدٌ يسبح الله .. الكل يعصي أمام نعمة تُبَهِّر العقول وترقق القلوب .. ولا يعني هذا أن نقف معهم؛ بل ينبغي أن نبحث عن أماكن أخرى خالية من المعاصي نتأمل فيها نعم الله .

اخْرُجْ إِلَى حَدِيقَةِ أَوْ إِلَى الْغَيْطَانِ الْوَاسِعَةِ وَتَأْمَلْ أَنْوَاعَ الزَّهْرَوْرِ وَالْزَّرْوَعِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ .. أَمْسَكْ بِزَهْرَةٍ وَتَأْمَلْهَا .. تَأْمَلْ أَنْوَاعَ الطَّيْوَرِ .. تَأْمَلْ أَلوَانَ الزَّرْوَعِ وَالْخَلْافَهَا فِي الْأَحْجَامِ وَالْأَلْوَانِ وَالثَّمَارِ، فَهَذَا مُرْعَلْقَمٌ بِجَوَارِ آخَرِ حُلُوْ لِذِيدٍ، وَهَذَا أَخْضَرُ بِجَوَارِ آخَرِ أَحْمَرٍ .. سُبْحَانَ اللَّهِ .. مَعَ أَنَّ الْكُلَّ يُرَوَى مِنْ مَاءٍ وَاحِدٍ وَفِي أَرْضٍ وَاحِدَةٍ، إِنَّهَا يَدُ اللَّهِ التِّي تَضْيِطُ وَتُسَيِّرُ وَتُقْدِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِقَدْرِهِ .. فَسُبْحَانَهُ سُبْحَانَهُ .. سُبْحَانَهُ مِنْ إِلَهٍ عَظِيمٍ .. سُبْحَانَهُ مِنْ خَالِقٍ جَمِيلٍ .

وَاللَّهُ - يَا شَيَابَ - لَقَدْ كُنْتُ فِي سَفَرٍ قَطَعْتُ فِيهِ أَرْبَعَمِائَةَ وَخَمْسِينَ كِيلَوَمِتْرًا لَمْ يَكُفَّ لِسَانِي عَنِ التَّسْبِيحِ؛ مَا أَرَى مِنْ بَدِيعِ خَلْقِ اللَّهِ .. عَظِيمٌ خَلْقُ اللَّهِ .. جَمِيلٌ خَلْقُ اللَّهِ .. جَمَالٌ مِنْ جَمَالٍ! سُبْحَانَ اللَّهِ . لَذَا أَرِيدُكَ أَنْ تَنْتَظِرَ وَتَتَأْمَلَ .. فَاصْعُدْ إِلَى سَطْحِ مَنْزِلَكُمُ الْلَّيْلَةَ وَاسْتَلِقْ عَلَى ظَهْرِكَ، وَلَا تَنْتَظِرْ يَمِيَّنَةً أَوْ يَسِّرَةً .. انْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ فَقَطْ .. انْظُرْ إِلَى النَّجُومِ وَالْكَوَاكِبِ وَأَجْزَاءِ الْكَوْنِ .. يَزِيدُ هَذَا فِي قَلْبِكَ عَظِيمَةَ اللَّهِ .. فَتُؤْجِسُ بِأَنْوَارِ عَظِيمَةٍ تَمَلِّأُ قَلْبَكَ .. أَرِيدُكَ أَنْ تَذَهَّبَ إِلَى مَكَانٍ فِيهِ جَبَانٌ وَتَنْتَظِرَ لِلْجَبَانِ، انْظُرْ يَمِيَّنَهَا وَشِمَالَهَا وَفَوْقَهَا وَتَحْتَهَا ..

جُرْب وقل : سبحان الله! .. جُرْب ، ولا تعصِّي الله.. فلا تذهب إلى البحر في الصيف ، بل اذهب في الشتاء حيث لا أحد.. اذهب لعمل عمرة ، وهذه دعوة إلى مصيف جديد في مكة المكرمة - اللهم ارزقنا الحج والعمرَة ، وتابع لنا بين الحج والعمرَة ، اللهم لا تحرمنا من الحج والعمرَة .

يذهب العصاة إلى الشواطئ في الصيف ، فما ذهب أنت إلى الكعبة ، اذهب إلى المدينة .. اجلس أمام الكعبة وتأمل الجلال والبهاء .. تأمل وأنت مسافر بالطائرة أو الباخرة أو بالحافلة بِرًّا .. تأمل خلق الله ، استمتع بالبحر وأنت مسافر ، استمتع ببلاد الله وبساتينها الجميلة .. تأمل لتزداد عظمة الله في قلبك ، لتذوق حلاوة الإيمان ، ولذة الإيمان وطعم الإيمان .

رابعاً : مفتاح الدخول على الله إسلام القلب لله :

نريد أن ندخل على الله .. فمنكم يريد أن يدخل؟ .. لا زلنا واقفين منذ زمن نتفرج .. ودائماً أقول : أنا دلائل على بضاعة الله ، ولكن الزبائن من نوعية أهل عصرنا يتفرجون ولا يشترون .. فمن يشتري الجنة؟ .. من منكم - يا شباب - يريد أن يدخل على ربِّه .

قال - تعالى - حاكى عن الخليل إبراهيم عليه السلام : «إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ» [البقرة: ١٣١] .. أسلِمْ؛ أسلَمْتُ .. هذه هي القضية .. قال - تعالى - : «وَإِذْ أَبْتَأَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّهِ يُكَبِّرُ فَأَتَمَّهُنَّ» [البقرة: ١٢٤] .. هذه هي قضية الدخول على الله .. أنك تسمع للأمر فتقول : أسلَمْتُ .. وتسمع للنهي فتقول : أسلَمْتُ .. تُفْدَى المطلوب .. أسلَمْتُ .. تمام

الاستسلام . . أن تكون مع الله بادئ الرأي ؛ قال الملك : «**إِنَّمَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**» [الحجرات : ١].

أحد الناس كان مستجواب الدعوة ، وكان عليه ذين فقال له ابنه : هلا دعوت الله أن يقضي دينك ، فرفع يديه إلى السماء ، وقال : اللهم اغفر لي وتب علىي ، فقال له ابنه : يا أبا ، ادع الله بقضاء الدين ؛ فقال : «يا بنى إذا غفر ذنبي قضى ديني». اللهم اغفر ذنبنا ، واقض ديوننا . هذه هي القضية : تعلق القلب بالله . . «إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ فَأَسْلَمَ» . . فأسلموا - إخواته - فمفتاح الدخول على الله إسلام القلب لله .

كثير من الشباب الذين يرجعون عن كلامهم فيتركون طريق الوصول إلى الله ، إنما رجعوا وتركوا الطريق ؛ لأن قلوبهم لم تُسلِّم بعد . . قلبه لا يزال مشغولاً بالبنات . . بالدنيا . . بالهموم . . بالمال . . بالزواج . . باللُّعُب . . بالفُسُح . . بالتنزه . . باللُّبُس . . لكن إذا أسلم القلب لله ؛ أصبح أحب شيء إليه طاعة الله .

إن الشباب إذا التزم وكان لا يزال في قلبه هوئي - نعود بالله تعالى من الهوى - فلابد أن يقع في المعاصي مرة أخرى .

قيل لابن الجوزي : ما بالنا إذا ملأنا الكُلُّبَ لا يَبُرُّدُ ، وإذا انقصناه يَبُرُّدُ ، قال : «لتعلموا أن الهوى لا يدخل إلا على ناقصٍ» . . فلا تكن ناقصا ، كُن ممتلي القلب بالإيمان حتى لا يدخل عليك الهوى ، زُد في إيمانك ليُسلِّمَ قلبك لله . . فمفتاح الدخول على الله إسلام القلب لله وسلامته له . . اللهم ارزقنا قلوبنا سليمة يا رب .

كثيرٌ منا قلبه مُقتَطَعٌ .. مُقطَعٌ .. مُكَسَّرٌ .. فمع البناء والشقة والسيارة والليل والمظاهر .. مع «تسريحته» والكلية والأصحاب والجيران .. دنيا .. بعضنا قلبه مشتَّتٌ بين الشغل والشركة والديون والأموال والرصيد وتأمين المستقبل .. و .. و .. قال رسول الله ﷺ : «من كانت الدنيا همّه فرقَ الله عليه شمله ، وجعلَ فقرَه بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له»^(١) .

نعم - إخواته - سلامه القلب لله .. وأنا لا أقول لك : لا تلبس حسناً .. لا .. بل البش وتعطر واركب سيارة واثنتين وثلاثة .. ليست هذه القضية .. القضية أن يكون قلبك مشغولاً بالله لا بالسيارات .. تزوج واحدة ومتى وثلاثة ورباع؛ لكن لا يكن قلبك مشغولاً بالنساء .. احصل على شهادات وماجستير ودكتوراه؛ لكن لا يكن قلبك مشغولاً بالمناصب .. اجعل قلبك مشغولاً بالله .. اللهم لا تشغelnَا إلا بك .

انظر ماذا يقول ربك .. آية تشبيب النواصي !! .. «إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأْنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ مَا يَنْبَغِي عَنْهُمْ لَوْفُونَ ٧
أَوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ الْأَنْارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» [يونس: ٨-٧] .. تدبّر هذه الآية وأعد قراءتها مرات لتعرف حقيقة ما أنت فيه .. فإياك أن ترضي بالدنيا ، وترکن إليها ، وتغفل عن الله .

كثيرٌ من الناس اليوم يقول : الحمد لله ، ماذا ينقصني؟! ، أنا لا أريد

(١) أخرجه الترمذى (٢٤٦٥) ، وصححه الألبانى - رحمة الله تعالى - في «الصحىحة» برقم (٩٤٩ ، ٩٥٠) .

من الله شيئاً .. يا مسكيٰن ، أنت مُحتاج إلى الله في كلّ شيء . فما أنت في دنيا ، فافهم ؛ ولذلك لا يرى بها إلا الأدنى منها ، أما الموحد فلا يرضيه إلا رؤية وجه الله - تعالى - في الجنة .. اللهم اجعلنا من الموحدين ، اللهم متعنا بالنظر إلى وجهك الكريم ، اللهم لا تحرمنا من النظر إلى وجهك الكريم .. آمين .

نعم - أيها الإخوة - مفتاح الدخول على الله إسلام القلب وسلامته لله ، والإخلاص له في الحب والبغض والفعل والترك - اللهم ارزقنا الإخلاص في القول والعمل .. هذا مفتاح كبير جداً .. الإخلاص لله في الحب والبغض .. فأنت تحب الأخ الفلاني .. لماذا تحبه؟ .. هذه هي القضية . فأحببت لله واكره لله ؛ ففي تحقيق هاتين الكلمتين يكون قلبك قد أسلم لله وسلّم لله .

إذا؛ فإن إسلام القلب لله وسلامته له من الغير يكون بالإخلاص له - سحانه - في الحب والكره .. فعندما أكره أكره لله وعندما أحب أحب لله ، وكذلك الفعل والترك ، فحيثما أ فعل أ فعل لله ، وحيثما ترك أترك لله .. هذا هو مفتاح الدخول على الله ؛ فاجن العسل ولا تكابر الخلية .

خامساً : مفتاح حياة القلوب ثلاثة :

أولها: ترك الذنوب . **وثانيها:** التدبر للقرآن . **ثالثها:** التضرع بالأسحار .
أولاً - ترك الذنوب :

يقول ابن القيم في «الفوائد» تحت عنوان «ترك الذنوب أولاً» :

«العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا ؛ فإنهم لا يقدرون على تركها ؛

ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم ، فترك الدنيا فضيلة ، وترك الذنوب فريضة ، فكيف يؤمر بالفضيلة من لم يقم الفريضة ! ، فإن صعب عليهم ترك الذنوب فاجتهد أن تحبب الله إليهم بذكر آياته وإنعامه وإحسانه وصفات كماله ونعوت جلاله ؛ فإن القلوب مفطورة على محبيه ، فإذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنوب والإصرار عليها والاستقلال منها ، وقد قال يحيى بن معاذ : طلب العاقل للدنيا خير من ترك الجاهل لها^(١) .

إن الذنوب تخنق القلوب .. المعاصي تقتل القلوب .. الذنوب تميت القلوب .. **قال ابن القيم عن نتائج المعصية :**

«قلة التوفيق ، وفساد الرأي ، وخفاء الحق ، وفساد القلب ، وحمل الذكر ، وإضاعة الوقت ، ونفرة الخلقي ، والوحشة بين العبد وبين ربه ، ومنع إجابة الدعاء ، وقسوة القلب ، ومخنق البركة في الرزق والعمر ، وحرمان العلم ، ولباس الذلة ، وإهانة العذر ، وضيق الصدر ، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيئون الوقت ، وطول الهم والغم ، وضيق المعيشة ، وكشف البالي .. تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع عن الماء والإحراق عن النار ، وأضداد هذه تتولد عن الطاعة»^(٢) .

إن الشاب الذي فتن - اللهم رد إلى الالتزام ردا قريبا ، اللهم ثبت قلوبنا على الإيمان - قال : سأستمع إلى بعض الأغانى ثم أدخل على «الإنترنت» ،

(١) الفوائد (١٧٥) .

(٢) الفوائد (٣٧) .

ثم أستمع شريطاً للشيخ فلاد حبيبي .. وسأحضر للشيخ فلان الدرس القادم .. وهو ذاہب للشيخ قابلته بنت فضل يتكلّم معها حتى وصلت الحال إلى حد الزنا على الهواء .. ففتن - اللهم نجنا من الفتنة ما ظهر منها وما بطن .. فتن لذنبه الأول .. فذنب لم يتركه قتل قلبه .. وضيئ نفسيه .

يقول ابن القيم رحمه الله: «ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله» .

ويوضخ - رحمة الله - الطريق إلى صفاء القلب فيقول: «من أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهواته ، القلوب المتعلقة بالشهوات ممحوبة عن الله بقدر تعلقها بها ، القلوب آئية الله في أرضيه ، فاحبها إليه أرثها وأصلبها وأصفها ، شغلوا قلوبهم بالدنيا ، ولو شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت في معاني كلامه وأياته المشهودة ، ورجعت إلى أصحابها بغرائب الحكم وأطراف الفوائد ، إذا غذى القلب بالذكر وسقى بالتفكير ونُقِي من الدُّغَل؛ رأى العجائب وأهل الحكم ، ليس كل من تحلى بالمعرفة والحكمة واتحلّها كان من أهليها؛ بل أهل المعرفة والحكمة الذين أحياوا قلوبهم بقتل الهوى ، وأما من قتل قلبه فأحيى الهوى؛ فالمعرفه والحكمة عارية على لسانه»^(١) .

نعم - إخواته -: ترك الذنوب حياة القلوب .. اترك الذنب ؟ فالذنب يقتل القلب .. يقتل .. أقول لأحدكم : لماذا لا تقوم بالليل؟ ، يقول : أنام مقتولاً لا أستطيع جراها ، قلت له : من الذنوب .

(١) الفوائد (١٠٥) .

قيل لأحد السُّلْفِ : كيف أستعينُ على قيام الليل؟ ؛ قال : «لا تَعْصِمْ بالنهار يُقْمِك بالليل» .. إذا رأيت قيام الليل ثقيلاً عليك؛ فاعلم أثك محروم مُكَبِّلٌ .. كَبَلْتَكَ خطاياك .. مُكَتَّفٌ .. قَيَدْتَكَ ذنوبُكَ ، فاتركها وتب منها ليعينا قلبك .

ثانياً - التَّدَبِّرُ للقرآن :

يا أخي في الله يا طالب كلية الهندسة ، ويا حبيبي في الله يا طالب كلية الطب ، ويا أخي في الله يا طالب كلية التجارة .. يا من تحمل أصعب المسائل ، عقلُك الجميلُ هذا ماذا فهمت به من القرآن؟!

أحد الإخوة قال لي : قرأت في الجريدة لكاتب يقول : إن الله أمر الرجال بإذناء الشباب مثل النساء ، فقال - تعالى - : «يُدَافِئُ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَّيْهِنَّ» [الأحزاب: ٥٩] !! .. قلت : أتعالُ هذا؟!! .. نون النسوة يا أخي! .. أين العقل؟! .. لا يوجد فهم؟! .. حتى عقولهم لا يُغَمِّلُونَها!! ولذا ، أريدهُ أن تفهم وتدبر القرآن ، «كَتَبَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مُبَرِّكَ لِتَدَبِّرُوا [إِيَّاهُ]» [ص: ٢٩] .. تدبِّر .. تدبِّر القرآن . لقد قام رسول الله ﷺ بآية يرددُها : «إِنْ تُعْذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» [المائدة: ١١٨] .

وقام تمسم الداري ليلة بهذه الآية : «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْهَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَعْمَلُهُنَّ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ تَحْكَمُهُنَّ وَمَسَاءٌ هُنَّ سَاءٌ مَا يَخْكُمُونَ» [الجاثية: ٢١] .

وقام سعيد بن جُبِير ليلةً يردد هذه الآية : «وَأَمْتَرُوا أَيْمَنَ أَيْمَنًا الْمُجْرِمُونَ» [س: ٥٩]. أي تميّزوا وانفردوا عن المؤمنين .

ومحمدُ بْنُ الْمُتَكَبِّرِ يسأله أبو حازم عن البكاء طيلة ليله ، فيقول : آية من كتاب الله أبكثني ؛ «وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ» [الزمر: ٤٧] .

وقال بعضهم : إني لأفتح السورة فيوقظني بعض ما أشهده فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر . وكان بعضهم يقول : آية لا أفهمها ، ولا يكون قلبي فيها لا أعد لها ثوابا .

ويقول أبو سليمان الداراني : إني لأتلوا الآية فأقيم فيها أربع ليالٍ أو خمس ليالٍ ، ولو لا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها . قال تعالى - : «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ» [ق: ٣٧] .

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - في «الفوائد» تحت عنوان
قاعدة جليلة : شروط الانتفاع بالقرآن :

«إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألقي سمعك ، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به - سبحانه - منه إليه ؛ فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ، قال - تعالى - : «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ» [ق: ٣٧] .

وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفا على مؤثر مقتضى ، ومحل قابل ، وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه ؛ تضمنت الآية ذلك كله بأوجز لفظ وأبسطه وأدله على المراد . فقوله : «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا

إشارة إلى ما تقدم أول السورة من ها هنا . وهذا هو المؤثر ، قوله : «لِمَ كَانَ لَهُ قَلْبٌ» فهذا هو المَحَلُّ القابلُ ، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله ، كما قال - تعالى - : «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِتُسَنِّدَ مِنْ كَانَ حَيًّا» [بس: ٦٩-٧٠] ; أي : حي القلب . قوله : «أَوْ أَلَّا أَسْتَعِنْ وَهُوَ شَهِيدٌ» [ق: ٣٧] أي : وجة سمعه ، وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له ، وهذا شرط التأثير بالكلام .

وقوله : «وَهُوَ شَهِيدٌ» ؛ أي شاهد القلب حاضر غير غائب .

قال ابن قتيبة : «استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ، ليس بغافل ولا ساير . وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير ، وهو سهو القلب وغيبته عن تعلق ما يقال له والنظر فيه وتأمله . فإذا حصل المؤثر وهو القرآن ، والمَحَلُّ القابلُ وهو القلب الحي ، ووُجد الشرط وهو الإصغاء ، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر ؛ حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكرة» .

ويواصل ابن القيم حديثه الممتع فيقول : «صاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن ، فيجدها كأنها قد كتبت فيه ، فهو يقرؤها عن ظهر قلبه . ومن الناس من لا يكون تأملاً الاستعداد ، واعي القلب ، كامل الحياة ، فيحتاج إلى شاهد يميز له بين الحق والباطل ، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الحي الوعي ؛ فطريق حصول هدایته أن يفرغ سمعه للكلام ، وقلبه لتأمله والتفكير فيه ، وتعلق معانيه ؛ فيعلم حينئذ أنه الحق»^(١) .

إخوته ، افهموا القرآن وتدبروه .. افتحوا قلوبكم وأسماعكم وأ بصاركم له .. لقد كان المدرس يقول لنا : إذا ذاكرت الموضوع من الكتاب فأغلقْه ثم اكتب في ورقة خارجية ما فهمته .. فهل سألت نفسك مرة بعد أن فرغت من التلاوة : ماذا فهمت؟ ، ما الذي انغرس في قلبي من معاني القرآن؟ ، لماذا خرجت اليوم من القرآن؟

إن أكثرنا اليوم - أيها الإخوة - يأتي إلى القرآن وهو متعلق القلب تماماً .. لا يريد أن يفتح قلبه ؛ فلا ينتفع بالقرآن ؛ لأنَّه لا يريد أن يُتعب نفسه في التدبر ، ومن كانت حاله هكذا فإنه يأتي القرآن فلا يخرج منه بشيء ؛ بل وربما خرج من جلسته وقد أصابه الملل من القرآن ؛ لأنَّه يأتيه في أوقات لا يكون قلبه فيها متاهياً ، وفي ظروف لا تكون نفسه فيها هادئة .

إخوته ، إن أردتم الحياة لقلوبكم ؛ فلا بد أن تفهموا مجمل القرآن وموضوع القرآن ، ومِرَاد القرآن^(١) .. لا بد أن تتأملوا كلام الله وما يحويه ؛ لتخرجوا منه بمعرفة الله وحب الله ، وتقوئ قلوبكم في السير إلى الله .

يقول ابن القيم تحت عنوان «فائدة : محتوى خطاب القرآن» :

«تأمل خطاب القرآن تجد ملِكًا له المُلُكُ كُلُّهُ ، وله الحمد كُلُّهُ ، أَزِمَّةُ الأمور كُلُّها بيده ومصدرُها منه ومردُها إليه ، مستوىً على سرير مُلْكِه ،

(١) نصح هنا بقراءة كتاب «يسير اللطيف المثان في خلاصة تفسير القرآن» ، للعلامة السعدي - رحمه الله تعالى .

لا تخفي عليه خافية في أقطار مملكته ، عالما بما في نفوس عبيده ، مطلعا على أسرارهم وعاليتهم ، منفردا بتدبر المملكة ، يسمع ويَرَى ، ويعطي ويمْنَع ويُثبِّت ويُعاقِب . ويُكْرِم ويُهَبِّن ، ويُخْلُق ويُرْزَق ويُمْيِت ، ويُقدِّر ويُقضِي ويُدَبِّر . الأمور نازلة من عنده ، دقائقها وجليلها ، وصاعدة إليه لا تحرُك في الكون ذرة إلا بإذنه ، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه .

فتأمل كيف تجده يُشَنِّي على نفسه ويُمْجِد نفسه ، ويَحْمَد نفسه ، وينصح عباده ، ويدلُّهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ويرغبهم فيه ، ويحذرهم مما فيه هلاكهم ، ويتعَرَّف إليهم بأسمائهم وصفاتهم ، ويتحبَّب إليهم بنعمه وألائه . فيذكُرُهم بنعيمه عليهم ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها ، ويحذرُهم من نعيمه ويدركُهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه ، وما أعد لهم من العقوبة إن عصواه . ويخبرُهم بصنعه في أوليائه وأعدائه وكيف كان عاقبة هؤلاء وهؤلاء .

ويُشَنِّي على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم ، ويدُمِّر أعداءه بسيئ أعمالهم وقبح صفاتهم . ويضرب الأمثال وينوِّع الأدلة والبراهين . ويُجِيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة ، ويُصدِّق الصادق ويُكذِّب الكاذب ، ويقول الحق ويهدى السبيل .

ويدعو إلى دار السلام ، ويدرك أوصافها وحسنهَا ونعمتها ، ويحذر من دار الْبَوَار ويدرك عذابها وقبحها وألامها ، ويدرك عباده فقرهم إليه وشدة حاجتهم إليه من كل وجه ، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين ، ويدرك غناه عنهم وعن جميع الموجودات ، وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه ، وكل

ما سواه فقيرٌ إليه بتفسيه ، وأنه لا ينالُ أحدٌ ذرَّةً من الخيرِ فما فوقها إلا بفضلِه ورحمته ، ولا ذرَّةً من الشرِّ فما فوقها إلا بعذلِه وحكمته .

ويشهدُ من خطابِه عتابَه لأجيالِه أطفَلَ عِتابٍ ، وأنه مع ذلك مُقبلٌ عثرايهم ، وغافرٌ لزلايهم ، ومُقيمٌ لأذارِهم ، ومُصلحٌ لفسادِهم ، والداعِ عنهم ، والمُحامي عنهم ، والناظرُ لهم ، والكفيلُ بمصالحِهم ، والمُنجي لهم من كلِّ كُربَ ، والمُوفي لهم بوعده ، وأنه ولهم الذي لا ولَيٌ لهم سواه ، فهو مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ونصيرُهم على عدوِّهم ، فنعمَ المولى ونعمَ النصير .

إذا شهدَتِ القلوبُ من القرآنِ مَلِكًا عظيمًا رحيمًا جَوَادًا جميلاً هذا شأنه؛ فكيف لا تحبُّه وتนาفسُ في القربِ منه ، وتتفقُّ أنفاسها في التودُّد إليه ، ويكونُ أحبُّ إليها من كلِّ ما سواه ، ورضاه آثرُ عندها من رضا كلِّ ما سواه؟! ، وكيف لا تلهجُ بذكرِه وتصيرُ حبه والشوقُ إليه والأنسُ به هو غذاؤها وقوتها ودواؤها بحيث إنْ فُقدَ ذلك فسدَتْ وهلكَتْ ولم تنتفع بحياتها؟! «^(١)» .

ثالثاً - التصرُّع بالأسحار :

أريدُكَ أن تقومَ سَحْرًا ، وتتوطَّداً والدنيا سُكُونٌ والكلُّ نائمٌ .. سبحان الله ! ، كم منكم من يَؤْدُ أن يقابلَ الشَّيخَ فلا نَا ويجلسَ معه ويكلِّمه ويملاً عينيه منه .. ألا تَؤْدُ أن تقابلَ ربِّك ، وتجلسَ معه وحدَكَ قبلَ الفجر؟! ؟ ، لتنقولَ له : اللَّهُمَّ باعِدْ بيني وبينَ خطايدي كما باعِدْتَ بينَ المشرقِ والمغارِب .. بعدَ أن تَمْلأَ قلبَكَ بـ «الله أكبر» .

(١) الفوائد (٣١ - ٣٢).

والله - يا إخواته - إن للمناجاة في جوف الليل لذة لا تصايبها لذات الدنيا بأسرها . . أن تنادي ربك - سبحانه وتعالى - حينما تقف بين يديه في ذل وخشوع وانكسار وهيبة لتقول دعاء الاستفتاح : «وجئْت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين . . قل إن صلافي ونسكي ومحبتي ومماليق لرب العالمين ﷺ لا شريك له ويدلوك أيمُّت وأنا أول الشاكرين» [الأنعام: ١٦٣-١٦٤].

صل وأسألك نفسيك التلاوة .. في غرفتك .. في الشرفة .. فوق السطوح .. أو في المسجد تحت البيت عندكم .. ستحس أنك تكلم الله .. تناديه .. تناجيته .. تشعر بأن هناك سيرا بينك وبينه .. ستحس بوجود علاقة .. علاقة ود وحب وقرب .. ما أجمله من لقاء .. ما أعظمه من وقوف .. وأبهاه من حديث .. إنه لقاء مع الملك .. الرحمن .. حين تستشعر ذلك الموقف وأنك مع الله .. سيفيض عليك ساعتها بالرحمات ..

فتضرغ بالأسحار ؛ فهذا الوقت غالباً لا تعوضه أموال الدنيا .. تضرغ لشحري قلبك . عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كَتُبَ مِنَ الْقَانِتِينَ ، وَمَنْ قَامَ بِالْفِيْلِ آيَةٍ كَتُبَ مِنَ الْمُقْنَاطِرِينَ»^(١) .. والمقطرون : هم من كتب لهم قنطر من الأجر ، والقطنطر - كما جاء في حديث فضالة بن عبيد وتميم الداري عند الطبراني - : «خير من الدنيا وما فيها» .

(١) آخرجه : أبو داود (١٣٩٨) ، وصححه الألباني - رحمه الله تعالى - في « صحيح الجامع » برقم (٦٣١٥) ، وانظر « الصحيح » أيضاً (٦٤٢) .

عبد العزيز بن سلمان ، كانت رابعة - رحمة الله - تُسمى : «سيد العابدين» .. كان يَخْلُقُ يقول : ما للعبادين وللثوم!! ، لا نوم والله في دار الدنيا إلا نوم غالِب .. ويقول عنه ابنه محمد : كان أبي إذا قام من الليل ليتهجد ؛ سمعت في الدار جلة شديدة ، واستيقاء للماء الكثير . قال : فترى أن الجن كانوا يستيقظون للتتهجد فيصلون معه .

وهذه عجَّرَة العَمَيَّة - رحمة الله .. قال عنها رجاء بن مسلم العبيدي : كنا نكون عند عجردة العميمية في الدار ، فكانت تُحيي الليل صلاة ، وربما قال : تقوم من أول الليل إلى السحر ، فإذا كان السحر نادت بصوتها محزون : إليك قطع العابدون دُجى الليل ، بتكيير الدُّلَجِ إلى ظلم الأسحاري ، يستبكون إلى رحمتك وفضل مغرتتك ، فبك إلهي لا بغيرك أسائلك أن تجعلني في أول زمرة السابقين إليك ، وأن ترفعني إليك في درجة المقربين ، وأن تلحقني بعبادك الصالحين ، فأنت أكرم الكرماء ، وأرحم الرحماء ، وأعظم العظماء . ثم تخرج ساجدة ، فلا تزال تبكي وتدعوا في سجودها ، حتى يطلع الفجر ، فكان ذلك دأبها ثلاثة سنة .

وقيل لعفيرة العابدة : إنك لا تナمي الليل ، فبكث وقالت : ربما اشتھيَت أن نائم فلا أقدر عليه ، وكيف ينام أو يقدِّر على النوم من لا ينام عنه حافظاه ليلاً ولا نهاراً؟!

هؤلاء نساء!!؛ فأين أنت يا رجال!! .. يا حسرة على الرجال!!

وخلالصة ما سبق : اترك ذنوبك أولاً ، ثم أقبل على كتاب الله تلاوة وفهمها وتدبرها . . فائته بخشوع وتحزن لظهور قلبك فينفي حبه ، ثم تصرع إلى ربك بالأسحار لتعيش النعيم وتذوق لذة المُناجاة . . يحيا بذلك قلبك ، فيضمد في السير إلى الله . . فاملأك هذا المفتاح ولا تفرط فيه ، حتى لا تكسر الخلية فيضيغ منك العسل .

وهكذا . . أخي السائر على طريق الوصول إلى الله . . ينبغي عليك أن تعني كل الاعتناء بمعرفة «علم المفاتيح»؛ لتجني العسل فلا تكسر الخلية .

* * *



الأصل العشرون

«وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ»

قال - تعالى - : «وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» [الذاريات: ٤٩-٥٠]. قال ابن كثير - رحمة الله تعالى - : أي : جميع المخلوقات أزواج : سماء وأرض وليل ونهار وشمس وقمر وبئر وبئر وضياء وظلماء وإيمان وكفر وموت وشقاء وسعادة وجنة ونار حتى الحيوانات والنباتات ؛ ولهذا قال - تعالى - : «لَقَدْ كُنْتُ نَذِيرًا» أي : لتعلموا أنَّ الخالق واحد لا شريك له «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ» أي : الجاؤوا إليه واعتمدوا في أموركم عليه «إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» اهـ.

وقال صاحب الظلال - رحمة الله تعالى - : «وفي ظل هذه اللمسات القصيرة العبارة ، الهائلة المدى : في أجواز السماء ، وفي آماد الأرض ، وفي أعماق الخلائق . يهتف بالبشر ليفرُوا إلى خالق السماء والأرض والخلائق ، متجردين من كل ما يُنْقلُ أرواحهم ويقيدها ؛ موحدين الله الذي خلق هذا الكون وحده بلا شريك .

«فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا يَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَّهًا مَاءِرًا إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» [الذاريات: ٥٠-٥١] . . . والتعبير بلفظ الفرار عجيب حقا . وهو يوحى بالأثقال والقيود والأغلال والأوهاق ، التي تشدّ النفس البشرية إلى هذه الأرض ، وتثقلها عن الانطلاق ، وتحاصرها وتأسِّرها وتدعها في

عقايل . وبخاصة أوهاق الرزق والحرص والانشعاع بالأسباب الظاهرة للنصيب الموعود . ومن ثم يجيء الهتاف قويًا للانطلاق والتملص والفرار إلى الله من هذه الأنفال والقيود ! ، الفرار إلى الله وحده متنورًا عن كل شرير . وتذكير الناس بانقطاع الحجّة وسقوط العذر : «إِنَّ لَكُمْ مِنْهُ تَذَكِّرُ مُؤْمِنِينَ» .. وتكرار هذا التنبية في آيتين متجاورتين ، زيادة في التنبية والتحذير ! ^(١) .

إخواته ، فقرروا إلى الله .. اقتربوا من طريق الله .. تعالوا خطوة واحدة إلى الله .. ضعوا أرجلكم على أول الطريق .. أعينوا على أنفسكم بالوقوف على رأس الطريق والله يأخذ بأيديكم .

أرموا الله من أنفسكم خيراً ، فلقد كتب الله - جل جلاله - سنته من سنته في خلقه : أنَّ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ تَقَرَّبَ - سبحانه - إليه ، ومن ابتعد عنه ابتعد - سبحانه - عنه .. **﴿تَسْمُوا اللَّهَ فَنَسِيْهُمْ﴾** [التوبه: ٦٧] .. **﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾** [الصف: ٥] .. فمن تاب الله عليه وأحبه ، ومن بدأ جهده واستفرغ وسعه في طاعة الله ؛ أعاده الله وسده .. هذه قاعدة .. سنة مسلمة .. فلا تئم عن الطاعات ثم تقول : لو كان الله يحبني لهداني .. لا .. بل تعالى وهو يهديك .

وقد سمى ابن القيم - رحمه الله - هذا الأصل لقاحاً .. مثل حبوب اللقاح .. فقال - عليه رحمة الله - في «الفوائد» ^(٢) :

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٣٨٦).

(٢) الفوائد (٣٤٦ - ٣٤٧).

- * «الطلب لقاح الإيمان ، فإذا اجتمع الإيمان والطلب أثمرا العمل الصالح .
- * وحسن الظن بالله لقاح الافتقار والاضطرار إليه ، فإذا اجتمعا أثمرا إجابة الدعاء .
- * والخشية لقاح المحبة ، فإذا اجتمعا أثمرا امثال الأوصي واجتناب المنافي .
- * والصبر لقاح اليقين ، فإذا اجتمعا أورثا الإمامة في الدين ؛ قال تعالى : «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِمَا صَرُّبُوا وَكَانُوا يَعَيْنَنَا يُوقِنُونَ» [السجدة: ٢٤] .
- * وصحة الاقتداء بالرسول لقاح الإخلاص ، فإذا اجتمعا أثمرا قبول العمل والاعتزاد به .
- * والعمل لقاح العلم ، فإذا اجتمعا كان الفلاح والسعادة ، وإن انفرد أحدهما عن الآخر لم يفده شيئاً .
- * والحلم لقاح العلم ، فإذا اجتمعا حصلت سيادة الدنيا والآخرة ، وحصل الانتفاع بعلم العالم ، وإن انفرد أحدهما عن صاحبه فات النفع والانتفاع .
- * والعزم لقاح البصيرة ، فإذا اجتمعا نال صاحبها خير الدنيا والآخرة ، وبلغت به همة من العلياء كل مكان . فتخلف الكمالات إما من عدم البصيرة ، وإما من عدم العزم .

* وحسنُ القصد لقاحٌ لصحةِ الذهن ، فإذا فقداً فُقدَ الخيرُ كُلُّهُ ، وإذا اجتمعاً أثروا أنواعَ الخيرات .

* وصحةُ الرأي لقاحٌ الشجاعة ، فإذا اجتمعاً كان النصرُ والظفر ، وإن فقداً فالخيانةُ والخيبة ، وإن وجد الرأي بلا شجاعة فالجبنُ والعجز ، وإن حصلت الشجاعة بلا رأي فالتهورُ والعَطَبُ .

* والصبرُ لقاحٌ البصيرة ، فإذا اجتمعاً فالخير في اجتماعهما . قال الحسن : إذا شئت أن ترى بصيراً لا صبر له رأيته ، وإذا شئت أن ترى صابراً لا بصيرة له رأيته ، فإذا رأيت صابراً بصيراً فذاك .

* والنصيحةُ لقاحُ العقل ، فكلما قويت النصيحة قوي العقل واستثار .

* والتذكرةُ والتفكيرُ كلُّ منهما لقاحُ الآخر ، إذا اجتمعاً أنتجا الزهدَ في الدنيا والرغبةَ في الآخرة .

* والتقوى لقاحُ التوكل ، فإذا اجتمعاً استقامَ القلب .

* ولقاحُ أخذِ أهبةِ الاستعدادِ للقاءِ قصرُ الأمل ، فإذا اجتمعاً فالخيرُ كُلُّهُ في اجتماعهما والشرُّ في فرقتهما .

* ولقاحُ الهمةِ العاليةِ النيةُ الصحيحة ، فإذا اجتمعاً بلغَ العبدُ غايةَ المراد » اهـ .

فالقضية إذا تَحَاجَّ إلى تلقيح .. أقصد قضيةَ السَّيِّرِ إلى اللهِ والوصولِ إليه .. نعم : الوصولُ يَحْتَاجُ إلى لقاحات .. وتعالوا الآن - إخوتي في الله - لنشَرَ في شرحِ أهمِّ هذه اللقاحات :

الأول : لِقَاءُ الْاسْتِعْدَادِ لِلقاءِ اللَّهِ قِصْرُ الْأَمْلِ :

قال ابن القيم : «ولقاح أخذ الأهمية الاستعداد للقاء قصر الأمل ، فإذا اجتمعوا فالخير كله في اجتماعهما والشر في فرقتهما».

وأساؤك : لو خيرت ، متى تحيط أن تموت؟ .. سؤال ينبغي أن يفرض نفسه عليك .. متى تحيط أن تموت؟ .. قال أحدهم : الآن ، فقلت له : أمتأهب؟! .. أخاف عليك؛ لأن الله يقول : «وَيَدَاكُمْ مِنْ أَنَّ اللَّهَ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ» [الزمر: ٤٧] .. وقال آخر : أخاف أن أقابله فأجدد أموراً لم أكن أتوقعها .. أشياء لم أضعها في حسباني .. لم أكن أنتظرها .. هناك قضايا ومشاكل تنتظرنـي سيرحـاسبـني الله عليها لا أعرفها .. ولذلك فـأنا خائف .

معاذ بن جبل لما جاءه الموت قال : «مزحـبا بالموت مـزحـبا ، زائر مـغـبـ وـحـبـ جاء على فـاقـة ، لا أـفـلـحـ من نـدـم» .. فـمعـاذ إـذـا مـتأـهـبـ وـمـسـتـعـدـ .

حديفـة بن الـيـمان لما جاءه الموت قال : «يا مـوتـ غـطـ عـطـلـك ، يا مـوتـ شـدـ شـدـك ، أـبـنـ قـلـبـي إـلا حـبـك» .. يـحبـ الموت لأنـه مـتـجهـزـ وـمـسـتـعـدـ ، فـهلـ أـنـتـ مـتـجهـزـ؟!! .. هلـ أـنـتـ مـسـتـعـدـ لـمـقـابـلـةـ اللـهـ الـآنـ؟!! .. «وَيَدَاكُمْ مِنْ أَنَّ اللَّهَ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ» [الزمر: ٤٧] .. «وَيَدَاكُمْ سـيـئـاتـ مـا كـسـبـوـ» [الزمر: ٤٨] .. وـجـدواـ المـكـسـبـ سـيـاثـ!

فلـقـاحـ أـخـذـ الـأـهـمـيـةـ أـنـ تـكـوـنـ سـائـرـاـ فـيـ الطـرـيـقـ إـلـىـ اللـهـ بـحـدـرـ وـتـيقـظـ ؛ فـتـخـشـيـ أـنـ يـاتـيـكـ الـمـوـتـ بـغـتـةـ .. فـعـشـ يـوـمـكـ الـذـيـ أـنـتـ فـيـ مـعـتـدـاـ

وَجَازَمَا أَنَّهُ آخِرُ يَوْمٍ لَكَ عَلَى الدُّنْيَا .. عَشُّ الدُّنْيَا كَمَا عَاشَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .. عَشُّ كَمَا عَاشَ وَمُمْتَ كَمَا مَاتَ .. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «مَالِي وَلِلْدُنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاقِبٌ أَسْتَظِلُّ بِظَلِّ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»^(١)؛ وَلَذِكَّ «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنْكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرٌ سَبِيلٌ» .. هَذَا شَعَارُهُ ﷺ . وَاعْلَمُ أَنَّ الْأَمَانَيْ بِحَرْ الْمَفَالِيس .. نَعَمْ : إِنَّ الَّذِي يَبْيَثُ ظَاهِنًا أَنَّهُ سَيَقُومُ غَدًّا .. طَوِيلُ الْأَمْلِ وَغَيْرُ مُسْتَعْدٌ لِلقاءِ اللَّهِ .. وَلَذِكَّ إِذَا قَصَرَ أَمْلُكَ فِي الدُّنْيَا فَقَدْ لَقُحْتَ اسْتَعْدَادَكَ لِلْمَوْتِ .. فَيَحْصُلُ الصَّدْقُ وَتَسْيِيرُ إِلَى اللَّهِ بِذَلِكَ .. بِهَذَا تَكُونُ مُسْتَعْدِدًا .

الثاني : لِقَاءُ الْهِمَةِ الْعَالِيَةِ النَّبِيَّ الصَّحِيحَةُ :

اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا عُلُوًّا الْهِمَةَ .. أَحَدُ إِخْرَانِا كَانَ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ ، ثُمَّ بَدَا فِي الصِّيفِ فِي دُورَةِ عِلْمِيَّةٍ فَالْتَّزَمَ فِيهَا ، وَفِجَأَةً تَرَكَ الدُّورَةَ .. قَالَ : لَقَدْ وَجَدْتُ أَنَّ الْإِهْتِمَامَ بِالدُّورَةِ قَدْ شَغَلَنِي عَنِ الْقُرْآنِ .. وَلِمَاذَا يَا بُنْيَتِي لَا يَكُونُ الْإِثْنَانِ مَعًا؟! .. أَيْنَ الْهِمَةُ الْعَالِيَةُ؟! .. أَنْتَ فِي الْكُلِّيَّةِ تَدْرِسُ سَتَّ مَوَادٍ أَوْ ثَمَانِيَّةَ فِي الْفَصْلِ الْوَاحِدِ ، وَتَذَاكِرُهَا جَمِيعًا؛ بَلْ وَتَحْصُلُ عَلَى امْتِيَازٍ .. لَمَاذَا لَا تَكُونُ هِمَتْنَا عَالِيَّةً أَيْضًا فِي طَلَبِ عِلْمِ الْكِتَابِ وَالسَّنَّةِ ، وَفِي الْعِبَادَةِ وَالدُّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ؟!!

ثُمَّ إِنَّ الْهِمَةَ الْعَالِيَةَ وَحْدَهَا لَا تَكْفِي؛ بَلْ كَثِيرًا مَا تَجْنِي عَلَى أَصْحَابِهَا فَتَجْرِيْهُمْ إِلَى التَّوْرَاءِ .. فَالَّذِي لَدِيهِ هِمَةٌ عَالِيَّةٌ بَدْوَنَ نِيَّةٍ صَالِحةٍ تَجْدِهُ مُبْتَلِيٌّ

(١) أَخْرَجَهُ : أَحْمَدُ ، وَصَحَّحَهُ الْأَلبَانِيُّ - رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي «الصَّحِيحَةِ» بِرُقْمِ (٤٣٨) .

بالعجب والغرور والرضا عن النفس، والكبير والازدراء للآخرين واحتقارهم .. إذا فلما حمَّهَا وزوجها : النية الصالحة .. اللهم ارزقنا حُسْنَ الْبَيْنَةِ ..

والهمة نعمة ، واستقلالك لنعم الله عليك يُسقطك من عين الله .. لذلك إذا رزقك الله همة عالية فلتحفظها بنية صالحة ؛ لحفظ النعمة وتستقيم على الطريق .

يقول ابن القيم : «ولما حمَّهَا النية الصالحة ، فإذا اجتمعوا بلغ العبد غاية المراد» .. أحسِّنْ نيتَك في همتَك تكون الهمة صالحة ؛ فتصل إلى الجنة العالية .

الثالث : التقوى لقاح التوكيل :

قال ابن القيم : «والتقوى لقاح التوكيل ، فإذا اجتمعوا استقام القلب» .

التقوى : ترك ما تهوى لما تخشى .. فالذى يمشي في الشارع فلا ينظر يمنة أو يسراً ، بل آخر حدود عينه خطوة أو خطوتان .. هذه تقوى ؛ لأنَّه سلك طريقة كلها أشواك ، فإذا نظر في أي اتجاه وجد بلوى ومصيبة ، ولذلك فهو دائمًا يمشي على الشوك بالتقوى .. فإذا وجد اثنين يتكلمان فلا يحاول أن يعرفَ فيهم يتكلمان .. فهذه تقوى .

قيل لأحدِهم : هل سلكت طريقةً ذا شوك؟ ، قال : نعم ، قيل : ماذا صنعت؟ ، قال : شمرت واجهدت ، قيل له : فتلك التقوى : التشميسير والاجتهد .. أن تعيش هذه الحياة ماشياً على الشوك ، فتكون شديد الحذر . ولما حمَّهَا وزوجها التوكيل .. أن تتوكل على الله وأنت تسير

على الشوك ، قال الله : «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسِيبٌ» [الطلاق : ٣] .

ويتحدث ابن القيم عن حقيقة التوكل في إحدى درجاته العالية فيقول :

«اعتماد القلب على الله ، واستناده إليه ، وسكونه إليه .

بحيث لا يبقى فيه اضطرابٌ من تشوش الأسباب ، ولا سكونٌ إليها ، بل يخلع السكون إليها من قلبه ، ويُلبِّسُه السكون إلى مسببها . **وعالمة هذا** : أنه لا يبالي بِاقبالِها وإدبارِها ، ولا يضطرب قلبه ولا يُحقق عند إدبار ما يُحب منها وإنما يُكره ؛ لأن اعتماده على الله ، وسكونه إليه ، واستناده إليه ، قد حصنَه من خوفها ورجائها ، فحاله حال من خرج عليه عدوٌ عظيم لا طاقة له به ، فرأى جسناً مفتوحاً ، فأدخله ربه إليه ، وأغلق عليه باب الحصن ، فهو يُشاهد عدوه خارج الحصن ؛ فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لا معنى له .

وقد مثل ذلك بحالِ الطفل الرضيع في اعتماده ، وسكونه ، وطمأنيته بثدي أمه لا يعرف غيره ، وليس في قلبه التفات إلى غيره ، كما قال بعض العارفين : **المتوكل كالطفل** ، لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه ، كذلك المتوكلا لا يأوي إلا إلى ربِّه سبحانه ^(١) .

إذا فلما نظرَ التقوى التوكلا ؛ فلابد للمتقي من صدق التوكل على الله وإلا فهي حذر مجردة دون نية صالحة ، فيقع في المحذور وهو أنقى ما يكون ، فتجد هذا المغبون الذي فقد التوكل مع التقوى رغم تحريمه

(١) تهذيب مدارج السالكين (٢/٥٤٠).

وشدة اتقائه يقع في كبائر يعافها الفساق .. ألم تر إلى مُصلٍ قوام صوام يأكل أموال الناس بالباطل !! .. وأمثال ذلك كثير لاعتماده على التقوى وعدم توكله على الله ؛ فلابد منهما معاً . فبهما معاً يكفيك الله ما أهملك من عقبات الطريق ، فيوصلك ويبلغك إليه .

الرابع : التذكرة والتفكير كلّ منها لقاح الآخر :

قال ابن القيم : «والذكرة والتفكير كلّ منها لقاح الآخر ، إذا اجتمعا أنتجا الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة» .

فالتفكير في مخلوقات الله مع الذكر زوجان لا يفترقان .. تأمل وقل : سبحان الله ! .. فإذا ذكرت الله تفكّرت ، وإذا تفكّرت ذكرت .. نعم : الذكر يصفي القلب ، فيجعله لا يمر على شيء إلا تعقله وتتأمل فيه .. وكذلك التفكير يقوّي القلب فيجعله دائمًا دومًا بذكر الله .. فاخضرن - أخي - على هذين اللقاحين في طريق السير إلى الله يزهداك في الدنيا ويرغباك في الآخرة ويساعداك كثيراً في الوصول إلى الله - تعالى .

الخامس : الصبر لقاح البصيرة :

قال ابن القيم : «الصبر لقاح البصيرة ، فإذا اجتمعا فالخير في اجتماعهما . قال الحسن : إن شئت أن ترى بصيرا لا صبر له رأيته ، وإذا شئت أن ترى صابرا لا بصيرة له رأيته ، وإذا شئت أن ترى صابرا بصيرا فذاك» .. فذاك الرجل .. اللهم اجعلنا من رجالك .

صبر مع بصيرة .. أن ترى الحق فتعرفه ، وترى الباطل فتعرفه .. أن تعرف الحق من الباطل وتصبر عليهم حتى تصل إلى الله - عز وجل .

السادس : العزيمة لقاح البصيرة :

يقول ابن القيم : «والعزيمة لقاح البصيرة ، فإذا اجتمعنا نال صاحبها خير الدنيا والآخرة ، وبلغت به همة العلية كل مكان . فتخلف الكمالات إما من عدم البصيرة وإما من عدم العزيمة » .

ال بصيرة : أن يرى قلبك الحق فيعرفه ، فإذا رأى الحق عزم عليه فعاش عليه ، ثم تحدث لك عزيمة ثانية على ترك الباطل فتبعد عنه .

السابع : حُسْنُ الظُّنُونَ بِاللَّهِ لِقَاحُ الافتقارِ والاضطرارِ إِلَيْهِ :

يقول ابن القيم : «وحسن الظن بالله لقاح الافتقار والاضطرار إليه ، فإذا اجتمعنا أثمنا إجابة الدعاء» .

حسن الظن .. وتأمل هذا الحديث : «إن رجلاً بعث فحوسب فشققت موازينه ، فقال الله : خذوه إلى النار ، فصار يلتقط ، فقال الله : رذوه ، فقال الله : عبدي ، هل وجدت سيدة في صحيفتك لم تعملها ، قال : لا يا رب ، قال : فما بالك تلتقط ، قال : ما هذا ظني فيك يا رب ، فقال الله : خذوه إلى الجنة» .. اللهم ارزقنا الجنـة .. لم يكن ظني بك يا رب أنك ستدخلـني النار ، بل كان ظني أنك سترـحـمنـي وـتـدخلـنـي الجنـة .. كان هذا ظني فيك يا رب .

قال الله - عز وجل - في الحديث القدسـي : «أنا عند ظن عبدي بي فليـظن عـبـدي ما شـاء»^(١) .. فـما ظـنـك بـالـلـهـ ، العـذـابـ أمـ الجـنـةـ؟.. اللـهـمـ

(١) أخرجه : أحمد (٣/٤٩١ ، ٤/١٠٦) ، والطبراني (٢٢/٨٧) ، وصححة الألباني - رحمة الله تعالى - في « صحيح الجامع الصغير » برقم (٤١٩٢) .

استرنا يا رب .. وإذا كنتَ تظن به خيراً فهل عملتَ خيراً؟! .. وهل تصلح وهل تستحق لأن يدخلك الجنة؟! .. اضدُّ مع الله يرحمك ويُثْجِك .

حاول أن تكون مُستحِقاً لأن يُحبِّك الله ، فاضبط نفسك على طاعته .. فحسنُ الظنِّ مع سوء العمل لا ينفع صاحبه ، فضلاً عن أنه سوء أدب مع الله ، قال الحسن : «إن قوماً غرّتهم الأمانة قالوا : نحن نُحسِّنُ الظنَّ بالله وكذبوا ، لو أحسنوا الظنَّ لأحسنوا العمل» .

فكيف تُحسِّنُ ظنَّك بالله وأنت تُحارِبُه ، وتعاديه بالمعاصي؟! .. كيف وأنت مُولَّه ظهرَك؟! .. كيف وأنت لا تَذَكُّرُه؟! .. كيف وأنت لا تقرأ كلامَه ولا تُفْدَّ أوامره وأحكامه؟! .. كيف وأنت لا تطيعه؟! .. كيف تُحسِّنُ الظنَّ بالله وأنت تفعلُ كُلَّ ما نهاك عنه؟! .. إن الأمر - إخواته - ليس لعيَا ؛ قال - تعالى - : «وَمَا هُوَ بِالْمُزَلِّ» [الطارق: ١٤] .

فأحسِّنُ الظنَّ بحقٍ ؛ فاعمل .. أحسِّنُ الظنَّ ؛ فحسنُ الظنِّ لقاحُ الافتقار والاضطرار . قال الله : «أَمَّنْ يُحِبِّبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ» [النحل: ٦٢] ..

يا رب ، ليس لي إلا أنت .. افتقارٌ واضطرار .. يا رب ، لو وَكَلْتُني إلى نفسي فسأُضَلَّ ، فلا تَكْلُنِي إلى نفسي طَرْفةَ عَيْنٍ أبداً ولا أقلَّ من ذلك .. خُذ بيدي يا رب .. لا تسلطُ عليَّ أعداءَك فأنا ضعيف .. لا تُسلِّمْنِي للعصاة والمذنبين فأنا مَفْتُونٌ وضعيف .. **يا رب!**

سيِّدُنا يُوسُفُ افتقرَ إلى ربه فقال : «وَلَا تَصْرِيفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَشَبُ
إِلَيْهِنَّ» [يوسف: ٣٣] .. فقل : يا رب .. قل : «أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانصِرْ» [القمر:
١٠] .. افتقرَ إلى الله في كلِّ شيء .. يا رب ؛ لا أعرفُ أصلَّى فعلَمني ..

يا رب ، القرآن ثقيلٌ علىٰ فَسَهَّلْهُ لِي .. يا رب ، لا أقوم الليل ولا أصلِي الفجر فبأي وجه أقابِلُك ، فخذْ بيدي .. يا رب ، المعاصي تملأ الأرض ، وكلما مَشَيْتُ وقعتُ ، فخذْ بيدي .. يا رب .. يا رب .. هذا هو حال المؤمن ، كمئَلِ رجلٍ في البحرين على خشبة يقول : يا رب .. يا رب ؛ فاللهُم سَلَّمْنَا وارضَ عَنَا .. اضطرارٌ وافتقار مع حسن ظنٍ أنه لن يُحِبَّ رجاءك فيه ؛ فياخذْ بذلك يدك ويبلغك المطلوب .

الثامن : الخشية لقاح المحبة :

قال ابن القيم : «والخشية لقاح المحبة ، فإذا اجتمعا ثمراً امثال الأومر واجتناب المناهي » .

قال سهل : خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة ، وهم الذين وصفهم الله - تعالى - ؛ إذ قال : «وَقُلُّهُمْ وَرِجْلُهُمْ» [المؤمنون : ٦٠] .

لما احتضر سفيان الثوري جعل يبكي ، فقيل له : يا أبا عبد الله ، عليك بالرجاء ؛ فإنَّ عفو الله أعظم من ذنبك ، فقال : أو على ذنبي أبكي ؟! ، لو علمت أنني أموت على التوحيد لم أباي بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا .

وقال ثابت البُناني : ما شربَ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ شراباً بعد المغفرة إلا ونصفه ممزوج بدموع عينيه .

وهذا الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : «لأنَّ دموع دموعه من خشية الله أحبُّ إلى من أنْ أتصدقَ بألف دينار» .

وقالت ابنة الربيع بن خثيم : «كنت أقول لأبي : يا أبا، ألا تنام؟! فيقول : يا بُنْيَة، كيف ينام من يخافُ الْبَيَات؟!

وقال الحسن - رحمه الله - : يحقّ لمن يعلم أن الموت موعده ، وأن الساعة موعده ، وأن القيام بين يدي الله - تعالى - مشهده أن يطوى حزنه .

قال يوسف بن أسباط : كان سفيان الثوري إذا أخذ في ذكر الآخرة يبول الدم^(١) .

وعن زيد بن أبي الزرقاء قال : حمل ماء سفيان إلى طبيب في علته ، فلما نظر قال : هذا ماء رجل قد أحرق الخوف جزفه^(٢) .
إخواته ، طوبى لقلوب ملائتها محبة الله فخافتة .

حكيم بن حزام سيد شعارة الحب .. كان يغسله يطوف بالبيت ويقول : لا إله إلا الله ، ينعم رب وينعم الإله ، أحبه وأخشاه^(٣) .

وقال هررم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربـه - عز وجلـ - أحبـه ، وإذا أحبـه أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهي تحسـره في الدنيا وترـوحـه في الآخرة .

(١) سير أعلام النبلاء ، للذهبي (٢٤٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٧٠).

(٣) استشاق نسم الأنس من نفحات رياض الفوز ، لابن رجب الحنبلي (١٢٩).

قال خليل العصري : يا إخواته : هل منكم من أحد لا يحب أن يلقني حبيبه؟! ، ألا فأجِبُوا رِبِّكم - عَزُّ وَجْلُ - وسيراوا إليه سيراً جميلاً ، لا مُصِعدًا ولا مُمِيلًا^(١).

ولله در القائل :

فاستجمعت مُدرَّاكَ القلبُ أهواي
وصبرت مولئي الورئي مُذْبَرَت مولاني
شغلاً بِحُبِّكَ يا ديني وذِيني

كانت لقلبي أهواه مفرقة
فصار يحسُدني مَنْ كنْتُ أحسُدُه
تركت للناسِ ذُنُبَاهُنَّ ولهم ذُنُوبُهُنَّ

وقال الشاعر :

بِحُبِّكَ أَنْ يَحْلِّ به سواكَا
فلم أنظر به حتى أراكَا
وإِنْ لَمْ يُبَقِّ حُبُّكَ لي جراكَا
وآخر يَدْعُعي معه اشتراكَا
وزَبَّيْ لَا يُقْرِّ لهم بذاكَا
تبَيَّنَ مَنْ بكى مَمَنْ تباكي
ويَنْطِقُ بالهوى مَنْ قَدْ تباكي

أروُحْ وقد ختمت على فؤادي
فلو أتني استطعت غضضُ طرفي
أُجِبُكَ لَا ببعضِي بل بِكُلِّي
وفي الأحبابِ مُخْتَصٌ بوجدي
وكلِّي يَدْعُعي حُبًا لربِّي
إذا اشتَبَثَ دُمُوعُ في حُدُودِ
فأَمَا مَنْ بكى فيذوبُ وَجْدًا

وقال مسمع بن عاصم : سمعت عابداً من أهل البحرين يقول في جوف الليل : قُرَّةً عيني وسروراً قلبي !! ، ما الذي أسلقني من عينيك يا مانع العَصَم .. ثم صرخ وبكى ، ثم نادى : طوبى لقلوب ملائتها خشيشك ،

(١) استنشاق نسيم الأنف من نفحات رياض القدس (١٤٧).

واستولت عليها محبتك ، فمحبتك مانعة لها من كل لذة غير مناجاتك والاجتهاد في خدمتك ، وخشيتك قاطعة لها عن سبيل كل معصية خوفاً لحلول سخطك . ثم بكى وقال : يا إخوته ، ابكوا على فوت خير الآخرة ؛ حيث لا رجعة ولا حيلة .

وعتبة الغلام القائل : ثُرَاكَ مولايَ تَعْذِبْ مَحِبِّيْكَ وَأَنْتَ الْحَمِيْرُ الْكَرِيمُ :

«قال عنه سليم التحيف : رممت عتبة ذات ليلة ، فما زاد ليته تلك على هذه الكلمات : إن تعذبني فإني لك محب ، وإن ترحمني فإني لك محب . فلم يزل يرددتها ويبكي حتى طلع الفجر .

وقال عتبة الخواص : بات عندي عتبة الغلام ذات ليلة ، فبكى من السحر بكاء شديداً ، فلما أصبح قلت له : قد فرعت قلبي الليلة بيكانك ، ففيم ذاك يا أخي ؟ قال : يا عتبة ، إني والله ذكرت يوم العرض على الله . ثم مال ليسقط فاحتضنته . . . فناديته : عتبة عتبة ، فأجابني بصوت حفي : قطع ذكر يوم العرض على الله أوصال المحبين . قال : ويردده ، ثم جعل يحشرج البكاء ويردده حشرجة الموت ويقول : ثراك مولاي تعذب محبيك وأنت الحميـر الكـريم ؟ ! قال : فلم يزل يرددها حتى والله أبكاني .

وقال عتبة - رحمه الله - : من سكن حبه قلبه لم يجد حررا ولا بردًا . قال عبد الرحيم بن يحيى الدبيلي : يعني من سكن حب الله قلبه ، شغله حتى لا يعرف الحر من البرد ، ولا الحلو من الحامض ، ولا الحار من البارد .
وقال عتبة - رحمه الله - : من عرف الله أحبه ، ومن أحب الله

أطاعه ، ومن أطاع الله أكرمه ، ومن أكرمه أسكنه في جواره ، ومن أسكنه في جواره فطوباه وطوباه ، وطوباه وطوباه . فلم يزل يقول : وطوباه حتى خر ساقطاً مغشياً عليه »^(١)

والخلاصة : لفخ الحُبْ بالخشية . . تَقُولُ عَلَى طَرِيقِ السَّيِّرِ إِلَى اللَّهِ .

النَّاسُ : الصَّبْرُ لِقَاحُ الْيَقِينِ :

أنا على يقين بأن الله سينصر أمة محمد ﷺ ، فهل أنت على يقين؟ .. يأتي اليقين بالصبر ، قال - تعالى - : «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيُّمَّةً يَهْدِنُونَ يَأْتِيَنَا لَمَّا صَرَبُوا وَكَانُوا يَتَابُونَ يُوقِنُونَ» [السجدة: ٢٤] .. بالصبر واليقين تبلغ الإمامة في الدين .

الصبر على البلاء .. والصبر عن المعصية .. والصبر على الطاعة ..
الصبر مع الله وبالله ولله .. الصبر لقاح اليقين .. فاصبروا - إخواته -
صبراً جميلاً .

علماء اليقين :

قال الفيروزآبادی : ثلاثة من أعلام اليقين :

١- قلة مخالطة الناس في العشرة .

٢- ترك المدح لهم في العطية .

٣- الترثة عن ذمهم عند المئع .

(١) حلية الأولياء ، للأصبhani (٦ / ٢٣٤ - ٢٣٦).

وَمِنْ عَلَامَاتِهِ أَيْضًا :

الثُّرُطُ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَالرُّجُوعُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ، وَالاسْتِغْاثَةُ بِهِ فِي كُلِّ حَالٍ^(١).

العاشر : صحة الاقتداء بالرسول ﷺ لقاح الإخلاص :

صحة الاقتداء بالرسول ﷺ تُورِثُ الإخلاص ، فإذا اجتمعنا أنتما قبول العمل وجوده أثره .

شروط قبول العمل شرطان : الإخلاص والمتابعة .. فإذا لم تكن مخلصاً فأكثـر من أعمالـي السـنة يأتـيك الإخلاص . وإذا كنت لا تعمل .. إذا كنت بطـيـلاً وضـعـيفـاً وحـامـلاً ؟ فأكـثـر من الإخلاص يـضـعـفـك اللـهـ في الخـدـمةـ فـتـكـونـ من خـدـامـهـ .. إـذـا فـلـابـدـ من وجودـ أحدـ الشـرـطـينـ لـديـكـ ليـتـوفـرـ الآـخـرـ .. وـأـهـ مـنـ فـقـدـ الشـرـطـينـ !! .. كـيفـ يـكـونـ حالـهـ ؟! .. وـمـاـذاـ يـصـنـعـ؟! .. نـيـسـ لـهـ إـلـاـ أـنـ يـقـولـ : يـاـ ربـ .

كـنـتـ قـوـرـ لـأـوـلـادـيـ صـغـارـ مـرـةـ : لوـ أـخـلـصـ الـواـحـدـ مـيـاـ أـثـمـ ذـلـكـ مـتـابـعـةـ النـبـيـ ﷺـ ، أـمـ لـوـ تـابـعـ النـبـيـ ﷺـ أـثـمـ الإـخـلـاصـ؟ .. هـذـهـ هـيـ قـضـيـةـ «ـبـيـضـةـ أـمـ فـرـخـةـ؟» .. الـاثـنـانـ مـعـاـ .. يـجـلـبـ أـحـدـهـمـاـ الآـخـرـ .. هـذـاـ هوـ الـلـقـاحـ .. فـلـوـ كـنـتـ مـخلـصـاـ فـلـابـدـ أـنـ تـكـوـنـ حـالـكـ مـتـابـعـةـ النـبـيـ ﷺـ ، وـلـوـ كـنـتـ مـئـيـعـاـ فـلـابـدـ أـنـ تـكـوـنـ حـالـكـ الإـخـلـاصـ .

(١) بصائر ذوي التمييز في تفسير الكتاب العزيز (٣٩٧/٥) عن «موسوعة نصرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ» (٣٧١٩/٨).

وثرمة الإخلاص والمتابعة قبول العمل وجود ثمرة العمل .. أن تجد نتيجة العمل .. فلو كنت مخلصاً متيعاً وخرجت إلى الشارع لا تنظر إلى البناء مطلقاً .. هذه نتيجة وثمرة العمل الصالح .. أنك لا تعصي .. لو كنت مخلصاً ومتيعاً لوجدت أنك تستيقظ قبل الفجر تتضرر الصلاة فتجلس حاضر القلب .. ثمرة ونتيجة .. فتجد من نفسك إخباراً وخشية في قلبك .

قال العلماء: «بين العمل وبين القلب مسافة، وبين القلب وبين الربيبة، وبين تلك المسافات قطاع طرق» .. فترى الرجل كثير الصلاة، كثير الصيام، كثير ذكر الله وقراءة القرآن ولم يصل إلى قلبه من ذلك شيء .. نعم: قطاع طرق قطعوا الطريق عليه .. لكن لو عمل بإخلاص ومتابعة فلابد أن يصل إلى القلب أثر العمل .

الحادي عشر: العمل لقاح العلم :

العلم والعمل وجهان لعملية واحدة، وزوجان لا ينفصلان في الأصل؛ ولذلك إذا اجتمعا كان الفلاح والسعادة .. فإذا تعلمت ولم تعمل كُنت مُنايقاً، وإذا عملت بدون علم كُنت مُبتدعاً .. والذى يعلم ولا يعمل فيه شبهة من المغضوب عليهم اليهود، والذى يعمل بدون علم فيه شبهة من الضاللين النصارى .. إذا فلابد أن يقترب العلم بالعمل .. قال الإمام علي رضي الله عنه: «العلم يهتف بالعمل؛ فإن أجبه وإن ارتحل» .. فاعمل بما علمت تردد على ما وتلقى وخشية .. لقح العلم بالعمل .

قال الإمام الشاطبي - رحمه الله تعالى - في «الموافقات»^(١) : «كُلُّ مسأله لا يئني عليها عمَّل فالخوض فيها خُوضٌ فيما لم يَدُلْ على استِحسانه دليلٌ شرعيٌّ، وأعني بالعمل عمل القلب وعمَّل الجوارح من حيث هو مطلوبٌ شرعاً». . . ويبين بِكَلَّتِهِ أن الدليل على ذلك استقراء الشريعة، فيذكر جملة من الآيات والأحاديث الدالة على أن الشارع يُعرض عما لا يفيد عملاً مُكْلِفاً به.

ومن هذه الأدلة باختصار : قوله - تعالى - : «يَسْأُونَكُمْ عَنِ الْأَهْلَةِ فَلْ هُنَّ مَوْقِيْتُ لِلنَّاسِ وَالْعَجَّ» [البقرة: ١٨٩]، فوقع الجواب بما يتعلّق به العمل؛ إعراضًا عما قصده من السؤال عن الهلال : لِمَ يبدو في أول الشهر دقيقاً كالخيط ، ثم يمتليء ، ثم يصير بدرًا ثم يعود إلى حالته الأولى .

وقال - تعالى - بعد سؤالهم عن الساعة : «فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا» [الازمات: ٤٣]؛ أي : إن هذا سؤالٌ عما لا يعني؛ إذ يكفي من علمها أنه لابد منها؛ ولذلك لما سُئل بِكَلَّتِهِ عن الساعة قال للسائل : «ما أعددت لها»؛ إعراضًا عن صريح سؤاله ، إلى ما يتعلّق به مما فيه فائدة ، ولم يجنبه عما سأله .

وقد كان مالك بن أنس يكره الكلام فيما ليس تحته عمل ، ويحكي كراهيته عمن تقدّم .

ويؤكّد الإمام الشاطبي بِكَلَّتِهِ على أن كُلَّ علم طلب الشارع له ؛ إنما

(١) المowaqtat (٤٦/١ - ٩٣ ، ٣١٩/٣ ، ٣٢١) باختصار شديد .

يكون حيث هو وسيلة إلى التعبد به إلى الله .. قال - تعالى - : «وَلَئِنْهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمَنَاهُ» [يوسف: ٦٨] ، قال قتادة : يعني لذو عمل بما علمناه . وروي عن أبي جعفر محمد بن علي في قول الله - تعالى - : «فَكُنْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاؤُونَ» [الشعراء: ٩٤] ؛ قال : قوماً وصفوا الحق والعدل بالستتهم وخالفوه إلى غيره .

وعن أبي الدرداء : إنما أخاف أن يقال يوم القيمة : أعلمت أم جهلت ؟ ، فأقول : علمت ؛ فلا تبقى آية من كتاب الله آمرة أو زاجرة إلا جاءتني تسألني فريضتها ؛ فتسألني الآمرة : هل اثمرت ؟ ، والزاجرة : هل ازدجرت ؟ ؛ فأعود بالله من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشى ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعاء لا يسمع .

وذكر مالك أنه بَلَغَهُ عن القاسم بن محمد قال : أدرك الناس وما يعجبهم القول ؛ إنما يعجبهم العمل .

ويواصل الشاطبي حديثه قائلاً :

والأدلة على هذا المعنى أكثر من أن تُخْصَى . وكل ذلك يتحقق أن العلم وسيلة من الوسائل ، ليس مقصوداً لذاته من حيث النظر الشرعي ؛ وإنما هو وسيلة إلى العمل . وكل ما ورد في فضل العلم فإنما هو ثابت للعلم من جهة ما يتوسل به إليه ، وهو العمل .

وإنما يكون العلم باعثاً على العمل إذا صار للنفس وضعاً وحُلْقاً .. وهنا ينصح الشاطبي بكتبة المشتغلين بالعلم ، والذين لم يصلوا بعد إلى

مرتبة الذين صار العلم لنفسهم وضفأ وخلفاً، بعدم ترك العلم لعدم عملهم به بداية أو لسوء نيتها؛ عليهم بمواصلة الطلب؛ فإنه سيلجئهم حثماً إلى العمل.

يقول تَعَالَى: «على أن المثابرة على طلب العلم والتفكر فيه، وعدم الاجتزاء باليسير منه؛ يُجرِّ إلى العمل به، ويُلْجِئ إلىه، وهو معنى قول الحسن: كُنَا نَطْلَبُ الْعِلْمَ لِلْدُنْيَا فَجَرَنَا إِلَى الْآخِرَةِ». وعن حبيب بن أبي ثابت: طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نية، ثم جاءت النية بعده. وعن أبي الوليد الطيالسي قال: سمعت ابن عبيدة منذ أكثر من ستين سنة يقول: طلبنا هذا الحديث لغير الله فأعقبنا الله ما ترون».

وإذا كان إلقاء العلم العمل به، وأن زكاة العلم العمل.. هذا في حق كل الناس، فهم مكلفوون بالعمل.. إذا كان ذلك فالعمل في حق من هم مظللة الاقتداء بهم أخرى وأولئك.

وفي نهاية هذا البحث الماتع يقول الشاطبي - رحمه الله - : «فالحاصل

أن الأفعال أقوى في التأسي والبيان إذا جامعت الأقوال، من انفراد الأقوال، فاعتبارها في نفسها لمن قام في مقام الاقتداء أكيد لازم؛ بل يقال: إذا اعتبر هذا المعنى في كل من هو مظنة الاقتداء ومتزلة التبيين؛ ففرض عليه تقدُّم جميع أقواله وأعماله. ولا فرق في هذا بين ما هو واجب وما هو مندوب أو مباح أو مكروه أو مننوع. وهذا البيان الشافي المخرج عن الأطراف والانحرافات هو الراد إلى الصراط المستقيم» اهـ.

الثاني عشر : الحلم يقاح العمل : الحلم أن تكون حليما في شرع الله، وحليما مع خلق الله.

الحلم في شرع الله : أن تشفق على العصاة والمذنبين وتنظر إليهم بعين الرحمة والعطف .. تحملهم وتحاول أن تأخذ بأيديهم لتنقذهم من الغرق ، لتدفعهم إلى طريق الله .. تبذل نفسك لتنرشحهم من نيران المعاصي المحرقة .. ويساعدك تذكر حالك قبل ، وأن الله من عليك ونجاك .. وقد يدعا قالوا : لا يصحح في وجه العاصي إلا عالم .. نعم : كلما ازداد الإنسان علما ازداد حلما .

قال متصور بن محمد الكريزي :

سألهُمْ نفسي الصفع عن كُلِّ مذنب وإن كثُرَتْ مِنْهُ إِلَيْيَ الْجَرَائِمِ
فَمَا النَّاسُ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ ثَلَاثَةِ شَرِيفٍ وَمَشْرُوفٍ وَمِثْلٍ مُقَارِبٍ
وَالْحَلْمُ يُبَذِّلُ الْعَدَاوَةَ مَخْبَثَةً ؛ قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : «أَذْفَقْتَ يَالِيَ هَيَّ
أَخْسَنَنَ فَإِذَا أَلَّوْيَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَدَاوَةً كَافِرُهُ رَبِّهُ حَبِيبٌ ﴿٤٠﴾ وَمَا يَلْقَهُمَا إِلَّا أَلَّيْهِنَ
صَبَرُوا وَمَا يَلْقَهُمَا إِلَّا ذُرُّ حَظْنَ عَظِيمٍ» [صلت: ٣٥-٣٤] .. وفي ذلك يقول
معين بن أوس المزنئ^(١) :

فَأَبْرَأَتِ غَلَّ الصُّدَرِ مِنْ تَوْسُعِها
وَأَطْفَأَتِ نَازَ الْخَزِيرِ بَيْنِ وَبَيْنِهِ

(١) الحلم لابن أبي الدنيا (٤٣).

إخوته ، الحلم طريق العمل .. فإذا كنت لا تعمل فلن حلينا يأتوك العمل .. كن حليما يحبك الله ؛ قال رسول الله ﷺ : لأشجع عبد القىئس : « إِنَّ فِيكَ حَضْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ : الْحَلْمُ وَالْأَنَاءُ »^(١) .

وقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفِيقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ »^(٢) .

وقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفِيقَ ، وَيُغْنِي عَلَى الرَّفِيقِ مَا لَا يُغْنِي عَلَى الْعَنْفِ وَمَا لَا يُغْنِي عَلَى مَا سِوَاهُ »^(٣) .

وقال رسول الله ﷺ : « أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِمَا يَخْرُمُ عَلَى النَّارِ - أَوْ بِمَا تَخْرُمُ عَلَيْهِ النَّارِ؟ - تَخْرُمُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيْنَ لَيْنَ سَهْلٍ »^(٤) .

أخي في الله ، حبيبي في الله ، كن حليما مع خلق الله ، واقتدي بنبيك ﷺ وصحابته الأكرمين وسلفيك الصالحين .

عن أنس بن مالك قال : كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بزد نجراني غليظُ الحاشية ، فأدركه أعرابي ، فتجذبه برداهه جذبة شديدة ، فنظرت إلى صفةٍ عُنْقِ رسول الله ﷺ وقد أثر بها حاشية الرداء من شدة جذبته ، ثم قال : يا محمد ، مُزْ لِي ، فالتفت إليه فضحك ، ثم أمر له بعظامه^(٥) .

(١) أخرجه : مسلم (١٧).

(٢) أخرجه : البخاري (٦٩٢٧).

(٣) أخرجه : مسلم (٢٥٩٣).

(٤) أخرجه : الترمذى (٢٤٨٨) وقال : حديث حسن غريب ، وقال الألبانى : صحيح .

(٥) متفق عليه : البخاري (٥٨٠٩) ، ومسلم (١٠٥٧).

وَشَتَّمْ رَجُلٌ أَبَا ذُرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ لَهُ : يَا هَذَا لَا تَسْتَغْرِفُ فِي شَتِّيْنَا ، وَدَعْ لِلصَّلَحِ مَؤْسِيْعًا .. فَإِنَّا لَا نَكَافِيْ مَنْ عَصَيَ اللَّهَ فِيْنَا بِأَكْبَرٍ مِنْ أَنْ تُطِيعَ اللَّهَ فِيْهِ .

وَكَانَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - صَانِيْةً فَأَمْرَثَ جَارِيَّهَا بِرِيزَةً أَنْ تَصْنَعَ لَهَا طَعَامًا ، لِتُقْتَطِرَ بِهِ ، فَتَشَاغَلَتْ عَنِ ذَلِكَ حَتَّى مَضَى النَّهَارُ ، وَجَاءَ الْمَغْرِبُ ، فَلَمْ تَجِدْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ طَعَامًا ، فَالْتَّفَتَ إِلَيْهَا وَقَالَتْ وَهِيَ تَكْتُمُ غَيْظَهَا : «إِلَهَ ذُرُّ التَّقْوَى لَمْ تَدْعُ لِذِي غَيْظٍ شَفَاءً» .

وَقَيلَ لِلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ : مَنْ أَيْنَ تَعْلَمَ الْجَلْمَ ؟ ، فَقَالَ : مَنْ قَيْسٍ ابْنُ عَاصِمٍ . قَيْلٌ : وَمَا بَلَغَ حَلْمُهُ ؟ ، قَالٌ : بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي دَارِهِ ، إِذْ أَتَتْهُ جَارِيَّةٌ لَهُ يَسْقُدُهُ عَلَيْهِ شَيْوَاءً ، فَسَقَطَ مِنْ يَدِهَا ، فَوَقَعَ عَلَى ابْنِ لَهٖ صَغِيرٍ فَمَاتَ ، فَدُعِيَتِ الْجَارِيَّةُ ، فَقَالَ لَهَا : لَا رَوْعَ عَلَيْكِ ؛ أَنْتِ حَرَّةٌ لِوَجْهِ اللَّهِ - تَعَالَى » ^(١) .

وَقَيلَ : إِنَّ أُوْنِسًا الْقَرَنِيَّ كَانَ إِذَا رَأَاهُ الصُّبَيْبَانُ يَرْمُونُهُ بِالْحَجَارَةِ ، فَكَانَ يَقُولُ لَهُمْ : يَا إِخْوَتَا، إِنْ كَانَ وَلَابِدُ فَأَرْمُونِي بِالصَّعْدَارِ ؛ حَتَّى لَا تُدْمِنُوا سَاقِيَ ، فَتَمْنَعُونِي عَنِ الصَّلَاةِ» ^(١) .

وَكَانَ لِيَخْمَنَيْ بْنَ زِيَادَ الْحَارَثِيَّ غَلَامٌ سُوءٌ ، فَقَيْلٌ لَهُ : لَمْ تُمْسِكْهُ ؟ ! ؛ فَقَالٌ : لَا تَعْلَمُ الْجَلْمَ عَلَيْهِ» ^(١) .

وَكَانَ لِمَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قِطْعَةُ أَرْضٍ وَيَجْوَارُهَا أُخْرَى لَعَبِدِ اللَّهِ بْنِ الرَّبِّيْرِ ﴿ كَانَ يَجْلِسُ فِيهَا هُوَ وَأَهْلُهُ .. فَكَانَ عَمَالُ مَعَاوِيَةَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِ ..

فكتب إلى معاوية يقول : يا ابن آكلة الأكباد ، امنع عمالك عنِي ؛ وإلا كان لي ولَكَ شأن .. والسلام .

فلما وقف معاوية على الكتاب دفعه لولده يزيد وقال له : ما ترى ؟ قال : أرى أن تبعث إليه جيشاً يكون أوله عندَه وأخره عندك يأتونك برأسه . فقال له معاوية : غير هذا خير . ثم قلب الكتاب وكتب على ظهرِه : أما بعد : فقد وقفت على كتابك يا ابن حواري رسول الله ﷺ ، ويا ابن ذات النطاقين ، وسأعني ما سألك .. ووالله لو كانت الدنيا بأسرها بيُنني وبينك لأنثىك بها .. وقد نَزَلت عن أرضي لك ، فأضيفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال .. والسلام .

فلما قرأها ابن الزبير رضي الله عنهما بكى .. وكتب إليه : قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه ، ولا أغدرمه الرأي الذي أحله من قريش هذا المَحَل .. والسلام .

فلما وقف معاوية عليه تهلل وجهه وأشفق ، وقال لابنه : يا بُنْيَ ، من عفا ساد ، ومن حلم عظم ، ومن تجاوز استمال إليه القلوب .. فإذا ابْتَلَيْت بشيء من هذه الأمور فدَّاوه بمثل هذا الدُّواء .

نعم - إخواته - : وصل هؤلاء إلى الله - تعالى - بترويض أنفسهم على طاعته ولذوم أوامره واجتناب نواهيه .. وهذا أيضاً من الحلم في شرع الله .. قال - جل جلاله - : «فاصنِع الصَّفْحَ الْجَيْلَ» [الحجر: ٨٥] ، وقال - جل جلاله - : «وَلَيَعْقُرُوا وَلَيَصْفَحُوا لَا يُجْبِونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ» [النور: ٤٤] ، والعفو : ترك المؤاخذة على الذنب ، والصفح : ترك التأني

عنه . وقال - جَلَّ جَلَالُهُ - : «وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ
الْمُخَيْبِينَ» [آل عمران: ١٣٤] ، وقال - عَزُّ وَجَلُّ - : «وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ لِنَّ
ذَلِكَ لَمَنْ عَزَّزَ الْأَمْوَارَ» [الشُّورى: ٤٣] .

والخلاصة : لَفْحُ الْعَمَلِ بِالْحَلْمِ .

وبعد - إخواته - : فهذه لِقَاحاتٌ على الطريق .. لِقَاحاتٌ على طريق
السير والوصول إلى الله ، تُقوِّيك وتُهْبِئ لك أسباب الوصول .. فاللزم كلَّ
زوج من هذه الْلِقَاحات تَجِنِّ ثِمَازَ خَيْرٍ كُلُّ منهما ؛ لقطع الطريق بقوَّة
وسرعة وسُهولة .. وتذكَّر دائمًا قولَ الله - تعالى - : «وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ
خَلَقْنَا زَوْجِينِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَإِنْ رُوَيْدُوا إِلَى اللَّهِ» .. فَإِنْ رُوَيْدُوا إِلَى اللَّهِ .. الْجَاءُ
إِلَى اللَّهِ ، واعتمَدْ عليه ، واستعنَ به .. وانطَلَقَ .



الأصل الحادي والعشرون

مَنْ صَفِّيَ صَفِّيٌ لَهُ، وَمَنْ كَدَرَ كَدَرٌ عَلَيْهِ

اللهم إنا نسألك أن تُصْفِّي لنا أعمالنا من الكدر ، وقلوبنا من الراء ، وأغينتنا من الخيانة ، وألسنتنا من الكذب .. اللهم إنا نسألك أن تُصْفِّي لنا حياتنا لتكون خالصة لك .. من صَفَّي صَفِّيٌ لَهُ، وَمَنْ كَدَرَ كَدَرٌ عَلَيْهِ . أيها الأخ الكريم ، اسمح لي أن أقول لك : إن العلاقة مع الله علاقة ذات حساسية بالغة .. وبعض الشباب لا يلتقي تلك العلاقة ، فتراه يتلزم - اللهم ارزق شبابنا الالتزام ، اللهم ثبّتهم على الإيمان ، اللهم تجّهم من الفتنة ما ظهر منها وما بطن - وبيداً الطريق ؛ ومع ذلك لا يزال يتلاؤن ، لا يزال تافهًا وفارغاً ، لا يزال ماء قلبه مُعَكَرًا .. تراه يُمْكِرُ بالله .. يحاول أن يخدع الله .. وإنما أتني هذا المسكين من جهله ؛ لأنه لم يعرف الله .

لقد كنت على المنبر فأخرجت جنبياً وقلت : هل رأيتم هذا الجنـيه؟! .. إن الذي أعطاني هذا الجنـيه رجل «بقال» .. والجنـيه مكتوب عليه بخط واضح : «حبيـتي الغـالية ، كل عام وأنت بـخير ، أحـب أن أعيـرـ لكـ عـماـ فيـ دـاخـلي .. وـالـلـهـ ياـ حـبـيـتيـ لـوـلاـ خـوـفـيـ مـنـ اللـهـ ، وـأـتـيـ أـعـبـدـهـ ، لـعـبـدـتـكـ أـنـتـ ياـ حـبـيـتي .. حـبـيـكـ فـلـانـ» .. البعض يضحك من هذا ، ووالله إنه لأمر يوجع القلب .

إن هذا الولد من الممكن أن يكون مؤمناً ، بدليل أن أول كلمة قالها :

لولا خوفي من الله .. هذا الكلام قد يقوله البعض ؛ ولكن الحقيقة أن هذا الولد لو كان خائفاً من الله ما قال هذا الكلام بداية .. نعم : هو جاهلٌ غير خائف ، أخرج ما بداخله وأظهره . وما أكثر من بداخلهم مثلُ هذا الشاب وأكثر ، ولكنهم لا يقولون بالستهم ؛ لأنهم كذابون ، يخادعون الله .

قال البَالِ كَلْمَةً جَمِيلَةً جَدًا : «انظر! .. الولد يقول لها : أعبدك ،

وهي باعثه وصرفت الجنـيه!! .. باعثه وتركته رغم أنه يعبدها!!

الجهل يا شباب يفعل أكثر من هذا .. فهؤلاء الشباب المساكين في جهل مُطِيق بالعقائد .. بالدين .. بالفقـه .. فهذا الولد جاـهـل وذنب أبيه وأمه مثل ذنبه تماماً؛ لأنهما لم يعرفـاه بالدين ، ولو كان يعرف الله لما قال هذا الكلام . فلا تمكر بالله ، ولا تبع الله مثل هذا الشاب ، وثبت إلى الله واضدـفـه ..

ولذلك عندما أقول لك : ثبت ، فتقول : ثبت من كل شيء ؟ فأنت إذا كذاب .. حدد من أي شيء ثبت .. ثبت من ماذا ؟ ، فذنوبك كثيرة؟! .. ينبغي أن تسمـي الأشيـاء بـمـسـمـيـاتـها لتـكونـ واـضـحـاـ .. تعـاملـ معـ الله بـصـراـحةـ وإـيـاكـ أـنـ تـخـادـعـ أوـ تـنـكـرـ .

أخي في الله ، إذا التزمت فتصف .. صفت .. لابد أن نصفـيـ أعمالـنا معـ الشـيـطـانـ .. نـصـفـيـ حـسـابـاتـنا معـ النـفـسـ والـهـوـيـ .. لـابـدـ أنـ نـبـداـ في تـصـفـيـةـ أحـوالـناـ معـ الشـهـوـاتـ ، ليـبقـىـ حـيـاتـناـ صـافـيـةـ تمامـاـ للـهـ وـحـدهـ .

بعضـ الشـابـ يـنظـرـ إـلـىـ النـسـاءـ المـتـبرـجـاتـ ، فـهـلـ هـذـاـ يـصـفـيـ أمـ يـكـدـرـ؟ .. يـقـولـ : أـشـعـرـ بـقـسـوةـ فـيـ قـلـبـيـ لـأـعـرـفـ لـمـاـذـاـ! .. عـجـيبـ أـمـرـكـ! .. أـنـفـكـرـ؟! .. أـنـتـ تـعـرـفـ مـاـ سـبـبـ هـذـهـ القـسـوةـ .. فـحـيـنـماـ تـكـدـرـ يـكـدـرـ عـلـيـكـ .

والعلماء يستدلون على هذا الأصل : «من صفتني صفتني له ، ومن كدر كدر عليه» بقول الله - تعالى - : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشَرُّبُونَ مِنْ كَأسٍ كَانَ مِزاجُهَا كَافُورًا ﴾^٥ عيناً يتربّث بها عباد الله ﴿الإِنْسَانُ: ٦٥﴾ . عيناً يشرب بها من؟ «عباد الله» . . فهم أبرار ، عباد لله أولًا ، ولذلك استحقوا النعيم والتكريم .

قال العلماء : الناسُ ثلَاثَ درجاتٍ : الدرجة الأولى : أصحاب الشمال - نعموذ بالله منهم - وهؤلاء هم أهل النار ، وإن كانوا في النهاية سيدخلون الجنة . والدرجة الثانية : الأبرار ، وهم من أهل الجنة ، والثالثة : المقربون وهم أفضل وأعلى من الأبرار .

إذا فأهل الجنة درجتان : أبرار ومقربون؛ ولذلك يقول ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦] ، وفي قوله : ﴿وَمَنْ دُونِيهِمَا جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٦٢]؛ جتنان من ذهب للمقربين ، وجتنان من ورق (فضة) لأصحاب اليمين . وفي هؤلاء جميعاً يقول الله ﴿فَاصْحَّبُ الْيَمِينَ مَا أَنْحَبْتُ الْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ١١] ﴿وَاصْحَّبُ الْمُتَّقِينَ مَا أَنْحَبْتُ الْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٨] ﴿أُذْنِكَ الْمُقْرِبُونَ﴾ [الواقعة: ١١] .

أصحاب اليمين والسابقون أو الأبرار والمقربون . . درجتان : ممتازة وعادية . . فأيُّ الدرجتين تفضل؟!؛ ولذلك فإنَّ الناسَ الأبرارَ يقول الله فيهم : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشَرُّبُونَ مِنْ كَأسٍ كَانَ مِزاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥] . . مزاجها أي ممزوجة . . أي إنهم سيشربون ماءً كافوراً . . «مزاجها كافوراً»؛ أي : رائحتها كافور . . أما عباد الله المقربون فسيشربون كافوراً خالصاً ، كافوراً صافياً . . لأنهم صافوا . . ومن صفتني صفتني له ، ومن كدر كدر عليه .

لقد كنت أقول لأولادي - اللهم أصلح أولادي وأولاد المسلمين ، اللهم رب لنا أولادنا ، اللهم احفظ أولادنا ونجهم من الفتنة ما ظهر منها وما بطن - كنت أقول لهم عندما وجدت فيهم بعض الفتور وعدم الصفاء : أنتم لستم جهالاً .. تعرفون فضل قيام الليل ، وتعارفون فضل صلاة التوافل ، وفضل الذكر ، وفضل الصدقة .. وتعارفون وتعرفون .. فلماذا إذا لا تعملون؟! .. لماذا أنتم كُسالي؟! .. قلت لهم وأقول لكم أيضا لأنكم أيضا أولادي : تعرفون ما السبب؟! .. السبب أنكم لم تتصوروا الجنة كما ينبغي .

وقلت لبنيتي : أنت لو مت الآن هل ستكونين مع السيدة فاطمة أو عائشة حبيبة النبي ﷺ في الجنة؟! .. إذا ما فائدة الجنة إذا لم تكوني مع هؤلاء!!

إن بعض الناس في الجنة - اللهم ارزقنا الجنة يا رب - ينظر إلى وجه ربه بكرة وعشية ، وبعض الناس لا يرى الله إلا كل جمعة .. كل أسبوع مرة .. فماذا تنوين أنت؟! .. هل تحب أن ترى الله مرتين في الأسبوع أم مرة كل يوم؟! .. إذا كنا في الدنيا نتمنى أن نأتي إلى درس العلم كل يوم ، فما بالنا في الجنة برؤية الملك !!

إخواته ، لو أنكم كتم في الجنة ، وحرمت أنت من النظر إلى وجه الله الكريم كل يوم ، ولم تتمتع برؤيته كما يتمتع أهل الفردوس ، فكيف تتصور حالك؟! .. نعم : ستكون سعيدا في الجنة ولكن ليس كسعادة أهل الفردوس .. هذ هي القضية .. أن تفكّر في حالتك ، وهل أنت صاف مع الله أم لا؟! .. هل لو مت اليوم ستكون مع النبي محمد ﷺ؟! ..

أجب !! .. إذا فاعمل للفردوس الأعلى .. ابدأ وصف ولا تلتفت ، فإن الذي يضع الفردوس في ذهنه يظل يعمل لها طوال عمره لينالها .

نعم : لن تستطع السير في الطريق إلى الفردوس إلا إذا صفيت ، فصف ليصفي الله لك قلبك ، ويصفي لك عبادتك .. صف ليصفي لك حياتك .. صف ليصفي لك طريقك إليه .. خل عنك مشاكلك ومشاغلك ولا تفكّر إلا في الله .. عِش لله خالصاً صافياً .. لا تشغلي إلا بالله وحده .. وكلما صفيت لله صفيت لك ..

ومن كدر كدر عليه .. فإذا وجدت في حياتك كدرًا ؛ كأن تجد والدك يضايقك حين التزمت ، أو زوجتك أو زملاءك في العمل ؛ فاعلم يقيناً أن هذا الكدر منك أنت ، فلو كنت صافياً لله لأراح قلبك .. نعم : السبب : أنك لست بخالص .. كدرت فكدر الله عليك حياتك .. فصف يصف لك .. إذا وجدت أنك تقف في الصلاة فيشرد ذهنك ، وتقرأ القرآن فلا ترکز ولا تتدبر ، وتذکر الله وفيك شارد .. فاعلم أنك كدرت العبادة .. لم تضف بعد لله .. فالكدر آتٍ منك أنت .

ولذلك يقول العلماء : «من رأس العين يأتي الكدر» .. فالكدر خارج من داخلك أنت ، من أعماق قلبك ؛ فصف قلبك لله .. فرغ قلبك لله وحده ؛ ليصفي لك حياتك ؛ فتصل إليه بأمان واطمنان .

الأصل الثاني والعشرون

لا تتجاهل جانباً واحداً من جوانب الدين

الدين .. ما هو الدين؟!

بعض الناس يرى أن الدين هو الدعوة ، وكل همه الدعوة إلى الله .. يجمع الناس ويدخلهم المساجد ويجلسون يكلّمهم ويهدّيهم ويدعوهم ، ونسى كل شيء في الدين إلا هذه .. وبعض الناس يرى أن الدين مجرد عبادة : صيام وقيام وذكر وصلاة .. ففرغ نفسه للعبادة تماماً وترك كل الدين .. وبعض آخر يرى أن الدين هو العلم ؛ فتراه جالساً للعلم ليل نهار .. علم .. علم .. ونسى بقية جوانب الدين .. وبعض آخر يظن أن الدين إقامة الدولة ؛ فتراه يدأب وبحارب ليقيم دولة الإسلام ، ونسى بقية الدين وفُرط فيه من أجل هذه الجزئية .

ليس هذا هو الدين .. الدين كل لا يتجزأ .. فكل هذا هو الدين .. الدين هو العلم والعمل والعبادة والدعوة والجهاد للتمكين .. الدين كل .. وكثيراً ما أقول هذه الجملة : الدين لا يؤخذ بالقطاعي ، ولا يؤخذ بالتقسيط .. لا يؤخذ بالقطعة .. الدين كل؛ ولذلك يقول ربي - وأحق القول قوله - : «**أَذْخُلُوا فِي الْسَّلَامِ كَافَّةً**» [البقرة: ٢٠٨] ؛ أي خذوا الإسلام بكلياته ، واعملوا بكل ما فيه من بُر .

ولذلك حينما أخاطبُ مَنْ ترتدِي بنطَالاً بَأْن تلتزمْ؛ يقولون: أَحْمَدُ اللَّهُ، فهذِه أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهَا.. خَطْرَةُ خَطْرَةٍ.. فَالْيَوْمِ بِنَطَالٍ وَغَدَّاً تلبِسُ الإِيْشَارَبَ.. وَهَكُذا.. تَدْرُجُ؛ أَقُولُ: لَا.. لِيْسُ هَكُذا الدِّينُ.. الدِّينُ لِيْسُ لَعْبَةً.. الدِّينُ لِيْسُ تَهْرِيجًا؛ قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : ﴿وَدَرِ الظَّبَابُ أَنْخَذُوا يَوْمَهُمْ لَعْبًا وَلَهُوَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

وَتَأْمَلُ مَعِي هَذَا الْحَدِيثَ العظيم الذي ينبغي أَلَا يقرأه أحدٌ قطْ إِلا وَيَرْتَجِفُ قَلْبُهُ وَيَشَيَّبُ شَعْرُهُ، حديثُ الْثَّالِثَةِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو هَرِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوْلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأَتَيَ بِهِ، فَعْرَفَهُ نِعْمَةً، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قاتَلْتَ، لَأَنَّ يُقَالُ: جَرِيَّةً، فَقَدْ قَيْلَ، ثُمَّ أَمْرَ بِهِ، فَسُحْبَ عَلَى وَجْهِهِ، حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعْلَمَ الْعِلْمَ وَعَلِمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأَتَيَ بِهِ، فَعْرَفَهُ نِعْمَةً فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعْلَمْتُ الْعِلْمَ وَعَلِمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعْلَمْتُ الْعِلْمَ، لِيَقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأَتُ الْقُرْآنَ لِيَقَالَ: قارئٌ، فَقَدْ قَيْلَ، ثُمَّ أَمْرَ بِهِ، فَسُحْبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلَّهُ، فَأَتَيَ بِهِ، فَعْرَفَهُ نِعْمَةً، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحَبُّ أَنْ يَنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ، لِيَقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قَيْلَ، ثُمَّ أَمْرَ بِهِ، فَسُحْبَ عَلَى وَجْهِهِ، حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^(١).

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٩٠٥).

انظر كيف سُعِرَتْ جَهَنَّمْ بِهُولَاءِ الْثَلَاثَةِ بَعْدَمَا سُجِبُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَيْهَا، إِنَّهُ - وَاللَّهُ - شَيْءٌ مُخِيفٌ .. شَيْءٌ رَهِيبٌ .. عَالَمٌ شَهِيدُ اللَّهِ لَهُ أَنَّهُ عَلِمَ فَقَالَ: عَلِمْتُ لِيَقَالُ، ثُمَّ يَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُسْحَبُ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى جَهَنَّمِ .. عَالَمٌ مُعْلِمٌ .. شِيَخٌ دَاعِيَةٌ .. مَشْهُورٌ مُؤْثِرٌ .. لَهُ أَتَيَاعٌ .. وَمَعَ ذَلِكَ يَدْخُلُ جَهَنَّمْ؛ لَأَنَّهُ فَقَدَ الْإِخْلَاصَ لِلَّهِ - سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَأَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ أَيْضًا نَتْيَاجَةً أَحَادِيدَ النَّظَرَةِ؛ فَلَعْلَهُ كَانَ إِذَا دُعِيَ إِلَى جَهَادٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ قِيَامٍ لِلَّيْلِ أَوْ مَجْلِسٍ ذَكْرٍ أَوْ إِعَانَةٍ فَقِيرٍ مُحْتَاجٍ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنِّي عَالَمٌ .. فَهَدَمَ كُلَّ جَوَانِبِ الدِّينِ ظَلَّاً أَنَّهُ يَكْفِيهِ هَذَا الْجَانِبُ الَّذِي هُوَ فِيهِ .. اخْتَلَّ بِهِ هَذَا الْجَانِبُ أَيْضًا، فَهُوَيْ بِهِ فِي هُوَةِ سُحْقِيَّةٍ مِنْ جَهَنَّمِ ..

وَمِثْلُهُ الْمُتَصَدِّقُ: كَانَ يَعْمَلُ اللَّيْلَ النَّهَارَ لِيَحْوِزَ الْمَالَ الَّذِي يَتَصَدِّقُ بِهِ .. وَقَصْرٌ فِي كُلِّ جَوَانِبِ الدِّينِ، وَإِذَا ذَكَرْتَهُ؛ يَقُولُ: أَنَا أَفْتَحُ بَيْوَنَّا وَأَغْزُلُ فَقَرَاءَ وَأَقِنْتُ جَزْعَنِي، إِنَّمَا أَعْمَلُ لِيَقُومُ بِي نَاسٌ كَثِيرٌ .. فَلَمَّا سَقَطَ هَذَا الْجَانِبُ أَيْضًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَيْرَهُ هَوَى فِي بَشَرِّ جَهَنَّمِ ..

فَإِيَّاكَ - أَخِي - أَنْ تَفْتَرَ بِجَانِبِ تَقْوَمٍ بِهِ؛ إِنَّمَا كُنْ لِلَّدِينِ كُلُّهُ - عَافَانَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ مِنْ أَتَيَاعِ الْهَوَى ..

الَّدِينُ حِينَ يَأْتِي بِالْأَمْرِ؛ فَلَا بَدَّ أَنْ تَلْتَزِمَ بِهِ كُلُّهُ فِي الْحَالِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَمْرَتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا أَسْتَطِعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاتَّهُوا»^(١).

(١) متفق عليه: البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

يقولُ الشِّيخُ ابنُ عَثِيمِينَ - رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى - فِي مِنْظُومَتِهِ فِي أَصْوَلٍ

الفقه وقواعد :

وَالْأَمْرُ لِلْفُورِ فَبَادِرِ الزَّمْنَ إِلَّا إِذَا دَلَّ دَلِيلٌ فَأَسْمَعْنَ

«وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَرَسُولَهُ إِذَا أَمْرَأَ بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ لِلْفُورِ؛
يُعْنِي يَجْبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَفْعَلَهُ فَوْرًا مِنْ حِينِ أَنْ يُوجَدُ سَبَبُ الْوُجُودِ
وَيَكُونُ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ . «فَبَادِرِ الزَّمْنَ» يُعْنِي أَنَّ الزَّمْنَ يَمْضِي وَيَمْشِي؛
فَبَادِرْ قَبْلَ أَنْ يَفْوَتَ . وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمْرَ أَصْحَابِهِ عَامَ
الْحُدَيْبِيَّةِ أَنَّ يَخْلِقُوا وَيُحَلِّقُوا، وَلَكِنَّهُمْ تَأْخِرُوا رَجاءً أَنْ يَحْدُثَ لَهُمْ نَسْخَ،
فَغَضَبَ النَّبِيُّ ﷺ لِذَلِكَ . فَكَانَ هَذَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ الْمُطْلَقَ يَكُونُ
لِلْفُورِ، وَلَوْ أَنَا قَلْنَا: يَجُوزُ التَّأْخِيرُ لِتَراَكِمِ الْمَأْمُورَاتِ وَكَثْرَتْ وَعَجَزَ
الْإِنْسَانُ عَنْهَا»^(١).

فَإِذَا التَّرَمَّتِ الْيَوْمُ عَلَى طَرِيقِ اللَّهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَتَهَيَّءَ عَنِ التَّدْخِينِ فِي
نَفْسِ الْلَّحْظَةِ الَّتِي التَّرَمَّتِ فِيهَا . . لِيُسَمِّيَ التَّدْرِيْجَ . . فَلَا تَقُلْ: الْيَوْمُ أَدْخُنُ
عَشْرَ سَجَاجِيرَ وَغَدَّا خَمْسَانَاهُ وَهَكُذا حَتَّى أَقْلِعَ . . لَا . . وَلَا تَقُولِي - أَيْتَهَا
الْأَخْتَ الْمُتَبَرِّجَةَ -: الْيَوْمُ سَأُتَرَكُ «التَّزِينَ» وَبَعْدَ ذَلِكَ أَلْبُسُ مَلَابِسَ
طَوِيلَةَ، ثُمَّ أَغْطِي شَعْرِي وَأَرْبِطُ رَقْبَتِي ثُمَّ أَرْتَدِي بَعْدَ ذَلِكَ حِجَابَ . .
لَا . . فَالْأَمْرُ دِينٌ . . الْيَوْمُ التَّرَمَّتِ وَتَبَّتِ إِلَى اللَّهِ فَالْأَبْيَسِي حِجَابِكَ
الشَّرِيعِيِّ، وَسَيِّرِي عَلَى طَرِيقِ اللَّهِ، وَانْتَهَتِ الْقَضِيَّةُ .

(١) القواعد الفقهية (٤٥ - ٤٦).

أحد الإخوة أراد أن يلعب تنساً، فذهب إلى المدرب وقال له: ما المطلوب في لعب التنس، فقال له المدرب: مضرب تنس، و«كاب» أبيض، و凡انلة بيضاء، و«شورت» أبيض، وجورب أبيض، و«بوت» أبيض.. فقال له الأخ: لا يصح التنس إلا بهذا اللبس؟، قال له: نعم، لا يكون التنس إلا بهذا الشكل.. فذهب الأخ وأحضر اللبس؛ فأتي وهو يحمل المضرب، فقابلته أحد من يعرفه فقال له: أتلعب تنساً؟!.. لماذا تلعب؟!.. فانظر إلى تعجب الناس منه.. لأنهم يظنون في الأصل أنه رجل دين لا يلعب ولا يلهوا!

الشاهد من هذا الموقف: أنَّ مَنْ يُرِيدُ الدِّينَ فَلَا بُدُّ أَنْ يلبِسَ «دِينَ» ..

قال المدرب: لا يصح التنس إلا بهذا الشكل، وأقول لك: لا يصح الدين إلا إذا التزمت به كلياً. فإذا أردتَ السير في طريق الله فلابد أن يكون شكلُك بالدين، وحياتُك بالدين؛ لتكون من أهل الدين الفائزين بالوصول إلى الله.

إذا دخل أحد بيتك يعلم من أول وهلة ومن أول نظرة: أنك رجل دين، فعيش بالدين وللدين وعلى الدين.. إنَّ النَّاسَ الْيَوْمَ - إخواته - لا يلعبون التنس؛ بل يلعبون بالدين، فأمسك على الدين ولا تلعب به، فالدين ليس تهريجاً. إنه حقٌّ جَدُّ حقٍّ، وما هو بالهزل.

إذا أردت أن تُعْنِي فلا تُعْنِي باسم الدين.. إذا أردت أن تلعب فاللعب بعيداً عن الدين، ولا تُلبِسَ على النَّاسِ دِيَّهُمْ بِهِوَاكَ، فتأخذُ من الدين ما يُعجِّبُك وترُكَ ما يخالفُ هواك.. إذا أردت أن تدخل في الدين وإذا

أردت أن تكون من أهله؛ فالشرط أن تتمسك بالكلّ.. فلا تتجاهل جانباً واحداً من جوانب الدين.

الرَّسُولُ ﷺ لِمَا رَجَعَ مِنَ الطَّائِفِ وَجَلَسَ بِمَكَّةَ بَدْأًا يَعْرُضُ نَفْسَهُ؛ أَيْ يَعْرُضُ الدِّينَ عَلَى الْقَبَائِلِ، فَيَقُولُ لَهُمْ: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا»^(١)، كَمَا كَانَ يَعْرُضُهُ عَلَيْهِمْ قَبْلَ الطَّائِفِ، وَلَكِنَّ الْعَرْضَ بَعْدَ الطَّائِفِ كَانَ عَرْضًا لِلْحَمَاءِ فَكَانَ ﷺ يَقُولُ: «هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ فَيَمْنَعُنِي (أَيْ يَحْمِنِي) كَيْ أَبْلُغَ رَسَالَةَ رَبِّي؟ فَإِنْ قَرِيشًا قَدْ مَنَعَنِي أَنْ أَبْلُغَ رَسَالَةَ رَبِّي». نَعَمْ: كَانَ يَطْلَبُ الْحَمَاءَ مِنَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ، فَأَتَى بْنِي عَامِرَ بْنِ صَعْصَاعَ، فَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقالُ لَهُ: بَحِيرَةُ بْنُ فَرَاسٍ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ أَنِّي أَخْذَتُ هَذَا الْفَتَنَى مِنْ قَرِيشٍ لَأَكْلُثُ بِهِ الْعَرَبَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَرَأَيْتَ إِنْ نَحْنُ بَاعْتَنَاكَ عَلَى أَمْرِكَ، ثُمَّ أَظْهِرْكَ اللَّهَ عَلَى مَنْ خَالَفَكَ، أَيْكُونُ لَنَا الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِكَ؟.. يَقْصِدُ: نَحْنُ مَعَكَ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا تَمُوتُ سَأَكُونُ أَنَا الرَّئِيسُ الْمَطَاعُ، فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ يَضْعُفُهُ حِيثُ يَشَاءُ».. وَمَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ: أَنَّكَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ فِي الدِّينِ فَلَا تَشْرُطْ عَلَى الْمُلْكِ.. أَنْتَ عَبْدٌ.. فَالرَّسُولُ ﷺ يَرِيدُ أَنْ يُعْلَمَهُ وَيُعْلَمُنَا: أَنَّكَ تَبَايَعْنِي وَتَحْمِلْنِي لِتَعْبُدَ رَبِّكَ.. تَبَايَعْنِي وَتَحْمِلْنِي لِأَجْلِ الْجَنَّةِ، لَا لِشَيْءٍ مِنَ الدِّينِ.

بعض الشَّبَابِ يلتزمُ حَتَّى يَعْطِيهِ اللَّهُ الْمَالَ وَغَيْرَهِ.. لَا.. قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «إِنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ يَضْعُفُهُ حِيثُ يَشَاءُ».. لَذِلِكَ تَجِدُ بَعْضَ النَّاسِ يَعِيشُونَ

(١) أَخْرَحَهُ: أَحْمَدُ (٣/٤٩٣)، وَالحاكِمُ (١٥/١)، وَابْنُ جِبَانَ (١٤/٦٥٦٢)، وَإِسْنَادُهُ صَحِيفٌ.

الدين بالغش ، يدخلون إلى الالتزام من أجل مصالح دنيوية . فإن كنت قد فعلت ؛ فصحيح نيتك ، يصحّ الله لك عملك .

إن من عادتنا أن نذهب إلى المستشفيات فنأخذ معنا عسلاً .. يضف

كيلو عسلاً ، وكتاب « حصن المسلم » ، والمصحف للمرضى - اللهم اشف مرضى المسلمين - ؟ فيكون الكتاب والستة والشفاء .. نعطي للمريض هذه الثلاث ، فنأتيه بعد أسبوعين فنجده قد التحرى ، فيقول : ها أنا ذا قد التحرى ، وكأنه يُرضينا ، لا ، بل قل : التحرى من أجل الله ليُشفيَّنِي .. ادخل الدين من أجل الله .. ادخله وأنت قويٌّ معاون .. ادخله برضاك ، بدلاً من أن تدخله وأنت مبتلى مقهور .

الشاهد : أنّ الرسول ﷺ عرض نفسه على مجلس في السكينة والوقار ، فدخل سيدنا أبو بكر فقال : ممن القوم ؟ ، فقالوا : شيبان بن ثعلبة ، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ وقال له : بأبي أنت وأمي ، هؤلاء فرذ في قومهم ، فقال أبو بكر : كيف المنعة فيكم ؟ ، قالوا : علينا الجد والجهد ولكل قوم جد - كلام جميل - ، فقالوا له : إلام تدعوا يا أخا قريش ؟ ، قال : « أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله » ، فقالوا : إلام تدعوا أيضاً يا أخا قريش ؟ ، قال : « قُلْ تَعَالَوْا أَنْلُ مَا حَرَمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ » [الأعراف: ١٥١] ، وإلام تدعوا أيضاً ، قال : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْمَعْدُلِ وَإِلَّا خَسِئَنَ » [التحل: ٩٠] ، فقالوا : دعوت يا أخا قريش والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك .

قال أحدهم : ولكن - ما زلت أقول : إن آفة الناس كلمة « لكن » - أنا أرى : إن تركنا ديننا واتبعناك على دينك على مجلس واحد جلسته إلينا ،

فإنه لوهن في الرأي ، وسوء نظر في العاقبة .. إنما تكون الذلة مع العجلة ، وإن من ورائنا قوماً تكره أن تُعْقَد عليهم عقداً ، ولكن نرجع وترجع ، وننتظر فتنتظر .. لا .. لا .. الدين ليس هكذا .. الدين ليس فيه أصلٍ أم لا؟ .. ولا أنتهي أم لا؟ .. وليس فيه تنتقيبين أم لا؟ .. الدين قرار على وفق ما يُريد المؤول .

فقام رجل منهم هو المثنى بن حارثة فقال : إنما نحن نزلنا بين سريان الإمامة والسماعة ، فقال رسول الله ﷺ : «فما هذا السريان؟» ، فقال المثنى : أنهار كسرى ومياه العرب .. فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبِه غير مغفور وعذرُه غير مقبول .. يعني : أننا لستنا نقدر على كسرى .. وأما ما كان من مياه العرب فذنبه مغفور وعذرُه مقبول ، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى : ألا تُحِدِّثَ حَدَّنَا ولا نأوي مُحَدِّثًا ، إنَّ هذا الْأَمْرَ تَكْرَهُ الْمُلُوكُ .. ما هذا الدين الذي جئت به؟ .. وإنما نرى أن هذا الأمر تكرهه الملوك . فإن أحببت أن تزويجك وتنصرك فمن يلي مياه العرب فعلنا ، أما من كسرى أو قيسر فلا ؛ فلسنا نتحمل الوقوف في وجه هؤلاء .. فقال رسول الله ﷺ : «ما أَسَأْتُم الرَّدَّ إِذْ أَفْصَحْتُ بِالصَّدْقِ ، وَإِنَّ دِينَ اللَّهِ لَنْ يَنْصَرَ إِلَّا مَنْ أَحْاطَهُ مَنْ جَمِيعِ جَوَابِهِ»^(١) .

يَا لَهُ! .. انظر ماذا قال نبيُّنا محمد ﷺ .. فن الدعوة .. قال له : إنك رجل طيب .. أثني عليه .. فقال : «إذ أَفْصَحْتُ بِالصَّدْقِ» .. هذه الكلمة لها أثرٌ كبيرٌ جداً في الدعوة .

(١) آخرجه : ابن جبَّان في «الثقات» (٨٨/١)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٩٨/١)، ٩٩، وانظر : «البداية والنهاية» (٣/١٤٤).

ولذلك حينما يأتيني أخ ويقول : أنا أوجه أبي إلى عدم التفرج على التلفاز؛ أقول له : لا .. ليس الأمر بهذه الصورة .. أنا أريدك أن تدخل على أبيك وتقول له : ما شاء الله .. وتقبل يده وتقول له : نعم الأب أنت ! ، فأنت من أفضلي الناس ، الحمد لله أن لي أبياً مثلك ، لكن يا ليتك تبتعد عن التلفاز .. فإنه لا يليق بأهل العلم والأدب والفضل الجلوس أمامه .. نعم .. امدحه بما فيه .. وهكذا يكون الدين ، وهكذا تكون الدعوة .. باللين والرحمة والأدب .. فافهم الدين . قل له : والله يا أبي لا أرى أحداً يحافظ على صلاة الفجر مثلك ، فجزاك الله خيراً .. أنت رجل طيب ، وأنا لم أر أحداً يكرم إخوانه مثلك .. أراك من أهل الحق ، فتعطى الأجير حقه ، فلا تظلم أحداً .

والله يا أبي أنا أحبك في الله ، لأنني طوال عمري ما سمعتُك تكذب أو تشنئ .. أخي في الله ، امدح أباك بما فيه تكسب قلبك وتحب الدين .. ادعه بأدب ، فإذا أغفلت معك القول فقال مثلاً : اخرج خارج البيت ، أو قال : أتمثل علىي .. فقل له بأدب ورحمة كما قال الرسول ﷺ : «ما أسلمت الرد ، إذ أفصحت بالصدق .. ولكن هذا الدين لن ينصره إلا من أحاطه من جميع جوانبه» .

إخواته ، إننا نُصيّق بِمَنْ ندعوهِمْ ؛ لأننا لم نفهم الدين .. لأننا مُتضايقون ومُهمومون ، أو قل : عاصون .. يأتيني أحدهم مُهموماً مُخنوقاً .. ما لك؟! ، يقول : روحي تكاد أن تُخرج ، أقول له : هل تحتاج إلى مال؟ .. لا .. المال كثير ، هل زوجُك أغضبك؟ .. لا ..

يا ليت كل النساء مثل زوجتي ، أولادك؟ .. الحمد لله حالهم حسنة ..
تحتاج إلى عمل؟! .. لا .. كل شيء على ما يرام .. إذا ما الأمر؟ ،
يقول : لا أعرف ، فأنا مخْتُوق ومتَّعِب .. أقول له : تعال ، افتح صدرك
لي وقل لي .

يقول : والله لا أعرف ، ولو كنت أعرف لقلت لك .. ليس هناك سبب
واضح للضيق الذي أنا فيه الآن .. وأحياناً يقول هذا الكلام آخر ملتم ..
لقد كان حالى قبل أن ألتزم أحسن من هذا ، فكنت لا أعصي الله بهذه
الطريقة ، ماذا جرّى بعد الالتزام؟!!

إخوته ، إليكم السر .. السر في الضيق والهم والغم هو المعصية
الكبيرة التي تعملها وتصرّ عليها فتسبب لك الوحشة .. يقول ابن القيم في
كتاب «الداء والدواء» : «إنّ المعصية توقع بين العبد وبين الله وحشة ،
فإن زادت استحكمت تلك الوحشة» اهـ.

إذا زادت المعصية زادت في المسافة بينه وبين أقرب الناس إليه .
فترى هذا الذي استحكمت عليه الوحشة إذا قال له أحد : ما لك؟ ،
يقول : لا أريد أحداً أن يقول لي : ما لك! ، وإذا سأله أصحابه ،
قال : قولوا لهم ليس موجوداً ، فإذا استحكمت الوحشة أكثر وقعت بينه
وبين نفسه .

يقول العلماء : وقد تقتل هذه الوحشة إن زادت .. نعم : قد يموت
بسبيها .. فسر الوحشة معصية ، وأخطر المعاصي معصية السر ، أن

تعصي ربك ولا يراك غيره؛ لأنك ساعتها تحذر أن يراك الناس ولا تحذر أن يراك الله، تخاف من الناس ولا تخاف من الله.

إذا فقد يكون هناك جانب من الدين متهدم في حياتك هو هذا الجانب «المعصية في السر».. والذى يسبب لك الوحشة.

وقد يكون هذا الجانب هو أنك هاجر للقرآن؛ فلا تحفظ ولا تراجع ولا تتلو.. هاجر بالكلية.. وقراءة القرآن للتبعيد سنة مستحبة، ولكن هدمها هدم للدين.. وقد يكون الجانب المنهدم من دينك هو عدم صلاتك للرحم أو عدم إرثك بوالديك، وقد تكون اللحمة.

أرى بعض الملتزمين اليوم بدون لحمة.. هل هي غير مهمة؟!.. اللحمة فرض؛ قال رسول الله ﷺ: «أغفوا اللحن»^(١).. «أرخوا اللحن»^(٢).. «وفروا اللحن»^(٣).. بالأمر.. وإذا تعليت بالمشكلات، فقد تخدعني ولكن أبداً لن تخدع الله.. لا.. اللحمة فرض.

وقد يكون الجانب الذي هدمته من الدين: الصلاة.. في بعض الأحيان أكون ذاهباً إلى الدرس وتأخر في الطريق، فأصلي المغرب في أي مسجد، فأجد الإمام يتغافل في دقيقة.. و كنت أصلي أنا وصاحب لي

(١) متفق عليه: البخاري، ك: اللباس، ب: إغفاء اللحن (٥٨٩٣)، ومسلم، ك: الطهارة، ب: خصال الفطرة (٢٥٩).

(٢) أخرى: مسلم، ك: الطهارة، ب: خصال الفطرة (٢٦٠).

(٣) أخرى: البخاري، ك: اللباس، باب: تقليم الأظفار (٥٨٩٢).

والإمام ، فقال الإمام : الله أكبر ، سمع الله لمن حمده ، السلام عليكم ورحمة الله .. هكذا .. كلام سريع متلاحق ، وبعد أن انتهيت لجئت به وأنا لا أتمالك نفسي فقلت له : هذه الصلاة لا أستطيع أن أميرها هكذا .. لا أستطيع أن يمر على مغرب بهذه الصورة .. إذا ساعيده .

وأنا لا أقول : إن صلاة الرجل باطلة ؛ ولكنني أنا لم أصل .. أنا أريد أن أذوق الصلاة .. أريد أن أتمتع .. أريد أن أصل لأشرب معاني الصلاة فنثر في قلبي .. ليس بسرعة .

قد يكون المسجد الذي بجوار بيتك صلاتُه كصلاة هذا الرجل ، وأنت تصلي كل يوم بهذا الشكل ، وتقول : ماذا أصنع؟! ، أقول : يا أخي ، المساجد كثيرة - اللهم زِّ بيوتك في الأرض - ؟ فلا يخلو شارع من مسجد أو ثنين أو ثلاثة ، ستقول صلاتهم سريعة أيضاً ، أقول : ابحث عن مسجد قريب يطمئن فيه قلبك للصلوة .. ابحث ولن تغدرم مسجداً إماماً حريصاً على السنة .

لقد كان بجوارنا مسجد يقولون عنه : «المجرى» .. فالمؤذن يؤذن ويظل واقفاً ثم يقيم الصلاة ، والإمام خلفه واقف ، فتصلي وراءه وكأنك لم تصل .. إذا فكن حريضاً على صلاة تنفعك أمام الله .. صلاة تغذى قلبك بالإيمان .. صلاة تُسْدِّد جوعك الروحي .. فقد تكون الصلاة هي الجانب المنهدم في حياتك الذي يسبّ لك الوحشة .

أخي في الله ، ابحث عن الجانب أو الجوانب التي هدمتها في دينك وسدها .. أقم جوانب الدين ترُّل عنك الوحشة .. لا تهمل جانباً واحداً من جوانب الدين .. فالدين كُلُّ .. قال - تعالى - **«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْخُلُوْا فِي الْسَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَرْكُمُوا خُطُوبَ اَ الشَّيْطَنِ إِنَّمَا لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦﴾ فَإِن رَّأَتُمُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَنَّكُمُ الْبِيْتَنَّ فَاغْفِلُوهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ هَلْ يَنْظُرُوْهُ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْكُفَّارِ وَالْمُلْكَيَّةِ وَقُصْنَى الْأَمْرِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ»** [البقرة: ٢٠٨-٢١٠].

فلا بد أن تأخذ الدين كُلُّه .. وإياك أن تتمسك بجزئية فيه وتتركباقي .. فالكل لا بالجزء بإذن الله تصل .

* * *



الأصل الثالث والهشرون

أنجز كل يوم شيئاً جديداً

قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ الْإِيمَانَ لِيُخْلُقَ فِي جَوْفِ أَهْدِكُمْ كَمَا يَخْلُقُ التَّثْبِ ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَجْدُدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ»^(١) .. اللَّهُمَّ جَدُّ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِنَا .. كَيْفَ تَجْدُدُ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِكِ؟ .. أَنْ تَعْمَلَ كُلَّ يَوْمٍ عَمَلاً جَدِيداً؛ وَذَلِكَ لَأَنَّ أَصْلَ اعْتِقَادَنَا أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ ، يَزِيدُ بِالطَّاعَاتِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعَاصِي .

بعض الناس بعد فترة من الالتزام يرقد ويقعده ويتنام .. يقف يتعطل .. يتدهور حاله فلا يكون لديه جديد .. إِنَّ دِينَنَا - أَيْهَا الْإِخْرَاجُ - أَبَدًا لَا تَسْتَهِي جَدَّهُ فَدَوْمًا هُنَاكَ جَدِيدٌ لَمْ تَعْمَلْهُ .

لقد كنت أتكلّم مِرْءَةً مع الإخوة عن الجديد في الالتزام فقلت : إن العلماء يقولون : إن الأكسجين المخلوق حديثاً في المعمل أكثر اشتياقاً من الأكسجين الموجود في الجو .. فما السبب؟ ، قالوا : لأنّه جديد .. وكذلك الالتزام الجديد يكون فيه انطلاقه وحيوية وإيمانيات عالية ، ثم بعد ذلك يقدّم ويضعف ويختفت .

ولذا يحتاج منك ذوماً إلى تجديد .. بأن يكون كُلَّ يوم في حياتك

(١) أخرجه : الحاكم في «المستدرك» (٤/١)، وصححه الألباني - رحمه الله تعالى - في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٥٨٥).

مُختلفاً عن سابقه ولا حقه .. فكل يوم له لون جديد في الطاعة .. فلا تمل ولا تفت ، وتشعر دائمًا بالإيمان .

ولا نقل : إن الدين ستنتهي أعماله .. لا .. فالاعمال في ديننا كثيرة ومتنوعة ، والطاعة ليس لها حدود .. فأنجز كل يوم شيئاً جديداً بشرط أن تقرؤه على أحسن وجه .

ابداً اليوم وقان : اليوم سأضيّط الخمس صلوات .. فلن أسمح لذهني بالشروع .. اليوم تحذر .. سأتحدى اليوم شيطان الصلاة « خنثى » .. اليوم سأقرأ في الخمس صلوات سورًا جديدة لم أقرأها من قبل .. بعض الناس في كل صلواته لا يقرأ إلا بسورتين قصيرتين ويظل معهما شهورًا ، ولذلك يتسرد فلا يعيش الصلاة . لأنه يصل إلى (أتماتيك) صلاة مكررة .

يوم آخر ، تقول : أذكار الصلاة سأقولها اليوم بقلبي ويدموع عيني .. يوم آخر : سأتدبر اليوم صفحة جديدة من القرآن ، وسأظل أغرس معانيها في قلبي طوال اليوم .. وهكذا .. كل يوم شيء جديد .

سبحان الله العظيم .. حديث في « صحيح مسلم » أعرفه ، قرأته وكأني أقرأ لأول مرة في حياتي .. قال رسول الله ﷺ : « ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنية ، إلا تعجلوا ثلثة أجرهم من الآخرة . ويبقى لهم الثالث . وإن لم يصيروا غنية ثم لهم أجرهم »^(١) .

ومعنى ذلك : « أن الغزاة إذا سلّموا أو غيّموا يكون أجرهم أقل من

(١) أخرجه : مسلم ، ك : الإمارة ، ب : بيان قدر ثواب من غزا فغنمه ومن لم يغنم ، برثم . (١٩٠٦)

أجر من لم يسلِّم ، أو سَلِّم ولم يَعْمَم ، وأن الغنيمة هي في مقابلة جزء من أجر غزوهم ، فإذا حصلت لهم فقد تعلَّقوا ثُلثي أجرهم المُترتب على الغزو ، وتكون هذه الغنيمة من جملة الأجر^(١) .

إذاً فهناك أحاديث كثيرة أنت سمعتها وتعرِفها ؛ ولكن عند التدبر والوقوف عندها تشعر بأنها جديدة عليك ؛ فيزيد بها إيمانك .. إذاً بالجديد يزداد الإيمان .

وكذلك هناك آيات من القرآن تقرؤها فتقول : سبحان الله ، هذه الآية جديدة علىي : لم أسمعها من قبل ؛ مع أنك تقرؤها ليل نهار ، ولكن لأنك بدأت تتدبر وتفتح قلبك وتفقُّ مع الآيات ؛ فيرزقك الله المعانى الجديدة .

آية في سورة الرعد «وَرَحِمُوا بِالْجَنَّةِ الَّذِيَا وَمَا لَهُمُ الْدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَّعْ» [الرعد: ٢٦] .. آية جميلة وجديدة ، وترتَّدُّها وتكرَّرُها وتنهَّمُها يزيد الإيمان ويقويه .. آية - والله - تُريحُ القلب ، وتحفَّفُ المشاكل ، وترتهدُ في الدنيا ، وتتحمَّث على السَّيِّر إلى الله .

نعم : نقرأ القرآن كثيراً ، ومع ذلك نجد جديداً كلما قرأتا .. ومعانى القرآن لا تنتهي ؛ «فَلَمْ تَرَ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلْمَنْتِ رَبِّ لَنَدَ الْبَحْرِ قَبْلَ أَنْ تَنَقَّدَ كَلْمَنْتِ رَبِّ وَلَمْ جِئْنَا بِيَعْتَلِهِ مَدَادًا» [الكهف: ١٠٩] .. فاقرأ من القرآن آية بنفسها في أوقات مختلفة وأحوال متغيرة ستخرج كلما قرأت بجديد .. إذاً بالجديد كثير .. وما عليك إلا أن تغزِّمَ وتتجدد .

إخواته ، وحينما تُنجِزون جديداً وتُتمِّمونه على وجهه الأكمل ؛ ستعلمون

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٣/٧٨).

أنكم كتنتم قبل تلعبون ، حين تذوقون نعيم الطاعة وطعم الإيمان ولذة الإيمان .. قال الشاعر :

وكنت أظن أن قد تناهى بي الهوى
وبلغ بي غاية ليس لي بعدها مذهب
فلما تلاقينا وغایثت حُسْنَهَا علمت أنني كنت قبل اليوم أعب
فإذا صلَّيْت فصلٌ كما ينبغي ، وإذا قرأت القرآن فاقرأه كما ينبغي ،
وإذا تصدقت فتصدق كما ينبغي .. وإذا قمت الليل أو ذكرت أو حججت
أو اعتمرت أو طفت أو سجدت فبحق .. أَنْجِزْ الجديد في اليوم الجديد
على الوجه الذي ينبغي ؛ لتذوق حلاوة الإيمان .

يقول ابن القيم : «سعادة المغطي أعظم من سعادة الآخذ» .. نعم :
الطاعة بحق لها سعادة وحلاوة ومتعة ولذة .. وهذا هو الدين .. اللهم
ارزقنا الالتزام بالدين يا رب .

أخي في الله ، اقرأ اليوم باباً جديداً في التوحيد ، واقرأ غداً في سيرة
النبي ﷺ ، وبعد غد اقرأ في تفسير آية لم تقرأها من قبل .. وهكذا ..
أنجز كل يوم جديداً .. جديداً في العلم .. أو جديداً في العبادة .. أو
جديداً في الدعوة إلى الله ..

جَدْدُ إِيمَانِكَ يَوْمِيَا حَتَّى لَا تَفْتَرَ أَوْ تَمَلَّ فِي طَرِيقِ السَّيِّرِ إِلَى اللَّهِ ..
فَالْتَّجَدِيدُ يَدْفَعُ الْمَلَلَ ، وَيَقْرُي السَّيِّرَ وَيَحْثُّ عَلَيْهِ .. فَجَدْدُ إِيمَانِكَ وَسَلِ اللَّهُ
ذَلِكَ ؛ تَصْلِي بِإِذْنِ اللَّهِ .. اللَّهُمَّ جَدْدُ الإِيمَانَ فِي قَلْوبِنَا يَا رَبِّ (١) .



(١) لنا محاضرة بعنوان «جَدْدُ إِيمَانِكَ» استمع إليها تَبَذَّلْ بِإِذْنِ اللَّهِ .

الأصل الرابع والعشرون

كُفٌ عن الشَّكُوكِ وابدأ العلاج

كثير من الناس ليَل نهار ليس لَهُم هُم إلا الشَّكُوكِ .. التَّبرُجُ كثِيرًا .. والفتنة! .. و.. يقول إسماعيل الهرمي: «الزَّهْدُ في الدُّنيا يَنْفَعُ الْيَدِينَ عن الدُّنيا ضَبِطًا أو طَلْبًا، وإسْكَاثُ اللُّسَانَ عنْهَا مَدْحًا أو ذَمًّا، وَالسَّلَامَةُ مِنْهَا طَلْبًا أو تَرْزِيًّا»^(١).

الشاهدُ الذي تُسْتَخِرُ بِهِ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ الْمُهِمُ : أَنَّ الَّذِي يَحْبُبُ الدُّنْيَا يَتَكَلَّمُ عَنْهَا كَثِيرًا وَلَوْ بِالذَّمِ .. كَذَلِكَ يُعَدُّ الرَّجُلُ مَفْتُونًا بِالنِّسَاءِ إِذَا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِنَّ وَلَوْ بِالذَّمِ، وَالَّذِي يَتَكَلَّمُ عَنِ الْمَالِ كَثِيرًا وَلَوْ بِالذَّمِ فَهُوَ أَيْضًا مَفْتُونٌ .. وَمِنْ هَنَا فَالَّذِي يَشْتَكِي كَثِيرًا فَمَفْتُونٌ؛ قَالَ الْمَلِكُ الْعَلِيمُ - سَبَحَانَهُ - فِي آيَةٍ مِنَ الْآيَاتِ الْفَاضِحةِ: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْتُلُ أَنْذَنَ لِي وَلَا تَقْتَلَنِي أَلَا فِي الْفَسَنَةِ سَكَلَرُوا» [التوبه: ٤٩].

تجدُ أحدهم يقول : لا أُريدُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْدَّرِسِ الْفَلَانِي لَأَنَّ هُنَاكَ نِسَاءٌ وَأَنَا ضَعِيفٌ!! .. يَا مَفْتُونٌ .. تَقُولُ لَهُ: اخْطُبِ الْجُمُعَةَ فَيَقُولُ لَكُ: أَخَافُ مِنِ الْرِّيَاءِ!! .. مَفْتُونٌ .. عَجَبًا لَكُ! ، طَوَالِ الْوَقْتِ تَتَكَلَّمُ وَتَقُولُ: حَلَالٌ وَحَرَامٌ، وَنَصِيبَتْ نَفْسَكَ شِيخًا، لِمَاذَا عَنْدَ تَحْمُلِ الْمَسْئَلَةِ تَخَافُ مِنِ الْرِّيَاءِ!!؟ .. اللَّهُمَّ ثَبَّنَا عَلَى الإِيمَانِ وَارْزُقْنَا الْإِحْلَاصَ.

(١) طریق المجرتین (١٦).

الإمام مالك كان إذا أعطى موعظة بكى وقال : «يحسّبون أنّ عيني تُقْرَأُ بكلامي ، كيف وأنا أعلم أن الله سائلني عنه يوم القيمة ماذا أردت به» .. وعلى الرّغم من هذا الكلام ؛ إلا أنه لم يتوقف عن الوعظ ، ولم يقل مثلاً يقول شباب اليوم : أخاف على نفسي من الرياء ..

إخوتي في الله، هل تظنون أنّي أفرح حينما أقول درساً أو أخطب جماعة؟! .. هل يوم القيمة ستكونون جالسين أمامي بهذه الصورة؟! .. لا والله.. إن ربي سيسألني : تحركت من هنا إلى مصر الجديدة لتعظ؟ لماذا؟ ، لأجل الناس أم لأجلِي؟؛ فماذا أقول له؟! .. اللهم ارزقنا الإخلاص واجعلنا من أهله.

كُفٌ عن الشكوى وابدأ العلاج .. تجد بعض الناس يشكو من الوسوسة وليس به شيء ، ولكنه يظل يقول : الوسوسة .. الوسوسة .. حتى يُوسوسَ فعلًا .. بسبب كثرة شكواه .. يظل يشكو : النساء .. النساء ، فيقع في الفتنة ، ولو كف عن الشكوى وبدأ في العلاج ؛ لکفاه الله هذه الفتنة .

إن مصيبة كثيرة من الإخوة أنهم مشغولون بالزواج .. فترى الواحد منهم يمشي في الشارع فيقول في نفسه : أتزوج هذه أم هذه؟ .. لا ، بل هذه .. لا لا بل مثل هذه .. إذا أردت الراحة فارفع هذا الموضوع عن نفسك ، وعيش حياتك الإيمانية كما ينبغي ، ووقت أن تقرّ الزواج تزوج في نفس اللحظة .. أمّا أن تعيش هكذا ، مُشتّت الفكري ، تشتكي ذومًا من هذه القضية ؛ فلن تنجو من الفتنة أبداً .. فأرخ دماغك الآن عن هم الزواج طالما أن ظروفك الإيمانية والحياتية لا تسمح .. **هذا هو الحل للفتنة :** عدم الشكوى وعدم الهم ، وعدم الضيق والمرض بسببيها .

بعض الناس يقول : المال .. مالنا وللما ، المال دنيا ، فكلامه المتكرر هذا عن المال دليل على أنه مفتون بالمال وبالدنيا . وفرق بين من يشكو ليغان وبين من يشكو ليهرب .

سيدنا موسى - عليه وعليه نبينا الصلاة والسلام - لما قال له ربه : «اذهبت إلّك فِي هَوْنَ إِنَّمَا طَقَنْ» [النازعات: ١٧] ؛ «فَقَالَ رَبِّي إِنِّي فَتَّلَتْ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي ﴿٢﴾ وَأَخَافُ هَكْرُوتْ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعَ رِذْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي» [القصص: ٣٤-٣٣] .. اشتكتي ؛ ولكنه طلب العون فأعين .. أعاذه الله ووهب أخيه هارون النبوة .. وهذه من البركات .. أن يُرزق أحد النبوة .. قال موسى : يا رب ، وأخي ؛ فقال - سبحانه - : وأخوك .

ولذا أريد منك حينما يرزقك الله الالتزام .. أريدك أن تقول : يا رب ، وأخي .. يا رب ، وأبي .. يا رب ، وأمي .. يا رب ، وأختي .. يا رب ، وجاري .. ادع الله أن يهدئهم وانشغل بإصلاحهم بدلاً من أن تظل تشکوهم وتشتكي منهم فتذكرهم ويذكرهوك .. ادع الله لهم وكف عن الشكوى ؛ لينجيهم كما نجاك .

الرسول ﷺ لما قيل له : تطبيق عليهم الأخشبين؟ ؛ قال : «لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحّد الله»^(١) .. خرج وتعجب واستفرغ وسعه ..

(١) متفق عليه : البخاري (٣٢٣١) ، ك : بهذه الخلقة ، ب : إذا قال أحدكم «آمين» والملائكة في السماء فوافت إحداهم الأخرى غفر لها ما تقدم من ذنبه ، ومسلم : (١٧٩٥) ك : الجهاد والسير ، ب : ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين .

فليس همّنا أن يحرق اللهُ الكفار ، وإنما همّنا أن يهديهم ، فما بالك بأهلك الذين تشکوهم .. اللهم اهدِ المسلمين وغير المسلمين يا رب .

أيها الإخوة ، كُفُوا عن الشُّكُورِ وابدأوا العلاج .. كفاؤكم شكاوى .. أنا لا أستطيع القيام للفجر ، ولا أقدر على الدُّعْوة ، ولا أقدر على كذا .. ولا أستطيع كذا .. طالما تشتكى فلن تقوم ولن تقدِّر ولن تستطع .

الرسول ﷺ لما جاءه الرجل المُؤْسُوسُ وقال له : إن أحذنا ليجدُ في نفسه ما يتاعظُمُ أن يتكلّم به ؛ قال : «الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسْوَسَةِ . إذا وجد أحدُ منكم ذلك فليقلُّ : آمنتُ باللهِ ورسوله ، ولنيستعدُ باللهِ ثلَاثًا ولِيَتَّهُ»^(١) ، «ولِيَتَّهُ» : أي لا يفكِّر فيها مَرَّةً ثانية .

«الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسْوَسَةِ» .. أي إنَّ الشَّيْطَانَ حينما ييأسُ ، ويُخْبِطُ في إغواءِ الرَّجُلِ ؛ لا يَجِدُ شَيْئاً يَكِيدُ به سَوَى هذه الوسْوَسَةِ .. فهي سلاحُ الْمُضَعِّفِ ؛ ولذا قال النَّبِيُّ ﷺ : «الحمد لله» . وقد قال ﷺ أيضاً في قطع الوساوس : «اتَّفَلْ عن يَسَارِكَ ثلَاثَةَ ، وَقَلْ : اللَّهُمَّ رَبِّي لَا شَرِيكَ لَه»^(٢) .

اتَّفَلْ على الشَّيْطَانِ ، فهذا احتقارٌ له وازدراءٌ وإهانةٌ ؛ حتى لا يأتيكَ مَرَّةً ثانيةً .. ولا تَعْبُأُ به .. وإنما انشغل باللهِ وحده فقلْ : اللهُ ربِّي لَا شَرِيكَ لَه .. ثم اتَّهُ عن ذلك ؛ أي : لا تتكلّم ولا تسأَل أحداً ولا تقرأَ عن هذه المسألةِ ولا تبحث عنها ؛ وإنما انتهِ ؛ لتنتَقطَ الوساوسَ .

(١) أخرجه : أحمد (١/٢٣٥) ، وأبو داود ، ك : الأدب ، ب : في رد الوسوسَة

(٢) مصححة الألباني - رحمه الله تعالى - في «صحبي السنن» .

(٢) أخرجه : أحمد (١/١٨٣) ، وابن جِبَانَ في «صحبيه» (٢٠٦/١٠) .

إذا فالعلاج في أربعة أمور :

- ١- قل : آمنت بالله ورسوله .
 - ٢- استعد بالله من الشيطان الرجيم .
 - ٣- انفل عن شمائلك ثلاثة .
 - ٤- اسْكُث .. التزم الصمت .. لا تشتكي .. انته .. أغلى هذا الباب تماماً .
- كثير من الشباب يقول : أبي يعمل كذا وكذا ، وأمي تقوم بكتدا وكتدا .. وأختي .. وأخي .. والمسجد فيه كذا ، والإمام يفعل كذا .. والشيخ قال كذا .. ويظل يشتكي .. ارحم نفسك ، ولا تكثـر الشكوى .. لا تكثر الشكوى ، وإنما اسْكُث .. اصمت لتسـتـريح وترـيح الناس من هـمـك ومشـاكـيلـك ، فالناسـ بهـمـ ما يـكـفـيهـمـ ، وإنـماـ الرـاضـيـ منـهـمـ مـنـ أـرـضـاهـ اللـهـ ؛ فازـضـ بالـلـهـ واثـكـ هـمـوكـ إـلـيـهـ وحـدـهـ يـكـفـكـ ماـ هـمـكـ ؛ فـهـوـ سـبـحانـهـ
- يـعـلـمـ حـالـكـ .

إخواته ، إن الذين يشكون الواقع لن يغيروه مطلقاً ؛ بل ولن يتغيروا هـمـ أيـضاـ ، سـيـظـلـونـ هـكـذـاـ فـيـ وـخـلـ الفتـنـةـ يـقـاسـوـنـ المـرـارـةـ وـالـكـرـبـ طـالـماـ أنـهـمـ لـمـ يـبـدـعـواـ العـلاـجـ مـنـ عـنـدـ أـنـفـسـهـمـ .

إن الوصول إلى الله - أحبتـيـ فيـ اللهـ - يحتاجـ مـنـاـ أـلـاـ نـقـفـ أمامـ المشـاكـلـ والـهـمـومـ مـكـتـوـبـ فيـ الأـيـديـ ، وـأـضـعـيـنـ أـيـدـيـنـاـ عـلـىـ خـدـودـنـاـ نـشـتـكـيـ إـلـىـ كـلـ رـائـحـ وـغـادـيـ ؛ بـلـ لـابـدـ مـنـ التـحرـيـكـ وـالـعـلاـجـ .. فـعـاهـدـ نـفـسـكـ - أـخـيـ فيـ اللهـ - مـنـ الآـنـ أـلـاـ نـشـتـكـيـ مـعـلـقاـ .. كـفـ عـنـ الشـكـوـيـ وـابـدـاـ العـلاـجـ ؛ ليـعـيـئـكـ اللـهـ عـلـىـ الـوصـولـ إـلـيـهـ .

الأصل الخامس والعشرون

لَيْسَ الشَّانُ أَنْ تُحِبَّهُ ؛ إِنَّمَا الشَّانُ أَنْ يُحِبَّكَ

فهل يُحِبُّكَ اللَّهُ؟

إخوتي في الله ، والذي فلق الحبة وبرأ الشسمة إني أحبكم في الله ، وأسائل الله ﷺ أن يجمعنا بهذا الحب في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله .. أحبتي في الله ، الحب .. الحب حب الله .. اللهم ارزقنا حبك ، وحب كل عبد صالح يحبك ، وحب كل عمل صالح يقربنا إلى حبك ، اللهم اجعل حبك أحب إلينا من أهلينا وأنفسنا ومن الماء البارد على الظما .

أحبتي في الله ، يذكر ابن القيم أن الدنيا لا تقوم إلا على الحب؛ فكل حركة وسكنة في الحياة إنما الدافع عليها الحب ، وأصل الحب حب الله .. وليس القضية أن تعزز وتظل الليل والنهار تقول : أحبك ؛ وإنما الشأن أن يحبك هو؛ ولذلك اختار الله قوما ، قدم حبه على حبهم ؛ قال : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ مَآتَنَا مِنْكُمْ مِنْ يَرَنُّهُ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِهِمْ وَيُحِبُّوْنَهُ» [المائدة: ٥٤] ، فقدم حبه لهم على حبهم له ، فهو - سبحانه - أحبهم ويحبه لهم أحبوه؛ ولذلك فإن الأصل في هذه القضية - أيها الأخ الكريم - : هل يُحِبُّكَ اللَّهُ!!

هذا هو السؤال .. الله يُحِبُّكَ أم لا؟ .. سؤال يحتاج منك فعلًا إلى إجابة .. هل تَضُلُّ؟ .. هل تَشْتَرِقُ؟!

مثال : لو قالوا : إن الممثلة الفلانية تحبك ، فترأك تقول لأحد الناس : فلانة تحبني ، فينظر إليك متعجبًا ويقول لك : تحبك أنت !! بماذا ؟ ، وعلى أي شيء تحبك !! ، ومن أنت !! .. «وَلَهُ الْمَثُلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» [الروم: ٢٧] .. فلو كنت جالساً مع الناس وقلت : إن الله يحبني ؛ ستفعل لك أيضًا : وعلى أي شيء يحبك ، ولم يحبك ؟ ، وبماذا يحبك ؟ ، ومن أنت حتى يحبك ؟ !! .. الله الكبير .. الله العظيم .. الله الجليل .. الله الملك المتعال يحبك أنت ؟ !! .. ماذا فيك يحب لأجل أن يحبك الله ؟ !!

سهل جداً أن تقول : أحبه ؛ ولكن من الصعب أن تقول : يحبني ..

وإذا قلت : نعم يحبني ، فما طلبت منه شيئاً إلا وأغطانيه ؛ أقول لك : ليس شرطاً .. فقد أعطى الكفار ما يريدون ؛ فهل معنى ذلك أنه يحبهم ؟ ! القضية إذا خطيرة ، والكلام فيها وعنها أيضاً خطير .

ويستدل ابن القاسم - رحمة الله - لذلك فيقول : كيف وقد أغطي أبغض خلقه عنده .. يعني : أن إيليس لمسأله الإنذار أعطاه له .. «فَقَالَ أَنْتَ فِي إِنْذَارٍ يَوْمَ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ» [الأعراف: ١٤-١٥] .. إيليس طلب فأعطيه الله فهل يحبه ؟ !! لا .. فليس شرطاً في الإعطاء أن يحبك .. قد يعطيك لأنه يكرهك .. لا يريدك .. خذ ولا أريد أن أسمع صوتك .. ولذلك فإن من الأصول المهمة : تمام الخدلان اشغال العبد بالنعمه عن المتعه ..

هل يحبك الله ، وهل تحب الله ؟ .. نعم : أحبه ؛ إذاً فما الدليل ؟ .. إن أي ولد من يجلسون على التواصي فيواعد البيت الفلانية ، تجده وهو

ذاهب لمقابلتها في أحسن شكل ، وقلبه يرفرف ، ويكان يطير فرحا .. فهل وأنت قادم إلى الصلاة يرفرف قلبك فرحا لمقابلة ربك؟!! .. إن لم يكن فاعلم أنك لا تُحبه .. هذا كلام منطقى .. إذا لم تكن سعيدا بلقاء الله ، وأنت في بيت الله ، ومع الله ، فأنت لا تُحبه ..

ولذلك فإن من أدعى محبة الله ثم مال بقلبه إلى الدنيا فهو كذاب .. نعم : إذا لم يرفرف قلبك بحبه فأنت كذاب .. المشكلة ليست في أن تُحبه ، المشكلة في أن يُحبك - اللهم أحبتنا يا رب - ، فإذا أحبك نلت السعادة والوصول .

يقول ابن القيم : «فهي محبة تقطع الوساوس ، وتلذذ الخدمة ، وتسلي عن المصائب» .. فإذا أحبك انقطعت عنك الوساوس .. كثير من الشباب الملتهم اليوم مبتلى بالوسوسة .. نعم : لأنه لا يحب الله ، ولو أحبه لانقطعت عنه الوساوس .. وسبب آخر هو : أن المؤنسون دائمًا يسأل عن الوساوس ويشتكي منها - كما قلنا في الأصل السابق .. اللهم إنا نسألك أن تعافي كل مبتلى مسلم .

أخي في الله ، لا يُؤنسُ إلا فارغ ، أما الذي قلبه ملآن ودماغه مشغول ففيه يُؤنس؟!؛ فهو مشغول بعيداً عن هذه الوساوس .. إنه مشغول بالله وبحب الله ..

وحيث يُحبك الله يملأ قلبك بحبه فلا تشغله بغيره - اللهم أحبتنا يا رب - ، فتُجذب نفسك مشغولاً ليلاً ونهاراً به - سبحانه وتعالى .. ليس لك هم إلا الله ﷺ والوصول إليه ، ونيل رضاه ، فتعمل لخدمته ، فتظل مشغولاً به - سبحانه - وحده طيلة الوقت وطيلة العمر ..

نعم : إذا أحبك شغل قلبك بمحبه ، وجوارحك بخدمتيه ، وعقلتك بالفكرة فيه ؛ ثم لا تجد في نفسك بقية لغيره .. أول شيء في الحب أن المحبة تقطع الوساوس .. فاللهُم ارزقنا حبك يا رب .

لَمْ يَلِدْ الْحُبُّ إِلَيْهِ الْخِدْمَةُ . . أَحَدُ إِخْرَانِا ذَهَبَ لِيَعْتَمِرَ فَكَانَ يَقُومُ بِخَدْمَةِ الْمُعْتَمِرِينَ . . أَسَأَ اللَّهَ أَنْ يَتَقْبِلَ مِثَا وَمِنْكُمْ وَمِنْهُ . . اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةِ . . قَلْتُ لَهُ : اجْعَلْ قَلْبَكَ - وَأَنْتَ تَخْدُمُ إِخْرَانِا - مَشْغُولًا بِاللَّهِ . . وَاسْتَشْعِرْ نَظَرَهُ إِلَيْكَ ؛ لِتَزَدَّادَ تَلَذِّذًا وَحُبًّا فِي الْخِدْمَةِ .

أَخِي فِي اللَّهِ، لو أَنِّكَ أَتَيْتَ بِرَجُلٍ يَشْتَغِلُ عَنْكَ لِيَذْهَنَ لَكَ هَذَا الْمَكْتَبَةِ مَثَلًا وَأَنْتَ وَاقِفٌ خَلْفَهُ ؛ فَسِيَظْلُمُ يَعْمَلُ بِحَدَّرٍ وَجِدْرٍ . . فَاجْعَلْ هَذَا إِحْسَاسَكَ .. الْمَرَاقِبَةِ .. وَاقِفٌ أَنْتَ أَمَامَ حَبِيبِكَ فَهُوَ نَاظِرُكَ .. حَبِيبِكَ الَّذِي يَشْتَغِلُ لَهُ وَتَعْمَلُ لَهُ، اسْتَشْعِرْ مُراقبَتَهُ لَكَ دَائِمًا؛ سَاعَتَهَا سَتَعْمَلُ بِحُبٍّ وَتَلَذِّذٍ، لَيْسَ عَلَى خَوْفٍ وَفَقْطَ، بَلْ بِحُبٍّ؛ لَأَنَّ حَبِيبَكَ يَرَاكَ، وَالْمَحْبُ يُحِبُّ أَنْ يَرَاكَ حَبِيبُهُ ذُوَمًا وَهُوَ يَعْمَلُ لَهُ .

صَلَيْتُ مَرْءَةً بِالنَّاسِ فَأَطْلَطْتُ الصَّلَاةَ وَقَلَّتُ لَهُمْ : إِنَّ النَّاقِدَ بِصِيرَ (أَعْنِي : أَنَّ اللَّهَ نَاظِرُنَا) .. وَمَرْزَنَا مَرْءَةً عَلَى «اِسْتَرْجِي» وَقُدَّامَهُ الطَّقْمَ «أَنْتَرِي» وَهُوَ جَالِسٌ يَذْهَنُهُ .. يُمْسِكُ بِالْفَقْطَنَةِ وَالرِّيشَةِ .. قَلْنَا : مَا لَكَ لَا تَتَهَيِّ؟! ؟
قال : إِنَّ صَاحِبَ الطَّقْمِ يُدْقِقُ جِدًا فِي كُلِّ شَيْءٍ .. أَفَهِمْتَ؟!

وَلَذِكَ فَإِذَا صَلَيْتَ فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ إِلَى وَجْهِكَ فِي صَلَاةِكَ مَا لَمْ تَلْتَفِتْ .. إِذَا قَمْتَ لِلصَّلَاةِ فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَنْظُرُ إِلَيْكَ وَيَطَالِعُكَ .. وَلَذِكَ كَانَ الْوَاحِدُ مِنَ السَّلَفِ إِذَا تَوَضَّأَ اضْفَرَ لَوْنَهُ، وَارْتَعَشَ

حَلْدُهُ، يَقُولُونَ لَهُ : مَالِكُ؟!؛ يَقُولُ : أَتَدْرُوْنَ بَيْنَ يَدَيْنِي مَنْ سَاقُ؟!!!

وَلِذَلِكَ فَإِنَّ مِنَ الْأَصْوَلِ الْمُهِمَّةِ أَيْضًا : الْاسْتِحْضَارُ الْذَّهْنِيُّ لِلْعِبَادَاتِ قَبْلَ الدُّخُولِ فِيهَا، سَبِيلُ الْإِخْلَاصِ فِيهَا .

أَيُّهَا الْأَخْ كَرِيمُهُ، الْحُبُّ تَلَذُّذُ الْخَدْمَةِ .. نَعَمْ : يُلَذِّذُ الْحُبُّ الْخَدْمَةِ .. تَكُونُ الْخَدْمَةُ لِذِيْدَةِ جَدًا .. قَالَ أَمِيرُ الشُّعُرَاءِ عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُتَلَذِّذًا لَهُ :

رَضِيَّةً نَفْسُهُ لَا تُشْكِي سَأَمًا
وَمَامِعَ الْحُبُّ إِنْ أَخْلَصْتَ مِنْ سَأَمٍ
بَكَنِي أَحَدُ السَّلْفِ عِنْدَ مَوْتِهِ، قَيْلَ : مَا يُنْكِيَكَ؟، قَالَ : «أَنْكِي لِأَنِّي
أَمُوتُ وَلَمْ أَشْفَقْ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ» .. أَنْكِي لِأَنِّي أَمُوتُ وَلَمْ أَشْفَقْ مِنْ قِيَامِ
اللَّيْلِ .

وَكَانَ بَعْضُ السَّلْفِ يَقُولُ عِنْدَ مَوْتِهِ : «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَ لِأَحَدٍ أَنْ
يُصْلَى فِي قَبْرِهِ فَاجْعَلْنِي مِنْ يُصْلَى فِي قَبْرِهِ» .. لَمْ يُشْعِنْ مِنَ الصَّلَاةِ
وَيُرِيدُ أَنْ يُصْلَى أَكْثَرًا .. قَالُوا هَذَا؛ لِأَنَّهُمْ أَحَبُّوْا اللَّهَ، فَاسْتَحْضَرُوا
الْعِبَادَاتِ ذَهْنِيًّا .. اشْتَغَلُوا فِي الْعِبَادَاتِ بِمَحِبَّةِهِ؛ فَانْقَطَعَتْ عَنْهُمُ الْوَسَاوسُ
وَتَلَذَّذُوا بِالْخَدْمَةِ، وَتَسْلُوا بِتَلَكَ الْمَحِبَّةِ عَنْ كُلِّ الْمَصَابِ وَالْمَتَاعِبِ .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «وَجَعَلْتُ قُرْآنَهُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١) .. هَذِهِ هِيَ
الْتَّلَذُّذُ الْحَقِيقِيَّةُ، وَهَذَا هُوَ التَّلَذُّذُ فِي الْخَدْمَةِ بِحُقُّهِ .. فَهَلْ أَحَبَّتِ رَبِّكَ

(١) أَخْرِيجَةُ أَحْمَدَ (١٢٨/٣ ، ١٩٩)، وَالنَّسَائِيُّ (٣٩٤٩ ، ٣٩٥٠)، كَ : عَشْرَةُ النَّسَاءِ، بَ : حُبُّ النَّسَاءِ، وَقَالَ الْأَلْيَانِيُّ - رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : حَسَنٌ صَحِيحٌ .

فعيشت هذا النوع؟ .. هل أحسنت بحلوة الحب وتمتعه ولذته وجماله بعد أن كنت في جاهلية؟ ..

كنت تأكل وترثب وتهرج وتمشي مع البنات وتسمع الموسيقى وتدخل السينما وتذهب إلى المسرح وتدخل الملاهي وتُسافر تصيف على البحر .. كنت في جهل .. في ضلال .. في جاهلية عمياء، وتاب الله عليك ودخلت باب المسجد وبدأت تحب الله .. بدأت تحبه بعد حب البنات .. تحب المصحف بعد الموسيقى والأغاني .. بدأت تصلّى بعد الجلوس على المقاهي و«الشيشة» .. بدأت تمشي في طريق الخير بعد أن كنت تمشي تعاكس الفتيات .. فأنسنت بالفرق .. وعرفت النظافة وفهمت الطهارة .. فعيشت الفرق .. فإذا أحسست بذلك وعشته فلا تستطيع أن تسكّ .. لا بد أن تنقل أحاسيسك هذه لغيرك .. لا بد.

ولكن للأسف الشديد كثير منا حينما يلتزم ويريد أن ينقل أحاسيسه ينقلها بصورة غير لائق فتنفر الناس، ويكرهون في الدين .. حرام هذا .. حرام .. غلط .. غلط شديد .. تجده يقول للناس: الشيخ الفلاني يحرّم كذا وكذا .. فيكرهون الشيخ والدين .. لا .. ليس الأمر أن تتكلّم عن غيرك؛ إنما الأمر أن تنقل أحاسيسك أنت .. قلن لهم: هل تعرفون بماذا أشعر؟ ثم تنقل إحساسك إليهم.

قل لهم: وأنا ساجد أشعر بكلّ ذا، وأنا أقرأ كلام الله أحسن بكلّ ذا .. حينما أذكر الله فأقول: سبحان الله العظيم وبحمده يمتلأ قلبي راحة واطمئنانا .. وبذلك تصل إلى قلوب الناس ، أما إذا لم تحس بما تقول

فأنت كذاب في التزامك ولما تلتزم إلى الآن.. ولذلك أحس الجمال واستشعر حلاوة الإيمان وطعم الإيمان.. أملاً قلبك بالمحبة لتتلذذ بالخدمة، وتسلّى بالمحبة عن المشاكل والهموم.

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْمُحَبَّةَ تَشَاءُ مِنْ مُطَالِعَةِ الْمِنَةِ - كما يقول ابن الق testim .. روبي عن رسول الله ﷺ أنه قال : «أَحَبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْدُوُكُمْ بِهِ، وَأَحَبُونِي بِحُبِّ اللَّهِ»^(١) .. أَحِبَّ اللَّهُ فَهُوَ الَّذِي يُطِيعُكَ وَيُنْفِقُ عَلَيْكَ ..

نَعَمْ : القلوب مجبولة على حب من أحشر إليها؛ فلو أن إنساناً أعطاك اليوم عشرة جنيهات ، وغداً أعطاك عشرة أخرى ، وبعد غد أعطاك مثلها أيضاً .. وهكذا كل يوم يعطيك ، وبعد العشرة أعطاك مئة ، وبعدها ألفاً ، ثم مليوناً .. وهكذا كل يوم في زيادة؛ فلا شك أنك تحبه حباً شديداً؛ فكيف بك لو كان المعطي هو الله ! .. فالله - سبحانه وتعالى - أعطاك ملايين ممليئة ، فكم تساوي عينك وكم يساوي سمعك .. كم تساوي الدنيا إن فقدت عينيك !!؟

الله - سبحانه وتعالى - أعطاك ولا يزال يعطيك .. فالهوا الذي تنفسه لو كان النفس منه بعشرة قروش؛ فكم تدفع كل يوم؟! .. لو كنت تدفع كما تدفع لعداد الكهرباء أو فاتورة الهاتف ، فكم كنت ستدفع مقابل هذا الهوا؟! .. لو أن الله يحاسبك ويأخذ منك مالاً على أنه يمكنك من

(١) أخرجه : الترمذى (٣٧٨٩) ، ك : المناقب عن رسول الله ﷺ ، ب : مناقب أهل بيته النبى ﷺ . وقال : هذا حديث حسن غريب ، إنما نعرفه من هذا الوجه ، وقال الألبانى : ضعيف .

التكلُّم والسماع فكم كنت تدفع؟! .. أنطقك وخلقك ولا يريده منك شيئاً؛ «فَالْوَّا أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ» [فصلت: ٢١] .. اللهم كما أنطقتنا بقدرتك وعظمتك أمنِّ علينا بحُبِّك .. وامنِّ علينا بمطالعه نعمتك لنحبك .. اللهم ارزقنا حُبَّك يا رب .

ماذا كنت تصنع - أخي في الله - لو كان هناك فاتورة على كل نعمة من هذه النعم؟! .. فطالع يَعْمَ الله، واشكره عليها، وأحبه من كل قلبك . فلا شك أنَّ مَنْ يُطالع يَعْمَ الله عليه تُشَرِّي في راهب قلبه وعيشه - لا شك أنه سَيَذُوبُ حُبًا في الله .. فهو - سبحانه - يعطيك ولا يتضرر مِنْكَ شيئاً ، عكس المخلوق تماماً؛ فالتجار جمِيعاً يتعاملون معك ليربحوا منك ، أما الله : فهو - سبحانه - وحده الذي يتاجر معك لتربح عليه .. يعطيك حين يَجِدُ في قلبك حُبًا له؛ فأحبيه فهو المعطي .. أخيه ليعطيك .. أحبيه ليحبك .

الشاهد: أن المحبة تُثبِّت من مطالعة المؤنة؛ قال الله : «فَادْكُرُوا إِلَاهَ اللَّهِ» [الأعراف: ٧٤] .. ذُكر النعم يُثبِّت المحبة .

والدي - اللهم ارحمه وموتي المسلمين - كان إذا تعب يقول له الناس : مالك؟ ، فيقول : الحمد لله ، لا تقل : مالك؟؛ لأن بعض الناس إذا قلت له : مالك؟ ، يقول : عندي صداع ، والصداع جاءني بسبب ارتفاع الضغط ، وارتفاع الضغط أصله تعب في المعدة ، وبسبب ارتفاع النبض ارتفاعاً في درجة الحرارة .. ويظلُّ يُعَدُّ وكأنه يشتكي ربه للناس .. فوالدي - يرحمه الله - يقصد : أن لا تفتح للناس باب الشكوى ؛ ولكن افتح لهم باب ذِكر النعم .

تَجْدُ النَّاسَ إِذَا سَأَلْتَهُمْ : كَيْفَ الْأَخْبَارُ؟ يَقُولُونَ لَكَ : الْبَنْثُ مَرِيضَةُ ، وَزَوْجِي لَا أَدْرِي مَاذَا بَلَّاهَا .. وَنَحْنُ نَسْكُنُ فِي الدُّورِ الْأَرْضِيِّ ، وَالْأَرْضِيِّ فِيهِ رُطُوبَةٌ ، ثُمَّ إِنَّ الْجِيرَانَ فِي وَجْهِنَا فَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْتَحَ الشَّبَّاكَ ، وَالْأَطْفَالُ يَلْعَبُونَ فِي الشَّارِعِ يُزَعِّجُونَنَا .. وَهَكُذا .. شَكُورٍ .. شَكُورٍ .. فَيَعِيشُونَ يَشْتَكُونَ دَوْمًا !!

سَبْحَانَ اللَّهِ ! ، هَلْ وَجَدْتَ إِنْسَانًا تَجْلِسُ مَعَهُ فَيَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ أَعْطَانِي .. وَأَعْطَانِي؟! .. هَلْ فَعَلْتَ أَنْتَ؟! .. هَلْ جَلَسْتَ مَعَ النَّاسِ مَرْءَةً وَقَلْتَ : وَاللَّهِ الْعَظِيمِ إِنَّ اللَّهَ أَكْرَمَنِي .. فَقَدْ كُنْتَ فَقِيرًا لَا أَجْدُ لَقْمَةً فَأَعْطَانِي وَأَغْنَانِي .. الْحَمْدُ لِلَّهِ تَعَاجَنِي وَلَمْ أَكُنْ أَسْتَحْقُ .. لَمْ أَكُنْ أَسْتَأْهِلُ؛ وَلَكِنْهُ - سَبْحَانَهُ - وَهَبَّنِي زَوْجَةٌ صَالِحةٌ ، وَأَعْطَانِي شَفَةً ، وَوَهَبَّنِي أَوْلَادًا ، وَصِحَّتِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مُمْتَازَةً .. الْحَمْدُ لِلَّهِ عَمْلِي هَادِئٌ فَزَمَلَانِي يُحْبِبُونِي .. وَالْفَضْلُ لِلَّهِ ، الْمَرْتَبُ كَافٍ .. وَيَفْضُلُ اللَّهُ ، الْأُمُورُ عَلَى مَا يُرِام .. هَلْ جَلَسْتَ مَعَكَ أَحَدًا فَقَالَ لَكَ هَذَا الْكَلَامُ؟!

إِنَّكَ الْيَوْمَ فِي كُلِّ مَجَالِسِكَ تَشْتَكِي لِلنَّاسِ الصِّدَاعَ وَالْمَشَاكِلَ وَالْمَعْصَرَ وَالزَّوْجَةَ وَالْعِيَالَ وَالْبَيْتَ وَالشُّغْلَ وَالْهَمَّ وَالنَّكَدَ .. رَغْمَ أَنَّ اللَّهَ أَمْرَ بِالْعَكْسِ؛ قَالَ - تَعَالَى - : «وَأَنَّا يَنْعِمُ بِرَبِّكَ فَحَدَّثْ» [الضَّحْيَ: ١١] .. فَإِنْ حَدَّثْتُكَ بِالْتَّنَعْمَةِ؟! .. أَينْ حُبُّكِ؟! .. الْحُبُّ يَتَبَثُّ مِنْ مَطَالِعِ الْمِنَةِ .

كُنْتُ مَرْءَةً أَقْوَمُ بِعُمْرَةِ - وَأَقْوَلُ ذَلِكَ لِأَعْلَمُكَ كَيْفَ تَعْمَلُ - ، وَكُنْتُ مَرِيضَةً بَعْضَ الشَّيْءِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمَيْةُ - ؛ فَبَعْدَ أَنْ طَفَّتْ وَجَدْتُ أَنْ رِجْلِي تُؤْلِمُنِي فَلَا أَسْتَطِعُ وَلَا أَقْدِرُ فَأَجْرَرْتُ كُرْسِيًّا - وَيُؤَجِّرُ هَنَاكَ بِخَمْسِينَ

أو بخمسة وخمسين ريالاً - لأسعى به .. فإذا بي وأنا عليه مستريح أنظر إلى الناس فأجد امرأة مسكينة لا تقدر على المشي تستند إلى سور الصفا والمروة .. فقلت لها وأنا راجع : انتظري لحظة ، تعال يا بني أعطني كرسيًا ، قالت لها : اركبي : قالت : ليس معي مال ، قلت : أنا دفعت ، قالت : كم أنت كريم يا رب .. أنت تراني وتعرف حالي وأعطيتني كرسيًا .. أنا أحبوك يا رب .

فكم تساوي هذه الكلمة - إخواته؟! .. وكم يساوي أن يجعل أحدًا ينطق بحب الله؟! .. والله ، ملائكة الدنيا لا تساويها .. ربنا أكرم مني وأعطاني كذا وكذا ، وعمل لي كذا وكذا ، وطلبت منه كذا فوهبني كذا ، وسترنني في كذا ، وعافاني من كذا وكذا .. هكذا يكون التحدث باللعم ، ولا يكون كُلُّ كلامنا أن نشتكي .. هذا ما أريد أن أوصلكم ، وأريدكم أن تغسلوا به .. أن تجعلوا الناس يحبون الله .

وإذا كانت المحجة تثبت بمطاعة الولي؛ فإنها تثبت باتباع السنة - اللهم

ارزقنا اتباع السنة يا رب ، اللهم إنما تسائلك اتباع السنة وفعل السنة .. نعود بك اللهم من البدع وأهلها .. المحجة تثبت باتباع السنة .. كُن خلف النبي مُحَمَّدٌ ﷺ تصل .. كن واحدًا لواحد على طريق واحد تصل .. كن شخصًا واحدًا ليس بوجهين فأخلصن .. «واحد» أي : الزم التوحيد .. على طريق واحد هو اتباع السنة .

على طريق النبي مُحَمَّدٌ ﷺ تثبت ولا تتلوّن ولا تغيير ولا تجديد أو تتحوّل .. أثبت على الطريق السُّلْطَنِي - اللهم ارزقنا الثبات على الدين .

وتنمو المحبة على الإجابة بالفاقه .. لابد أن تظهر فقرك وضعفك
وذلك ومسكتك بين يدي الله .. بعضنا - يا شباب - يظن أنه «فتوة» ..
ما لا يكون بالله لا يكون بغيره؛ قال - تعالى - : **«وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ»** [الإنسان: ٣٠]؛ ولذلك تنمو المحبة بإظهار الفاقه والضعف
والفقير والذل والمسكينة .

شيخ الإسلام ابن تيمية رأى إنساناً يقف تحت حر الشمس حاملاً
الرأس حافياً، فسأل عنه فقالوا له : إنه ثذر أن لا يجلس في الظل ، فقال
شيخ الإسلام : «يا جاهل ، هذا تقاوٍ على الله».. أتقاوى على
الله!!؟.. قال لك الله : البن وتسئر واركب ، فلماذا تقاوٍ
عليه!!؟.. لا تقاوٍ بنفسك على الله ، قال - تعالى - : **«إِنَّمَا الْصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ»** [التوبه: ٦٠]؛ فأظهر فقرك ليصدق الله عليك .. أظهر ضعفك
ليرحمك .

يقول ابن الجوزي : «تضاعف ما أمكنك؛ فإن اللطف مع الضعف
أكثر» .

كلما أظهرت ضعفك كلما لطف بك ، ولا تقلن : أنا أستطيع أن أواجه
كذا وأفبر على كذا ، قال رسول الله ﷺ : «لا تتمئن لقاء العدو»؛ لكن
اسأوا الله العافية^(١) .. اللهم إنما نسألك العافية في الدنيا والآخرة ..
فإياك أن تعتقد أنك «فتوة» ..

(١) متفق عليه : البخاري (٢٩٦٦) ، ك : الجهاد والسير ، ب : كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل
أول النهار آخر القتال حتى تزول الشمس ، ومسلم (١٧٤٢) ، ك : الجهاد والسير ،
ب : كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر .

إن البعض يقول : تخاف علينا من الجامعة بسبب الاختلاط .. لا .. لا يهمني الاختلاط .. فلو كان أمامي ألف عارية فلن تهزم ميني شغرة .. أقول : اللهم ثب عليك .. كثيرون من الناس يقولون هذا الكلام ويعملون به ولا يظهر ضعفه ، فيعتمد على نفسه ؛ فيكون أول من تندق عنقه بما لا يخشاه أو يحدره .. نعم : يكون أول الواقعين في الفتنة .

فالجأ إلى الله وافتقر إليه فأنت ضعيف .. «وَحَلَقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا» [النساء: ٢٨] ، خلقك الله ضعيفاً لتتقرئ عليه .. قال ابن تيمية في تفسيرها : «ضعيفاً أمماً شهوة فرججه». إن اعتمادك على نفسك في مواجهة الفتنة أعظم عند الله وأشد إثماً من الذنب نفسه .

ولقد كان رسول الله ﷺ يقول : «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً»^(١) .. فالله لا تكلنا إلى أنفسنا فتهلكنا .. لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك .. أمين .

أخي في الله ، حبيبي في الله ، يا من أنت مشغوف بالوصول إلى الله ، إذا كنت تحب ربك فسأل نفسك : هل يحبك ؟ ! ، فليس الشأن أن تحبه ؛ إنما الشأن أن يحبك .. والعلامة أنه إذا أحبك شغلك به وحده فعشت له وبه .. إذا أحبك شغل قلبك بحبه ، وجوارحك بخدمته ،

(١) أخرجه : البزار (٣١٩٠) - كشف الأستار ، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٣٨/٧) بلقطه ، وأحمد (٤٢/٥) ، وأبو داود (٥٠٩٠) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٠١) بمعناه مطولاً ، وقال الألباني : حسن .

وَعَقْلَكَ بِالْفِكْرِ فِيهِ ؛ ثُمَّ لَا تَجِدُ فِي نَفْسِكَ بَقِيَةً لِغَيْرِهِ .. فَانظُرْ أينَ قَدْمُكَ ..
إِذَا أَحْبَكَ وَضَعَ قَدْمَكَ فِي الْمَوَاطِنِ التِّي يَرْضَاهَا .. نَعَمْ : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ
تَعْرِفَ مَقَامَكَ فَانظُرْ أينَ أَقامَكَ؟!

علامات حُبِ اللَّهِ - تعالى - للعبد^(١) :

١- اتَّبَاعُ النَّبِيِّ ﷺ .

قالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : «فَلْ إِنْ كُنْتُمْ تُجْبُونَ اللَّهَ فَأَتَيْعُونِي يُخْبِتُكُمْ أَلَّهُ
وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [آل عمران: ٣١] .

٢- الدَّلَلَةُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

٣- الْعِزَّةُ عَلَى الْكَافِرِينَ .

٤- الْمُجَاهِدَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

٥- عَدْمُ خَوْفِ اللَّوْمِ فِي اللَّهِ .

وَجَمِيعُ هَذِهِ الْأَرْبَعَ قَوْلُ اللَّهِ - تَعَالَى - : «يَكَانُوا أَلَّذِينَ مَاءْمَنُوا مَنْ يَرْتَدِدُ
وَمِنْكُمْ عَنِ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْبِيْهِمْ وَيُجْبِيْهُمْ أَذْلَلَةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْزَلَةً عَلَى
الْكُفَّارِ يُجْهَدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَآتَيْرُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ» [الْمائدة: ٥٤] .

٦- التَّقْرُبُ إِلَى اللَّهِ بِالنَّوَافِلِ .

(١) انظر : رياض الصالحين ، باب : علامات حُبِ اللَّهِ - تعالى - للعبد ، والبحث على
التَّخْلِيقِ بِهَا ، والصَّعْدَى فِي تَحْصِيلِهَا (١٩٤٥ - ١٩٩٥) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَالَ : مَنْ عَادَنِي لِي وَلِيَا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْحَرَبِ »^(١) ، وَمَا تَقْرَبَ إِلَيَّ عَبْدِي يُشْنِئُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَرَأُ إِلَيَّ عَبْدِي يَتَقْرَبُ إِلَيَّ بِالثَّوَافِلِ حَتَّى أَجِبَهُ ، فَإِذَا أَخْبَيْتُهُ ، كُنْتُ سَمِعَةُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرَجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلْتُنِي أَغْطِبْتُهُ ، وَلَئِنْ أَسْتَعَاذْنِي لَأُغْيِدَنِي »^(٢) .

٧- القبول في الأرض .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إِذَا أَحَبَّ اللَّهَ - تَعَالَى - الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ : إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يُحِبُّ فُلَانًا فَأَخْبِهِ ، فَيَنْجِبُهُ جِبْرِيلُ فِينَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّهُ فَيَنْجِبُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يُؤْسَطِعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ »^(٣) .

وفي رواية لمسلم : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَاهُ جِبْرِيلَ فَقَالَ : إِنِّي أَحِبُّ فُلَانًا فَأَخْبِهِ ، فَيَنْجِبُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يَنْادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّهُ فَيَنْجِبُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يُؤْسَطِعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ . وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَاهُ جِبْرِيلَ فَيَقُولُ : إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغَضُهُ ؛ فَيَنْهِي عَنْهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يَنْادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ : إِنَّ اللَّهَ يَنْهَا عَنْهُ فُلَانًا فَأَبْغَضُهُ ، ثُمَّ تُؤْسَطِعُ لَهُ الْبُغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ »^(٤) .

(١) آذَنَنِي : أي أعلمتهُ بِأَنِّي مُحَارِبٌ لَهُ .

(٢) أَخْرَجَهُ : البخاري (٦٥٠٢) .

(٣) أَخْرَجَهُ : البخاري (٣٢٠٩) .

(٤) أَخْرَجَهُ : مسلم (٢٦٣٧) .

٨ - التَّعْبُدُ لِلَّهِ - تَعَالَى - بِأَسْمَاهُ وَصَفَاتِهِ .

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بَعْثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيرَةِ فَكَانَ يَقْرَأُ لِأَضْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِ«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» ، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ : «سَلُوْهُ لَأَنِّي شَيْءٌ يَضْطَعُ ذَلِكَ؟» ، فَسَأَلُوهُ : فَقَالَ : لَأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ فَإِنَّمَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يُحِبُّهُ»^(١) .

فَفِتْشٌ - أَخْيَ - في نفسيك عن علاماتِ حُبِّ اللَّهِ لَكَ .. فليست القضية في الدُّعَايةِ أَنْكَ تُحِبُّهُ ؛ ولكنَّ الشَّانُ كُلُّ الشَّانِ في أَنْ يُحِبَّكَ هو .. فاعلم أَنَّ القضية يتعلَّقُ ببعضها ببعضٍ ؛ فإنَّكَ لَنْ تُحِبَّهُ حتَّى يُحِبَّكَ فيجعلُكَ تُحِبُّهُ ثُمَّ يُثِيُّكَ على حُبِّكَ حُبًّا ثانِيَاً مِنْهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .. فَحُبُّكَ محفوفٌ بين حُبَّيْنِ مِنْهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ؛ حُبُّ قِبَلَةِ وَحْبٌ بعدهُ .. ولكنَّ صِلَاحِيَّةَ الْمَحَلِّ وَأَهْلِيَّةَ الشَّخْصِ .. فهل تَضْلُعُ أَنْ تكونَ حَبِيبَ اللَّهِ؟ .. بادِرْ وَاللَّهُ كَرِيمٌ .



الأصل السادس والعشرون

كُلُّ مَتَاعٍ فِي الدُّنْيَا يَسْخَبُ مِنْ رِصِيدِكَ فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ

لقد أُصْبِثُ بِالرُّغْبَةِ عِنْدَمَا قَرَأْتُ حَدِيثَ صَحِيحِ مُسْلِمٍ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَا مِنْ غَازِيَةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُصِيبُونَ الْغَنِيمَةَ، إِلَّا تَعْجَلُوا ثَلَاثَيْ أَجْرِهِمْ مِنَ الْآخِرَةِ . وَبَقِيَ لَهُمُ الْثَلَاثَةِ . وَإِنْ لَمْ يُصِيبُوهُمْ غَنِيمَةً ثُمَّ لَهُمْ أَجْرُهُمْ»^(١) .. وَكَانَتِي أَقْرَأْتُ لَأُولَئِكَ الْمَرْءَةَ فِي حَيَاتِي .. حَدِيثٌ يُخَوْفُ .. يُرْعِبُ ..

نَفَهُمْ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الَّذِينَ يَغْزُونَ فِيْغَنَمَوْنَ وَيَسْلَمُونَ اسْتَعْجَلُوا ثَلَاثَيْ أَجْرِهِمْ ؟ أَيْ : ضَيَّعُوا الثَّالِثَيْنِ مِنَ الْأَجْرِ فِي الدُّنْيَا ؛ فَلِمْ يَقُلْ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْأَجْرُ الْقَلِيلِ .. فَالَّذِي أَخْذَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَمْ ضَيَّعُتُ فِي مَقَابِلِهِ مِنَ الْآخِرَةِ .. إِنَّ كُلَّ مَا تَأْخُذُهُ مِنَ الدُّنْيَا مَخْصُومٌ مِنْ حِسَابِكَ فِي الْآخِرَةِ . أَخْذَتُ مِنَ الدُّنْيَا مَالًا أَوْ سِيَارَةً أَوْ .. مَخْصُومٌ مِنْ نَعِيمِ الْآخِرَةِ .. وَلَا يَسْتُوِي فِي الْآخِرَةِ الْفَقِيرُ مَعَ الْغَنِيِّ ، وَإِنْ دَخَلَ الْغَنِيُّ جَنَّةَ .. لَا يَسْتُوِي أَبْدًا .. قَالَ - اللَّهُ تَعَالَى - : «أَذَهَبْتُمْ طَيْبَتُكُمْ فِي حَيَاكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَنْعِنُ بِهَا» [الْأَحْقَافُ: ٢٠] ، وَقَالَ - تَعَالَى - : «ثُمَّ لَتُشَلَّنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ الْعَيْسِيِّ» [الْتَّكَاثُرُ: ٨] .. فَكُلُّ مَا أُوتِيَتُهُ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا فَهُوَ بِالْخَضِيمِ مِنْ نَعِيمِكَ فِي الْآخِرَةِ .

(١) أَخْرَجَهُ : مُسْلِمٌ (١٩٠٦) ، لَكَ : الْإِمَارَةُ ، بِ : بِيَانِ قَدْرِ ثَوَابِ مِنْ غَزَا فَغَنَمَ وَمَنْ لَمْ يَغْنِمْ .

لذلك قال ربنا ﷺ : «كُلُّوْ وَأَشْرِيُوا هَبَيْتَا بِمَا أَشْفَقْتُمْ فِي الْآيَاتِ الْخَالِيَّةِ» [الحالة: ٢٤] . يقول ابن كثير رحمه الله : «أي يقال لهم تفضلاً عليهم وامتناناً وإنعاماً وإحساناً . وإنما فقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «أعملوا وسددوا وقاربوا ، واعلموا أن أحداً منكم لن يدخله عمله الجنة» ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل»^(١) اهـ^(٢) .

فإذا كان العمل الصالح وحده لا يدخل الجنة فما بالك بالسيء .. ولذلك فإن متابعة الذئبي «السيء» كلما كثُر كلما ضيَّع عليك الآخرة . وإنما قال الله : «بِمَا أَشْفَقْتُمْ» ؛ ليرفع من همتك في السير إليه ؛ وإنما الأصل أنَّه - سبحانه - الذي وفقك .

«وَهَذَا اللُّونُ مِنَ النَّعِيمِ مَعَ هَذَا اللُّونِ مِنَ التَّكْرِيمِ فِي الالْتِفَاتِ إِلَى أَهْلِهِ بِالْخُطَابِ ، وَقُولِهِ : «كُلُّوْ وَأَشْرِيُوا هَبَيْتَا بِمَا أَشْفَقْتُمْ فِي الْآيَاتِ الْخَالِيَّةِ» . . فوق أنه اللون الذي تبلغ إليه مدارك المخاطبين بالقرآن في أول العهد بالصلة بالله ، قبل أن تستمُر المشاعر فترى في القرب من الله ما هو أعجب من كل متاع .. فوق هذا ؛ فإنه يلبي حاجات نفوس كثيرة على مدى الزمان ، والنعيم ألوان غير هذا وألوان»^(٣) .

(١) متفق عليه : البخاري (٦٤٦٧) ، ك : الدقائق ، ب : القصد والمداومة على العمل ، ومسلم (٢٨١٨) ، ك : صفات المناقين وأحكامهم ، ب : لن يدخل أحد الجنة بعمله ؛ بل برحمه الله - تعالى .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤١٦/٤) .

(٣) في ظلال القرآن (٤/٣٦٨١ - ٣٦٨٢) .

فَمَنْ عَاشَ نَعِيمَ الدُّنْيَا حُرِمَ نَعِيمَ الْآخِرَةِ؛ فَأَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ وَاتَّرَكَ الدُّنْيَا وَمَلَذَائِهَا وَشَهْوَاتِهَا ، أَقْبَلَ عَلَى الْأَذْوَمَ فَتَعِيمَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ؛ «وَفَرَحُوا بِالْأَيَّلَةِ وَمَا لَمْ يَرَوُوا إِلَّا مَنَعَ» [الرعد: ٢٦].

قال رسول الله ﷺ : «بَشِّرْ هَذِهِ الْأَمْمَةِ بِالسَّنَاءِ وَالدِّينِ وَالرَّفْعَةِ وَالْتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلْدُّنْيَا ؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ»^(١).

قال ربِّي : «وَتَوَمَ يَعْرُضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى أَثَارِ أَذْهَبُتْ طَبَيْرِيَّةً فِي حَيَاةِ كُلِّ الدُّنْيَا وَاسْتَغْنَمُتْ بِهَا فَأَتَيْتُمْ بِمَجْزُونَ عَذَابَ الْهُوَنِ يَمَّا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ يُغَيِّرُ الْحَقَّ وَمَا كُنْتُمْ لَنَفْسَوْنَ» [الأحقاف: ٢٠].

إِنَّ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ الدُّنْيَا وَيَتَفَاثُوْنَ فِيهَا وَيَسْعَوْنَ فِي الزِّيَادَةِ مِنْهَا ؛ لَا بُدُّ أَنْ نُذَكِّرُهُمْ حَالَ نَبِيِّهِمْ ﷺ ، وَكِيفَ أَنْ مَاتَ وَلَمْ يَجِدْ مَا يَمْلأُ بَطْنَهُ مِنَ الدَّقْلِ (أَرْدَأُ التَّمْرِ) ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ .. لَمْ يَكُنْ يَشْيَعُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَالَّيَّةِ .. يَشْيَعُ الْيَوْمَ فَيَجْرُؤُ غَدًا ، وَيَشْيَعُ الْيَوْمَيْنِ فَيَجْرُؤُ الثَّالِثَ .. نَعَمْ : لَمْ تَمُرْ عَلَيْهِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ شَيَعَهَا قَطْ .. فَمَا آخِرُ مَرَّةٍ جَعَلَتْ فِيهَا؟ .. إِنَّا لَا نَجُوعُ يَوْمًا وَاحِدًا ، وَمَعَ ذَلِكَ نَسْخُطُ وَلَا نَشْكُرْ نِعْمَةَ اللَّهِ - اللَّهُمَّ لَا تَعْذِبْنَا يَا رَبُّ ، اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا شُكْرَ نِعْمَتِكَ يَا رَبُّ .. وَمَنْ هُنَا نَفْهُمُ هَذَا الْأَصْلَ ، وَأَنَّ قَدْوَتَنَا فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَفْضَلُ السَّائِرِينَ إِلَى اللَّهِ .. فَكُلُّ مَا تَأْخُذُهُ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ بِالْخَصْمِ مِنْ حِسَابِكَ فِي الْآخِرَةِ؛

(١) آخرَهُ : أَحْمَد (٥/١٣٤) ، وَابْنُ جِبَانَ (٢/١٣٢) (٤٠٥) وَصَحْخَةُ الْأَبَانِي - رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ» بِرَقْمِ (٢٨٢٢).

قال بعض الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - : أسلفنا مع رسول الله ﷺ وكان أحدهما لا يجد ما يملأ بطنه ، فؤئلاً من مات ولم يصب من هذه الدنيا شيئاً ، كمصعب بن عمير ، مات ولم نجد ما تكفله فيه ، إلا نيرة إذا غطينا رأسه بdeath ، وإذا غطينا رجله بdeath رأسه ، فقال رسول الله ﷺ : «غطوا بها رأسه واجعلوا عليه شيئاً من الإذخر»^(١).

مصعب بن عمير الذي فتح المدينة وحده ، ولم يكن معه إلا عبد الله ابن أم مكتوم .. قائد فتح المدينة يموت ولا يجدون له كفاناً .. فكم عندك من ملابس؟! .. كم عدد القُمُصِ والعباءاتِ التي عندك؟! .. وكم بدلة تملِّكها؟! .. وكم وكم ..

سلمان الفارسي لما أتاه الموت بكى ، قالوا : ما يُكثِيك؟! ، قال : عَهِدَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ عَهِدًا وَمَا أَرَانِي إِلَّا تَجَاوِزَتْهُ ، قالوا : وَمَا عَهِدَ إِلَيْكُمْ ، قال : عَهِدَ إِلَيْنَا أَنْ يَكُونَ زَادُ أَحْدَانَا كَزَادِ الرَّاكِبِ^(٢) .. فلما مات حسِبُوا لَهُ تَرِكَتَهُ ، فوجدوا عنده ستة عشر ذرْهَمًا (٦٤ جنِيَّهًا) .. فلَمَنْ يتركون الآلاف والملايين؟! .. أين من يُورثُونَ الأراضي والقُدَادِين؟! .. أين أصحاب العمارات وال محلات والدكاكين؟! .. أين هؤلاء من صَحَابَةِ رسول الله ﷺ؟! .. إنَّ هَذِهِ الْمُتَعَّ وَالْمُلَذَّاتِ وَالْمَسَرَّاتِ بِالْخَضْمِ مِنْ

(١) أخرجه : البخاري (٤٠٤٧) ، (٤٠٨٢) . والإذخر : نبات طيب الرائحة .

(٢) أخرجه : أحمد (٤٣٨/٥) ، وابن ماجه (٤١٠٤) ، لك : الزهد ، بـ : الزهد في الدنيا ، وابن جبَان (٧٠٦/٢) ، عبد الرزاق (٢٠٦٣٢) ، وأحمد في «الزهد» (ص: ١٥٢) ، ووكيع في «الزهد» (٦٧) ، والطبراني (٦٠٦٩) ، والحديث صحيحه الالبانى - رحمة الله تعالى .

حسابك في الآخرة فانتبه .. انتبه قبل أن تذهب إلى هناك فلا تجده شيئاً يسرُك .

عن ابن عمر قال : أخذ رسول الله ﷺ يمنكبني فقال : «كُن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمريضك ، ومن حياتك لموتك ^(١) .

قال الإمام النووي رحمه الله ^(٢) :

(قوله ﷺ) : «كُن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» ؛ أي : لا ترتكن إليها ، ولا تتجذبها وطنًا ، ولا تجذب نفسك بالبقاء فيها ، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه الذي يريد الذهاب منه إلى أهله . وهذا معنى قول سلمان الفارسي رضي الله عنه : أمرني خليلي عليه السلام لا أتخد من الدنيا إلا كمتع الرَّاكِبِ .

ترجو البقاء بدار لا بقاء لها وهل سمعت بظلٍ غير منتقل

«ومن حياتك لموتك» : أمره بتقاديم الزاد ، وهذا كقوله - تعالى - : «وَتَنْتَظِرَ نَفْسًا مَا قَدَّمَتْ لِغَدَرِكَ» [العشر: ١٨] ، ولا يفترط فيها حتى يدركه الموت فيقول : «رَبَّتِ آرْجُونَ لِعَلَى أَعْمَلِ صَلِحًا فِيمَا تَرَكَ» [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] .
وقال الغزالى - رحمة الله تعالى - : «ابن آدم يبدئه معه كالشبكة يكتسب بها الأعمال الصالحة ، فإذا اكتسب خيراً ثم مات كفاه ، ولم

(١) أخرجه : البخاري بهذا السياق وال تمام برقم (٦٤١٦) .

(٢) شرح الأربعين النووية (١٢٥ - ١٢٨) يتصرف .

يجتمع بعد ذلك إلى الشبكة ، وهو البدن الذي فارقه بالموت . ولا شك أنّ الإنسان إذا مات انقطعت شهوته من الدنيا ، واشتهر نفسه العمل الصالح لأنّه زاد القبر ، فإن كان معه استغنى به ، وإن لم يكن معه طلب الرجوع منها إلى الدنيا ليأخذ منها الزاد ، وذلك إن أخذت منه الشبكة .

فِيَقَالُ لَهُ : هَيَهَا تَ ، قَدْ فَاتَ . فَيَبْقَى مُتَحِيرًا دَائِمًا عَلَى تَفَرِيظِهِ فِي أَخْذِ الزَّادِ قَبْلِ اِنْتَزَاعِ الشَّبَكَةِ ؛ فَلَهُمَا قَالَ : « وَخَذْ مِنْ حَيَاةِكَ لِمَوْتِكَ » ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ») أَهـ .

أَخِي فِي اللَّهِ ، زُوْدُ رصيده في الآخرة؛ فمستقلٌّ ومستكثِرٌ .. ستقول: ماذا أصنع؟! ، اللَّهُ قد أعطاني أموالاً فهل أرميها في الشارع؟!! .. أقول لك: تصدق بها على الفقراء تجدتها هناك .. « يقول ابن آدم: مالي مالي ، فيقال له: ليس لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لم يُسْتَ فَأَبْلَيْت ، أو تَصَدَّقْتْ فَأَبْقَيْتْ » .. فالمالُ مالُ اللَّهِ أَعْطَاهُ لَكَ فَرُدْهُ إِلَيْهِ وَلَا تَقْلِنْ: مالي .. فهو - سبحانه - قادرٌ على أن يُفَقِّرَكَ وَيَسْلِيكَ هَذَا الْمَالَ فَتَمْشِي فَقِيرًا مُحْتَاجًا .. أَلَا تَشْكُرُ اللَّهَ أَنْ وَهَبَكَ مَالَهُ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ يُئْيِيكَ وَيَرْفَعُكَ حِينَما تَرُدُّ إِلَيْهِ وَتَنْفَقُهُ فِي سَبِيلِهِ .. أَلَا تَسْتَحِي مِنْ رَبِّكَ؟! .. فإن كان عندك مال فتصدق به .

ولذلك فإنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُهُمْ قَالَ : « وَاللَّهُ مَا أَحِبُّ أَنْ يَكُونَ لِي مِثْلُ أَحَدٍ ذَهَبَا ، فَيَبْيَسْتَ عَنْدِي مِنْهُ ثَلَاثَ فَأَفْعَلُ بِهِمْ هَكُذا وَهَكُذا وَهَكُذا وَهَكُذا »^(١) .. أي: يُفَرِّقُ هَذَا الْمَالَ وَيُوزِعُهُ عَلَى الْفَقَرَاءِ بِسُرْعَةٍ .

(١) متفق عليه: البخاري (٢٣٨٩)، ومسلم (٩٩١).

يقول الإمام النووي - رحمه الله تعالى - في حديث رسول الله ﷺ :

«ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»^(١) :

«الزهد ترك ما لا يحتاج إليه من الدنيا وإن كان حلالاً ، والاقتصار على الكفاية» ، والورع : ترك الشبهات . قالوا : وأعقل الناس الزهاد ؟ لأنهم أحبوا ما أحب الله ، وكرهوا ما كره الله من جميع الدنيا ، واستعملوا الراحة لأنفسهم .. **وللشافعي رحمه الله في ذم الدنيا :**

ومن يدُقُّ الدنيا فإني طعمتها
وسيق إلينا عذبها وعذابها
فلم أرها إلا غروراً وباطلاً
كما لاح في ظهر الفلاء سرابها
وما هي إلا جيفة مستحيلة
عليها كلاب همهم اجتذبها
فإن تجذبها كنت سلماً لأهلها
 وإن تجذبها نازعك إكلابها
فدفع فضلات الأمور فإنها

قوله : «حرام على نفس التقى ارتکابها» يدل على تحريم الفرح بالدنيا ، وقد صرَّح بذلك البغوي في تفسير قوله - تعالى - : **﴿وَقَرِيراً بِالْحِيَاةِ الدُّنْيَا﴾** [الرعد: ٢٦] . ثم المقصود بالدنيا المذمومة : طلب الزائد على الكفاية ، أما طلب الكفاية فواجب .

قال الشافعي رحمه الله : «طلب الزائد من الحلال عقوبة ابتلى الله بها أهل التوحيد» .

وقد مدح الله المقتضدين في العيش فقال : **﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ**

(١) أخرجه : ابن ماجه (٤١٠٢) ، ث الزهد ، ب : الزهد في الدنيا ، وصححة الألباني - رحمه الله تعالى . انظر «السلسلة الصحيحة» (٩٤٤) و«صحيح الجامع» (٩٣٥) .

يُتَرَفِّوَا وَتَمْ يَقْتَرُوا» [الفرقان: ٦٧] .. وكان يُقال: القصدُ في المعيشةِ يكفي عنك نصفَ المؤْتَنَةِ، والاقتاصادُ: الرضا بالكافيةِ»^(١).

أحدُ الناسِ - أسألُ اللهَ أنْ يُفرجَ كربَه ويقضيَ ديه - قال لي : أنا أدفع للبنكِ ستينَ ألفَ جنيهٍ ربِّا كلَّ شهْرٍ ، قلت له : لو أَنْ سنتينَ ألفَ جنيهٍ تُصدِّقَ بها على الفقراءِ كلَّ شهْرٍ فكمْ تُغْنِي في الآخرةِ؟!.. يريدُ أنْ يُسْدِّدَ بعدَ أنْ تورَّطَ وعاشَ الهمَّ والغمَّ ليلَ نهار.. اللهمَ ثُبِّتْ على كلِّ عاصٍ مرابٍ .. نعم : الربَا حربٌ على الله.. قال هذا الرجل : ولذلك إذا قابلني أحدٌ في الدنيا أقول له : «سكةُ البنوكِ سكةُ الخراب».. لا يوجد أحدٌ مشى في سكةِ البنوكِ إلا وخربَ بيته.. خراب.. أسألُ اللهَ أنْ يصرفِ الربَا عن المسلمين.. اللهم إنا نعوذ بك من الربَا والزُّنا والغنا والوَبا.

فلو أَنَّ هذا المالَ المكتنوزَ صُرِفَ فيما يُرضِي اللهَ؛ لارتاحَ الناسُ وسعُدواً ولاطمأنُوا ورضيَ اللهُ عنهم.. كثيرٌ مِّن الناسِ مَنْ يسألُ باستمرارٍ : ابتعدتُ عن البنكِ ولمْ أضْعِ أموالي فيه فماذا أصنعُ؟.. أشغُلُها في مشروعٍ؟!.. ولكنني أخافُ من الخسارة!.. أقول : تصدقِ بها على الفقراءِ ينفعك عند الله.. وهذا هو التشغيلُ الحقيقِيُّ لها.. التصدقُ بها.

نعم : عندك زيادةً في المالِ تريدهُ أنْ تضعُها في البنكِ أو تعملَ بها مشروعًا.. لا.. بل تصدقِ بها على الفقراءِ ، فواللهِ الذي لا إلهَ إلَّا هو ،

هناك فقراء لا يجدون ما يأكلونه .. والله ، فقراء لا يجدون «الرغيف الحاف» .. فقراء لا يرثون اللحم بالشهر ، ولو ذهبت إليهم بدهاجة من دجاج «الجمعية» لطاروا فرحا .. فيما من لا تأكل إلا اللحم باللحم .. تريد أن تحفظ بالأموال وتكبزها ، وإن واحاتك فيهم من لا يجد ما يسد جوعه .

أطعم الفقراء وأنفق عليهم مالك بسخاء ، أطعمهم وكف رحيمًا بهم ؛ فالمال مال الله وهو الذي أغناك .. **﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَتَنْهَا الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾** [فاطر: ١٥] .. اللهم أطعم فقراء المسلمين ، اللهم أغن فقراء المسلمين بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين ، اللهم وسّع أرزاق المسلمين وبارك لهم فيها يا رب العالمين .

طلحة بن عبيد الله التيمي .. الصحابي الجليل .. الذي قال عنه رسول الله ﷺ : «من سرّه أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض وقد قضى نجّبه ، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله»^(١) .

يقول عنه الدكتور عبد الرحمن رافت الباشا - رحمه الله تعالى - بعد أن ذكر قصّة وفاته - :

«هذه هي قصّة نَعَتْ طلحة بن عبيد الله «بالشهيد الحي» ، أمّا تلقّيه بطلاحة الخير ، وطلحة الجود فلها مئة قصّة وقصّة ..

(١) آخرَة : أبو يعلى (٤٨٩٨) ، وابن عدي (١٠٨/٥) بسنّة ضعيف ؛ لكن روئي بمعناه الترمذى (٣٢٠٢ ، ٣٧٤٠) وقال : غريب ، وابن ماجه (١٢٦) ، وقال الألبانى : حسن .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ طَلْحَةَ كَانَ تَاجِرًا وَاسِعَ التِّجَارَةِ عَظِيمَ الثَّرَاءِ ، فَجَاءَهُ ذَاتَ يَوْمٍ مَالٌ مِنْ « حَضْرَمَوْتَ » مَقْدَارُهُ سَبْعِمِائَةُ أَلْفِ دَرْهَمٍ ، فَبَاتَ لِيلَتَهُ وَجَلَّا جَزِيعًا مَحْزُونًا .

فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ زَوْجُهُ أُمُّ كُلْثُوم بُنْتُ أَبِي بَكْر الصَّدِيقِ ، وَقَالَتْ : مَا بَكَ يَا أَبَا مُحَمَّدًا؟! .. لَعَلَّهُ رَأَيْكَ مَنَا شَيْءًا! ، فَقَالَ : لَا ، وَلَيَنْعَمْ حَلِيلَةُ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ أَنْتِ .. وَلَكِنْ تَفْكِرُتُ مِنْذُ اللَّيْلِ وَقَلْتُ : مَا ظُنِّ رَجُلٌ بِرَبِّهِ إِذَا كَانَ يَنْامُ وَهَذَا الْمَالُ فِي بَيْتِهِ؟! ، قَالَتْ : وَمَا يَغْمُكُ مِنْهُ؟! ، أَينَ أَنْتَ مِنَ الْمُحْتَاجِينَ مِنْ قَوْمِكَ وَأَخْلَاتِكَ؟! ، فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَقْسُمَهُ بَيْنَهُمْ ، فَقَالَ : رَحْمَكِ اللَّهُ ، إِنَّكَ مُوْفَّقَةٌ بِنْتُ مُوْفَّقٍ .. فَلَمَّا أَصْبَحَ جَعْلُ الْمَالِ فِي صُرَرٍ وَجَفَانِ ، وَقَسَمَهُ بَيْنَ فَقَرَاءِ الْمَهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ .

وَرُوِيَ أَيْضًا أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى طَلْحَةَ بْنِ عَبِيدِ اللَّهِ يَطْلُبُ رِفْدَهُ ، وَذَكَرَ لَهُ رَجِمًا تَرِبِطُهُ بِهِ ، فَقَالَ طَلْحَةُ : هَذِهِ رَجِمٌ مَا ذَكَرَهَا لِي أَحَدٌ مِنْ قَبْلِهِ ، وَإِنَّ لِي أَرْضاً دَفَعَ لِي فِيهَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ ثَلَاثِمِائَةَ أَلْفِ .. فَإِنْ شِئْتَ خَذْهَا ، وَإِنْ شِئْتَ بِعْثَثْ لَكَ مِنْهُ بِشَلَاثِمِائَةِ أَلْفِ وَأَعْطِيَكَ الشَّمَنَ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : بَلْ آخَذُ ثَمَنَهَا؛ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ .. هَنِيَّا لِطَلْحَةِ الْخَيْرِ وَالْجُودِ هَذَا الْلَّقْبُ الَّذِي خَلَعَهُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَنُورُهُ لَهُ فِي قَبْرِهِ^(١) .

(١) صور من حياة الصحابة (٤٩٣ - ٤٩٢).

أخي المسلم ، عندك زيادة - وليس الكلام للأغنياء فقط - ؛ فتصدق بها ؛ ابن مسجداً أو عيادة لعلاج الفقراء مجاناً . . تبن مشروعًا للإنفاق على الأسر اليتيمة . . ساعذ في زواج الشباب المحتاج المُتَعَفِّف . . تبن طالب علم شرعى ليخدم الأمة . . أنفق مالك في مشاريع أخرى وية تكون لك عند الله ؛ وإلا تفعل فهي بالخصم من حسابك في الآخرة .

* * *



الأصل السابع والعشرون

المرء معَ مَنْ أَحَبَّ، فَاخْتَرْ حَبِيبَكَ مِنْ هَاهُنَا

قال لي أحدهم : أحب الممثلة الفلانية ؟ قلت له : أتحب أن تُحضر معها في الآخرة ؟ .. تُحب أن تكون معها أم مع النبي محمد ﷺ ؟ .. تحب أن تكون مع من ؟ .. سأله أعرابي رسول الله ﷺ : الرجل يحب القوم ولما يلتحق بهم ؟ ، قال : «المرء معَ مَنْ أَحَبَّ»^(١) .

فهل تُحب أن تكون مع الفاسدين وأهل اللغو والمُجْوِنِينَ؟

لذا لِمَا سمعَ أنسُ بن مالِكَ هذا الحديث ؛ قال : فما فرَحَنَا بشيءٍ بعد الإسلام فرَحَنَا بهذا الحديث «المرء معَ مَنْ أَحَبَّ» ؛ لأنَّني أحب رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمرَ ، وأرجو أن أكون معهم في الجنة .

ولذلك كان من إحدى رسائلِي على الهاتف لأحبابي في الله : «اللهم إنك تعلمُ أنِّي وإن كنتُ أعصاك ؛ إلا أنِّي أحبُّ مَنْ يطِيعُك ؛ فاجعل ذلك قربةً لي عندك .. آمين». هذه هي الرسائل النافعة .. ولويست تلك التي يكتبونها اليوم من هراء غير مفيد .. اكتب شيئاً مفيداً .. فالهاتف نعمة لا تستعملها في المعاصي ، لمَ تستعمله في اللهو والغفلة ؟ ! استعمله في طاعة الله ونشر الحب في الله .. اكتب : اليوم درس في

(١) متفق عليه : البخاري (٦٦٦٨) ، ومسلم (٢٦٤١) .

المكان الفلاقي .. وأرسله إلى كل الناس .. كل المسجل على الهاتف أرسيل إليه .. فإن جاء فخِير كبير ، وإن لم يأت كانت أيضًا في ميزان حسناتك .. اكتب آية قرأتها نعمتك .. اكتبها وأرسليها .. حدثاً سمعته اكتبه وأرسليه .. ادع إلى الله بالحب لعل الله ينفع بك وإن لم تفعل .. إن فعلت هذا وعشت على هذا؛ فأنت تحب الخير وتُحثّ أهلَه ، وسوف تُحضر معهم بإذن الله - تعالى .

والذي يحب الراقصة الفلامنقة والفنانة الفلامنقة والممثل الفلامنقي فسوف يكون معهم .. الذي تحبه ستكون معه .. تحب اللاعب الفلامنقي .. المسرحية الفلامنقة .. الأغنية الفلامنقة .. ستكونون معا يوم القيمة في الموقف ، وبعد ذلك جهنم والعياذ بالله .

أما إذا أحببت الله وأحببت من يحب الله .. فستكون جازه في الفردوس الأعلى . قال رسول الله ﷺ : «إذا سألتم الله الجنة فاسأله الفردوس؛ فإنه أعلى الجنة ووسط الجنة ، ومنه تفجّر أنهار الجنة ، وسقفه عرش الرحمن»^(١) .. فإذا أحببت الله كنت جازه .. وإذا أحببت النبي ﷺ كنت معه .

أبو بكر الصديق وعمرو وعلي وعثمان وأبو الدرداء وأنس وأبو ذر ومعاذ .. هؤلاء هم التل姣ون بحق ، فإذا أحببتم كنتم معهم هناك في الآخرة .. نعم : هؤلاء هم الذين يستحقون الحب .. فمن تحب؟!

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٠) .

إنَّ قضيَّةَ الحُبِّ في هذه الأيام قضيَّةٌ في غايةِ الغرابةِ؛ فالناسُ اليوم يُحبُّون أشياءً غريبةً وموضوعاتٍ عجيبةً.. لقد قرأْتُ في إحدى وسائل الإعلام المقرؤة: أنَّ رجلَيْن قد رفعَا قضائِيَا ضدَّ بعضِهِمَا البعضَ بسببَ كلمةٍ ساقطةٍ.. عجيب!!.. عجيب أنَّ تَرَى الناسَ في الشارعِ يُحبُّون التلفُّظَ بهذهِ الكلماتِ.

لقد كانَ النَّاسُ مِنْذِ زَمَانٍ مضِيَّ يبحثُون عنِ الكلامِ الذي فيهِ أدبٌ وذوقٌ.. كلامٌ أُرْسِتَقْرَاطِيٌّ.. فكانوا يتَّشَبَّهُون بالفرنسيِّين في ترقيقِ الكلامِ ونطقِ الرَّاءِ غَيْرِها.. وإنْ كنا لا نوافقُهم؛ فلغتنا وقوَّةٌ ومحترمةٌ وفيها كلُّ الجمالِ والأدبِ.. ولكنَّ الشاهدُ أنَّ النَّاسَ كانوا يبحثُون عنِ الكلامِ المحبِّ الجميلِ.. أما اليَوْمِ فصارَ النَّاسُ يبحثُون عنِ كلامِ السُّوقَةِ.. ألفاظِ سوقية.. يبحثُون عنِ الْأَفَاظِ السُّقْلَةِ والضائعِين في الشوارعِ.. وتتجدَّنا وللأسف نتكلَّبُ عليها ونتباهي بها.. أمَّةٌ في الحضيَّضِ !!

إثناً بحاجةٍ إلى أنْ نبحثَ عنِ كلِّ كلمةٍ جميلةٍ مُرِيحَةٍ رَّطبةٌ، وكلِّ إشارةٍ مؤَدِّبةٍ وكلِّ حركةٍ مهذبةٍ لتعاملِها معَ النَّاسِ؛ لنكتسبَ حَبَّهم ونحبُّهم إلى اللهِ؛ لنكونَ معَهم ويكونُوا معنا على طريقِ الحُبِّ في اللهِ..

وانظرْ إلى الرَّفَقَةِ والأدبِ في التعاملِ بينَ الصَّحَابَةِ - رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى
عليهم أجمعين - :

عن زيدِ ابْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ: «عَزَلَ عَمْرُ خَالِدًا، فَلَمْ يُعْلِمْهُ أَبُو عَبِيَّةَ حتى علمَ منَ الْغَيْرِ، فَقَالَ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، مَا دَعَاكَ إِلَى أَنْ لَا تَعْلَمَنِي؟»؛
قالَ: كَرِهْتُ أَنْ أَرْوَعَكَ».. حُبٌّ في اللهِ.

قال الصوري : علامة الحب لله المراقبة للمحبوّب ، والتحرّي لمرضاته .

ولمَّا اشتري أبو بكر بلاً و هو مدفون في الجحارة بخمس أوقية ذهباً ، قالوا : لو أتيت إلا أوقية لبغناكه ؛ فقال : لو أبىتم إلا مئة أوقية لأخذته .. حب في الله .

قال فضيل بن غزوان : أتيت أبا إسحاق بعد ما كُفَّ بصره ، قال : قلت : تعرّفني ؟ ، قال : فضيل ؟ ، قلت : نعم . قال : إني والله أحِبُّك ، لولا الحياة منك لقلتُك . فضمّنني إلى صدره ، ثم قال : حدثني أبو الأحوص عن عبد الله : «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جِبِيلًا مَا أَنْفَقْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَدِيْكَنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ» [الأنفال: ٦٣] نزلت في المتحابين .

وكان أبو العالية إذا دخل عليه أصحابه يرحب بهم ويقرأ : «وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِغَايَتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» [الأنعام: ٥٤] .

وكان ابن عمر يقول : إني لأخرج وما لي حاجة إلا أن أسلّم على الناس ، ويسّلمون على^(١) .. حب في الله .. يحب المسلمين ويحب رفيقهم .

قال الأوزاعي : كتب إلى قتادة من البصرة : إنّ كانت الدار فرقـت بيننا وبينك ؛ فإن ألقـة الإسلام بين أهليها جامـعة^(٢) .

(١) آخرجه: الدليلي في «الفردوس» (٣٣٩/٥).

(٢) تحفة العلماء بترتيب سير أعلام النبلاء ، جمع وترتيب : أحمد سليمان وأم صفية بنت محمد صفوـات نور الدين - زـيـمـة اللـهـ تـعـالـىـ وـالـدـهـ رـحـمـةـ سـابـغـةـ - (٤٧١ - ٤٧٧) .

الحب في الله والبغض في الله ، والموالاة في الله والمعاداة في الله ..
 الحب في الله أن تُحبَّ الله - تعالى - ورسوله ﷺ وتحبَّ بعْنَاهما
 المؤمنين ؛ قال - تعالى - : «إِنَّمَا وَلِيَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ مَأْمَنُوا إِذْنَ اللَّهِ يُقْسِمُونَ
 الْأَصْلَةَ وَيُؤْتُونَ أَرْجُوكُمْ وَهُمْ رَكِيْمُونَ» [المائدة: ٥٥].

والبغض في الله أن تكره الكفر والكافرين والشرك والمشركين والفسق والفاسقين ، حتى ولو كانوا من أقرب الأقربين إليك ؛ قال - تعالى - : «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أَنْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِيمَانِهِمْ وَالَّذِينَ مُعَذَّبُونَ إِذْ قَالُوا لِتَوْهِيمِ إِنَّا بِرَبِّكُمْ مِنْكُمْ وَمَا نَعْبُدُ دُنْيَةً مِنْ دُنْيَةِ اللَّهِ كُفَّارًا يَكُونُونَ وَيَدَا يَتَّمِنُونَ وَبَيْتُكُمُ الْمَدْعُودَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبْدَأَ حَقَّ تَوْهِيمَ إِلَيْهِ وَحْدَهُ» [العنكبوت: ٤].

وأبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح .. أمين هذه الأمة .. حق
 هذا الأصل العظيم يوم بدر .. أصل الموالاة في الله والمعاداة في الله ..
 هذا الأصل الذي يقول عنه العلماء : الولاء والبراء هو المقياس العملي
 وال حقيقي للتوحيد الخالص .

«عاش أبو عبيدة تجربة المسلمين القاسية في مكة منذ بدايتها إلى نهايتها ، وعاني مع المسلمين السابقين من عنفها وضرارتها ، وألامها وأحزانها ما لم يعانيه أتباع دين على ظهر الأرض ؛ فثبتت للاقبلاه ، وصدق الله ورسوله ﷺ في كل موقف .

لكن محنَّة أبي عبيدة يوم «بدر» فاقت في عنفها حسنان الحاسين وتجاوزت خيال المتخيلين .

انطلق أبو عبيدة يوم بدر يصول بين الصفوف ضئلاً من لا يهاب

الرَّدِي ، فهابه المشركون ، ويحولُ جَوْلَةً مَنْ لَا يحذِّرُ الموت ، فحذَّره فُرْسَانُ قريش ، وجعلوا يتنحُّونَ عنه كُلُّما واجهُهم ..

لكنَّ رجلاً واحداً منهم جعلَ يَبْرُزُ لأبي عبيدة في كلِّ اتجاه ، فكان أبو عبيدة يتحرَّك عن طريقه ويتهاشى لقاءَ .

ولَجَ الرجلُ في الهجوم وأكثر أبو عبيدة من التَّنحُّي ، وسدَّ الرجلُ على أبي عبيدة المسالك ووقفَ حائلاً بينه وبين قتال أعداء الله .

فلما ضاقَ به دُرُّغا ضربَ رأسه بالسيف ضربةً فَلَقْتُ هامته فَلَقْتَينِ ؛ فخرَ الرَّجُلُ صريعاً بين يديه .

لَا تُخَاوِلْ - أيها القارئ الكريم - أَنْ تُخْمَنَ مَنْ يَكُونُ الرَّجُلُ الصَّرِيعُ .. أَمَا قلتُ لك : إنْ عَنْفَ التجربة فاقِ جِسْبَانَ الحاسِبِينَ وجاورَ خيالَ المتخيلينَ .. .

ولقد يتصلُّعُ رأسك إذا عرَفتَ أَنَّ الرَّجُلَ الصَّرِيعَ هو عبدُ الله بن الجراحِ والدُّ أبي عبيدة .

لم يقتل أبو عبيدة أباه ؟ وإنما قتل الشرك في شخص أبيه .

فأنزلَ الله - سبحانه - في شأنِ أبي عبيدة وشأنِ أبيه قرآنًا ؛ فقال - عَلِّثَ كلمته - : ﴿لَا يَمْدُدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُؤَذِّنُونَ مَنْ حَادَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَئَنْ كَانُوا مَأْبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَاتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَتِ فِي قُلُوبِهِمْ أَلْيَمَنَ وَأَيْدِيهِمْ بِرُوحِنَةٍ وَيَدِيهِمْ جَنَّتِ تَغْرِي مِنْ تَحْيَنِهَا أَلْأَنْهَرُ خَلِيلِينَ فِيهَا رَضَى اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُلْتَقِلُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

لم يكن ذلك عجيباً من أبي عبيدة، فقد بلغ من قوّة إيمانه بالله ونصحه لدينه، والأمانة على أمّة محمد ﷺ مبلغاً طمحةٌ إليه نفوس كثيرة عند الله^(١).

فاختاروا - إخوتاه - من يسرُّكم في القيامة أن يكونوا معكم وتكونوا معهم، وابتعدوا عن طريق الصادقين عن سبيل الله الذين يُحبّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا .. تبرعوا من الفسقة الفجّرة حتى لا يجمعكم الله بهم .. اتركوا الاختلاط بهم، واتركوا التشبه بهم في الأعياد والاحتفالات، والمُلْبِس والهيئة، واستعمال كلماتهم التي يكرهها الله.

قال - تعالى - : «وَلَا تَرْكُوكُمْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوكُمْ أَنْتُمْ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أُولَئِكَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ» [مود: ١١٣] .. فالآية : «فيها دليل على وجوب محاجة أهل الكفر والمعاصي، وأهل البدع والآهواء؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية؛ إذ الصحبة، لا تكون إلا عن موعدة»^(٢).

إخواته، الطريق إلى الله لا بد فيها من البعد عن المُقطّعين المُقطّعين الذين ركنا إلى حب الدنيا والتذروا بها، فأججو المؤمنين الطائعين الطاهرين يُعينونكم على الوصول، ويُهؤنونا عليكم مشاق الطريق.

أخي في الله، حبيبي في الله، أحبّ لله، واكرة لله، فبهذا الأصل اختر حبيبك من هنا، واعلم أن المسافر إلى الله يحتاج

(١) صور من حياة الصحابة ، لعبد الرحمن رأفت الباشا - رحمة الله تعالى - (٩٢ - ٩٣).

(٢) أيسر التفاسير ، لأبي بكر الجزائري - حفظه الله تعالى - (٥٨٤/٢).

ولابد إلى رفقة صالحة وصحبة طيبة .. يحتاج أن يعيش في مجتمع سُودة المحبة والأخوة^(١).

أخي في الله ، المرأة مع من أحب ؟ فمن تحب ولماذا ؟

اللهم ارزقنا حبك ، وحب من أحبك ، وحب كل عبد صالح يحبك ، وحب كل عمل يقربنا إلى حبك .. اللهم اجعل حبك أحب إلينا من أنفسنا وأهلينا ومن الماء البارد على الظماء .. اللهم واجعلنا ممن أحببتهם فرضيت عنهم .. اللهم وكما جمعتنا على حبك في الدنيا ، اجمعنا في جناتك جنات التعيم على سرير متقابلين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .. اللهم لا تحرمنا رؤية الصالحين ، ولا تخربنا - اللهم - من النظر إلى وجهك الكريم ..

آمين .. آمين .. آمين ..

* * *

yaqob.com

(١) راجع مزيداً من الكلام عن الأخوة والمتاخرين في كتابنا « الأخوة إليها الإخوة »؛ فإنه مهم لكل إخ مسلم ، وملزوم على الخصوص .

الخاتمة

صَحِبْتُكَ - أَيَّهَا الْحَيْنَبُ - رُبْعَ الطَّرِيقِ . . . وَهَذَا تَكُونُ الْمُسَاعِدَةُ حَقِيقَةً ؛ فَإِنْ مَنْ يَتَعَطَّلُ فِي بَعْضِ الْطَّرِيقِ أَوْ يَسْأَلُ عَنْ طَرِيقٍ ؛ فَإِنَّ الدَّلِيلَ لَا يَسِيرُ مَعَهُ كُلَّ الطَّرِيقِ . . . وَكَذَلِكَ مَنْ يَقْدِمُ لَنَا الْمُسَاعِدَةُ لَا يَتَمَّ بِهِ . . . السَّفَرَةُ هَذِهِ سَبْعَ وَعِشْرُونَ مِنْ مِئَةِ ، تُسْتَكْمَلُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَقَدْرُ . . . وَلَكُنْيَ أَجْرِبُكَ : هَلْ تَضْلُّ لَهَا الطَّرِيقَ أَمْ لَا؟! . . .

لَا تَنْتَظِرُ . . . اسْلُكْ وَانْطَلِقْ . . . وَسِيَّاتِكَ الْمَدْدُ منَ الْمَلِكِ . . . وَإِيَّاكَ أَنْ تَأْخُرَ أَوْ تَلْقِيَتْ . . . وَبَعْدَ أَنْ سَرَّتْ مَعِي أَوَّلَ الطَّرِيقِ إِيَّاكَ أَنْ تَنْقُطِعَ . . .

وَيَذْكُرُكَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ تَعَالَى . . . وَيُحَذِّرُكَ فِي قُولُ :

«يَا أَخِي ، إِنَّكَ قَدْ قَطَعْتَ عَظِيمَ السَّفَرِ ، وَبَقِيَ أَقْلُهُ ، فَادْكُرْ - يَا أَخِي - الْمَصَادِرَ وَالْمَوَارِدَ ؛ فَقَدْ أُوجِيَ إِلَى نَبِيِّكَ ﷺ فِي الْقُرْآنِ إِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْوَرَودِ ، وَلَمْ يُخْبِرْ إِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الصَّدُورِ وَالْخُرُوجِ ، وَإِيَّاكَ وَأَنْ تَغْرُرَكَ الدُّنْيَا ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارَ مَنْ لَا دَارَ لَهُ ، وَمَا مَنْ لَا مَالَ لَهُ ، يَا أَخِي ، إِنَّ أَجْلَكَ قَدْ دَنَّا ؛ فَكُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ ، وَلَا تَجْعَلِ الرُّجَالَ أَوْصِيَّاكَ»^(١) .

وَأَخْطَرُ مِنْ ذَلِكَ : تَهْدِيَ ابْنَ الْقَيْمِ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ :

«وَمَنْ ذَاقَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَعَرَفَ طَرِيقًا مُوَصَّلًا إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تَرَكَهَا وَأَقْبَلَ

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لأبن الجوزي (٢٧٠).

على إرادته وراحاته وشهوته ولذاته؛ وقع في آثار المعايير وأذى قلبه سجون المضائق وعذب في حياته عذاباً لم يعذب به أحد من العالمين؛ فحياته عجز وغم وحزن، وموته كدر وحسرة، ومعاده أسف وندامة، قد فرط عليه أمره وشئت عليه شمله، وأحضر نفسه العموم والأحزان؛ فلا لذة الجاهلين ولا راحة العارفين، يستغيث فلا يعات ويستكبي فلا يشتكى، فقد ترجلت أفراحه، وسروره مدبرة، وأقبلت آلامه وأحزانه وحرساته، فقد أبدل بأنسيه وحشة، وبعزم ذلاً، وبغناه فقراً وبجمعيته تشتيتاً، وأبعدوه فلم يظفر بقربهم، وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا؛ ذلك بأنه عَرَفَ طريقه إلى الله ثم تركها ناكباً عنها مكبباً على وجهه؛ فأبصر ثم غمي، وعَرَفَ ثم انكر، وأقبل ثم أذبر، ودُعِيَّ بما أجاب، وفتح له فؤالى ظهره الباب، قد ترك طريق مولاه وأقبل بكلئته على هواه، فلو نال بعض حظوظه وتلذذ براحتاته وشوارعه؛ فهو مقيد القلب عن انتلاقه في فسيح التوحيد، وميادين الأنس، ورياض المحبة، وموانيد القرب.

قد انحط بسبب إعراضه عن إلهه الحق إلى أسفل سافلين، وحصل في عداد الهاكين؛ فثار الحجاب تطلعاً كلّ وقت على فواهه، وإعراض الكون عنه - إذا أعرض عن ربّه - حائل بينه وبين مراده، فهو قبر يمشي على وجه الأرض، وروحه في وحشة من جسمه، وقلبه في ملأى من حياته، يتمئن الموت ويشتهيه ولو كان فيه ما فيه، حتى إذا جاءه الموت على تلك الحال - والعياذ بالله - فلا تسأل عما يحلّ به من العذاب الأليم، بسبب وقوع الحجاب بينه وبين مولاه الحق، وإحراقه بنار البعير عن قربه والإعراض عنه، وقد جعل بينه وبين سعادته وأمنيته.

فلو توهمَ العبدُ المُسْكِنُ هذه الحال وصُورَتْها له نفْسُهُ وأرْتَهُ إِيَّاهَا على حقيقتها؛ لِتَقْطَعَ - والله - قلْبُهُ، ولم يلتَدْ بِطَعَامٍ ولا شَرَابًا، ولِخَرْجَ الْحَرَجِ على الصُّعُدَاتِ يَجَازُ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْيِثُ بِهِ وَيَسْتَغْتِيَ فِي زَمِنِ الْاسْتَعْتَابِ، هَذَا مَعَ أَنَّهُ إِذَا آتَى شَهْوَاتِهِ وَلَذَائِبِهِ الْفَانِيَةِ الَّتِي هِيَ كَخَيَالٍ طَيفٍ أَوْ مُزَيْنَةَ صَيْفٍ؛ تَعْصَمُ عَلَيْهِ لَذَائِبُهَا أَحْرَجَ مَا كَانَ إِلَيْهَا، وَجَيَّلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا أَقْدَرَ مَا كَانَ عَلَيْهَا، وَتَلَكَ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ كَمَا قَالَ - تَعَالَى - : «**حَسْنَةٌ إِنَّمَا تَخْدَدُ أَنْدَادَ الْأَرْضِ رُتْخَرْفَهَا وَأَزَيْنَتْ وَظَرَبَ أَهْلَهَا أَنْتَهُمْ قَدِيرُونَ عَلَيْهَا أَنْتَهَا أَمْرُنَا لَيَنْلَا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمَّا تَقْرَبَ إِلَيْهِنَّ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْتَكِرُونَ» [بونس: ٢٤].**

وَهَذَا هُوَ غَيْبُ إِعْرَاضِيهِ وَإِيَّاثِ شَهْوَتِهِ عَلَى مَرْضَاهِ رَبِّهِ، يَعُوقُ الْقَدْرُ عَلَيْهِ أَسْبَابَ مَرَادِهِ فَيُخْسِرُ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، فَيَكُونُ مَعْذِلًا فِي الدُّنْيَا بِتَنْعِيْصِ شَهْوَاتِهِ وَشَدَّدَةِ اهْتِمَامِهِ بِطَلْبِ مَا لَمْ يُقْسِمْ لَهُ، وَإِنْ قُسِّمَ لَهُ مِنْهُ شَيْءٌ فَحَشُوشَةُ الْخُوفِ وَالْحُزْنِ وَالنَّكَدُ وَالْأَلَمُ؛ فَهُمْ لَا يَنْقُطُعُونَ، وَحَسْرَةُ لَا تَنْقُضُهُ، وَجِرْحَصُ لَا يَنْقَذُ، وَذُلُّ لَا يَتَهَيِّئُ، وَطَمْعٌ لَا يُقْلِعُ.. **هَذَا فِي هَذِهِ الدَّارِ.**

وَأَمَّا فِي الْبَرْزَخِ فَأَضْعَافُ أَضْعَافِ ذَلِكَ : قَدْ حَيَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهِي، وَفَاتَهُ مَا كَانَ يَتَمَنَّاهُ مِنْ قُرْبِ رَبِّهِ وَكَرَامَتِهِ وَتَلِيلِ ثَوَابِهِ، وَأَخْضِرَ جَمِيعَ غَمْوِيهِ وَأَحْزَانِهِ. **وَأَمَّا فِي دَارِ الْجَزَاءِ :** فَسَجْنُ أَمْثَالِهِ مِنَ الْمَبْعُودِينَ الْمَطْرُودِينَ. وَأَغْوَتَاهُ ثُمَّ وَأَغْوَثَاهُ بِغَيَّبَاتِ الْمُسْتَغْيِشِينَ وَأَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. فَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ بِالْكُلُّيَّةِ أَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْكُلُّيَّةِ، وَمَنْ أَعْرَضَ اللَّهَ عَنْهُ لِزِيمَةِ الشَّقَاءِ وَالْبُؤْسِ وَالْبَخْسِ فِي أَحْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ، وَقَارَنَهُ سُوءُ

الحال ، وفساده في دينه وما فيه ، فإنَّ الرَّبِّ إذا أعرضَ عنِّي جهْةً ؛ دارت بها الثُّحُوس ، وأظلمت أرجاؤها ، وانكَسَفت أنوارُها ، وظهرت عليها وحشةُ الأعراض ، وصارت مأوى للشياطين ، وهدفًا للشُّرور ، ومصباً للبلاء .

فالمحروم كُلُّ المحروم من عَرَفَ طرِيقاً إليه ثم أعرض عنها ، أو وجد بارقةً من حُبِّه ثم سلبها لم ينقد إلى رَبِّه منها ، خصوصاً إذا مَآلَ بتلك الإرادة إلى شيءٍ من اللذات ، وانصرف بِجُمْلَتِه إلى تحصيل الأغراض والشهوات ، عاكفاً على ذلك في ليله ونهاره وعُدُوه ورواجه ، هابطاً من الأوج الأعلى إلى الحضيضِ الأدنى ، قد مَضَتْ عليه بُرْهَةٌ من أوقاته وكان همَّه اللَّهُ وبُغْيَتِه قُزْبَهُ ورِضَاهُ وإيثاره على كُلِّ ما سواه ، على ذلك يُصبحُ ويمسي ويَظَلُّ ويُضْجِي ، وكان اللَّهُ في تلك الحال وَلِيَهُ ؛ لأنَّه وَلِيَهُ من تولاه وحبيبٌ من أحبه ووالاه ؛ فأصبح في سجن الهوى ثاوياً وفي أسر العدو مُقيماً وفي بُثِّ المعصية ساقطاً ، وفي أودية الحيرة والتفرقة هائماً ، مُغرياً عن المطالب العالية إلى الأغراض الخسيسة الفانية ، كان قلبه يحوم حول العرش ؛ فأصبح محبوساً في أسفلِ الحُشْ :

فَأَضَبَّخَ كَالبَازِي الْمُتَئِفَ رِيشَهُ يَرَى حَسَرَاتِ كُلُّهَا طَائِرَ
وَقَدْ كَانَ ذَهْرًا فِي الرِّيَاضِ مُتَعَمِّداً عَلَى كُلِّ مَا يَهْوَى مِنَ الصَّنِيدِ قَادِرًا
إِلَى أَنْ أَصَابَتْهُ فِي الدَّهْرِ نَكْبَهٌ إِذَا هُوَ مَقْصُوصُ الْجَنَاحَيْنِ حَاسِرٌ
فِيَمْنَ ذَاقَ شَيْئًا مِنْ مَعْرِفَةِ رَبِّهِ وَمَحِبَّتِهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عنْهَا وَاسْتَبَدَّ بِغَيْرِهَا
مِنْهَا ، يا عجباً لَه بَأْيُ شَيْءٍ تَعَوَّضُ ، وكيف قَرَرَه فَمَا طَلَبَ الرُّجُوعَ
إِلَى أَخْيَيْهِ وَمَا تَعَرَّضَ . وكيف اتَّخَذَ سُوئِي أَخْيَيْهِ سَكَنَا ، وَجَعَلَ قَلْبَه لِمَنْ

عاده مولاه من أجله وطننا . أم كيف طاوعه قلبه على الاصطبار ، ووافقه على مساقته الأغيار .

فيا مُغرضًا عن حياته الدائمة ونعميه المقيم ، وبما يائعا سعاداته العظمى بالعذاب الأليم وبما مُسخطا من حياته وراحته وفوزه في رضاه ، وطالبا رضي من سعادته في إرضاء سواه ؛ إنما هي لذة فانية وشهوة مُنقضية تذهب لذاتها وتبقى ثباتها ، فرخ ساعة لا شهر ، وغم ستة بل ذهر ، طعام لذيد مسموم أو له لذة وأخره هلاك ، فالعامل عليها والساعي في تحصيلها كذوبة الفرز يُسدد على نفسه المذاهب بما تَسجح عليها من المعايير ، فيندم حين لا تنفع التدامة ، ويستقيل حين لا تقبل الاستقالة .

قطُونى لمن أقبل على الله بكلتى وعَكَفَ عليه بيارادته ومَحِبَّته ؛ فإن الله يقبل عليه بتوليه ومحبته وعطفه ورحمته ، وأنَّ الله - سبحانه - إذا أقبل على عبد استنارت جهاته ، وأشرقت ساحتاته ، وتنورت ظلماته ، وظهرت عليه آثار إقباله من بهجة الجلال وأثار الجمال ، وتوجه إليه أهل الملا الأعلى بالمَحَبَّة والمَوَالَة لأنهم تبع لمولامهم ، فإذا أحب عبداً أحبوه ، وإذا والي ولها والوه ، إذا أحب الله العبد نادى : يا جبرائيل إني أحب فلانا فأحبه ، فینادي جبرائيل في السماء : إن الله يحب فلانا فأحبه . فيحبه أهل السماء ثم يحبه أهل الأرض ، فيوضع له القبول بينهم ^(١) ، ويجعل الله قلوب أوليائه تُقْدُ إلىه باللُّوَّد والمَحَبَّة والرَّحْمَة ، ونَاهِيكَ بِمَن يتوجه إليه مالِكُ الْمُلْكِ ذو الجلال والإكرام بمَحِبَّته ، ويقبل

(١) متفق عليه : البخاري (٣٢٠٩) ، ومسلم (٢٦٣٧) .

عليه بأنواعِ كرامته ، ويلحظة الملا الأعلى وأهل الأرض بالتجليل والتكريم ، وذلك فضل الله يُؤتى به من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم «^(١)» .

أخي الحبيب .. إله لتهدي د رعيب .. يذكره لك ابن القيم الأريب ..
 وأنك مِمَن ينفعه التهديد .. فإنه صوت يسوقك إلى الله - تعالى .
 استعين بالله وانطلق .. ولن أدعك .. اطمئن ؛ فانا أحبوك في الله ،
 وسأغود إليك قريبا ؛ لنواصل السير ..

وصيتي : احفظ الله تجده تجاهلك .. أنت ود عك الله الذي لا تضيئ
 عنده الودائع .. ولقاونا قريب - إن شاء الله وقدر ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وصلنا الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه
 والتبعين لهم بإيمان وإحسان إلى يوم الدين
 وأآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

yaqob.com

(١) طريق الهجرتين (١٧٤ - ١٧١).

مِشْكُ الْخِتَام

يَا وَاهِبَ الْمَوَاهِبِ ، وَمُجْزِلَ الرَّعَابِ .. أَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّزُولِ
بَعْدَ الْوُصُولِ .. وَمِنَ الْكَدَرِ بَعْدَ الصَّفَا .. وَمِنَ الشَّوْقِ بَعْدَ
 الْأَثْسِ .. وَمِنْ طَائِفِ الْحَسْنَةِ لِغَارِضِ الْفَتْرَةِ .. وَمِنْ تَعَبِّيرِ
 الرَّضَا .. وَمِنَ التَّخْلُفِ عَنِ الْحَادِي لَخَطْهَةِ .. أَوْ إِلَيْمَانِ دُونَ
 الْعِلْمِ .. وَمِنْ مَوْقِعِ حَدَرٍ يُوجَبُ لِلْعَقْلِ بُطْنَا - يَا رَبَّ - حَتَّى
 تَكُمُلَ النَّعْمُ عِنْدِي .. وَرَقٌ فِي ذَرَى الْكَرَامَةِ مُهْجَجِي .. وَنَصْرٌ
 لِلَّهُمَّ بِالْكَمَالِ لَدَنِيَكَ بِهْجَجِي .. وَغَرْفَنِي عَنِ الدُّونِ .. وَوَارِ
 عِلْمِي عَنِ الْخَاطِرِ .. يَا مَنْ مَنَحَ الْأَضْفَيَاءَ مَنَازِلَ الْحَقِّ وَمَدَى
 الْغَایَاتِ .. أَضْفَى هَدَائِي مِنْ دَنَسِ الْغَارِضِ .. وَاحْسِنْ عَدُوِّي
 عَنْ مُلَاحَظَتِي .. وَأَخْلَصَنِي بِكَمَالِ رَغْبَتِي .. وَبِمَا لَا يَنْلَعُهُ
سُؤَالِي .. إِنَّكَ رَحِيمٌ وَدُودٌ .



الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة الطبعة الثانية
٩	مقدمة الطبعة الأولى
١١	تمهيد
١١	■ ومضات على طريق السير إلى الله :
١٦	الرُّمْضَةُ الْأُولَى : شُرُوطُ الطَّرِيقِ :
١٦	أولاً : الدليل
١٧	- طبيعة الطريق
٢٣	ثانياً : الصاحب
٢٥	- رفقة الطريق
٢٧	الرُّمْضَةُ الثَّانِيَةُ : حَدَّذْ هَدَفَكَ
٢٩	الرُّمْضَةُ الثَّالِثَةُ : مُقَوِّماتُ السَّفَرِ
٣٢	الرُّمْضَةُ الرَّابِعَةُ : وَتَزَوَّدُوا
٣٣	- سَبِيلُ التَّزَوُّدِ :
٣٣	١ - التَّوْحِيدُ وَالإِيمَانُ
٣٤	٢ - الْيَقِينُ
٣٥	٣ - التَّقْوَى
٣٦	٤ - الإِخْلَاصُ

٣٦	٥ - الخيبة
٣٧	٦ - الصبر
٣٩	■ آفات على الطريق :
٤٠	الأفة الأولى : الخوف من وحشة التفرد
٤١	الأفة الثانية : فضول الكلام والخلطة
٤١	الأفة الثالثة : الثق المظلوم
٤٢	الأفة الرابعة : جسرا على الطريق
٤٩	■ استراحة المسافر :
٥٢	* تزويحات على جنبات الطريق :
٥٢	* علوم ليست في الكتب
٥٢	* المداراة .. والسر
٥٢	* اختبارات
٥٤	* وتحك .. وتحك
٥٥	* أذمني دينه بأظفار شوكا
٥٦	* سبات المواعظ
٥٧	* اطلبوني في المقابل
٥٨	* من شعر العضر الذهبي
٥٩	* الأخطر
٥٩	* قصبة الحياة والسكنان
٦٠	* ديك سهل بن هارون
٦٢	■ كلمة أخيرة :
٦٧	أصول الوصول إلى الله تعالى

- الأصل الأول** : عليك البداية وعليه التمام ٦٩
- الأصل الثاني** : كن واحداً لواحد على طريق واحد ٧٦
- الأصل الثالث** : ما لا يكون بالله لا يكون ،
وما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم ٨٨
- الأصل الرابع** : الشكر أساس المزید ١٠٠
- الأصل الخامس** : اثلك عصا التخویلة ١٠٨
- الأصل السادس** : يومك يومك ١١٠
- الأصل السابع** : ولیس غک بیٹک ١١٨
- الأصل الثامن** : الصادق حبیب الله ١٢٤
- الأصل التاسع** : ذوماً في المعاملة السُّخْبُ من الرَّصِيد ١٣٦
- الأصل العاشر** : القرآن قائد وسائل وحاد ١٤١
- الأصل الحادي عشر** : لا تلبس ثياب الفراغ أثناء العمل ١٥٠
- الأصل الثاني عشر** : في الطريق موافق للتميز ١٥٥
- الأصل الثالث عشر** : الاعتصام بالله عقيدة وعمل ودعاء ١٥٩
- الأصل الرابع عشر** : من استطال الطريق ضعف مشيه ١٦٦
- الأصل الخامس عشر** : السر الأيقين بعدم القبول ١٧٢
- الأصل السادس عشر** : الأمر كله بيده الله ؛ فسلّم تسليماً ١٧٧
- الأصل السابع عشر** : دليل عدم رضاك عنك عدم رضاك عنه ١٨٤
- الأصل الثامن عشر** : إياك أن تُنكِّر به فينكِّر بك ١٩٣
- الأصل التاسع عشر** : اجن العسل ولا تُكسر الخلية ٢٠٦

الأصل العشرون : «وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لِعَلْكُمْ تَذَكَّرُونَ فَيَرُوا إِلَى اللَّهِ»	٢٣٨
الأصل الحادي والعشرون : مَنْ صَفَّيْنِ صَفَّيْ لَهُ ، وَمَنْ كَدَرَ كَدَرَ عَلَيْهِ	٢٦٤
الأصل الثاني والعشرون : لَا تَنْجَاهُنَّ جَانِبًا وَاحِدًا مِنْ جَوَانِبِ الدِّينِ	٢٦٩
الأصل الثالث والعشرون : أَنْجِزْ كُلًّا يَوْمَ شَيْئًا جَدِيدًا	٢٨٢
الأصل الرابع والعشرون : كُفْ عن السُّكُوكِ وَابْدِلْ العَلاجِ	٢٨٦
الأصل الخامس والعشرون : لَيْسَ الشَّأْنُ أَنْ تُحِبَّهُ ؛ إِنَّمَا الشَّأْنُ أَنْ يُحِبَّكِ	٢٩١
الأصل السادس والعشرون : كُلُّ مَتَاعٍ فِي الدُّنْيَا يَسْخَبُ مِنْ رَصِيدِكِ فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ	٣٠٦
الأصل السابع والعشرون : الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحِبَّ ؛ فَاخْتَرْ حَبِيبَكِ مِنْ هَاهُنَا	٣١٧
الخاتمة	٣٢٥
مسنُكُ الْخِتَامِ	٣٣١
الفِهْرِيسُ	٣٣٢

